



هوسى (عليه السلام)

بين الكتاب والسنة

المجلد الاول

آية الله العظمى الدكتور محمد الصادق الطهرانى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧

موسى عليه السلام (بين الكتاب والسنة) (ج ٢٥)

من نبأ موسى وفرعون بالحق

هذه من الطواسين الثلاث في حروفها الثلاثة المقطعة، وتمثال القصص مع الشعراء في «طسم. تَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» يجعل السورتين متشابهتي الأهداف، ومنها قصص موسى المسرودة هنا بصورة مفصلة أكثر مما في الشعراء، وعلها لذلك تتسمى بالقصص حيث الجو الغالب عليها القصص وكأنها سورة موسى إذ تأتي بصورة ووضاءة لموسى منذ الولادة حتى الرسالة وإلى نهاية أمره، وهي تقدمات وطمانينات للرسول محمد صلى الله عليه و آله كأصل تتمحوره السورة في قصصها، انتقالاتا حثيثا من الرسالة الموسوية بآياتها إلى الرسالة المحمدية بآياتها الخالدة القرآنية.

تنزل القصص في مكة والمسلمون قلة مستضعفة والمشركون ثلة قوية مستكبرة، ولكي يطمئن المؤمنون القلة يأتي بسرد شامل لقصص موسى وفرعون وقارون، ليعرفوا أن ليست القوة مع الجاه والمال والمنال، بل إنما القوة لله ولا حول ولا قوة إلا بالله. و آية الوعد لرده صلى الله عليه و آله إلى معاد آية أنها نزلت في أخرج المواقف لرسول الهدى، فلم تنته السورة إلا وقد أخرجوه فأخرجوه عن أم القرى، فكما الله رد موسى إلى أمه: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ» كذلك نردك إلى أم القرى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٨٥) و اين رد من رد؟.

طسم ١ تَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨

الأوليان من هذه الثلاث مفسرتان في الشعراء، و «نتلوا» في الثالثة من التلاوة القراءة لتتلوا متابعة ككل ومنها القراءة على الكل، والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، و «من» تبعضه عناية إلى أهم الحلقات من ذلك النبأ كما هو اللائق بالذكر الحكيم، وهنا التلو عليه هو الرسول صلى الله عليه و آله لكي يتلوه على كل المرسل إليهم، ولكنه بالأمل «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فمن آمن من قبل يزداد به إيمانا واطمئنانا، و من يتحرى عن إيمان ولما يؤمن- إذ فيه مادة الإيمان وقابليته- فهو يكسب إيمانا، و «يؤمنون» يشملهما.

أجل وإن هذه التلاوة لذلك النبأ تلقي ظلال العناية والاهتمام التام «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، دون الذين «سَاءَ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» وهذه تكرمة ربانية «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أن الله يتلوا الأنباء الرسالية على رسوله لأجلهم لأنهم هم المستفيدون، و كما القرآن ككل «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» مهما كان القصد منه هداهم أجمعين كحجة على كافة المكلفين، كذلك أنباءه الرسولية والرسالية هي «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» والآخرون هم الخاسرون، و «بالحق» هنا قد تتعلق ب «نَتْلُو .. نَبَأٍ .. يُؤْمِنُونَ» نتلوا بالحق- نبأ موسى وفرعون بالحق- لقوم يؤمنون بالحق، والباء هنا تعم السببية والمصاحبة، تلاوة النبأ لقوم يؤمنون في مثلث الحق.

نبأ موسى يبدأ في الأغلب من حلقة الرسالة، وهنا يبدأ من الولادة إلى الرسالة وإلى النهاية، فانه عرض كامل كافل شامل كل الحلقات الحيوية لموسى، والعمليات المضادة من فرعون، لتصبح درسا حافلا «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

و ليعلموا أن الشرحين يتمخض ويتمحض يحمل هلاكه ودماره في نفس ذاته، إذ تتدخل القدرة الرحيمة الربانية لتأخذ بأيدي المستضعفين فتجعلهم أئمة وتجعلهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩

الوارثين، وهنا حلقات خمس من عرض النبي بين قصيرة وطويلة كلها قاصدة راشدة، حلقة المولد وما أحاط به من قاسية راسية فرعونية، وعناية ربانية، ثم حلقة الفتوة وملايساتها في الجو الفرعوني، ثم حلقة النداء الرسالية، ومن ثم مواجهة فرعون الطاغية، ثم العاقبة للمتقين غرقا لفرعون بجنوده واستخلافا لموسى بجنوده، ولكل حلقة مشاهدتها العدة: خمسة ثم تسعة ثم اربعة، بينها فجوات وحلقات ومشاهد، ما يثير العجب من دقة الأداء الفني للقصة.

و الأوليان هما الجديدتان في هذا العرض العريض، إذ تكشفان عن مدى تحدي القدرة الفرعونية، إخفاقا لصوت الحق وإخمادا لثائرته في زنده، ثم مدى القدرة الإلهية حيث تربي قاصم ظهر فرعون في حجره:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤.

إن الإفساد الفرعوني هنا مبني على قواعد خمس مهما اختلفت دركاتهما:

العلو في الأرض- جعل أهلها شيعة- استضعاف طائفة منهم- تذبيح الأبناء- استحياء النساء، مهما كانت الأربعة الأخيرة من خلفيات الأولى.

إن العلو في الأرض وجعل أهلها شيعة، واستضعاف الشعوب، هي من شيمة الطغاة الشنيعة على مدار الزمن، فلما ذا بعد تذبيح الأبناء واستحياء النساء: إبقاءهن أحياء للخدمة، وإزالة حياءهن؟

لا بد وأن تكون هناك خوفا هارعة من الأبناء الاسرائيليين في ذلك التصميم العميم لإبادتهم، استبقاء للسلطة الفرعونية وكما يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله وأهل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠

بيته الكرام عليهم السلام: «.. فان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يده (موسى) امر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه وانه يكون من بني إسرائيل ولم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفا وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى إياه ..» «١».

(١). بحار الأنوار ٥١: ٢١٩- / حديث حافل لمولد الامام المهدي (عج) و طول غيبته و ان فيه سنن الأنبياء و حدو النعل بالنعل

و القذة بالقذة عن الكافي بسند متصل عن سدير الصيرفي قال دخلت انا و المفضل بن عمر و ابو بصير و ابان بن تغلب على مولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فرأينا جالسا على التراب و عليه مسيح خيري مطوق بلا جيب مقصر الكمين و هو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرى قد نال الحزن من وجنتيه و شاع التغير عارضيه و ابلى الدموع محجريه و هو يقول:

سيدي! غيبتك نفت رقادي و ضبقت عليّ مهادي و أسرت مني راحة فؤادي، سيدي! غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد و فقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع و العدد، فما أحسّ بدمعة ترقى من عيني، و أنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا و سواف البلايا إلا مثل لعيني عن عوارير أعظمها و أفظعها و تراقي أشدها و أنكرها و نواب مخلوطة بغضبك، و نوازل معجونة بسخطك؟.

قال سدير: فاستطارت عقولنا و لها و تصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب الهائل و الحدث الغائل و ظننا انه سمة لمكروهة قارعة أوصلت به من الدهر باثقة فقلنا لا أبكى الله يا ابن خير الورى عينيك من اي حادثة تستنزف دمعتك و تستمطر عبرتك و اية حالة حتمت عليك هذا المآثم؟

قال: فوفر الصادق (عليه السلام) زفرة انتفخ منها جوفه و اشتد منها خوفه و قال: ويلكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم و هو الكتاب المشتمل على علم المنايا و البلايا و الرزايا و علم ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله تقديس اسمه محمدا و الأئمة من بعده عليه و عليهم السلام و تأملت فيه مولد قائمنا و غيبته و إبطاءه و طول عمره و بلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان و تولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته و ارتداد أكثرهم عن دينهم و خلعتهم ربة الإسلام من أعناقهم التي قال الله تقديس ذكره «وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزُمنًا طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ» يعني الولاية، فأخذتني الرقة و استولت عليّ الأحران فقلنا: يا ابن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كرمنا و شرفنا بإشراكك إيانا في بعض ما أنت تعلمه من علم- / قال: إن الله تبارك و تعالی أدار في القائم منا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل، قدر مولده تقدير مولد موسى (عليه السلام) و قدر غيبته تقدير غيبة عيسى (عليه السلام) و قدر إبطاءه تقدير إبطاء نوح (عليه السلام) و جعل من ذلك عمر العبد الصالح اعني الخضر (عليه السلام) دليلا على عمره- / فقلت: اكشف لنا يا ابن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عن وجوه هذه المعاني- / قال: اما مولد موسى (عليه السلام) فإن الله لما وقف ... كذلك بنو امية و بنو العباس لما وقفوا على ان زوال ملكهم و الأمراء و الجبابرة منهم على يد القائم منا ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل آل بيت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و اباده نسله طمعا منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) و بأبي الله ان يكشف امره لواحد من الظلمة إلا ان يتم نوره و لو كره المشركون- / و اما غيبة عيسى (عليه السلام) ... وفي نور الثقلين ٤: ١١٣ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان يوسف بن يعقوب عليهما السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب و هم ثمانون رجلا فقال: ان هؤلاء سيظهرون عليكم و يسومونكم سوء العذاب و انما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد آدم فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران و يسمي عمران ابنه موسى، فذكر ابان بن عثمان أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) انه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذابا من بني إسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انهم يرجفون به و يطلبون هذا الغلام فقال له كهنته و سحرته ان هلاك دينك و قومك على يدي هذا الغلام يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء و قال: لا يولد العام ولد إلا ذبح و وضع على ام موسى قابلة ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١

إن العلو في الأرض باستعلاء غاشم ظالم، واستبداء خاتق جاشم، يخلف نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، وويلات وويلات في دويلات مستعلبة وسلطات متخلفة عن الحق، وليس فاسد العلو في الأرض يختص بالفرعوني وأضرابه، بل والدينون ايضا لا يحق لهم أيّ علو، فذلك علو أمام الله، وهذا علو أمام خلق الله وكلاهما مرفوضان في شرعة الله: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» (٢٨: ٨٣) فإذا كانت ارادة العلو في الأرض

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢

تتعارض الدار الآخرة، فأحرى نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، فبمجرد ان الطاغية أحس - ولما يلمس - أن هناك خطرا يحدق بملكه من إسرائيل، وهم مئات الألوف لا يمكن نفيهم عن البلاد، ولا القضاء عليهم أجمع، ابتكر حينذاك طريقة همجية جهنمية للقضاء على الخطر المحسوس من هذه الطائفة المنسجمة، غير المعتقدة في ربوبيته الأعلى من نواحي أربع: أن (١) جعل أهلها شيعاً (٢) يستضعف طائفة منهم - (٣) يدبج أبناءهم - (٤) ويستحيي نساءهم -»

٥- «إِنَّهٗ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» ومن خلفيات العلوّ النحسة جعل الآهليين في أرض شيعا متفرقين ليدوق بعضهم بأس بعض، فهم «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا» (٣٠: ٣٢) و بنس اللباس لباس الشيع للمجتمع: «أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَ يُدَبِّقُ بَعْضُكُمْ بِأَسِّ بَعْضٍ» (٦: ٦٥) (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيعِ الْأَوَّلِينَ» (١٥: ١٠) (وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» (٥٤: ٥١)، فالشيع والأشيعاء في الدين والدينين ما يزيعه الدين الحق، اللهم إلّاشيعه الحق بلا أشيعاء متخلفين عنه أو مختلفين فيه، وهذه شيطنة مدروسة من الطاغية في علوه ان «جَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا» متفرقين وهو من باب فرق تسد، وبالإمكان حينئذ أن يستضعف كلّ الشيع، مهما كان استضعافهم دركات، وقد كان من أسفلها استضعاف بني إسرائيل، وكما «استخف قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ».

فلقد فرق- فيمن فرق بينهم من القاطنين في مصر- شعب إسرائيل، حيث استقدم يوسف من قبل أبويه وإخوته وأهله أجمعين من كنعان إلى مصر فتكاثروا وأصبحوا شعبا كبيرا، فأخذت النعرة القومية والطائفية الفرعونية يجعلهم شيعا كما جعل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣

الآخرين كذلك شيعا، وكان أشد الاستضعاف على هؤلاء الذين كان يخافهم على عرشه، فنفرت كلمة بني إسرائيل أيادي سبا واستفاد الطاغية بشيعهم أن أخذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم «إِنَّهٗ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ». تذيبح الأبناء كان يعم شق بطون الحوامل من بني إسرائيل أم ذبح الولائد بعد الولادة حيث ما ثقفوا، واستحياء النساء من الحياة إبقاءً لهن بشأن الخدمات الإجبارية منزلية وسواها، ومن الحياء إزالة لحيائهن في الدعارات، فقد كانت هذه لهن استحياء أشر من تذيبحن، ثم الرجال الذين فقدوا أبناءهم ونساءهم أمرهم أمرٌ وأنكى، وذلك ثلوث العذاب بحق الشعب الإسرائيلي بعد عذاب الشيع فيهم والعداء الشائع بينهم.

هذه هي خماسية المخططات الفرعونية الجهنمية تدميرا لهذا الشعب عن بكرته ولكيلا يطلع موسى كما أرادها فرعون بجيله ورجله تجنيدا لكل حيله، ولكن الله يريد غير ما يريده الطاغية ولا يكون إلّاما أراد الله مهما قويت الداهية الدهياء، من الطاغية اللعناء: وَ نُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ وَ نُكَيِّبَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُري فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْتَدِرُونَ ٦. هؤلاء المستضعفون المضغوطون تحت أنيار الظلم وأنياب العَضِّ الفرعوني،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤

المردّلون المعذبون بألوان العذاب «١» يريد الله أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم في الأرض ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون من السلطة الموسوية، أباد جليلة من فرعون وملأه، ويد خفية من رب العالمين تتصارعان، وبطبيعة الحال لا تصرع إلّاأيادي فرعون بجنوده حيث «نَبْدَأُهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ» (٥١: ٤٠).

و هذه الإرادة المستمرة «و نريد» ليست لتختص مستضعفي بني إسرائيل، بل هي متواصلة- قضية العدل والرحمة الربانية- على مدار الزمن غابرا وحاضرا وإلى يوم النشور، مهما اختلفت درجاتها حسب مختلف الفاعليات والقابليات والظروف المقتضية لتحقيق إرادة الله، فكما أن «نريد» هنا حكاية لحال ماضية، كذلك هي إخبار للحال والأحوال المستقبلية بعد الماضية.

و أفضل المستضعفين هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم آلاف سلام وتحية، وكما يروى عن الامام علي عليه السلام: «لتعظفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها» «٢»، ف «هم آل محمد صلى الله عليه و آله يعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويدل عدوهم» «٣».

(١). الدر المنثور اخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية: قال: يوسف و ولده

(٢). نهج البلاغة .. و تلا عقيب ذلك «و نُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» و رواه مثله السيدالرضي في الخصائص عن الصادق (عليه السلام) عنه (عليه السلام).

(٣). نور الثقلين ٤: ١١٠ كتاب الغيبة للشيخ الطوسي باسناده الى محمد بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في الآية قال: ... وفيه عن اصول الكافي عن أبي الصباح الكناني قال: نظر ابو جعفر إلى أبي عبد الله عليهما السلام بمشي فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عز و جل: و نريد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥

اجل والقائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين هو آخر هؤلاء المستضعفين وله المن «١» الأوفر من الإمامة وخلافة الأرض اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه ..

وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله مخاطبا إياهم عليهم السلام: أنتم المستضعفون بعدي

(١). المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى حكيمة قالت: لما كان اليوم السابع من مولد القائم (عليه السلام) جئت إلى أبي محمد (عليه السلام) فسلمت عليه و جلست فقال: هلمي إليّ ابني فجئت بسيدي و هو في الخرقه ففعل به كفعله الأول ثم ادلى لسانه في فيه كأنما يغذيه لبنا و عسلا ثم قال: تكلم يا بني قال: اشهد ان لا إله إلا الله و ثنى بالصلاة على محمد و علي و على الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين حيث وقف على أبيه (عليه السلام) ثم تلا هذه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَ نُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ...».

وفي تفسير البرهان ٣: ٢١٩ روى العياشي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال و الذي بعث محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) بالحق بشيرا و نذيرا إن الأبرار من أهل البيت و شيعتهم بمنزلة موسى و شيعته و ان عدونا و أشياعه بمنزلة فرعون و أشياعه.

وفيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة عليها السلام بسند متصل عن زاذان عن سلمان قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) /- و فيه تفصيل اسماء الأئمة الاثني عشر الى ان قال (صلى الله عليه و آله و سلم): ... ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ثم يا سلمان انك مدركه و من كان مثلك و من توالاه بحقيقة المعرفة، قال سلمان فشكرت الله كثيرا ثم قلت يا رسول الله و اني مؤجل الى عهده؟ قال يا سلمان اقرء: فإذا جاء وعد أولاهما ... قال سلمان فاشتد بكائي و شوقي ثم قلت يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بعهد منك؟ فقال: اي و الله الذي أرسل محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) بالحق مني و من علي و فاطمة و الحسن و الحسين و التسعة عليهم السلام و كل من هو منا و مضام فينا اي و الله يا سلمان و ليحضرن إبليس و جنوده و كل من محض الايمان محضا و محض الكفر محضا حتى يؤخذ بالقصاص و الأوتار و الأثوار «وَ لَا يظَلْمُ رَبُّكَ أَحَدًا» و تحقق تأويل هذه الآية «وَ نُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ .. يَحْدُرُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦

«...» «١».

و ذلك الاستضعاف الذي يقتضي الرحمة الخاصة الإلهية بمنح الإمامة ووراثة الأرض ليس استضعافا روحيا عقائديا، وإنما هو الضغط عليهم في تحقيق الشرعة الإلهية كيلا تتحقق كما تحق، فلا تقصير منهم في هذا المجال، فحياتهم الإيمانية هي حياة التقية حتى يأتي الفرج من الله بما قدموا من ظروفه المواتية له.

و هكذا يعلن ربنا في هذه الإذاعة القرآنية أن حياة الفرعة الطاغية لا تدوم، إعلانا صارخا بواقع الحال وما هو مقدر في الآمل عاجلا أم آجلا، أن تقف القوات وها لوجه، ففوة الله هي التي تهوى دونهما كل القوى فانه شديد القوى.

و ترى «الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ» هنا هم كل المستضعفين في التاريخ الرسالي؟ ومنهم مقصرون ظالمون موعودون بالنار: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» (٤: ٩٧).

و منهم قاصرون «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَفْوًا عَفُورًا» (٤: ٤):

(١). المصدر في كتاب معاني الأخبار باسناده الى محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول:

ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) نظر إلى علي و الحسن و الحسين عليهم السلام فبكى و قال: أتم المستضعفون بعدي- قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك يا ابن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال:

معناه انكم الأئمة بعدي ان الله عز و جل يقول: «و نُريدُ أَنْ نَمُنَّ...» فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧

(٩٩) فمن لا يستطيع حيلة و لا يهتدي سبيلا كيف يصبح من أئمة المؤمنين؟

انهم هم المظلومون تحت أنيار الظلامات والظلمات، حيث يتبلور إيمانهم وتقوى هداهم وتقواهم، مهما اختلفت درجاتهم ومن أدناهم القاصرون، فالأئمة منهم هم القادة الهداة الى الله.

و كما الإمامة والوراثة للمستضعفين درجات حسب القابليات والمعطيات، كذلك أرض التمكين لهم درجات، من أرض مصر أو ما والاها للأئمة الإسرائيليين، اما هيه من أرض بعدها، ومن كل الأرض كما في دولة الامام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

و قد دلت آية النور على ذلك التمكين المكين، الرصين الأمين «... وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...».

و هم الورثة والذين يعيشون تحت إمرتهم أولاء، وقد جمعت بينهما آية الأنبياء «١» والنور «٢»: أن ارادة المن المستمرة لهؤلاء المستضعفين تتمحور قواعد اربع هي «وَ نَجْعَلُهُمْ أُتَمَّةً» وهم الرعيل الأعلى منهم «وَ نَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ» وهي تجمع المأمومين الى هؤلاء الأئمة، كما «وَ نَمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِي فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ» حيث يرى كل فراعنة التاريخ و جنودهم من هؤلاء الأكارم «ما كانوا» هؤلاء الأنكاد «يحدرون» منهم، وترى كيف يولد موسى و عيون المراقبات الفرعونية ترقب الحوامل، فتشق بطونها قبل الولادة، إلا أن

(١). (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..)

(٢). (وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨

تفلت عنهم فالتة؟

علّها من الفالتات القلة، أم «انه لما حملت به امه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له» «١» وكما كان الحمل بصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه «٢» سترت سترها عن عيون المراقبات في الدولة العباسية ليقضي الله امرها كان مفعولا. موسى الرسول عليه السلام يولد في تلك الضغطة الفرعونية الوحشية، وأمه حائرة، تخشى أن يصل نبأ هذه الولادة المباركة إلى الجلادين فيذبحوه، وهي عاجزة عن حمايته

(١). نور الثقلين ٤: ١١١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ... و كان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظوهن و ذلك انه كان لما بلغه عن بني إسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال و النساء و حبس الرجال في المجالس فلما وضعت ام موسى بموسى (عليه السلام) نظرت اليه و حزنت عليه و اغتمت و بكيت و قالت: يذبح الساعة؟ فعطف الله عز و جل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى: مالك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف ان يذبح ولدي، فقالت: لا تخافي و كان موسى لا يراه أحد إلا أحبّه و هو قول الله: «وَ أَلْمِئْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِثِّي» فأحبتة القبطية الموكلة بها و انزل الله على أم موسى التابوت و نوديت امه ضعيه في التابوت فاقلديه في اليم و هو البحر «وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» فوضعت في التابوت و أطبقته عليه و ألقته في النيل

(٢). المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة و باسناده الى حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عمه أبي محمد الحسن (عليه السلام) انها قالت: كنت عند أبي محمد (عليه السلام) فقال: بيتي الليلة عندنا فانه سيلد الليلة المولود الكريم على الله عز و جل الذي يجبي به الله عز و جل الأرض بعد موتها، فقلت: ممن يا سيدي؟ و لست أدري بنرجس شيئا من اثر الحمل؟ فقال: من نرجس لا من غيرها قالت: فوثبت إليها فقبلتها ظهر بطن فلم أر بها اثر الحمل فعدت اليه فأخبرته بما فعلت فتبسم ثم قال لي: إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحبل لأن مثلها مثل أم موسى لم يظهر بها الحبل و لم يعلم أحد إلى إلا وقت ولادتها لأن فرعون كان يشق بطون الحبال في طلب موسى و هذا نظير موسى ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩

وإخفاءه فإذا الوحي الحنون يتلقف قلبها الرنون:

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَضَرَ عَلَيْهِ فِئْتَابُ اللَّهِ وَ أَلْمِئْتُ عَلَيْهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧.

«أَوْحِينَا» هنا تعني وحي الإلهام دون وحي النبوة والرسالة، وادنى منه الوحي إلى النحل والأرض، وأعلى منه ومن كل وحي إلا الأخير وحي الإلهام إلى قلوب الأئمة المعصومين المحمديين صلوات الله عليهم أجمعين.

«أَنْ أَرْضِعِيهِ» ليس عليك فيه أمر إلا الرضاعة: «إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ. أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْبَيْمِ فَلْيُلْقِهِ الْبَيْمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ ..» (٢٠: ٤٠).

«أَنْ أَرْضِعِيهِ» ما لم يهجس هاجس أو يحدث حادث «فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْبَيْمِ ..» وهو النيل فإنه في عظمه كأنه البحر، و اليم يشمل البحر والنهر الكبير كالنيل، أ تراها ما كانت خائفة عليه، وهي خائفة منذ حبلت حتى وعت؟ الخوف له مراحل، فقد يتحمل إذ لا يعدو الخيال ولما تقع وقعة، وذلك خوفها من قبل، أم لا يتحمل حين تشرف الواقعة لتقع فلا بد من محاولة قاطعة للفرار عنها، وقد تعنيه «فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ» خوفا شديدا لا قبل لها به بعد المتعود في ذلك الجو المخيف. أم حنونة ترضع ولدها خائفة عليه، فكيف تسمح لنفسها أن تلقيها فرارا عن حفرة إلى بئر؟ لكن «وَلَا تَحْزَنِي» من غرقه أو قتله «وَلَا تَحْزَنِي» من فراقه ل «إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ» لترضعيه «وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» لما بلغ أشده.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠

و هذه طمأنة ربانية وربطة إلهية على قلبها أن تلقي ولدها الرضيع بيدها إلى اليم!، أجل «لَا تَحْزَنِي» من غرقه فان عين الله ترعاه، ويده تراعيه حين تخفيه عن بأس فرعون، تلك القدرة التي تجعل النار لجدته ابراهيم بردا وسلاما، وتجعل له البحر ملجأ ومناما! «وَلَا تَحْزَنِي» حيث الفراق لا يدوم «إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ٨.

هنا بين الوحي إليها والالتقاط فجوة مذكورة في طه: «فَلْيُلْقِهِ الْبَيْمُ بِالسَّاحِلِ» أمرا تكوينيا لليم بإلقاء ما تلقاه بالساحل، ثم «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ» أمر ثان لعدوه فرعون تكوينيا، و بالنتيجة «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ»- إذ «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي»!، وهنا أصبح موسى لقطه يلتقطها آل فرعون، قصدا إلى «فُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ» و لكن الواقع المجهول لديهم «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا» فاللام هنا تعني واقع الغاية، و «فُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ» تعني ظاهرها و هم خاطئون واقع الأمر «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ»: خطأ عارما في كل حياتهم الجهنمية الطاغية حيث ذبح آلافا للحصول على موسى عليه السلام، وهنا خطأ عما يرام للعرش الفرعوني حيث استقدموا بذات أيديهم بوارهم ودمارهم، وهذا خطأ منهم لصالح الرسالة الموسوية، وكل حياتهم خطأ لطالحها وصالح موسى، وقد جمعهما «كَانُوا خَاطِئِينَ». فهل كانت أمه تخاف لإذلك الالتقاط؟ كلاً! إلا أن القدرة الربانية تتحدى بأسلوب سافر، ففي حين يجتد فرعون وهامان وجنودهما كل إمكانياتهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١

وعيونهم وإرصادهم على بني إسرائيل كيلا يتفلت منه موعودهم، فها هي ذي يد القدرة تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة بجنان لهم ومحنة «فُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدًّا»!- لماذا؟ «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا» و يكون لأمه قرة عين و لشعب إسرائيل نجاة عن فرعون وماله!:

وَ قَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدًّا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩.

«لَا تَقْتُلُوهُ» خطاب الجمع للحشد القاتل من أمر ومأمور وسبب ومباشر، وهذه شفاعاة من ملكة البلاط، وطبعا تؤثر أثرها إثرها، لا سيما وانها مشفوعة ب «فُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدًّا» ترغيبا في الإبقاء عليه بعد التعريب عن قتله، خطوتان مباركتان منها في سبيل الحفاظ عليه كما أراد الله! «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» الخطر الحادق بهم من هذا الوليد اللقيط، رغم ان

التقاطه هكذا من اليم كان يشعروهم أنه من بني إسرائيل، وإلا فلما ذا يلقي بتابوته في اليم؟ طبعاً هو إلقاء قاصد ترجيحاً لغرقه بطبيعة الحال على ان يقع في فخ فرعون وملاؤه.

هنا «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي وَ لَتُضْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي» تجعله محبوباً لآل فرعون، لا سيما امرأته المؤمنة إذ تقول له قالتها: «فُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ» إذ ليس لنا ولد نأنس به ف «لَا تَقْتُلُوهُ» تدليلاً على تصميمهم لقتله «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا» في ملكنا، أم و أقرب من ذلك «أن نتخذة ودا»- «و هم» كلهم «لَا يَشْعُرُونَ» من هو هذا اللقيط؟

و هنا النص ساكت عما رده فرعون على قالة امرأته، إلا أنه ما قتله، وأما أنه قره

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢

عين له فلا خير عنه، ف «لو قال فرعون قره عين لي ولك لكان لهما جميعاً» «١».

فيا للقدرة القاهرة الباهرة التي تسخر منهم بتحد سافر «و هُم لَا يَشْعُرُونَ»، ويا لفؤاد أم موسى متفقداً فارغاً من فراقه، وكيف ألقته في اليم فألغته في خضم أمواجه!؟:

وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠.

الفؤاد هو القلب المتفقد إما بنور العرفان: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» (٥٣: ١١) أم نار النكران: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (١٠٤: ٧) أم نار الهجران على محور الايمان ولما يتم في القلب ويطم، وهكذا أصبح فؤاد أم موسى فارغاً عما كان من اطمئنان بوحى وعن كل شيء إلاهم موسى! وهي طبيعة الحال في قلوب الأمهات في هذه الحالات الفارغة التي تفرغ عن العقل واللب فتوصل القلب إلى حالة فارغة عما فيه من اطمئنان وایمان، متعلقاً بفلذة كبدها ف «أَصْبَحَ .. فَارِغًا» لحد

(١). الدر المنثور ٥: ١٢١- / اخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال قالت امرأة فرعون: قره عين لي و لك لا تقتلوه، قال فرعون: قره عين لك أمالي فلا، قال محمد بن قيس قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): لو قال ...».

وفي نور الثقلين ٤: ١١٥ عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في عرض القصة .. و كان لفرعون قصر على شط النيل منزهاً فنظر من قصره و معه آسية امرأته إلى سواد النيل ترفعه الأمواج و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال: هذا إسرائيلي! فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك في قلب آسية رحمة الله عليها و أراد فرعون ان يقتله فقالت آسية «لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَ لَدًا وَ هُم لَا يَشْعُرُونَ» انه موسى.

وفي الجمع قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و الذي يحلف به لو أقر فرعون بان يكون له قره عين كما أقرت امرأته لهدها الله به كما هداها و لكنه ابى للشقاء الذي كتبه الله عليه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣

«إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» أنه ولدها وقد قذفته في اليم، صارحة صارخة دون تفكير في العاقبة في تلکم الأجواء المراقبة، فتقول هاتفة كالمجنونة: أنا التي ألقيته فألغيته، فأغيبوني في ولدي الغريق في خضم اليم! «إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا» ربطة لا حقة لما سبقت من طمأنة الوحي «لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بما ولدناها، فيملاً قلبها من الايمان الاطمئنان فلا تبدي من أمره شيئاً حتى يأتي ولد الله.

اجل وفي مثل هذه الحالة الموحشة المضطربة لا يتمكن انسان أيا كان أن يملك نفسه وقلبه الفراع إلا ان يدركه الملك المنان. و قد تعني «فارغا» الفراغ عن كل هم وغم، لما رأته في البلاط الفرعوني قرة عين، «فارغا» وفرحا لحد «إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» انه ولدها «لَوْ لَا أَنْ رَتَبْنَا عَلَى قَلْبِهَا» تضييطا له كيلا تتفلت في مصارحة لا اختيارية «رَتَبْنَا .. لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

و لكن «لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» تشي إلى ضعف في إيمانها بفراع قلبها، فلما «رَتَبْنَا عَلَى قَلْبِهَا» خرج عن فراغها إلى إيمانها بوعد الله: «إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَ جَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم «و أصبح» هنا بعد اللتيا والتي- لا عند الوحي إليها- لا تناسب إلا فراغ اللأطمئنان، وهذه طبيعة الحال في فؤاد غير المعصوم مهما أوحى إليه ما يطمئنه، ثم «رَتَبْنَا عَلَى قَلْبِهَا» تحكيم على قلبها المتقلب المتمزق المتفرق، الفراغ الخاوي عما ود الله. قد تؤيد ذلك الفراغ «و لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بعد رده إليها، و الفراغ عن كل هم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤

و غم هو العلم بان وعد الله حق! و قد يلح ذلك الفراغ لفؤادها، أنها لمحت بالتقاطه ففرغت، فلذلك: وَ قَالَتْ لِأُخْتَيْهِ فَصَبِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١.

فهذه القالة بفراع الفؤاد لمحة لامعة بقضية الحال، أنها لما قذفته في اليم تبعته ناظرة إلى الأمواج اين تحوله، فبصرت به يلتقطه آل فرعون، فأصبح فؤادها فارغا فقالت لأخته قصيه، ولو لا أنها لمحت به خارج اليم لم تكن لقاتلتها هذه أية مناسبة!

«قصيه» اتبعي أثره نحو القصر «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ» إبصار البصيرة، لا فقط ابصار البصر، ف «أبصر» هي في ابصار البصر، و «بصر به» هي البصيرة، ام الإبصار في خفية، ولقد بصرت به خفية وبكل وولدها «عن جنب»: مكان بعيد ومجانبة مزورة في نظرتها ألا ينظر إليها وإلى نظرتها، فالجنب يشملها «و هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» أنها بصرت به، رغم الرقابة التامة التي هي قضية الحال في مثل ذلك اللقيط! أم «لَا يَشْعُرُونَ» انها أخته لأنها ما بصرت به كأخت إلى أخ، وإنما كمتفرج إلى القصر بشاطئ البحر، وعلى أية حال كان بصرها به في خفية وسترة كيلا يحْتَلِ إليهم إن رأوها أن لها صلة بموسى «١».

(١). الدر المنثور ٥: ١٢١- / اخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي رواد ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال لخديجة: اما علمت ان الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران و كلثوم اخت موسى و آسية امرأة فرعون؟ قالت: و قد فعل الله ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء و البنين، وفيه اخرج الطبراني و ابن عساكر عن أبي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ما شعرت ان الله زوجني مريم بنت عمران و كلثوم اخت موسى و امرأة فرعون فقلت: هنيئا لك يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥

هنا اطمأنت أم موسى عن فراغ فؤادها، متأكدة أنه آمن في البلاط، ولكنها راجية بعد رجوعه لترضعه كما ود الله، وكان كما رجعت: وَ حَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢.

ما كانت الخطوة الأولى إلا للحفاظ على حياة موسى وكونه، ثم إلى الخطوة الثانية لحيويته وكيانه، إذ لا يصلح أن يرتضع من أية مرضعة ولا سيما القبطيات المشركات «وَ حَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ» حرمة تشريعية وتكوينية، وهو الله تعالى المتكفل لإبعاده عن المراضع إلا أمه، وهو الملمه له ألا يرتضع من أية مرضعة إلا أمه فكان كما أراد الله وارتضاه.

و «المراضع» جمع مرضع وقد يجمع هنا المصدر ومكان الرضعة وزمانها، فمكانها هو الثدي فلا يقبل أي ثدي، وزمانها زمان الحاجة إلى الرضاع، والحكمة حلقت على كل زمان وكل مكان للرضعة، وحتى إذا أخذ لبن من مرضعة حتى يشربه دون مرضعة فكذلك الأمر، حيث التحريم شامل للرضعة بأصلها وزمانها ومكانها.

و «من قبل» قد تعني من قبل اقتراح أختها، وأخذهم إياه من اليم، ومن قبل ولادته وانعقاد نطفته، حيث المراضع غير الصالحة لا تناسب الرسالة الصالحة، «و لِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» لا تناسب الرضعة الطالحة «فقلت...».

هنا فجوة بين القصة، وطبعا هي انه لم يقبل اي مرضع وكان جائعا عطشا، فكانوا ناظرين إلى مرضع يقبله، فجاءت أخته فيمن جئن حسب الطلب، للإدلاء إلى من ترضعه «قلت» متسائلة لصالحهم، متنكرة «هَلْ أَذْكَكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦

كفالة الرضاعة وسواها، لا فحسب بل «و هُمْ لَهُ ناصِحُونَ» كما يناسب لقيط البلاط وقرعة عين فرعون وزوجه.

و بطبيعة الحال هم يقبلون ويقبلون إلى أهل بيت يكفلونه في بعدي الكفالة اللاتقة المرغوبة المرموقة، وطبعا يجعل على الكفالة «.. ترضع ولدها وتأخذ أجزها» «١»، وتراهم كيف لم يتفطنوا بما قالت انها على معرفة بمن يناسب تلك الكفالة، فيفتشوا عن

مصدره ومورده عله أهل بيت موسى نفسه؟

لقد أعماهم الله عن ذلك وهم في حالة محرجة محرجة لهم عن كل هم إلا الحصول على من يكفله، وأخيرا:

فَرَدَّ ذُنَا إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لِيَتَعَلَّمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لِكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣.

لقد ارتدت اللقطة إلى أمه الملهوفة، بارادة الله، ل «كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» بحضانه «و لا تحزن» لفراقه «و لِيَتَعَلَّمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بعد ما ربط الله على قلبها ووعداها من قبل أن يرده إليها «و لِكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» حق الوعد والوعد الحق من الله للأولى أو الأخرى، و «لا يعلمون» هذا يعني جهل التجاهل والتغافل عن تفصير دون قصور،

(١). الدر المنثور ٥: ١٢٣- / اخرج ابو داود في الراسيل عن جبير بن نفير قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) مثل

الذين يغزون من امتي و يأخذون الجعل يعني يتقون على عدوهم مثل ام موسى ترضع ولدها و تأخذ أجزها.

وفي البحار ١٣: ٢٧ قال الراوي قلت لأبي جعفر (عليه السلام) فكم مكث موسى غائبا عن امه حتى رده الله عليها؟ قال: ثلاثة ايام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧

اللهم إلا بتقصير.

و ما الذي حصل بعد حتى بلغ أشده؟ النص ساكت عن هذه الفجوة لأنها ليست من صحيح القصص المرام في الدعوة القرآنية، فانما ينتقل من رضاعه إلى بلوغ أشده مع العلم أنه في هذه الفترة كان كما قال الله «و لِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» أينما كان وأيان.

و لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٤.

الأشد جمع الشدّ وأقله ثلاث شدّات هي: شدّ العقل والرشد إلى شد الجسم، وترى «حُكْمًا وَ عِلْمًا» هنا هما الرسالة و علمها؟ و آية الشعراء تؤجلها إلى ما بعد رجوعه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨

إلى مدين! «فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (٢١) فلم يكن قبله رسولا فهو حكم غير رسالي! علّهما من ذي قبل حكم النبوة و علمها قبل الرسالة، حيث الحكم والعلم للأنبياء درجات، ابتداء من الوحي غير الرسالي وهو النبوة، ثم الرسالي، ومن ثم النبوة وهي الرفعة بين المرسلين، ثم وية العزم وهي الإمامة بين سائر المرسلين، وفي الختام إمامة الأئمة الرسالية ككل وهي الخاصة بخاتم النبيين صلى الله عليه و آله وقد تدّرج موسى إلى ما قبل الأخيرة، وكما ان بلوغ الأشد هو اكتمال هذه الثلاث وهو في العادة بين ١٨ سنة و ٣٠ «١»، كذلك «استوى» بعد هو القيام بنفسه في حاجيات الحياة وهو إلى الأربعين بل هو من منتجات بلوغ الأشد، وهنا «آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا».

و هذه هي ضابطة الحكم والعلم الرباني «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» كلا على قدر إحسانه، وما قدره الله من كيانه، من مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان إلى أول العابدين وخاتم النبيين صلى الله عليه و آله، ولأن الحكم الرسالي وعلمه ليسا جزاء الإحسان، وإلا أصبح كل محسن رسولا، فلا يعني «حُكْمًا وَ عِلْمًا» هنا الرسالة، فقد تكون نبوءة الوحي أمّا دونها من إلهامات غيبية هي من مخلفات الحالات التصفوية للمحسنين.

فكون الحكم والعلم جزاء إحسانه كما «وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» بعد رجوعه من

(١). نور الثقلين ٤: ١١٧ عن معاني الأخبار بسند متصل عن الأحول عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى» قال: أشده ثمان عشر سنة و استوى التحى.

وفي أحاديث متظافرة انه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة، اللهم إلا يحيى في وجه من الآية «وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩

مدين، هذان برهانان ساطعان على أن «حُكْمًا وَ عِلْمًا» هنا لا يعينان الرسالة.

و هنا تتلمح ان بلوغه أشده واستواءه كان عند بلوغه الثلاثين حيث الرسل كانوا يرسلون عند الأربعين، وكان بين الحكمين عشر سنين.

أ تراه في هذه الفترة وهي زهاء ثلاثين سنة أم تزيد، تراه ظل يتعرع في البلاط الفرعوني، مستريحا في حياة تحضيرية لتلك الرسالة السامية، وهو يرى كيف يسام قومه سوء العذاب بتذبيح الأبناء واستحياء النساء وسائر البغي اللثيم، وابتشع صورة للفساد الشايع الأثيم؟

ليست هذه سيرة المحسنين الذين يُجَزُونَ حكما وعلمًا! بل كانت حياته في تلك الفترة إحسانا حسب المكنة بشعبه منذ غلمته «١» وكما أغاث الذي من شيعته على الذي من عدوّه، فقد كان عطوفا بشيعته، رقيبا عليهم، وبطبيعة الحال منعزلا عن التأثير من جو البلاط الطاغي كما يمكن في تقيّة تحافظ على كيانه على قدر إمكانه، وتلمح لهذه الحالة اجمالية «و كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ» تعقيبا رقيبا على بيئته قبل ان يؤتى حكما وعلما هكذا، وكما دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها لمحّة صارحة

(١). نور الثقلين ٤: ١١٧ عن تفسير القمي: .. فلما درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين، فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه و قال: ما هذا الذي يقول؟ فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللحية فهلها أى قلعتها فألمه ألما شديدا فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول و قد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بلى يدري، فقالت له: ضع بين يديه تمرا و جمرا فإن ميز بين التمر و الجمر فهو الذي تقول، فوضع بين يديه تمرا و جمرا و قال له كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرئيل (عليه السلام) فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه و صاح و بكى فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل؟ فعفى عنه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠

بابتعاده عن المدينة خوفاً من جلاوزة البلاط!:

«و دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يُتْتَلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥ . وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ» فيه احتمالان اثنان، أن كان خارج المدينة خوفاً من فرعون وملاؤه ثم دخلها فرأى ما رأى؟ أم كان القصر الملكي خارج المدينة

«فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى من التوحيد حتى هم به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة ..» «١».

كل محتمل والجمع أجمل، فعلمه كان يتردد في القصر ويقول قالة التوحيد ويفعل فعلته عندهم فهم به فرعون حتى «دَخَلَ الْمَدِينَةَ ..» لآخر مرة ثم لم يرجع إلى فرعون إلا بعد رجوعه من مدين رسولا، ولقد كان من المحسنين حين كان في البلاط، دون أي تأثير بذلك الجو المظلم الظالم ولا تربت إلأربوة جسدانية «قَالَ أَمْ لَمْ تُرَبِّتْكُ فِينَا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ» (٢٦: ١٨) و على أية حال «دَخَلَ الْمَدِينَةَ» وهي بطبيعة الحال مصر «على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا» وحين الغفلة قد تلمح أنه كان ملاحقا في المدينة من قبل السلطة وعيون القصر إذ «هم به فرعون» «٢» وقد تلمح «حين»

(١). البحار ١٣: ٢٧ عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في تفصيل القصة

(٢). البحار ١٣: ٣٦ بسند متصل عن سعيد بن جبير عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام عن أبيه سيد الوصيين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته و أهل بيته فحمد الله و أثنى عليه ثم حدثهم بشدة تناههم يقتل فيها الرجال و تشق بطون الجبالى و تذبج الأطفال حتى يظهر الله الحق في القائم من ولد لاوي بن يعقوب و هو رجل أسمر طويل و وصفه لهم ببعته فتمسكوا

بذلك و وقعت الغيبة و الشدة ببني إسرائيل و هم ينتظرون قيام القائم اربعمائة سنة حتى إذا بشروا بولادته و رأوا علامات ظهورته اشتدت البلوى عليهم و حمل عليهم بالحشب و الحجارة و طلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فاستتر و ترأسوه و قالوا: كنا مع الشدة نستريح إلى حديثك فخرج بهم إلى بعض الصحارى و جلس يحدثهم حديث القائم و نعته و قرب الأمر و كانت ليلة قمرء فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى (عليه السلام) و كان في ذلك الوقت حديث السن و قد خرج من دار فرعون يظهر النزهة فعدل عن موكبه و اقبل إليهم و تحته بغلة و عليه طيلسان خزّ فلما رآه الفقيه عرفه بالنعته فقام اليه و انكب على قدميه فقبلهما ثم قال: الحمد لله الذي لم يمّني حتى أرانيك فلما رأى الشيعة ذلك علموا انه صاحبهم فأكبوا على الأرض شكراً لله عز و جل فلم يزداهم على ان قال: أرجو ان يعجل الله فرجكم ثم غاب بعد ذلك و خرج إلى مدينة مدين ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١

انه وقت الاستراحة النوم لأهل المدينة، ولكنه دخول قاصد ذلك الحين إذ كان يخافهم من فرعون وملاؤه، وإلا فلما ذا دخلها على حين غفلة من أهلها؟.

«فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ» و هذا مما يدل على أنه كان معروفا لدى شعبه و أتباعه في الايمان، خلاف الآخرين، فان «من شيعته» دون من أشياعه، و «من عدوه» دون من أعدائه، مما يوضح ذلك في بعدين ثانيهما ان «هذا» الأول صادر منه صدور الأشياء من مصادرها وهو هنا مصدر الايمان، و «هذا» الثاني صادر من عدوه فرعون وهو مصدر الكفر، إذا فالأول موحد والثاني مشرك، والمشارك المحارب يجوز أو يجب قتاله و قتله إلا في ظروف استثنائية تتغلب على صالح الموقف.

«فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» وهذه الإستغاثة مما يؤكد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢

وجوب إغاثة المؤمن على الكافر.

«فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ» والوكز هو الضرب بجميع الكف وليس هو قتلا، فلا أنه قصد قتله، ولا أن الوكز مما يقتل في العادة، ولكنه صادف أن قضى عليه بوكزه إذ كان قويا، وحالة الدفاع عن المؤمن حالة استثنائية تقوي الضعيف فضلا عن القوي، فقد وقع ما لم يقصد وقصد ما لم ف «قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين»، أ تراه يشير ب «هذا» إلى عمله؟ وكيف يكون عمل موسى - الذي أتاه الله حكما وعلما بإحسانه - من عمل الشيطان! لا ريب أن دفاعه عن الذي من شيعته بوكزته كان قضية الايمان ومن عمل الرحمن، وحاشاه ان ينسبه الى الشيطان، فقد «يعني الاقتتال الذي كان بين الرجلين لا ما فعله موسى من قتله» «١» بوكزه دون تقصد لقتله.

(١). بحار الأنوار ١٣: ٣٢ ج، ن في خبر ابن الجهم قال سأل المأمون الرضا (عليه السلام) عن قول الله عز و جل «فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» قال الرضا (عليه السلام): إن موسى (عليه السلام) دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها و ذلك بين المغرب و العشاء فوجد فيها رجلين ... فقضى موسى (عليه السلام) على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات قال: هذا من عمل الشيطان، يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى (عليه السلام) من قتله، إنه: يعني الشيطان، عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ».

قال المأمون: فما معنى قول موسى: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؟ قال:

يقول: إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة «فَاعْفُرْ لِي» أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني «فَعَفَّرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ»، قال موسى: «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» فن القوة حتى قتلت رجلا بوكزة «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى «فأصبح» موسى (عليه السلام) «فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ» على آخر «قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ» قاتلت رجلا بالأمس و تقاتل هذا اليوم، لأودينك و أراد أن يبطش به. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» و هو من شيعته قال يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد إلا ان تكون جبارا في الأرض و ما تريد ان تكون من المصلحين.

قال المأمون جزاك الله خيرا يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون «فَعَلْتُهَا إِذَا» وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» قال الرضا (عليه السلام) إن فرعون قال لموسى (عليه السلام) لما أتاه «وَوَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْبِئْسَ فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» بي قال موسى «فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك» «فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ» .. (عن الاحتجاج ٢٣٤ و عيون الأخبار ١١٠).

أقول: هو من شيعته اختلاق كما يأتي، كما لأودينك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣

أم يعني «هذا» الذي «من عدوه» أنه من عمل الشيطان كما قال الله لنوح عن ابنه «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» يعمل أشياء له كهذا العدو، ثم يحملهم على عمله؟ أم ان «هذا» يعنيهما، هذا العدو وعمله، وما أجمله جمعا، وهما مما أجلا الرسالة الموسوية، معجلا له ارادة القتل «وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» وتراه إذا لم يكن عمله من عمل الشيطان فكيف يستغفر ربه فيه بما ظلم:

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَعَفَّرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ .

«نفسى» هنا دون غيري مما يذود عن ساحته القتل ظلما، فانما يعني بظلمه نفسه هنا الانتقاص غير القاصد بقتل الذي من عدوه في نصرة الذي من شيعته، إذ خلف ملاحقته الشديدة من قبل السلطة الفرعونية، فقتلا له بقتله أو تأخيرا لرسالته الموعودة، فطالما الظلم هنا لا يعني التعدي الى غيره، كذلك لا يعني في انتقاص نفسه انه كان قاصدا فيه، فطلب من ربه الغفر الكامل والستر الشامل عما يرصده من قتل «فغفر له» فدفع كيد فرعون ثم أرسله اليه بعد ربح من زمن رحلته إلى مدين.

فالغفر لموسى عليه السلام كما الغفر لرسول الهدى في الفتح «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ» مهما كان بينهما بون من ناحية اخرى هي الخطاء فيما فعله موسى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤

ولم يخطأ رسول الهدى صلى الله عليه و آله! ولو لا ذلك القتل الخاطئ دونما تقصّد لم يضطر موسى عليه السلام إلى الفرار، ولا تأخرت رسالته عشر سنين.

و الغفر في خلفية القتل كان عاجلا في الذب عن قتله، وأجلا في بداية رسالته بعد ذلك الربح البعيد من الزمن «ثُمَّ حِثَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» (٢٠: ٤٠).

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٧ .

و قد تعني هذه النعمة اضافة الى نعمة النبوءة والايمان نعمة الذب عن قتله والغفران، والقوة الدفاعية القاضية على عدو له، و «لن» تحيل باختياره ان يكون ظهيرا للمجرمين، كما لم يكن ظهيرا لهم وهو يعيش في قصر الإجرام، ثم لما رأى قتالا بين عدو له و شيعته نصر شيعته على عدوه مهما اخطأ في قتله، حيث الظروف ما كانت تساعد على ذلك القتل - مهما كان مسموحا في أصله «١» - إذ خَلَّف الفرار عن مسرح الدعوة، وخوفا الانتقام في فترة من الزمن بعيدة، وليس يعني الذي من شيعته فيمن يعنيه «المجرمين» إذ بطش مرة ثانية لتخليصه وهذه مظاهره، مهما كان من المجرمين من أوقع غيره في جرم أو من أدت إعانته إلى جرم، إذ لم تكن وكزته جرما حيث لم يقصد قتله، وانما قصد تخليص الذي من شيعته، كما ولم تكن المقاتلة من ناحية المؤمن قصدا إلى إدخال موسى في الجرم!.

و هنا ندرس ان وكزة الدفاع مقصورة على قدر الدفاع حتى مع الكافرين فضلا

(١). الدر المنشور ٥: ١٢٢- / أخرج احمد في الزهد عن وهب قال قال الله عز و جل بعزقي يا ابن عمران لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق لأذتكت فيها طعم العذاب و لكن عفوت عنك في أمرها أنها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار إني لها خالق أو رازق
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥

عن المؤمنين، اللهم إلابي جهاد العدو في الدين، فهنا القتل مسموح مهما كان بدائيا فموسى يقضي بوكزة وحدة على عدوه المهاجم على شيعة له، مما يشي بيالغ قوته وفتوته، مصورا مدى انفعاله وغضبه، وما كان يخالجه من الضيق بفرعون وملاؤه الظالمين بحق أشياعه المضطهدين، ولكن لما رآه جثة هامدة خامدة بين يديه ندم على هذه الصدفة الهائلة فاستغفر ربه وأناب اليه واستنجد لموقفه الحرج المخيف، فأجده الله.

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨ .

مضى يوم «فأصبح» لعدوه «خائفا» خلفية قتله بالأمس «يترقب» الفرج من ربه، ام و «يترقب» منفذا عن مضيقه، أو يترقب الفضيحة في انكشاف امره وخلفية الأذى، ملتفتا متوجسا يتوقع الشر في كل لحظة، مما يؤكد حساسية القصر ضده منذ أمد، وإلا فما أرخص لرجل القصر، المتبني لفرعون، أن يقتل أيا كان من الشعب، فقد كان حين دخل المدينة منفصلا عن القصر، معروفا لدى شيعته لحد عرفه هذا الذي من شيعته، كما عرفه عدوه الثاني إذ «قال يا موسى أ تُرِيدُ أَنْ تُقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ...»!
مضى يوم عن الواقعة وهو «خائفاً يَتَرَقَّبُ» - «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ» من شيعته «يستصرخه» في اقتتال ثان مع عدو لهما ثان، محنة بعد محنة، مما يحرج موقفه أكثر مما كان، ف «قال له موسى إِنَّكَ» دون شك «لعوي» عن صراط الحق «مبين» غوايتك، والاستصراخ هي طلب الصرخة أن تطلب من موسى بصرخة ان يصرخ على عدوه الثاني قالة وفعالة كما فعل بالأمس على الأول.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦

تراه كيف يهتف بشيعة له حالة اقتتاله مع عدو له «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ»؟ لأن اقتتال شيعته مع الأعداء الفرعونيين - ولما يحن حينه، ولا قويت لموسى يمينه، وهو في بداية أمره - ذلك القتال العجال غير صالح في هذا المجال، كما وان رسول الهدى صلى الله عليه و آله وأصحابه لم يقاتلوا أو يدافعوا في العهد المكي إذ ما حان - بعد - حينه حتى جاء العهد المدني فسمح له في الدفاع والجهاد.

ثم الدعوة الرسالية مهما كانت قوية، ليست لتبدئ بالقتال والقتل والقسوة، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال والتي هي احسن، ثم القتال إذا وكان له مجال.

فموسى الذي هم به فرعون، وهو هارب من بأسه فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، كيف يجوز لشيعته له ان يكدر عليه الجو اكثر مما كان فيقاتل عدوا لهما، فيفرض عليه نصره فقفزه فالقضاء عليه، ثم يكرر بعد يوم نفس المسرح، مما يجرج موقفه الرسالي اكثر مما حرج أول مرة، إذا فحق له هتافه «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ».

اجل، غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي إلا إلى ثائرة على موسى وبني إسرائيل ككل.

و هم بعد ضعفاء، ما حانت لهم الثورة «مبين» تلك الغواية في المدينة حيث ضاعت وشاعت وتشيع اكثر مما كانت فتجتث اصول الثورة المستقبلية الرسالية، وقد تلمح «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ» انه ممن أشير إليه من ذي قبل ب «هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» لا فحسب الذي من عدوه، والمقاتلة، بل والذي من شيعته حيث اقدم على المقاتلة، إذا ف «هذا» ثلوث الشيطنة وموسى قد ابتلي بها لحد يستغفر ربه من خلفياتها ولم يعمل هو إلا ووجه دفاعا عن نفس مؤمنة، مهما اخطأ طوره بقفزه القاتل دون تقصّد. ف «إِنِّي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧

ظَلَمْتُ نَفْسِي» تعنيه كرسول، وفي ذلك القتل قتل له أو لرسالته «فَاعْفُرْ لِي» ستر لما يترص بي من دوائر السوء «فَعَفَّرَ لَهُ» نجاتا عن قتله وإبقاء لرسالته وإن تأخرت عشر سنين.

لقد وقع موسى هنا في مأزق ثان كالأول، فهل يقفز تعجيبا فكالأول، ام هل يحفز تأجيلا، والحفاظ على النفس المؤمنة واجب؟ فإنما يبطش بالفعل دون قفز قاض ولا حفز منحاز:

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٩ .

«بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» طبعاً هو القبطي الفرعوني، أ ترى «قَالَ يَا مُوسَى» هي قالة الإسرائيلي لأنه اغتاض بكلامه «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ» فظن انه يقصد ببطشه إلى قتله، فوجه ببطشته تأنيبا له «أ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي...»

فعرف القبطي ان موسى هو الذي قتل منهم نفسا بالأمس فأخبر فرعون الخبر فائتمروا بموسى فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ؟.. و إرادة البطش بالذي هو عدو لهما ظاهرة الهدف ان ليس هو الذي من شيعته! وغواية المؤمن لا تقتضي قتله وهو يحارب المشرك! ولا مرجع صالحا لضمير الغائب في «قال» إلا «بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» فإنه الأقرب لفظيا ومعنويا! و «كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» لا تناسب إلا نفسا كهذه النفس وهي العدو لهما، إذ لا صلة ولا مماثلة بين قتل الإسرائيلي المؤمن المهاجم، وقتل القبطي الكافر المهاجم! ثم ولا تأنيب في قتله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨

نفسا بالأمس إذ كان دفاعا عن الذي من شيعته فكيف يؤنبه فيه! ثم وكيف يليق به القولة الفاتكة «إِنَّ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ» فإنه ارتداد عن الايمان فطريا يستحق به القتل فليقتله به «١»! ولعمر إلهي الحق ليس ذلك إلا تسفيرا للقرآن عن مغزاه ومرماه وليس تفسيراً «٢»، فإن هي إلا قولة الذي هو عدو لهما، ولم تكن القتلة السابقة مما تحفى - وهي القاتلة - من داعية إسرائيلي رباة فرعون عمرا من قبلها، فشاعت في المدينة، والقتلة المكررة من داعية تجعله جبّارا في الأرض وتنفي عنه كونه مصلحا فيها، حسب الظاهرة في بداية الدعوة.

و هذه شيمة شنيعة من المتجبرين المستكبرين ان الدفاع عن الظلم إفساد وجبر، حتى ليسمي القبطي دفاع موسى عن الاسرائيلي تجبرا في الأرض يطارد الإصلاح!

فقد تفسد الفطرة العامة الإنسانية لحد يرون الظلم فلا يثورون عليه، بل وينكرون على الثائرين ضد الظلم، إذ لا يعطون حق الدفاع للمظلومين المضطهدين، وفوق كل ذلك يسمون الدافع عنهم وعن الظلم «جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ» كما قاله القبطي، لأنهم ألفوا

(١). بحار الأنوار ١٣: ٢٧ القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في رواية القصة .. فلما كان من الغد جاء آخر فتشبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فخلي صاحبه و هرب ..

أقول: و هذا هو الصحيح الملائم لآلية

(٢). نور الثقلين ٤: ١١٩ في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون ...- إلى أن قال-: «قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ» قاتلت رجلا بالأمس و تقاتل هذا اليوم لأؤدبناك و أراد أن يبطش به «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» و هو من شيعته «قَالَ يَا مُوسَى ...!»
أقول كيف هو من شيعته و هو عدو لهما أي موسى و القبطي أن هذا إلا بهتان مبین!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩

الطاغية تطغى ولا ثورة ضده، فحسبوا ان الطغيان حقه المطلق والثورة تخلفه عن الإصلاح! فإذا رأوا مظلوما يصرخ أو يستصرخ، أم عطوفا يجيب إلى صرخته فيدافع عنه، حسبوه جبارا في الأرض، متخلفا عن السنة المتبعة وهي الحياد أمام الطاغية و الانقياد للباغي!.
أجل إنه لا ينكر أن الاشتباكات الفردية للداعية شبكات لانزلاقه في الفخ، إذ لا تجدي في قلب الأوضاع العاشمة، كما كف الله المسلمين في العهد المكي عن تلکم الاشتباكات حتى آن أوانه، ولذلك يخاطب موسى من سببها ب «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ» واعترف على نفسه «إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» ولكنه ليس بذلك جبارا في الأرض، وإنما وقع في فخ من وزته دفاعا وجبا عليه في الظرف المختلق خلاف ما يهواه.

لقد تفشى خبر قتله بالأمس رجلا من رجال فرعون، وهو طبيعة الحال، قضية استطارة الغضب من آل فرعون على موسى الملاحق من قبله، واستطارة الفرخ في بني إسرائيل، فالقبيلان- إذا- هما إذاعتان لإشاعة ذلك النبا حتى فشى وتطايير بين كل الجماهير، ومنهم هذا الذي أراد موسى ان يبطش به، فائتمروا به ليقتلوه فنجاه الله من القوم الظالمين:

وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١.

و يا لرجال من أقصى المدينة، ليسوا في أوساطها كالأغلبية الساحقة من المترفين، بل هم العائشون في حوامشها البعيدة القاصية، يا لهم من رجولات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٠

وبطولات للحفاظ على الرسالات الإلهية، فهنا «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» إلى موسى، وهناك «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» إلى رسل عيسى،

لا رجل من أوساطها هنا وهناك ينصر المرسلين، وقد يكون هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...» (٢٨: ٤٠) «١».

وقد يتعلق «مَنْ أَقْصَى الْمَدِينَةَ» بمقدر كما يتعلق ب «جاء» ف «رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» - «يسعى» مسرعاً إلى موسى «قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ الْفِرْعَوْنِي «يَأْتَمِرُونَ» فِرْعَوْنَ «بِكَ لِيَقْتُلُوكَ» كما قتلت نفساً بالأمس وهمت اليوم بطشا بأخر «فأخرج» منها إلى مكان سحيق لا يعرفونه «إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» وبالنتيجة:

«فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا» من ائتمارهم «يترقب» الفرج والنجاة الموعود حينما استغفر ربه فغفر له «قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فهو المظلوم في ذلك المسرح وليس بظالم إلا نفسه غير متقصدا! وان موسى قتل منهم نفساً فخرج منها خائفاً

(١). نور الثقلين ٤: ١١٩ في تنمة القصة على طولها عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و كان خازن فرعون مؤمناً بموسى (عليه السلام) قد كتم إيمانه ستمائة سنة و هو الذي قال الله عز و جل: «وَقَالَ رَجُلٌ...» و بلغ فرعون خير قتل موسى الرجل فطلبه ليقتله فبعث المؤمن إلى موسى (عليه السلام) إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا» كما حكي الله عز و جل «خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» قال: يلتفت بمنة و يسرة و يقول: «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أقول: «فبعث ..» خلاف نص الآية انه «جاء ... يسعى» ثم و مجيئه بنفسه إلى موسى لا يناسب كونه خازن فرعون لأنه تهدير لدمه، فقد يجوز انه قبلي مؤمن غير معروف في البلاط جاء بنفسه ليحذر موسى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١

يترقب، والحسين عليه السلام لم يقتل منهم نفساً وخرج من المدينة خائفاً يترقب! واين خروج من خروج «١»؟

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَ بَيْنَكَ أَمَّا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) «مدین» هي مدينة شعيب، المرسل إلى أهله: «وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» (٧: ٨٥) وقد جاء ذكرها عشر مرات في الذكر الحكيم، وهي وقعة تجاه تبوك على بحر القلزم،

(١). المصدر ٤: ١٢٠ في ارشاد المفيد في مقتل الحسين (عليه السلام) فسار الحسين (عليه السلام) إلى مكة و هو يقرء «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و لزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته: لو تنكبت الطريق الأعظم كما صنع ابن الزبير لثلا يلحق الطلب، فقال: لا و الله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض، و لما دخل الحسين (عليه السلام) مكة كان دخوله إليها ليلة الجمعة لثلاث مضي من شعبان دخلها و هو يقول: «وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٢

بينهما ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام، وبينهما وبين مصر مسيرة ثمان وقد كانت خارجة من سلطان فرعون.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢.

تلقاء الشيء حذاه وقباله حيث يلقي به، من «لقي تلقية وتلقاء» ولكنه لقاء من بعيد يوصل إلى لقاء القريب، فقد خرج من المدينة متوجهاً لتلقاء مدين فريداً طريداً خائفاً يتربص الفرع، منزعجا بنذارة الرجل من أقصى المدينة دون تزود بزاد ولا ترخل براحلة، راحلته رجلاه، وزاده ترجي هدى الله «قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» إلى مدين وردا سليماً وإلى المدينة راجعاً رسولا منذراً، وبينهما السبيل إلى تشكيل العائلة.

فهنا نجد موسى بعد ربح من عمره منذ ورودته حتى رجولته في نعومة العيش في البلاط، نجده في قلب المخافة، يطارده فرعون وملاؤه، لينالوا منه اليوم في رجولته ما لم ينالوه منه في طفولته، ولكن اليد التي حتمت هناك أخرى أن يحميه هنا: «وَلِئُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي!» وتراه كيف عرف الطريق إلى مدين ولم تسبق له سابقة منه وليس يكفيه سؤال الرجل الناصح لاهتدائه على طول الخط في الطريق؟.

«تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ» دون «توجه إلى» قد تلمح انه توجه لتلقاءه تلقائياً وما يدري هو انه متوجه لتلقاءه، وإنما الله هو الذي يدلّه إلى مدين، و «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي» دليل أنه ما كان يعرف الطريق، و «تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ» دليل وقع التلقاء بما لقاها الله، وغير صحيح أن يسأل الناس عن الطريق وهو في مفازة المخافة، مستترا مقصده عنهم فرارا عن كيد المؤتمرين به ليقتلوه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣.

لقد وتوجه إلى مدين وورد ماءه، وهو بطبيعة الحال بداية وروده البلدة، مكدودا مجهودا وهو بحاجة إلى راحة ف «وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ» جماعة من مختلف الرعاء وسواهم يسقون أنفسهم وأنعامهم «وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ» أبعده منهم إلى الماء بفصل فاصل «امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ» والذود هو المنع، ولأن المتعلق هنا مطلق فقد يعم ذودهما اغنامهما عن التفرق، وعن الخلط بأغنام الناس، وعن ورد الماء حتى يصدر الرعاء، وذودهما الناس عن اغنامهما، وذود أنفسهما عن الاختلاط بالرجال، وعن الاستعجال لورد الماء حتى يصدر الرعاء، والذود عن أن ينظر إليهما، وكل ذود هو قضية الأدب في الشرعة الإلهية للنساء بين الرجال.

فهل من الوجدان في ذلك الوجدان ألا يتأثر موسى من حالتها الحرجة، على كونه مكدودا؟ كلاً! وهو الرؤوف الحنون حتى بشبعته الغوي المبين، فكيف لا يرأف بامرأتين ضعيفتين في هذا البين، فليسأل عنهما وقد سأل: «قَالَ مَا خَطْبُكُمَا» والخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتساءل، ولقد كان أمرهما- في أصل السقي وهما امرأتان، وفي التأخر عن السقي- كان يعث للتساؤل والتخاطب، فجاء الجواب عن الأمرين في ذلك الخطب الجلل.

أما التأخر عن السقي ف «لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ» إنهاء لسقيهم وإخلاء للماء حتى تسقي الرعاء، مهما جئنا قبلهم ام قبل بعضهم، إذ نختشم عن الخلط بالرجال الغرباء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤

و أما أصل السقي لنا ولأنعامنا ونحن امرأتان؟ ف «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ» لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال، فنحن على أنوثتنا وضعفنا أقوى منه، وبطبيعة الحال ليس له أبناء حتى يكفوا عنه وعننا، فسقينا- إذا- ضرورة معيشية تسمح لهكذا كد وكدح للسقي.

هنا تنور الغيرة الموسوية للإقدام على السقي لهما رغم حالته المخرجة، حيث لا تمنعه عن القيام بواجبه الحاضر، فيصبح خير ناصر لمن لا يعرفهما، ولكنه عارف عجزهما وحاجتهما إلى معين، ويعرف مرضات الله في تلك الإعانة.

فَسَقَى لهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤.

«فَسَقَى لهُمَا» وكيف سقى، طبعاً قبل ان يصدر الرعاء كلاً أو بعضاً، فإن سقيه لهما بعد إصدارهم عن آخرهم ليست فيه معونة زائدة على سقيهما بعد الإصدار.

تراه سقى لهما حسب النوبة؟ أم تطلب منهم تقدم النوبة؟ كلٌّ محتمل، ولكن القوة المعروضة في قالة إحداهما «إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ» إنما تخرج حالة السقي لهما عن العادة، فلتنكح قوة بارعة خارقة أقوى من كل الرعاء، وهنا قد يصدق ما يروى انه كان يجتمع على الدلو رجال حتى يخرجوه من البئر لعظمه وثقله «١»

(١). نور الثقلين ٤: ١٢٠ القمي في تمة القصة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) ..

و مر نحو مدين و كان بينه و بين مدين مسيرة ثلاثة ايام فلما بلغ باب مدين رأى بئرا يستقي الناس منها لاغنمهم و دوابهم فقعدنا حية و لم يكن أكل منذ ثلاثة ايام شيئا فنظر إلى جاريتين في ناحية و معهما غنيمات لا تدنوان من البئر فقال: ما لكما لا تسقيان فقالتا كما حكى الله عز و جل: «لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ» فرحمهما موسى (عليه السلام) و دنا من البئر فقال لمن على البئر أسقي لي دلوا و لكم دلوا و كان الدلو يمدده عشرة رجال فاستقى وحده دلوا لمن على البئر و دلوا لبنتي شعيب و سقى أغنامهما ثم تولى إلى الظل فقال: رب اني لما أنزلت الي من خير فقير -/ كان شديد الجوع.

و فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن أبي عبد الله (عليه السلام) .. فانتهى إلى اصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر و إذا عندها امة من الناس يسقون و إذا جاريتان ضعيفتان و إذا معهما غنيمة لهما «قال ما خطبكما قالتا: أبونا شيخ كبير و نحن جاريتان صغيرتان لا نقدر ان نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقيننا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما:

قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها و قال «رب ..» فلما رجعت إلى أبيهما قال: ما أعجلكما في هذه الساعة؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لأحداهما اذهبي فأعديه لي فجاءته إحداهما ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥

فاستقل موسى بمفرده لإخراجه، مما سمح له منهم ان يسقي لهما قبل النوبة.

و أضف إليها القوة النفسية التي أوقعت في قلوب الرعاة هالة الانجذاب إليه، حيث الناس يتأثرون بالقوات النفسية أكثر من البدنية، فمن الجائر أنهما لمستا منه القوتين فاعترفتا عند أبيهما انه «قوي».

ثم الضعف الطارئ من أعباء السفر الشاق الطويل، على تحوُّف، وحرّ الشمس كما «ثم تولى» منها «الى الظل» هذه مما ينهك القوي، فما أقواه موسى ان تغامض عن كل ذلك وسقا لهما قبل أن يصدر الرعاء دونما أجر حاضر ولا موعود، لإمراضات الله.

«فَسَقَى لهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى» عنهما «إلى الظل» ليستريح عن حرّ الشمس ووعثاء السفر، «تَوَلَّى» دونما تساءل آخر عنهما كيلا يحيل إليهما أنه يريد منهما أجرا، أو يهواهما زواجا بديلا عما سقا لهما، وذلك هو العفاف القاصد القاسط أمام المحاويع من النساء الأغارب، أن تقضى حوائجهن ثم يتولّى عنهن، وهذا أرغب لمن إلى الزواج إن أردنه، حيث التأبي الظاهر من الرجل القوي الأمين مما يثير رغباتهن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦

«تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» وما هو ما أنزل إليه ربّه؟ أهو الحكم والعلم؟ وقد أوتيهما من قبل! أم هو طعام يطعمه إذ كان جائعا مدقعا «١» فقد «و الله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاف بطنه لهزاله وتشذب لحمه» «٢»؟

و «لما أنزلت» تدل على خير منزل عليه ماض، ولو كان هو الطعام الحاضر لم يكن بحاجة إلى دعاء الافتقار، والصيغة الصالحة له «رب اني جائع» ام «فقير لما تنزله من طعام» ام ما شابه! اللهم إلا أن يعنى ب «من خير» القوة البدنية- اضافة إلى الروحية- التي استطاع بها ان يسقي لهما، ففقره إلى هذه القوة يتطلب طعاما يتقوى به ليستمر في هكذا إعانات في وجه الله، ام خير قضاء الحاجة حيث أنزله الله إليه فأدى واجبه، ثم يتطلب من ربه قضاء حاجة الجوع جزاء وفاقا، و «لما أنزلت» دون «إلى ما أنزلت» لحة لطيفة إلى أنه يتسبب بما انزل إليه من خير لقضاء حاجته، حيث اللام

(١). الدر المنثور ٥: ١٢٥- / اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه السلام) لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير- / قال: انه يومئذ فقير إلى كف من تمر

(٢). نوح البلاغة قال (عليه السلام) و ان شئت ثبت بموسى كليم الله صلوات الله عليه إذ يقول «إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» و الله ...

وفي نور الثقلين ٤: ١٢١ في الكافي عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: سأل الطعام، و العياشي عن حفص البخري عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول موسى لفتاه: آتنا غداءنا و قوله «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» قال: اما عنى الطعام فقال ابو عبد الله (عليه السلام) ان موسى لذو جوعات، وعن ليث بن سليم عن أبي جعفر (عليه السلام) شكى موسى إلى ربه الجوع في ثلاثة مواضع: «آتِنَا غَدَاءَنَا ..» «لَا تَخْذُذْ عَلَيَّهِ أَجْرًا»- / «لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٧

هي السببية.

أم يعنى خير قضاء حاجتهما، فهو مفتقر إلى مثله، متأهب لقضاء كل حاجة نازلة اليه من عنده تعالى وذلك من شيم الخيّرين أن الحاجة المعروضة لديهم مهما كانت صعبة القضاء، هي خير منزل من الرب.

كما ويعنى الامرأتين، أنني بحاجة إلى زواج إحداهما، وقد تعني «لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ» كلما ذكر من خير الوحي والقوة البدنية والروحية، وخير قضاء الحاجات، وخير حاجة البطن: الطعام، وخير حاجة الجنس: الزواج، إظهارا للافتقار إلى كل ذلك، وقد ذكرت اللام في «لِمَا أَنْزَلْتَ» لتعم السبب والغاية، لسبب ما أنزلت وإلى ما أنزلت الي من خير فقير، وقد أجاب ربه دعاءه من فوره، وقد يستبعد من ذلك المحتد الرسالي طلب الطعام وله من القوة ما يسقي لها و «لا تحل الصدقة لغني و لا لذي قوة سوي» «١» اللهم إلّاضمن طلباته ليقوى على ما أعان، فعلى أية حال فليس يختص «لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ» بطعام يأكله، إذ لم ينزل عليه بعد إلا عند شعيب، وقد أنزل عليه من قبل الجاريتين بحاجتهما، ولذلك فرع مجيئهما بدعائه كإجابة عاجلة:

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٥.

لما «قال رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» - «فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا» دون فصل إلا قدر السير المرجع إلى أبيها، حال انها «تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ» فان أمرها ظاهر،

(١). التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤: ٢٤٠- / أليس انه (عليه السلام) قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٨

ولا سيما أنها تجيء إليه وهو خلاف المعتود من خطبة النساء، وقد تلمح «على» بتأكد الاستحياء وأنها علت عليه بما جاءته، وإلا ما كانت لتجيبه، وان «استحياء» منكرة تعظمه حيث المعرف «الاستحياء» هو المعروف المعتود من العفاف، فقد كان استحياء عظيما منقطع النظر، وبالفعل جاءته و «قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ ..» جاءته جيئة جيئة في غير ما تبدل ولا تبرج أو إغراء، وإنما للإيواء إلى كريم البواء، جاءته يدعوه في أقصر لفظ وأكثر معنى يحمل استدعاء إجزاء الجزاء دون لفظة أخرى تتغنج بها الفتاة بطبيعة الحال فيتهيج بها الفتى في نفس الحال، كلاً وإنما «أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا»!

و تراه كيف ساغ له اتباع امرأة في قولها، ثم المشي معها وهي أجنبية، وذلك يورث عظيم التهمة؟ وكيف ساغ لشعيب عليه السلام ان يبعث بنته الشابة إلى شاب ولما يعرفه بالعفة؟ وكيف ساغ لموسى تقبل أجر - كما قالت - وقد أعانها لوجه الله، وهذا خلاف المروءة بل وخلاف الشرعة الإلهية إذ لم يعمل ما عمله بجعالة، لا سيما وانه عرف عجز أبيهما وفقر العائلة، ولموسى من القوة ما يحصل بها على مال يحتاجه من غير فقير بمحاولة يسيرة؟.

و الجواب ان موسى انما استجابها إذ عرف من قبل عفافهما، فلمحة الصدق من قولها، وهو غريب في مدين يفتش عن قريب في العقيدة والمأمن.

ثم ولم يستجبها طلب الأجرة، وهي جائزة دون طلب، مهما كانت مطالبتها غير جائزة دون جعل، وانما استجابها إذ تلمح منها و من مجيئها كأنها تعني تحقيق دعائه في الزواج بها، وليس هو في الحق أجرا مهما سمته أجرا، إذ أنكحها بثماني حجج أو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٩

عشر، وقد ينقل متظافرا أنها لما قالت ليجزيك كرهه «١» ولما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له كل، قال موسى عليه السلام أعوذ بالله، قال: و لم، ألسنت جائعا؟ قال: بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً! قال: لا والله ولكنها عادي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل «٢».

و هذه طبيعة الحال في كل التحيات، فقد حياه موسى ان سقى لابنته، فحيته بأحسن منها أن أطعمه وأنكحه إحدى ابنتيه، وقبول التحية المردودة من آداب الايمان: «وَ إِذَا حُيِّئْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها» (٤: ٨٦)، وقد ساغ لشعيب أن يبعثها إليه لما عرف من قوته وأمانته، وذلك أخرى من بعثها لسقى الغنم، «فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ» السابق ذكره «قال»: شعيب «لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إذ ليس مدين داخلا في سلطان فرعون ولا أنه عارف بمكانك، وتراه كيف مشى معها ابتعادا عن

التهمة، وعن النظر إليها؟ لقد تقدمها لكي يأمن عن النظر إليها «٣» وبذلك عرفت أمانته إذ قالت: «إِنَّ حَيَّرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ»:

- (١). التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤: ٢٤١ و روي انها قالت: ..
- (٢). الدر المنثور ٥: ١٢٥- / اخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال لما دخل موسى على شعيب ..
- (٣). نور الثقلين ٤: ١٢٢ عن تفسير القمي من حديث القصة الطويلة عن الباقر (عليه السلام) .. فقام موسى معها و مشت امامه فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى: تأخري و دليني على الطريق بحصاة تلقيها امامي اتبعها فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء .. وعن كتاب كمال الدين و تمام النعمة عنه (عليه السلام) قال لها: وجهيني إلى الطريق و امشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في اعجاز النساء .. وعن من لا يحضره الفقيه روى صفوان بن يحيى عن أبي الحسن (عليه السلام) في قول الله «يا أبتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ حَيَّرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ» قال قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفته برفع الصخرة، الأمين من اين عرفته؟ قالت يا أبة اني مشيت قدامه فقال: امشي من خلفي فان ضللت فأرشديني إلى الطريق فانا قوم لا ننظر في ادبار النساء و عن المجمع قال امير المؤمنين (عليه السلام) لما قالت المرأة هذا قال شعيب: و ما علمك بأمانته و قوته؟ قالت: أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا، و اما أمانته فانه قال لي: امشي خلفي فأنا اكره ان تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٠
- قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ حَيَّرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ٢٦.
- قد تكون «إحداهما»- هذه- هي التي جاءته فوجه شعيب إياها «١» وعلّها أصغرهما «٢» لا ندري، حيث العادة جارية على تقديم الكبرى على الصغرى إلا إذا كانت هي الأولى والأخرى بمن يريدتها، ثم ولا مزرئة على الأخرى.
- و على أية حال «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» إذ نحن بحاجة إلى رجل يعيننا و «إِنَّ حَيَّرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ» وقد جربنا قوته وأمانته «٣» فلتكن القائلة هذه القولة هي التي جاءته إذ جربت أمانته، مهما كانت تجربة القوة لهما معا، وكيف تجرأت ان تقول «يا أبتِ اسْتَأْجِرْهُ» واستيجار مثل هذا الرجل القوي الأمين مهانة؟

- (١). بحار الأنوار ١٣: ٢٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) سئل أيتها زوجة شعيب من بناته؟ قال: التي ذهبت إليه و قالت لأبيها: يا أبتِ اسْتَأْجِرْهُ ..» وفيه (عليه السلام) بسند عن البيهقي قال سألت الرضا (عليه السلام) عن قوله تعالى: «إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ..» أي التي تزوج بها؟ قال: نعم. و في نور الثقلين ٤: ١٢٣ مثلهما في التي تزوج بها
- (٢). الدر المنثور ٥: ١٢٧- / اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟
- فقل أوفاهما، و ان سألوك أيهما تزوج فقل: الصغرى وفيه اخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا سئلت اي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما و أبرهما، و إذا سئلت أي المرأتين تزوج، فقل الصغرى منهما و هي التي جاءت فقالت يأبت استأجره.

(٣). في أحاديث متظافرة مضت أن شعيب سألها دليل قوته و أمانته فقالت، قوته أن سقى لنا ما لم يقدر عليه احد من الرعاء و أمانته انه مشى امامي تحرزا عن النظر إلى خلفي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥١

علها لأنها لم تجد صبيغة أخرى منها لاستجلابه لزواجها عرضا على أبيها، فقد لحت إلى مهرها باجرة الاستتجار، وإلى زواجها باستدعائه أن يظل عندهم، وذلك لا يناسب لإلازواج، والقوة والأمانة هما الدعامتان في صالح الحياة الجماعية، ولا سيما تأسيس الأسرة. ف «نَحَوَتْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» كانت خطوة أولى تطمئنه نفسيا، ثم «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» خطوة ثانية فيها حظوة الجنس ورياحة الجسم من صوت الأنوثة الأنيسة، وما أطفه دعاء للزواج.

و هنا يحس الأب الشيخ الكبير تحاذبا بين الجانبين وثقة متبادلة بين الطرفين، بعد ما تأكد صلوحا في موسى قوة وأمانة، فاستجاب من فوره لاقتراح ابنته:

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجْحٍ فَإِنْ أَمَّمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٢٧.

و ترى «إِحْدَى ابْنَتَيَّ» هي التي قالت يأبت استأجره؟ وصبيغته الصالحة الصريحة «اني أريد ان أنكحك إياها»!، أم هي الأخرى؟ فالأخرى! أن التعمية هنا هي أولا ستار على موقف الأولى ابعادا عن رخصتها، وهي ثانيا تخيير له في اختيار أيتها شاء دونما تسيير عليه بخصر على الأولى.

و قد نتعرف هنا إلى الصبيغة الصالحة للنكاح «أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ» حيث المفعول الأول المنكح هو الزوج، والثاني المنكح له هي الزوجة وكما في اخرى «زَوَّجْنَاكَهَا» (٣٣: ٣٧) (وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» (٤٤: ٥٤) فلا معاكسة في صبيغة النكاح ك «زوجتك نفسي» أما شابه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٢

و هكذا عرضت إحدى ابنتيه ان يأجره أبوها، ثم عرض الأب عليه بكل بساطة زواجه بما عرف الكفائة من الجانبين، عرضاه في غير التواء

لا تحرج، خلاف التقاليد المصطنعة الباطلة التي أصبحت سنة الزواج، إذ تحتم خطبة النساء على الرجال وأوليائهم أو ولائهم، دون جانب المرأة، رغم المخالطة والمكاشفة أحيانا بين بعضهم لبعض دونما خطبة ولا نكاح، فأما إذا حان حين الزواج فلتكن الخطبة من جانب الزوج، وإلا فهي رخيصة بخيسة إذ عرضت نفسها للزوج أو عرضت له! ولقد كانت النساء يعرضهن انفسهن على النبي صلى الله عليه و آله فيؤوي إليه من يشاء منهن ويرجي من يشاء، فيعرضها على من يستصلحه لها، مزودا لمن بتزغيب ودونما تعيب أو تأنيب، ونموذجا من ذلك نص الأحزاب «وَ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» (٥٠).

و ترى كيف يصح كون الصداق لصالح ولي البنت وبقاره: «على أن تأجرني ..»
والصدقات تخص البنات دون الأولياء؟.

علله لأنه كان مؤذونا في الأمرين كما تطلبت اليه: «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» فاستأجره كما استصلح لصالح العائلة عامة وللبنت خاصة، إذ هي من ضمن من يستفيدون من ذلك الايجار، ام انه يحق لولي «إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ التِّكَاحِ» (٢):

٢٣٧) مهما كان موردها العفو عن نصف الصداق إذ لو لم يكن له حق في صداقها لما حق له العفو عنه نصفاً أمّاذاً، وكيف يصح هكذا قرار للصداق حيث لا يعلم الوفاء به إذ ما تدري نفس متى تموت؟ إنه قد لا يصح هكذا، إلا «أن موسى علم أنه سيتم له

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٣

شرطه» (١) فحين لا يعلم الوفاء كان الصداق معلقاً غير مقطوع به فغير صالح للنكاح، أم إن له بديلاً مما ترك بعد موته إن كانت له تركة، وحتى إذا لم تكن فالتصميم على الوفاء مع إمكانيته في ظاهر الحال يكفي صدقاً للصداق، فمن هذا الذي يعلم بيقين أنه يوفي بما ورد في أية معاملة من المعاملات، ومنها الصداقات المؤجلة، بل والمعجلة بعد هنيئة من عقد النكاح إذ من الجائز عدم قدرته على الإنجاز لموت أو فقد مال، وهنا «ثَمَانِي حَجَجٍ» وهي ثمانين سنين، تصرّحة على سابق الفرض في حج البيت، لحدّ كانت تسمى كل سنة حجة «٢» والحجج الثمان هي الصداق الأصيل، والإتمام عشرة نافلة هو بالخيار فيها، وقضية الكرم من مثل موسى إتمامها عشراً وقد أتم وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام «٣».

(١)

. نور الثقلين ٤: ١٢٣ عن المجمع روى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: -/ لما قيل له: فدخل بها قبل ان بمضي الشرط أو بعد انقضاءه؟

قال: قبل ان ينقضي، قبل له: فالرجل يتزوج المرأة و يشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال: ان موسى علم انه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم انه سيبقى حتى يفي

(٢). في تفسير العياشي قال الحلبي سئل ابو عبد الله (عليه السلام) عن البيت أكان يحج قبل ان يبعث النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)؟ قال: نعم و تصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوج «على أن تأجرني ثَمَانِي حَجَجٍ» و لم يقل ثمانين سنين

(٣). الدر المنثور ٥: ١٢٦ -/ اخرج ابن ماجه و البزار و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن عقبه بن المنذر السلمي قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقرأ طس حتى بلغ قصته موسى (عليه السلام) قال: ان موسى آجر نفسه ثمانين سنين أو عشراً على عفة فرجه و طعام بطنه فلما و في الأجل قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أي الأجلين و في موسى؟ قال: أبرهما و أوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباهما ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه ... و رواه مثله في أبر الأجلين و أوفاهما أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) و أبو هريرة نفسه عنه.

وفي نور الثقلين ٤: ١٢٥ عن المجمع روى الواحدى بالإسناد عن ابن عباس قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما و ابطأهما، وفيه مثله عن أبي ذر عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) و عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) لما قيل له: اي الأجلين قضى؟ قال: أتمهما عشر حجج ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٤

أو ليس شاقا على موسى على محتده وعلو مقامه وواجب تحضيره للرسالة المستقبلية أن يؤاجر نفسه ثماني حجج أو عشا؟ حسب الظاهر نعم، وفي الحق لا كما وحه أبوها «و ما أريدُ أنْ أشقَّ عَلَيْكَ» في أصل الثمان ولا في التكملة، وإنما هي مصلحة ككل من صالح إلى صالح «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ..»

و من الصالح في هذه الحجج أن يصبح موسى من رعاة الأغنام قبل ان يرسل رسولا إلى الأنام، فلقد لبثت من عمره ردحا في بلاط النعمة والنعومة، فليعش - ما بينه وبين الرسالة إلى فرعون وملاه وسائر المكلفين - راعيا لأغنام وذلك قدره الذي قدره له ربه «.. و قَتَلْتَ نَفْسًا فَفَجِّنَاكَ مِنَ الْعَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَى. وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (٢٠: ٤٠ - ٤١).

و يا له من اصطناع بارع ليصنع بعد أمة صارمة ضد الفراعنة المحرمين، فقد نقلته يد القدرة الرقبية الربانية منذ رضاعته إلى طفولته وإلى رجولته وحتى ذلك الحين وقد حان حين الوحي الحبيب، وفي هذا الخط الطويل قبل الرسالة وبعدها تجارب منقطعة النظير - لإلحام صلي الله عليه و آله - من تجربة الحياة في جو الفرعنة، ثم الخوف والفرع والمطاردة، وتجربة الجوع والوحدة والغربة، وتجربة رعي الغنم والخدمة بعد حياة القصر.

و هكذا تكون الرسالة الإلهية ضخمة الجوانب والتبعات في مقدمات ومؤخرات،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٥

يحتاج صاحبها إلى عظيم الزاد في سفرته الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء والحرمات عن المشتبهات في هذه الأدنى ليجتاح كل العرفلات، والرسالة الموسوية هي اضخم الرسائل - بعد الرسالة الختمية - فليستعد موساها لكل إعداداتها حتى يجيء على قدر فيها. و عرض قصص موسى في معرض القرآن أكثر من سائر القصص، لأنه أعرض القصص الرسالية، وأشبهها بقصص الرسول محمد صلى الله عليه و آله وليستأنس به في هذا السبيل الشاق الطويل.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيِّتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَ كَيْلٌ ٢٨.

«ذلك» الميعاد «بيني و بينك» مخيرا بين الأجلين لا مسيرا «و الله على ما نقول» في شرط الزواج «وكيل» دونما حاجة إلى شهود آخرين، مما يدل على أن الإشهاد في النكاح غير واجب، مهما كان واجبا في الطلاق.

فقد تمت هنا مواضع العقد بشروطه بلا مجال فيها لغموض، وهنا التعمية من موسى عليه السلام «أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيِّتُ» تأكيدا للتخيير، و فسحا لمجال الإكرام بأوفاهما، وذلك مما ندب إليه في الشريعة الإلهية، أن يزداد في الأجر مهما كانت مماكسة فيه في البداية.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٦

فلما جاء موسى بالبينات

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (٣١) اسألتك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء و اضمم إليك جناحك من الرهب فدانك برهانان من ربك إلى فرعون و ملائه إنهم كانوا قوما فاسقين (٣٢) قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلوني (٣٣) و أخي هارون هو أفصح مي لسانا فأرسله معي

رَدءَا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَ اتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٧

المُفْبُوحِينَ (٤٢)

«قضى موسى الأجل» المعروف بينهما وهو أجل الأجلين دون الأعجل، إكراما لشعيب ومعاملة بمعروف مع أهله كما هو المأمور به في الشريعة الإلهية، وكما

يروى عن النبي صلى الله عليه وآله: «تزوج صغراهما وقضى أوفاهما» (١).

و بالفعل «قضى موسى الأجل» ومضى ما مضى حيث أمضاه، ولا إشارة هنا إلى كيف مضت العشر إذ لا تدخل في صميم القصص الرسالي، مهما أجمله في «تَمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» مما يلمح إلى الصالح الرسالي المستقبل في هذه العشرة مع الأهل، «وَ سَارَ بِأَهْلِهِ» مسيره المترقب المعهود إلى مصر «آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا..» وقد شرحناه في طه والنمل فلا نعيد إلا ما أعيد هنا تكرارا يناسب تفصيل القصص، و «اهله» هنا هم زوجته وولده «٢» وهم ذكور أو بينهم ذكور لمكان الجمع المذكور «امكتوا».

مسير الإياب هنا هو مسير الذهاب نفسه واين مسير من مسير، فهناك كان فريدا شريدا خائفا يتقرب، وهنا «سَارَ بِأَهْلِهِ» مستأنسا بهم وبالنار التي آنسها من جانب الطور يتأهب، ليناديه به ويناجيه بما ينجيه وسائر المستضعفين فيرتوا الأرض «وَ نُورِي فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»! فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٣٠.

(١). تفسير الفخر الرازي ٢٤: ٢٢٤- / اعلم انه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: ..

(٢). في سفر الخروج من التوراة ٤: ٢٠- / انه حمل معه إلى مصر امرأته و بنيه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٨

و هذه إجمال عما فصل في «طه»: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِشُجْرَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» (١٤- ١٦) مما يلمح أن هذه الأصول الثلاثة مستفادة من كلمة التوحيد بإجمال.

و أما محل ذلك النداء فهو «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ» وهو الجانب الأيمن الجامع ليمين الجانب ويمنه «فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ» وهي التي كانت فيها الشجرة، بورك بركة الوحي وقدست: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» (٢٠: ١٢) - (نودي ...» وهذا هو

جانب الطور الأيمن: «وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» (١٩):

(٥٢) فليس إلا مكان الطور «١» في القدس دون سواه: كربلاء «٢» وسواها، فقد جاء يقتبس نارا فاقتبس بديلها نورا «من الشجرة» فلقد كان صوت النداء من سمت الشجرة وهي الزيتون، لا شرقية ولا غربية، بل هي الشرق الأوسطية، حيث الوحي الرباني لا ينحاز إلى شرق أو غرب، بل هو الوسط الرباني المحلّق على مشارق الكون ومغاربه من امكنة المرسل إليهم. و هنا الشجرة ليست إلا وسيط الوحي بحجابها، لا أن الله حل فيها كما لا يحل في سائر حجب الوحي ووسائطه: «وَ مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ» (٤٢: ٥١).

(١)

. نور الثقلين ٤: ١٢٧ عن المجمع روى ابو بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِيهِ نَحْوَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ اخْطَأَ الطَّرِيقَ فَرَأَى نَارًا.

(٢). المصدر (١٢٦) عن تهذيب الأحكام بسند متصل عن مخزومة بن ربعي قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) شاطئ الوادي الأيمن الذي ذكره الله في القرآن هو الفرات و البقعة المباركة هي كربلاء التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٥٩ ف «وحيا» هنا يعنيه دون أي حجاب كما حصل للرسول الأقدس محمد صلى الله عليه و آله ليلة القدر و ليلة المعراج أماهيه من نهار أو ليلة، و «مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» يعني كل حجب الوحي، كلاما في منام أم بواسطة ملك الوحي أم شجرة أماهيه، فالوحي إلى موسى يحمل حجابين اثنين:

الشجرة ولفظ الكلام، و «فَأُوْحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحِيَ»

كان معنى مجردا مجرد عن كل حجاب إلا حجاب الذات، وذلك حين لم يكن بينه وبين الله أحد في مقام «دني» أم ولا نفسه فضلا عن سواه من سائر الحجب في مقام «أو أدنى» حيث «ذَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأُوْحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحِيَ. مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» رؤية معرفية- في قمتها- الله، ورؤية الوحي القمة! لقد تلقى موسى بازغ الوحي بملء كيانه، ووقف في أكرم موقف يلقاه إنسان حيث أصبح موسى الأجير الراعي للأغنام، الرسول الراعي للأنام! هنا «نُودِيَ .. إِيَّيَّيْنَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» وفي طه «نُودِيَ إِيَّيْنَا أَنَا رَبُّكَ» وفي النمل «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٩) مع العلم انه لم يكن النداء إلا بصيغة وحدة عليها هي أولها فاتها أشملها حيث تعني شامل الربوبية له ولسائر العالمين.

ثم «إني» تعني الله المتكلم من إذاعة الشجرة دون الشجرة نفسها وكما يسمع من مسجلة الصوت الآية «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» وليست المسجلة هي القائلة بل هي وسيط إذاعة الصوت أيا كان، فالشجرة كانت- إذنا- مذياع النداء، وكما رسول الوحي إلى الرسل ينقل «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» ثم الرسل ينقلونها لأممهم «إِنِّي أَنَا اللَّهُ»، فلا أن الله حل في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٠

الشجرة وسبحانه، ولا أنها حلت إلى مرقى الربوبية، وإنما الله هو الذي تكلم بحجاب الشجرة كما يتكلم بسائر الحجب. لقد أتاه بازغ الوحي مصحوبا بآية الرسالة الربانية، مطمئنة إياه في عقبات الدعوة الشاقة: وَ أَنْ أَلِّي عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبَلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ٣١.

«نُودِي .. أُنَّ يَا مُوسَى .. وَ أَنْ أَلْقِي عَصَاكَ» إلقاء الإلغاء حيث كانت متكك، عساك ان تأتي فرعون و ملأه برهان مبين، فألقاها فأصبحت كأنها جان «فَلَمَّا رَأَاهَا نَهَتْهُرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ» تلتوى على كبرها، وكأنها حية صغيرة تحن نفسها وتحفيها «وَلَى» موسى خوفا منها «وَمَا يُعَقِّبُ» ليراها مرة اخرى، فقلنا «يا مُوسَى أَقْبِلْ» إليها «و لا تخف» منها «إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ» عندنا، لا يصيبك ممّا أية أذى ف «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢٧: ١١).

و مهما ظلمت أنت نفسك بما قتلت القبطي خطأ ولكنك بدلت حسنا بعد سوء، من حسن التوبة، وحسن الغربة أجيرا في مدين «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» (٢٠):

(٤٠)، فهنا «لا تخف» في مقام الخوف المتعود ل «إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ» وأما في مقام الأمن فيقال: «خف» عن زهوة الأمن وزهرة حياة الأمن وكل في محله فلكل مجال حال.

اسئلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٣٢.

«اسئلك يَدَكَ ..» تعني: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦١

(١٢: ٢٧) و «اضمّم يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى» (٢٠):

(٢٢) فقد كان إدخالا خاصا بضمّ إلى جناحه وسلك فيه وهو النافذ الراكز، تعابير ثلاثة عن ذلك الإدخال، وكيف هنا «وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ» وفي طه «وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ»؟ (٢٢) إن جناح طه هو الجيب هنا المسلكة يده فيه وهو تحت إبطه اليسرى، والجناح هنا هو اليد اليمنى التي أصبحت مرتخية كالجناح فليضمها الى اليسرى، وإنما سميت اليد جناحا بعد ما أصبحت بيضاء لأنها أصبحت من الرهب كالجناح، كأنها تريد ان تطير من رهبها ورهب حية العصا.

«تَخْرُجُ بَيْضَاءَ» ولم تكن، لكنها «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» من برص خلاف نص التوراة:

«ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج» (الخروج ٤: ٦)! (فدانك» قلب العصا حية تسعى واليد البيضاء «بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» و ماذا تعني إذا «وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ»؟ أتعني نفس السلك؟ و قد ذكر قبل دون فصل! أم ان يضم جناحه اليه من رهب جان العصا، ان يجمع يديه على صدره إذا عرضه خوف عند مشاهدة حية العصا ليذهب ما في قلبه من الروع؟ وقد سبق «أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ» كما و لا يناسبه الفصل بينهما بأية اخرى!.

أم تعني أن يتخذ لنفسه سيماء الخاشع فلا يزد هي بزهوة المكانة الرسالية مفرجا بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته، بل يخفض جناحه للمؤمنين كما أمر الرسول صلى الله عليه و آله: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (١٥: ٨٨)؟ ولا تناسبه «من الرهب» حيث الرسالة لا ترهب الرسول بل تعجبه وترغبه! ثم وموقف الرسالة إلى فرعون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٢

وملاّه ليس موقف خفض الجناح!، فقد تعني ضم جناحه من رهب الآتين، فكما حية العصا ترهب، كذلك اليد البيضاء ترهب فترتخي كجناح الطائر الخائف، فليضمها إليه استتصالا لظاهرة الرهب.

أم وكما أمر بأخذ عصاه «حُذِّهَا وَ لَا تَخَفْ سُنْعِيْهَا سِيْرَتَهَا الْأُولَى» (٢٠: ٢١) كذلك امر بضم يده التي أصبحت كجناح الطائر المرتخي، ضما من الرهب، ف «من» قد تكون سببية تعني أن الرهب يسبب ضم جناحه إليه ليزول ذلك الرهب بزوال البياض الطارئ من إدخالها في جيبه.

أم ان «من الرهب» متعلقة بمحذوف «جناحك» الكائن «من الرهب» إذ أصبحت يدك من الرهب جناحا، فاضمها إليك قبضا عن الانبساط والارتحاء استمتصالا للرهب وزوالا للبياض المسبب للرهب.

و علّ «جناحك» تعني يديه إذ تطلق على الجناحين واليدين الجانحين، مهما كانت اليمنى هي الأصل في ذلك الضم، رجعا لها إلى ما كانت من قبل ليذهب عنه الرهب.

«فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ» من ربك تربية رسالية، إلى فرعون إنذارا رساليا ل «إِنَّهُمْ كَانُوا» على مرّ حياتهم الجهنمية «قَوْمًا فَاسِقِينَ» خارجين عن طورهم.

و كيف هنا «برهانان» وفي النمل «وَ أَذْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» (١٢).

علّه لأهما الأصل فيها كلها، ام ان الباقية صادرة عنهما إذا فهما التسع في الأصل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٣

وباقى التسع فروعهما! قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٣٣ وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٣٤.

«قال رب» الذي ربيتني لهذه الرسالة السامية، إن أمامي عقبتين كتودتين قد تعرفلان الدعوة أو الداعية، اما الداعية ف «إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» وأما الدعوة، فان لم يقتلوني «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» فأنا إذا بين قتل الدعوة وقتل الداعية، وليس هذا اعتذارا عن أصل الرسالة وتقاعصا عنها وانتكاسا، وإنما يعرض حاله الحرجة ليطمئننه ربه فيها، ولا سيما بالنسبة لتصديق الدعوة، فإنها هي المهمة الأولى للداعية مهما قتل دونهما، ولذلك تراه لم يتطلب من ربه علاجا صراحا عن قتله، وإنما العلاج المستدعى في «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» وهو «أخي هارون» هو أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي» مما يبين ان مهمة الداعية هي نفاذ الدعوة مهما قتل في سبيلها!

و كيف «أخي هارون» هو أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا» ولا بد لولي العزم من الرسل أن يكون أفصح من سائر الرسل كما هو أصلح؟ إنها فصاحة وقتية وليست أصلية، فقد كانت في لسان موسى عقدة عن الإفصاح الكامل، لا لرتة في لسانه، بل لأنه قتل منهم نفسا، والمذنب عند قوم لا ينطلق لسانه كما يجب: «وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ» (٢٦: ١٣) - قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ اخْلُصْ عُنُقَهُ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي...» (٢٠: ٣٢) وقد شرحناها في طه بما لا مزيد عليه فلا نعيد.

و هلا يكذبون أخاه هارون وهو أهون تكذيبا منه كولي له في الرسالة؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٤

إنه يعني افصاحا كاملا للدعوة، بعيدا عن التكذيب، أو أن يؤثر فيها التكذيب، وإنما أنا المذنب عندهم لا ينطلق لساني في بزوغ الدعوة كما يجب، وقد يأخذني الغضب فيحجج موقف الدعوة والداعية، واخي هارون هو أفصح مني في صيغة الدعوة، وإن كذبت

يصدقني فيها تزويدا في البيان وتأكيذا لصدق الدعوة، وتبيننا للبرهنة، إذ لا تكفي الآية المبصرة ما لم تزود بآية الحججة البصيرة، ومزيج الآيتين يأتي حجة بينة لا مدخل إلى تكذيبها. ولأن «ردءا» هي المتابعة للإعانة فقد تطلّب إلى ربه أن يجعله ويراه يزر عنه عبء الرسالة الحرجة، و «ردءا» مصدرا مبالغة في تلك الوزارة المعنية ألا شغل له في ذلك الحقل إلا الوزارة دونما استقلال ولا استغلال.

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ٣٥.

«عضدك» هنا هو عضد الرسالة ان يعاضد فيها بأخيه «و نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» قاهرا على فرعون وملاه، دون اي سلطان لهم عليكما لا قتلا ولا تكديبا، إذا فهو سلطان القوة إلى سلطان الحججة لمكان «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا» قتلا أو تكديبا «بآياتنا» التي هي السلطان نفسه، فذلك السلطان- الآيات- له جانبان، جانب المنعة عن الوصول إليكما: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا» وجانب الغلبة لكما عليهم: «بآياتنا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ» «١»، و قد تعني «آياتنا» هنا كل التسع التي أرسل بها إليهم، و هي الطالعة من العصا ومن يده البيضاء، ومن تلك الغلبة الموعودة الشاملة

(١). ف «بآياتنا» هنا تتعلق ب «لا يصلون» و «الغالبون» و ما أجمله جمعا بينهما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٥

نتلمح أن السحرة ما صلبوا بما آمنوا، لأنهم أصبحوا من أفضل «من معكم» فقد غلبوا على فرعون كونا إذ لم يصلبوا وكيانا في الحججة الغالبة لأن سحرهم- فقط- كان حجة، وهم أولاء الذين آمنوا بموسى دونما تخوف من تألب أو تصلب وسواه، متصلبين في هداة. و هذه طمأنة ربانية للداعية على طول خط الدعوة فلا يخاف عقبة في أولها وعقبها، فإنهما لم يذهبا إلى الطاغية مجردين حتى يخافاه، بل هما مزودان بسلطان لا يقف له أي سلطان، من أي كان وأيان، سياج صارم لا قبل لهم به.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ٣٦.

«جاءهم موسى» ومعه هارون «بآياتنا» التسع حالكونها «بينات» لا خفاء فيها ولا ريبة تعترتها «قالوا» فرعون وملاه «ما هذا» الذي جاء به موسى «إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ» على الله «و ما سَمِعْنَا بِهَذَا» الذي يقوله «في آبائنا الأولين».

و كيف ما سمعوا بهذا في آباءهم الأولين، فالموحدون منهم أسمعوهم التوحيد والوحي مصدقين، والمشركون كذلك مهما كانوا مكذابين؟.

و كيف «ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ» به على الله انه آية؟ «أ فَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ» (٥٢: ١٥) (أ سِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ» (١٠: ٧٧) فأتوا بسحر مثله إن كنتم صادقين، أنتم وآباءكم الأولون.

و إنها قولة لعينة لثيمة مكرورة على طول الخط ضد الرسائل الربانية، بنفس الصيغة نجدها من المشركين زمن الرسول صلى الله عليه و آله كأنهم تواصلوا بها في سلسلتهم النكيدة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٦

المكيدة! وَ قَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٣٧.

رد مهذب مبرهن مؤدب، وكأنه لا يحمل برهانا عليهم وهو يحمل اتقن برهان «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ» وهي كحجة مرسلتي المسيح (عليه السلام)، «قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (٣٦: ١٦) فالتربية الربانية الرسالية باهرة في أعمالا وأقوالا وأحوالا،

وفيما معي من رقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج ٢٢، ص: ٣٤٩

آيات بينات، و «اعلم» ب «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» وهي الحياة العاقبة حيث تعقب حياة العرقلة الكافرة «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» لهم- فقط- دون الطاغين، ل «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» بل يفلجون مهما ارعدوا وعربدوا لردح من الزمن طال أم قصر. وقد تعني الدار هنا الدار الدنيا إلى جنب الآخرة حيث تشملهما لفظة الدار: «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٣: ١٢٨)- (تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَى نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) (٢٨: ٨٣).

فالحال الحاضرة لنا بكل حجة باهرة تضمن لنا البقاء دونكم، ثم لنا- لا لكم- عاقبة الدار، فلو كنا مفتزين على الله كذبا فلن نفلح إذا ابدا، ونحن المفلحون في العاقبة الآجلة كما نحن في العاجلة بما معنا من سلطان مبین.

و ما كان رد فرعون على هذه الحجة الأدبية العجيبة إلا كلمة مكرورة رديئة:
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَ إِيَّيَّ لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٧

هذه قالة الفرعون اللعينة المهينة «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» كأنه يحيط علما بكل شيء فإذا لا يعلم لها غيره فلا إله- إذن- غيره، يقولها فرعون قاهرا دون ان يسمح لمخ أن يفكر، ولا للسان أن يعبر إلا سمعا وطاعة، وتشبهها قائلته الأخرى: «ما أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» (٢٠: ٢٩).

لقد قلب هنا امر كلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» بمقلوبها «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» أي: لا إله إلا أنا! وقد يعني ب «ما علمت .. جهله، ولذلك يأمر ببناء صرح ويقول «إِيَّيَّ لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فلو كان يعني ب «علمت» عدم إله غيره بصورة قاطعة لما صحت حيلته الثانية والثالثة، اللهم إلا تماشيا وتنازلا من علمه المحيط المدعى، وهو بدون هذه الدعوى الخاوية ليست حيلته الأولى حجة على السلب بل هي سلبه للحجة، وقد ينتج بسلبها لعدم ثبوت إله غيره، فليفتش عنه في السماوات بأسبابها بعد الأرض، ولو كان لبنان! ثم ولكي يؤكد سلبيته الماكرة يأمر هامان ببناء صرح رفيع يصعد عليه لعله يطلع إلى إله موسى، فيتأكد انه ليس في السماء كما لم يجده في الأرض، وكأن إله موسى ساكن السماء أو ساكن الأرض!. و «ما عَلِمْتُ لَكُمْ» قالة مكرورة على ألسنة الماديين الناكرين لوجود الله كشريطة تدار، إننا ما ودناه بأي من حواسنا، فليس- إذن- كائنا، متجاهلين عن ان الكائنات لا تنحصر بالإدراكات الحسية، وحتى لو انحصرت بما فلا يحيط بها أحد علما حتى يصح القول:

ما لا نجاهه فهو غير موجود! أجل يصلح القول: ما علمت فليس كائنا، للذي يحيط علما بكل شيء وهو الله تعالى شأنه العزيز: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَنْصُرُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَمَا لِي بِاللَّهِ بِعَدُوٌّ أَوْ كَرِيمٌ» (١٠: ١٨).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٨

في الأرض شُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (١٠: ١٨). هناك كيد أول «ما علمت ..»
وكيد ثان «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ ..» وثالث «إِيَّيَّ لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ» كلها ادعاءات جوفاء خواء يصارح بها على ملأه ولا يخاف ردا عليه ولا نكيرا.

و قد نلمس عمق الحمق الفرعوني من كيده الأوسط وهو بناء صرح، وقد كان يكفيه ان يصعد أعلى جبل في مصر، وهو دون شك أرفع مما بينيه هامان خلال سنين! ثم السماء لا تخص محل الصرح لا طولا ولا عرضا، حتى إذا لم يطلع إلى إله موسى من على صرحه فليس الإله- لو أنه في السماء- في سائر السماء!.

فمثله كمثل الذي ينكر وود الذهب في الكون كله، لأنه لم يجدها عنده أو في الأفق الذي يعيشه! وما أحق هؤلاء الذين سمعوا قائلته هذه الحمقاء ولم يردوا عليه! وأحق منها قائلته الأخرى: «يا هامان ابن لي صرحاً لعلِّي أبلغُ الأسبابَ. أسبابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كاذباً...» (٤٠: ٣٧) «١».

وكيف بالإمكان بلوغ أسباب السماوات بالصعود على صرح، ولو كان هو الإله فكيف يترجى ذلك البلوغ وما هو ببالغ؟ و «إله موسى» هنا وهناك- وعَلَّهما وحد مذكور بصيغتين- إنه تعريض عليه لو أن هناك إلهاً غيري فليس إلا إله موسى وليس إلهي وإلهكم! لقد تقولها الطاغية في بداية المواجهة، كما تقول أخرى في النهاية «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» وبين الكلمتين أربعون سنة «٢».

(١). هناك في تفسير آية المؤمن بحث فصل عن اسباب السماوات فليراجع

(٢). الدر المنثور ٥: ١٢٩- / اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمتان قالهما فرعون... كان بينهما أربعون عاما فأخذه الله نكال الآخرة والأولى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٦٩

وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩.

و لما يبلغ الاستكبار إلى هذا العمق من الحق، أن لا إله إلا أنا، ظنا منهم «أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ» وهم يحسبونهم علما ألا إله إلا فرعون، ولا مرجع إلى الله، فلا علاج لهؤلاء الحماقي الأنكاد إلا أخذاً ونبذاً: فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠.

هذه عاقبتهم يوم الدنيا فكيف- إذن- عاقبتهم يوم الدين، وقد تبين «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

و يا له من اختصار حاسم قاصم، أخذ ونبذ في اليم كما تنبذ الثقلات وتحذف الحصاة، نبذ في ذلك اليم تليصاً، اليم الذي القي فيه موسى تليصاً، هذا مأمون وملجأ، وذلك مكمّن عليه ومهلكة ومضجع «فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١.

جعل تكويني لإمامتهم النارية يعني أنه تعالى ما منعهم عنها كما لم يمنعهم قسراً عن كفرهم، فخلّى بينهم وبين ضلالهم وإضلالهم، ثم يدرهم في طغيانهم يعمهون «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (٧: ١٨٣).

ف «جعلناهم» بين مثلث التكوين تحييراً في ضلال وإضلال، ثم ايكالاً لهم إلى أنفسهم جزاء واقا: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»- «وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ» (٤١: ٢٥) (وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٠

لَهُ قَرِينٌ. وَ إِنَّهُمْ لَيَصْطَدُونَ عَنْ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» (٤٣: ٣٦) (أَمْ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوَهُمْ أَرْزًا» (١٩: ٨٣).

هكذا جعلناهم بما بغوا وطغوا، كما عكسناه لآخرين «وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» (٣٢: ٢٤) واين جعل من جعل، والآخر تشريعي إلى كونه تكوينيا جزاء وفاقا «١».

و لقد كانت الفراعنة في كل التاريخ أئمة الضلال «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» مناوئين لأئمة الهدى الذين يدعون إلى النور.

وَ اتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢.

«اتبعناهم» بدعواتهم العينية «في هذه الدنيا لعنة» حيث «لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْتَأْلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (٢٩: ١٣) (وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (٣٦: ١٢). فكل لعنة تابعة لضلال من ضل بإضلالهم، «اتبعناهم» إياها مع تابعيهم، كلا على قدره وقدره «وَ لَا يُظَلِّمُونَ تَقِيرًا»، ف «من سن سنة سيئة كان عليه وزمن عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيء». فهم من المقبوحين في الدارين، والملعونين في النشأتين، عائشين أجواء

(١). نور الثقلين ٤: ١٣٠ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال: إن الأئمة في كتاب الله عز و جل امامان قال الله تعالى: «وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» لا بأمر الناس يقدمون امر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم، قال: «وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» يقدمون أمرهم قبل امر الله و حكمهم قبل حكم الله و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز و جل التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧١

الاشتمزاز والتعزز، خلاف الضفة الهادية، حيث تعيش جو الإعزاز والتعزز. و كما فرعون وملاه هم أقبح المستكبرين في التاريخ، كذلك موسى الرسول عليه السلام هو أفضل الرسل في التاريخ الرسالي بعد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و آله وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم مائة وستة وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة بتفصيل قصصه أو إجمالها كما تقتضيه الحال ويناسبه المجال، مما يدل على أن له المكانة الثانية بعد الرسول صلى الله عليه و آله في الرسالة النبوة الإمامة، فقد كان «رَسُولًا نَبِيًّا» (١٩: ٥٢) إماما من أولي العزم (٣٣: ٧ و ٤٢: ١٣) كما وكتابه إمام (٤٦: ٥٢) وفرقان وضياء وذكر (٢١: ٤٨) فيها هدى ونور (٥: ٤٤).

و بين التوراة الحاضرة والقرآن اختلافات شاسعة في قصص موسى وهارون مع فرعون: فالقرآن يوحد فرعون الذي أخذه ورباه والذي أرسل إليه، والتوراة تفرق «١» ثم وهنا بازغ النداء الرسالي إلى موسى من الشجرة المباركة في القدس بعد الرحيل عن مدين، وهناك في مدين نفسه «٢» وهنا ألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى، وهناك لم يؤمنوا بل عارضوا موسى «٣» وهنا صانع العجل هو السامري، وهناك هارون النبي عليه السلام «٤» وهنا ملقي العصا هو موسى عليه السلام وهناك هو هارون بأمر موسى عليه السلام «٥» وإلى أمثال هذه من اختلافات تكشف عن اختلافات توراتية أهمها

- (١). سفر الخروج ٣: ٢٣
- (٢). في التوراة ان أبا زوجة موسى هو يثرون كاهن مديان دون شعيب
- (٣). الخروج الاصحاح ٧ و ٨
- (٤). الاصحاح ٣٢ من الخروج
- (٥). الاصحاح السابع من الخروج

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٢
البشارات المحمدية فيها، وقد نذكرها مقارنة بطيات الآيات.

من نبأ موسى

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ
 مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ
 نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَ لَوْ لَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَ
 نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أَوْيِيْنَا مِثْلَ مَا أَوْيِيْنَا مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْيِيْنَا مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا
 سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ
 يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَ لَقَدْ
 وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ بِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَ
 إِذَا سَأَعُوا اللَّعْنَةَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ
 لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٣

بِالْمُهْتَدِينَ (٢٨ : ٥٦)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣ . و لقد « تأكيدان
 تؤكدان ضرورة إتياء الكتاب «من بعد ما أهلكنا القرون الأولى» وهي التي قبل قرنه منذ قرن نوح وعاد وثمود إلى قرن فرعون ومن بينهم
 من المهلكين «آتينا موسى الكتاب»: التوراة «بصائر للناس»:

تبصرهم تأريخ الهالكين وعاقبة الظالمين، تأتي البصائر توصيفة غالبية في الذكر الحكيم خمسا، ثلاثا تخصه نفسه: «فَدَّ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ
 رَبِّكُمْ» (١٠٤ : ٦) - (هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٧ : ٢٠٣) - (هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لِقَوْمٍ
 يُؤْفِقُونَ» (٤٥ : ٢٠).

و رابعة لآليات الرسالية الموسوية: «ما أنزل هؤلاء إلا رب السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصَائِرَ» (١٧ : ١٠٢) و خامسة للتوراة كما هنا.

و القرآن هو مجمع البصائر في كلتا المرحلتين، هما مقسومتان على توراة موسى ومعجزاته واين بصائر من بصائر؟.

ثم «بصائر» هي جمع «بصيرة» وقد تكون تاءها للمبالغة كما «الإنسان على نفسه بصيرة» (٧٥ : ١٤)

مبالغة اطلاعه على نفسه، وبصيرة التوراة وآيات موسى فضلا عن بصيرة القرآن هي مبالغة في الإبصار، كأنها التي تبصر الناظرين إليها،
 أو تبصر نفسها لهم لشدة التماعها واشراققتها كما «وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً» (١٧ : ١٢) بصيرة تجلب إلى الإبصار إليها لمحجتها
 البيضاء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٤

«بصائر للناس و هدى» مصدرا هي نفس الهداية و خالصها دون شوب، «و رحمة» و ذلك المثلث البارح من الإضاءة و الإلماع
 «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» الحق فيه يؤمنون.

وَ مَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٤٤. وَ مَا كُنْتُ» بطبيعة الحال و لما كَوْنْتُ «بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ» من الوادي «إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ» الرساليّ بإنزال التوراة «وَ مَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ» صورة القضية إذ ذاك، ولكننا بينها لك وكالشمس في رابعة النهار.

وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنْتُ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٤٥.
«مَا كُنْتُ .. وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا» منهم «فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ» أغفلا و جهالا ثم أشهدناك قصصهم «وَ مَا كُنْتُ ثَاوِيًا» مقيما «فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» لترى ما مضى على شعيب وموسى فيها «مَا كُنْتُ .. تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» لترى ردة الفعل منهم «وَ لَكِنَّا كُنَّا» على طول خط التكليف «مرسلين» دوما وفقة في إرسال الرسل، و «مرسلين» إياك ل «تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا».

وَ مَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتُنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦.
«بِجَانِبِ الطُّورِ» من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة «إِذْ نَادَيْتُنَا» أول ما نادينا «ما كنت» لا هنا ولا هناك لتسمع النداء والوحي فعلم ما علمه موسى «و لكن» ناديناك وأنزلنا إليك الكتاب «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» في قمتها العالية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٥

المنقطعة النظير بين كل بشير ونذير «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» في الفترة الرسالية البعيدة المدى، «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» فأمرك- إذن- يا محمد صلى الله عليه و آله أصعب من أمر موسى، ولأن عبأك أثقل ورسالتك أعلى وأشمل، فطريقك أطول وأعضل، فاصبر يا حامل الرسالة الأخيرة التي تحمل جوهرة خالدة من كل الرسالات.

و قد تلمح «ما كنت إذ قضينا ونادين» أن جرى ذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما نودي إلى موسى وقضى إليه، وكما نجده في بشارات تورانية باقية حتى الآن رغم تطاولات التحريفات والتجديفات! وهنا روايات تؤيد تلك اللمحة الألامعة بحق الرسول صلى الله عليه و آله وأمته «١».

(١). الدر المنثور ٥: ١٣٠- / اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال: اي رب هل أحد أكرم عليك مني قربتي نجيا و كلمتي تكليما؟ قال: نعم محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) أكرم علي منك، قال: فان كان محمد أكرم علي منك فهل امة محمد أكرم من بني إسرائيل فقلت لهم البحر و انجيتهم من فرعون و عمله و أطعمتهم المن و السلوى؟ قال: نعم امة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) أكرم علي من بني إسرائيل، قال: الهي أرنيهم، قال: انك لن تراهم و إن شئت أسمعك صوتهم، قال: نعم، فنأدى ربنا امة محمد أجيبوا ربكم فأجابوا و هم في أصلاب آباءهم و أرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا لبيك ربنا حقا و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم و انا ربكم و أنتم عبيدي حقا و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم و انا ربكم و أنتم عبيدي حقا قد غفرت لكم قبل ان تدعوني و أعطيتكم قبل ان تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة» أقول علّه تعالى أسمعهم صوتا يشبه صوتهم إذ لا صوت لمن في الأصلاب و الأرحام ذرا و لا عقل و لا تكليف!.

وفي نور الثقلين ٤: ١٣٠ عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الأخبار المتفرقة حديث طويل و فيه ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال:- / و ذكر ما في معناه بزيادة قبل فضل أمته هي «قال موسى يا رب فان كان محمد أكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي؟ قال الله جل جلاله يا موسى اما علمت ان فضل آل

محمد على جميع آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين، و زيادة اخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم): يا موسى لن تراهم و ليس هذا أو أن ظهورهم و لكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن و الفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون و في خيارها يتبجحون أفنحب ان أسمعك كلامهم ... و عبارة اخرى هي التلبيات بدلا عما مضت: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد و النعمة و الملك لك لا شريك لك، قال: فجعل الله عز و جل تلك الإجابة شعار الحاج ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٦

وَ لَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧.

«لو لا» امتناعية تمنع «مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» في الدنيا، وعلّ الجواب بقريئة «لَوْ لَا أَرْسَلْتَ ..» هو: لما أرسلنا رسولا، وذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن الدنيا دار جزاء، وانهم لا يحتجون على الله «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ..» ولكنهم محتجون لو لا الإرسال رغم ما قدمت أيديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي، فيرسل الله رسلا تترى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِقَالًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» (٤: ١٦٥) - (يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٥: ١٩):

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ٤٨.

«فَلَمَّا جَاءَهُمُ» هؤلاء المشركين وأهل الكتاب أجمعين «الحق» رسول الحق محمد صلى الله عليه و آله بالكتاب الحق في بعدي الشريعة وآية الرسالة «قالوا» المشركون «لَوْ لَا أَوْتِي» محمد «مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى» من كتاب وآية رسالية، فلا أن القرآن مثل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٧

التوراة، ولا معجزة القرآن كآيات الرسالية لموسى.

و هنا أجوبة ثلاث حلا و نقضا وتحديا اكتفي هنا بالثاني: ألم يكفروا ذلك الجليل المشرك بكل الرسالات «أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ» كما كفروا بما أوتيت يا محمد من بعد «١» إذ «قالوا» فيك وفي موسى على سواء «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ».

و الحل «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (٦: ١٢٤) - (أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ» (٢٩: ٥١) و ليست من لزامات آيات الرسالات المشاهدة إلا في التذليل على صدقها وهي دالة حيثما حلت، فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أوتي موسى من قبل، فهنا الاعتذار باعتراض: «لَوْ لَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى» مردود عليهم بنقض المثل «أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا ..» فما ذا تفيدهم المماثلة المقترحة لإماتلة الكفر، و لا يزيدون غير تحسير.

كما و «قالوا» أهل الكتاب هودا أو نصارى نفس القالة: «وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ..» (٦: ١٢٤).

(أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ» كفرا بإشراك حيث عبدوا العجل، و كفرا في

(١). الواو في «أَوْ لَمْ» عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة و الرسالة الأخيرة، فهم في ثالث الكفر بالرسالة ما تشابه

منها و سواها.

ثم «من قبل» كما تتعلق ب «أ و لم يكفروا ..» قصدا إلى المشركين زمن موسى، كذلك تتعلق ب «ما أوتي موسى» قصدا إلى الحاضرين، توحيدا بين الحاضرين و الغابرين في ذلك الكفر المماثل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٨

مواضع عدة كقصة البقرة واضرابها، وكفرا بالبشارات المحمدية المودوعة في التوراة «قالوا» هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى و هارون، وللتوراة والقرآن «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» لا «ساحران» تعميقا في فرية السحر كأن كل كيان الكتابين والرسولين سحر «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ»!

و مهما كان المعنيان معنيين من «سحران» ولكنما الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له «أهدى مِنْهُمَا» كجواب التحدي فيهما: «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» بغير مظهرهما كأهما آية بينة، وأظهر القول هنا هو من المشركين، والكتايبون معنيون على هامشهم، فالنقض يشملهما جميعا مهما اختلفت دركاتهما في كفرهما، وإلى جواب ثالث تحديا ان يأتوا بمثل التوراة والقرآن:

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ بَعْدَ أَنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٩.

و حين لا بد في الرسالات الإلهية من كتب الوحي «فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا»: التوراة والقرآن «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في فرية السحر، فأتوا من عند الله بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه، وذلك تنازل في التحدي، فانه من وجهة اخرى قبلها «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٢: ٢٣).

و ترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدى مطلقة حتى يتحدى بها؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصلية، أم والحاضرة المهيم علىها القرآن مخطئا أخطاءها ومصوبا صوابها، ثم التحدي بهما جميعا ولا أهدى منهما جميعا ولا مثلا لهما!، ثم الهدى في بعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بعد الحجة للداعية.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٧٩

هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٠.

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ» ولن «فاعلم» ثباتا على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي «انما» ليس إلا «يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ» لا عقولهم المتحللة عنها، غير المحجوبة بها، وذلك هو الضلال البعيد.

موسى آنس نور الوحي نارا

هنا حلقة سريعة من الرسالة الموسوية تلقيا للوحي من النور النار في الشجرة، تدليلا على ان تلقي القرآن ليس بدعا من تلقي الوحي، فمن كان في ريب منه فليذكر:

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سآتِيكُمْ مِنْهَا بَحْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧.

هنا «اهله» لا تعني - فقط - زوجته بنت شعيب، بل ومعها غيرها من ود وسواهم لمكان «سَاتِيكُمْ .. تَصْطَلُونَ» والجمع ولا سيما المذكور منه لا يؤتى به لواحدة.

«إِنِّي آنستُ نارا ..» وحقيقة الإناس هي الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها ويسكن إليها، ويا له من إناس بعد الإياس في قرّ الليل المظلم بوعثاء السفر، وفي خبر انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء «١».

و قد كانت النيران توفد في البرية فوق المرتفعات لهدي السالكين في الليالي، فظنها كأنها منها، دون تأكد فيها حيث «آنسْتُ ناراً» ولا تنافيه «إذْ رَأَى ناراً..» (٢٠):

(١). نور الثقلين ٣: ٣٧٣ عن الباقر (عليه السلام) في «آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ .. كان قد اخطأ الطريق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٠

١٠) حيث الرؤية قد تكون إيناسا دوغما اطمئنان، لذلك «سَ آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..» ترددنا بين «خبر» علّه خير السماء، وبين «بشهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»: استيقادا بصلاء شهاب قبس مقتبس من النار، فالشهاب هو الشعلة الساطعة من النار المشتعلة، والقبس هو المقبس منها.

و علّ «لعلكم» هنا تختص ب «آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ» فعندئذ «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» وأما «خبر» ف «سَاتِيكُمْ ..» كأنه متأكد هنا من خبر السماء في النار، ام مطمئن اليه أكثر من اصل النار، وقد ذكرت في طه كما هنا وبعكس الترتيب: «إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» فقد تختص «لعلّي» بالأولى، ثم «أو أجد» دون «نجد»- «عَلَى النَّارِ هُدًى» خارجة عن «لعلّي» كأنها متأكدة ام راجحة مطمئنة، ثم النص «إِنِّي آنَسْتُ ناراً..» دون «إنّا» ولو كانت هي النار المرئية لأي راء لرأته اهله معه! وهذه ترجيحة اخرى لما ذكرنا، ان الهدى الرسالية هي الراجحة، بل ولأنها كانت هي المترقبة لموسى وبعد تأجيل ذلك الرشح البعيد من الزمن، فيخبر- إذا- بهذه الفروسية اللامعة:

«سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ» هنا، و «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى»- وكما فصلنا- في طه!.

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨).

هنا «فَلَمَّا جَاءَهَا» وفي طه «فَلَمَّا أَتَاهَا ..» وهما تتجاوبان في معنى: حضر عندها، ثم هنا «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ...» و في طه «... نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ..» فقد كانت النداء من الشجرة المباركة الزيتون المحلقة عليها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨١

نار النور ونور النار: كما في القصص: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (٣٠).

«.. نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ..».

و ترى «مَنْ فِي النَّارِ» هو الله سبحانه وتعالى، بذاته المقدسة المتعالية عن الحدّ والمكان؟ و «بورك» الرامية إلى حادث البركة على من في النار تبعده عن ساحته تعالى، تقريبا إلى من باركه الله في هذه النار، كما و «سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» تسبحة وتنزهه عن ان يحل في نار أو نور هي من مربوبيه وهو رب العالمين، فقد متى المتى فليس له متى، ومكّن المكان فليس له مكان! ام «مَنْ فِي النَّارِ» هو من ظهر سلطانه وقدرته ورحمته في النار؟ ولا يعبر عن سلطانه ورحمة ب «من»! ولا تحلّ قدرته في شيء، ناراً ام غير نار! فلا تعني «مَنْ فِي النَّارِ» لا ذاته سبحانه ولا صفاته، حيث البركة هي منه إلى خلقه، فكيف «بورك»؟ ومن هو الذي باركه؟ ام بارك نفسه ما لم يكن باركها من ذي قبل! «سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»! قد يعني «مَنْ فِي النَّارِ» روح القدس، المبارك هنا بحمل الوحي الرسالي لموسى، ف «من حولها» هو موسى حيث بورك بذلك الوحي.

أم «مَنْ فِي النَّارِ» هو موسى بمن معه من وسيط الوحي أم ليس معه، حيث «أتاها» فحصل في جو النور النار، ف «من حولها» هم الأنبياء الإسرائيليون الذين بوركوا بوحي السماء وهم مدفونون حول الواد المقدس، في القدس وما حولها. و على أية حال فلا تخلوا هذه البركة الخاصة في «بورك» عن ويط الوحي ومن أوحى اليه، والمحور الأصيل هنا هو موسى، دون ذات الله او صفاته تعالى «و سُبْحَانَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٢

اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» عن هذه الشطحات الزور والغرور!.

إنما نور كانت تترائي نارا قضية ظلم الليل وعدم وح الوحي فيه، نور وادة خلقها الله على الشجرة المباركة في الواد المقدس، ولقد مضت هذه البقعة في سجل الوجود في الكيان الرسالي مباركة مقدسة بتجلي الوحي الموسوي فيها، تلقيا لوحي التورات كما «وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْفُرَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

يا موسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩.

«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلُغْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى...» (٢٠: ١٣) - (.. نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» ٣٠:

«إني أنا ربك- الله رب العالمين- العزيز الحكيم» تلمح كمجموعة ان صيغة النداء كانت تشملها كلها، فمثلت التعبير مطوي فيها، وفي كل مجاله من عرضها تأتي ما تناسبها من هذه الثلاث.

وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَيِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ١٠.

«لدي» هنا تعني لدنية القرب في القمة المعرفية الرسالية، إذ يلقي فيها الوحي، لا فحسب العلم والقدرة إذ يشملان كل كائن أيا كان وأيان، و «جان» هي الحية الصغيرة الناعمة، فقد اهتزت عصاه بشاكلة كأَنَّهَا جَانٌّ على كبرها حية تسعى ف «وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَيِّبْ» خوفا منها، فإذا بخطاب رب العزة «يا موسى لا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» ولقد كان من حقه أن يخاف جانَّ العصا ولما يتقدم من ربه الأيمن والأول.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٣

يخف، إذ كانت عصاه سلاحه الذي يدفع به، فإذا هي حية تسعى، فلا قرار- إذا- إلا الفرار من عصاه المقلوبة من أمنه وتأمينه إلى بأسه، وقد ظلم نفسه من ذي قبل:

«رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ...»!

و ترى ان «لا تخف» إخبار عن وقع يستغرق كل المرسلين قضية الرسالة وانهم «لدي»؟ فلما ذا خاف موسى هنا- وقد بدأت رسالته بالوحي الرسالي- من آيته الرسالية؟ وذلك تكذيب لما أخبر الله به «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ...» أو تكذيب- لكونه رسول الله! لأنه لم يكن «لدي»؟ وهو لدى الله في موقف الوحي الرسالي بآية من آياته! أم لم يكن حينه من المرسلين؟

و هو رسول بسند الوحي وآية الرسالة، ام ان هذه الضابطة مخصصة في موسى؟

وهي آية عن التخصيص! ولو خصصت فلما ذا إذا «لا تخف» سنادا إلى نفس الضابطة: «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ»!

عَلَّه دَاخِلٌ فِي الْمُسْتَنَى: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ»: انتقاصا قبل الرسالة:

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢٨: ١٦).

فقد ظلم نفسه من قبل دونما تقصير ثم بدل حسنا بعد سوء فغفر له ربه، إذا فقد يكون من: **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١.**

فهو بعد غفره تعالى لا يخاف لدى الله فيما يأمره به الله مهما ظهر جانا أو ثعبانا، بل هو من الآمنين: «يا موسى أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» مهما كنت قبل من «مَنْ ظَلَمَ» ولكنك بدلت بعد حسنا بعد سوء «فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»، ف «لا تخف» المعلن ب «إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» هناك، وب «لا يخاف لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٤

هنا، نهي عن خوفه من ظلمه لمكان غفره تعالى، وكأنه خيّل إليه الجان المحوّل عن عصاه، عساه جزاء عن ظلمه، غضبا عن غفره وتعالى تطامنا وتدللا.

و انقطاع الاستثناء هنا لا يرجع إلى معنى صالح فانه «لا يخاف .. إلا من ظلم ثم غفر» وليس للمغفور له أن يخاف كما ليس لغير الظالم ان يخاف، فاما الخائف هو الظالم غير المغفور له وهو خارج عن نص الآية.

و قد يقال «لا يخاف .. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ» ولما يغفر له، فلا يخفف «فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»؟ ولكن حصر الخوف لدى الله بمن بدل، حسر له عمن ظلم ولم يبدل وهو أحق أن يخاف لدى الله! ف «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» اخبار حال كونها إنشاء لسلب الخوف لدى الله عن ساحة المرسلين، وحتى من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم، فهو إذا من الآمنين، ليس له ان يخاف لدى الله بعد ذلك الغفر الأمين. ويا له من مسرح الخوفة المولية له مدبرا دون تعقيب، إذ ألقى عصاه فإذا هي تدب وتسعى بسرعة هائلة كأنها جان، فأدركت موسى طبيعة الانفعالية، وهزته هزتها المفاجئة التي لم تك تحظر ببال، وهو في تلك الحال المباركة «بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ» فيجري في جريه موليّا دون تفكير في الرجوع، فيأتيه النداء الحنون المنون «يا موسى لا تخف إني لا يخاف لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ...» وهذه ضابطة شاملة انه انما يخاف لدى الله «من ظلم» ثم لم يبدل حسنا بعد سوء، وهلا يخاف غير الظالم الله كما لا يخاف لدى الله؟ طبعا يخاف الله ويخشاه حيث الخوف والخشية من الله هما قضية الضعة الكاملة أمام الله، ف «لا يخاف لَدَيَّ» لا تنفي إلا الخوف عما يخيف من الكائنات المخيفة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٥

كحية العصا أمآذا؟ جزاء الظلم، فاما الله ف «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» بالله، العارفين قدر الله.

خوف وخشية عن الله هما قضية العلم بالله، وخوف لدى الله ام سواء عما سوى الله هو قضية عصيان الله، ف

«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» «١».

فقد كان يخاف موسى لما ظلم نفسه «وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢٦):

(١٤) (فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) (٣٤: ٢٨)، وهذا خوف من غير الله قضية الانتقاص بجنب الله.

ثم هنالك خوف من الله قضية العلم بالله «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٣: ١٧٥) (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

قَمْطَرِيرًا) (٧٦: ٢٠) أم خوف في الله حفاظا على شرعة الله: «وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» (٨):

(٥٨).

فهنا خوف صالح وخوف طالح وعوان بين ذلك، وموسى ينهى عن العوان، وكلنا منهيون عن طالحه الى صالحة.

و الآن بعد ذلك الحنان من الرب المنان، وقد اطمأن موسى الى أمن الحضور ورحمته يؤمر مرة ثانية بأية أخرى:

(١). عيون الأخبار عن الامام الرضا (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٦

وَ أَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ ١٢ .

لماذا «في جيبك» دون كَمَّكَ الداخلة يدك فيه دونما حاجة إلى إدخال؟

علَّه لم يكن له كم فليدخلها في جيبه، ام ليتأكد انها أصبحت «بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» وإلا فعلها كانت في كفه، ومنذ فترة قصيرة بيضاء من سوء برص، فلا يجديه نفعاً: «و أخرج يدك من كملك»!.

ثم «في تِسْعِ آيَاتٍ» هل تعني كل الآيات الموسوية وهي أكثر منها؟

كلًا، وإنما هي التي «إلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» «١» دون الباقية الخاصة ببني إسرائيل كما فصلناها في الأسرى على ضوء: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...» (١٠١).

ولم يأت هنا بعدد الآيات التسع إلاّ اثنتين والسبع الأخرى مسرودة في الأعراف؟

حيث التركيز على قوة الآيات وهما نموذجتان من اقوامها لنعرف المكذبين بها ما أغواهم.

و قد تعني «في تِسْعِ آيَاتٍ» اليد والعصا، حيث التسع كلها ظهرت منهما، إذا فهما التسع في الأصل وكل التسع فروعها.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ .

ولماذا «هذا» و «آياتنا» تتطلب «هذه»؟ علَّه لأنها قولتهم الهاتكة لها دون قول

(١). و التسعة هي: ١- اليد البيضاء، ٢- ثعبان العصا، ٣- الطوفان، ٤- الجراد، ٥- القمل، ٦- الضفادع، ٧- الدم،

٨- ضرب الأموال بنقص و طمس و أخذهم بالنسين، ٩- فلق البحر.

و الآيات الخاصة ببني إسرائيل هي: ١- نطق الجبل، ٢- تفجير اثنتي عشرة عينا، ٣- المن و السلوى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٧

الله، فهم تغامضوا عن عديد الآيات، وحتى عن أنها آية إلهية، فلم يعتبروها إلاّ شيئا وامرا ما غير خارق للعادة، رغم انها مبصرة لمن ابصر

إليها وبها، ولكنهم كانوا قوما عمين ف «قالوا هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ» لا ريب فيه حيث يبين سحره للناظرين، وقد سبق لهم المسرح العظيم

من صراع السحرة مع موسى في محشر الناظرين، وثبت للساحرين أنفسهم ان ما جاء به موسى آية بينة من رب العالمين! ولماذا مبصرة،

وكل آيات الله مبصرة؟ علَّها توصيفة تأكيدية لفرقة وتبيينية لآخرين! أم أن الآيات غير المبصرة حسيا أبعد عن المحجة وان كانت اقرب

الى المحجة واثبت، وآيات موسى كلها مبصرة.

ولماذا «مبصرة» والإبصار إنما هو للناظرين؟ علَّها مبالغة في ووحها كأنها هي التي تبصر الناظرين لشدة لمعانها، فتجلب الناظر لينظر

إليها، إذا فهي مبصرة في ذاتها، دون حاجة إلى دافع آخر، لكونها خارقة للعادة بينة لا غبار عليها.

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُّوا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٤ .

هؤلاء الأغاد المناكيد «جَحَدُوا بِهَا»: الآيات المبصرة «و» الحال انهم «اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ» حيث تجاوزت أبصارهم إلى عقولهم، وشملت أنفسهم اللهم إلا قلوبهم المقلوبة عن الهدى، المليئة من الردى، «جَحَدُوا بِهَا» لا عن اقتناع أو شبهة فيها أو ريبة تعريها، وإنما «ظُلْمًا وَ غُلُوًّا» جحداً بألسنتهم رغم استيقان أنفسهم، حيث القلوب قاسية لا تحن إلى هدى مهما استيقنت النفوس.

ف «أنفسهم» هنا لا تشمل قلوبهم، فان ظنها فضلاً عن استيقانها يحمل أصحابها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٨

على التصديق.

و قد يلمح هنا الاستيقان دون الإيقان إلى استثناء قلوبهم عن أنفسهم، فقد كانت حواسهم وافكارهم وعقولهم ومعها فطرهم تتطلب إيقان قلوبهم لأنها ذرائع الايمان والإيقان، ولكنهم «جَحَدُوا بِهَا» بألسنتهم وقلوبهم «و اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ» بسائر ادراكاتهم، تغافلا عنها وتجاهلا عن تطلباتها، «ظلمًا» بأنفسهم وبالحق والذرائع الموصلة اليه، فقد ظلموا حواسهم الى فطرهم وفكرهم وعقولهم، وتنازلوا عن استيقانها لقلوبهم، «و علوا» على الله ورسله برسالاته، فذلك الظلم الفاتك عبّد طريقهم إلى علوهم، فصدوا منافذ الهدى عن قلوبهم، وفتحوا مسالك الردى إليها فحتم الله عليها بما ظلموا وعلوا!.

هذه الآيات المبصرة كانت مستيقنة تطلب اليقين، ثم وحواسهم بسائر ادراكاتهم كانت تستيقن هذه الآيات تطلبا ليقين القلوب، ولكنهم «جَحَدُوا بِهَا ... ظُلْمًا وَ غُلُوًّا» تنازلا و تغافلا عن كل ادراكاتهم و حتى الحسية الحيوانية، فهم أصبحوا أنزل من الحيوان وأنذل وأضل سبيلا، حيث تحلّوا عن كافة الإحساسات والنفسيات انسانية وحيوانية!.

و ذلك هو أسفل دركات الجحود بالحق (فانظر» عبر التاريخ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» نظرا إلى مهالكهم بما ظلموا وعلوا «و ما الله بغافلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» فقد أفسدوا ذوات أنفسهم، وأفسدوا بذلك البلاد ومستضعفي العباد!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٨٩

من نبأ موسى (ع)

وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَ مَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مِآرِبٌ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَحْفَ سَعِيدُهَا سَبَرَهَا الْأُولَى (٢١) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢) لِنُرْيَاكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَقْفُوهَا قَوْلِي (٢٨) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)

وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠ وَ هَلْ أَتَاكَ؟» ومتى أتاه ومن أين وهو أمي «و ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» (٤٢: ٥٣) إلا ان يأتيه بالوحي، وقد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٠

ذكرت القصة في القصص بتفصيل أكثر مما هنا، وهي بطبيعة الحال مؤخرة عن «طه» وإلا فقد أتاه حديث موسى ان كانت مقدمة عليها، مهما كان في النقلين فوارق تكمل كل الأخرى، والاستفهام هنا لتقرير العجائب عن حديث موسى واولى به ثم اولى. فالقصص تقص الذي حصل لموسى قبل قصته هنا، وهذا بداية الوحي الرسالي لموسى بعد وحي النبأ من ذي قبل: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُخَوِّضُ الْمُحْسِنِينَ» (٢٨: ١٤).

«إِذْ رَأَى نَارًا» «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (٢٨: ٢٩):-

«فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» مكثا يسيرا «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» والإيناس هنا مما يلمح أنه كان في برد قارص كما يدل عليه «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ» «أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» كما تلمح انه ضل الطريق وكان الليل مظلمًا «أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» «١» وكما يقال انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء وبردة قراء، وريح عاصفة وغنم له متفرقة وطلق الزوجة، فرا نارًا فقال لأهله امكثوا، كأنهم كانوا ناظرين فرجة إلهية وهي الآن على مشارفها!

و قد نحتدي من «أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» الى تفرسه من هذه النار هدى رسالية بعد

(١). نور الثقلين ٣: ٣٧٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: آتاكم منها بقبس «يقول:

آتاكم بقبس من النار تصطلون من البرد او أجد على النار هدى- / كان قد اخطأ الطريق- / يقول: او أجد على النار طريقًا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩١

ضلاله في سنينه العشر، كما «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» قد يخبر بهذه الفروسية.

و طبيعة الحال في هذه الفترة الطائلة عشر سنين تقتضي ان يتفرس في رجعته هذه من النار نورا «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ»- «أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» وعلى هامشه القبس الجذوة لعلكم تصطلون، «أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» لعلكم تتمدون.

هنا موسى- وهو بمنصرفه من مدين الى مصر ومعه اهله- يأنس من جانب الطور نارًا، وذلك- بطبيعة الحال- استئناس شخصي لموسى دون اهله، وإلا فلما ذا «إِذْ رَأَى نَارًا» دون اهله؟ ولو كانت اهله ترى ما يرى فلما ذا «قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» دون «أَلَا تَسْتَأْذِنُوا نَارًا» وقد أكد شخصية الرؤية ب «إِنِّي» ثم «لَعَلِّي آتِيكُمْ» دون «تعالوا معي الى النار» مما يؤكد ان رؤية النار وأنسها كانت له دوغم، فقد يطمئن انه نفرس من النار نورا، فان كانت نارًا ف «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ»- «أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» وان كانت نورا «أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» دون «نجد» إذا فهي في الأصل هدى شخصية، مهما كانت على هامشها هدى الطريق لأهله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ».

و ترى أكانت معه زوجته فقط لمكان «اهله»؟ اهله هنا هم جماعة، منهم زوجته لمكان «امكثوا- تصطلون»! وقد تركهم بعد هذه القالة المرذدة ثم لا خبر عنم حتى نهاية الرسالة.

و ان قصص موسى هي أكثر القصص المقصودة في الذكر الحكيم، محلقة على الحياة الولادية والرسالية الموسوية في بنودها الأصيلة، التي تمت بصلة في الدعوة الرسالية وما تبناها او تبنته من موادها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٢

و هي تعرض بمختلف المسارح المناسبة في سور عدّة كما تناسب جوّ السورة، وهنا في «طه» يسبقها مطلع يشفّ عن رحمته تعالى ورعايته لمن يصطفيهم لحمل أعباء الرسالة، وبلاغ الدعوة، طمئنة وذكرى لخاطر الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله القريح الجريح من أذى المشركين ولظاهم وكما هي الحال في ذكريات سائر الرسالات «وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» (١١) : (١٢٠).

و كما هي في سائر مجالاتها وحلقاتها، إذا فلا تكرر في جلواتها، إلا تكررًا لمجالاتها المناسبة لها، كلّ على قدر. و ترى كيف «را ناراً» وهي في الحق كان نورا تشبه النار؟ انها في رؤيته البدائية ومن بعد كانت ناراً! ولأنه لم يتأكد كونها ناراً قال «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» دون «رأيت ناراً» ثم «لعلي» مرددة بين «آتَيْكُمْ مِنْهَا بِقَبْسٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى» تؤكد انه لم يتأكد كونها ناراً، مهما احتملت «لعلي» عدم التأكد من احد الأمرين إذا كانت ناراً، وهي قائمة مقام إن شاء الله!. و النيران خمس: نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى، ونار محرقة بلا نور وهي نار جهنم، ونار تجمعهما وهي المعروفة لدينا، ونار لا حرقة فيها بالفعل ولا نور وهي نار الشجر الأخضر فمنه توقدون، ونار كلّ مادة تظهر في التفجرات الذرية. و «خديثٌ موسى إذ رأى ناراً» هو ما حدث له بالفعل لأول مرة في بزوغ الوحي الرسالي، ولماذا «أَجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى» دون «مِنَ النَّارِ» لأن قضية الحال في النار الموقدة في الصحراء أن عندها أهلا عليها فهم يهدوننا الطريق، ام إن على النار نفسها هدى وكما اهتدى بما أوحى له منها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٣

ثم «قبس» كما هنا، و «جدوة» كما في القصص هما بمعنى، وهو قطعة منها تتجزى «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» وتستوقدون فتعملون بما لأنفسكم ناراً بما تكتفون «١».

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

(١). الدر المنثور ٤: ٢٩٠- / اخرج احمد في الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن وهب ابن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسيرا حتى وقف منها قريبا فإذا هو بنار عظيمة تغور من ورق شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق لا تزداد النار فيما يرى الا عظما و تضرما و لا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرة و حسنا فوقف ينظر لا يدري ما يصنع الا انه قد ظن انها شجرة تحترق و أوقد إليها موقد فناها فاحترقت و انه انما يمنع النار شدة خضرتها و كثرة مائها و كثافة ورقها و عظم جذعها فوضع أمرها على هذا فوقف و هو يطعم ان يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال عليه ذلك اهدى إليها بضعت في يده و هو يريد ان يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها وهاب ثم عاد فطاف بها و لم تنزل تطعمه و يطعم بها ثم لم يكن شيء باوشك من خمودها فاشتد عند ذلك عجبه و فكر موسى في أمرها فقال هي نار ممنعة لا يقتبس منها و لكنها تتضرم في جوف شجرة فلا تحرقها ثم خمودها على قدر عظمتها في أوشك من طرفة عين فلما رأى موسى ذلك قال ان لهذه شأننا ثم وضع أمرها على انها مأمورة او مصنوعة لا يدري من أمرها و لا بما أمرت و لا من صنعها و لا لم صنعت فوقف متحيرا لا يدري أيرجع ام يقيم فيبنا هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها فإذا هو أشد مما كان خضرة ساطعة في السماء ينظر إليها يغشى الظلام ثم لم تنزل الخضرة تنورا تصفر و تبيض حتى صارت نورا ساطعا عمودا بين السماء و الأرض عليه مثل شعاع الشمس تكلّ دونه الأبصار كلما نظر اليه يكاد يخطف بصره فعند ذلك اشتد خوفه و حزنه فرد يده على عينيه و لصق بالأرض و سمع الحنين و الوجس الا انه سمع

حينئذ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عظماً فلما بلغ موسى الكرب و اشتد عليه الهول نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعاً و ما يدري من دعاه و ما كان سرعة اجابته الا استنساها بالانس فقال لبيك مرارا ابني لا سمع صوتك و أحس حسك و لا ارى مكانك فأين أنت! قال: أنا فوقك و معك و خلفك و اقرب إليك من نفسك فلما سمع هذا موسى علم انه لا ينبغي هذا الا لربه فأيقن به فقال: كذلك أنت يا الهي فكلامك أسمع ام رسولك، قال: بل انا الذي أكلمك، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ثم تحامل حتى استقل قائما فرعدت فرائصه حتى اختلفت و اضطربت رجلاه و انقطع لسانه و انكسر قلبه و لم يبق منه عظم يحمل آخر فهو بمنزلة الميت الا ان روح الحياة تجري فيه ثم زحف على ذلك و هو مرعوب حتى وقف قريبا من الشجرة التي نودي منها فقال له الرب تبارك و تعالی: ما تلك يمينك ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٤

طوى ١٢ .

و أخيرا أتاهما «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى» أمن النار ام من الشجرة الطالعة منه النار، تقص لنا القصة انها من الشجرة المنورة المباركة:

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (٣٠) وطبعا من النور المتطلعة عليها «إِذْ رَأَى نَارًا...».

أو كان هناك في الشجرة ام نارها النور تجل من الله، حتى نودي موسى منها «يا موسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ؟» حتى لا يهرف هارف ويحرف خارف «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» قائلا:

روا باشد «انا الحق» از درختي چرا نبود روا از نيکبختي!:

إذا جاز لشجرة ان تقول: ابني انا الله، فلما ذا لم يجز من سعيد مثلي: منصور الحلاج- ام با يزيد البسطامي- أن أقول: انا الله، حيث تجلى فيّ الله كما في الشجرة.

نص الآية «نودي يا موسى- من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة-: ابني انا الله» فالشجرة- إذا- هي- فقط- مذياع النداء من نورها، وليس يلزمه ان يكون المذيع بذاته فيها، وكما الملائكة يحملون ندا آت الله ولا يحملون ذات الله، فالنداء- كما الشجرة والنار النور- هي من فعل الله، ومهما كان لنداء الله سميت وصوت، فليس لذات الله سبحانه سميت ولا صوت، وانما خلق منه كسائر خلقه، من دون لسان ولا شفه ولا أي عضو، فانما صوت مخلوق في الشجرة، كما يخلق في الألسنة، والفارق هو خرق المتعود من الصوت النداء، وكما ان اصل الوحي خرق لعادة التعليم، فذلك النداء خارقة في خارقة، بارقة في بارقة نور النار في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٥

الشجرة المباركة الميمونة. لقد كانت هذه النداء الربانية من نور من هذه الشجرة من جانب الطور الأيمن «وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُثُ بِالذُّهْنِ وَ صَبْغٍ لِلْأَكْلِيلِ» (٢٣: ٢٠) و هي الزيتون «وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» (١٩: ٥٢) (وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (٢٨: ٤٦) (وَ الطُّورُ. وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ» (٥٢: ١) (وَ طُورِ سَيْنَاءَ» (٩٥: ٢).

آيات بينات تتجاوب مع بعض في مذياع النداء لموسى انه النور الساطع من الشجرة الزيتون في البقعة المباركة من شاطئ الواد الأيمن، دون ان يكون المذيع ما كنا فيها، ام متجليا لها، اللهم إلابأنوار وحيه في صوغ كلامه لسوق وحيه الى موساه، ولذلك يقول هنا «إِنِّي أَنَا

رُبُّكَ» وهي هنا ربوبية الوحي، وهناك «إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» حيث الوحي موجّه الى العالمين «ربك» ويا إيلك و «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فانه بلاغ منك الى العالمين!

فلقد كان يرجو نارا فأوتى نورا ف «كن لما لا ترجو أرجي منك لما ترجو فان موسى عليه السلام ذهب يقتبس نارا فانصرف إليهم وهو رسول نبي فأصلح الله تبارك وتعالى أمر عبده ونبيه موسى في ليلة وكذلك الله تعالى يفعل بالقائم الثاني عشر من الأئمة يصلح الله امره في ليلة كما أصلح الله امر موسى ويخرجه من الحيرة والغيبة الى نور الفرج والظهور» «١».

و قد عبر عن محييء وحيه بجيئته تعالى لأنه إتيان ربوبيته الى رسله وكما في

(١). بحار الأنوار ١٣: ٤٤ عن أبي عبد الله (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٦

الأصل العبراني في التورات تبشيرا بمهابط الوحي الثلاثة:

وزمت هير أخاه أشر برخ موشه إيش ها إلهيم إت بني إسرائيل لفني موتوا ويومر يهواه مسيني باو. زارح مسعير لاموا هو فيع مهر فاران وآتاه مرببت قدش مي مينوا إيش دات لاموا». (سفر التثنية ٣٣: ١-٢).

«و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته ١ وقال: الله من سيناء جاء. تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران، وورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية» «١».

و قد جاء مثلها في دعاء السمات «و بمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران، وطلعتك في ساعير، وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين».

و على أية حال فلا تجلّي هناك للذات ولن يكون، وانما جلوات من ربوبية الوحي على موسى كما على المسيح ومحمد عليهما السلام وسائر المرسلين مهما اختلفت الدرجات والكيفيات.

«فَلَمَّا أَتَاهَا» وفي خلدته أن يقتبس منها قبسا لعلهم يصطلون أو يجد على النار هدى، فإذا فاجتته هذه الجيئة بندا من الرب، وطبعا هو عرف انما نداه دون ريب، فان ذلك هو طبيعة الحال في الوحي وان لم تسبق له سابقة، فالذي يوحي الى عبده، يوحي له معه انه وحيه، فانه لزام استقرار الوحي في مستقره، دون أية ريبة فيه، ولا

(١). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٤٤- / ٥٣ تجد تفصيل البيان حول هذه البشارة الموسوية و من حبقوق

النبي (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٧

شبهة تعتريه.

لا فحسب رجالات الوحي يعرفون نداء الوحي، بل الإلهامات الإلهية- كذلك- معروفة لدى أهلها قضية تقوى الله، والتوسم الحاصل منها:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» (٨: ٢٩) وكلما كانت التقوى أقوى فالفرقان على ضوئها أقوى، حتى إذا كانت عاصمة معصومة، ففرقاتها ايضا عاصم معصوم، لا يخالجه شك ولا ريبة.

وقد يروى انه «لما نودي يا موسى قال عليه السلام من المتكلم؟ فقال: انا ربك- فوسوس اليه إبليس اللعين لعلك تسمع كلام شيطان! فقال عليه السلام: انا عرفت انه كلام الله تعالى باني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء!».

و مهما يكن من شيء فلا ريب انه عرف كونه كلام الرب وحياً ومن سائر الجهات، إذ كان الكلام دون جهة من النور خارق العادات، سمعه بكل كيانه سمع الأذن والقلب، وسمع الفؤاد المتفؤد بنور المعرفة القممة، فأصبح هو بكله سمعا وسماعا. و قد تنادي «نودي» مجهولاً، دون «ناديته» أن لم تكن نور الشجرة مجلى لذات الرب سبحانه، وانما خلق فيها صوت النداء دون جهة خاصة.

و على أية حال كان ذلك وحياً دون وسيط ملك الوحي، مهما كان بوسيط كلام من لسان النور الساطع من الشجرة، حجابان اثنان، حيث الوحي درجات عدة كما يقول الله تعالى:

«وَ مَا كَانَ لِيَبْشِرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ مَا يَشَاءُ» (٤٢: ٥١).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٨

فقرن «وحياً» ب «مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قرينة انه يعني وحياً بلا أي حجاب، اللهم إلاحجاب الذات القدسية الألوهية، وقد حصل الوحي - فقط- للرسول الأقدس محمد صلى الله عليه و آله ليلة المعراج، ام وليلة القدر حيث انزل عليه القرآن المحكم، دون اي ويط، لا ملك الوحي، ولا كلام ولا نور ولا نار ولا شجرة أمأهيه من وسائل وحجب، وانما من الرب الى قلبه القدسي الرسالي القممة: «فَأُوحِيَ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»

و هو في مقام «او أدنى» وهو لما تدلّى، خالعا نعل نفسه وحجاب ذاته بعد سائر الحجب، فلم يكن حينئذ بينه وبين الله أحد حتى نفسه! «١».

و قد لا يكون سائر الوحي الى سائر رجالات الوحي أمام ذلك الوحي وكما في الشورى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّينا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...» (١٣).

كما وان صاحب ذلك الوحي القممة كأنه هو الرسول النبي لا سواه، بما طواه وحواه، وهو لامح من آيات عدة تخاطبه كأنه هو الرسول لا سواه.

و اما متن النداء الأولى لموسى- وما أمتنها وأمكنها في قلبه بما طواه وحوى- فهو:

«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» ابني المكلّم إياك «انا» لا سواي «ربك» بروبية رحيمية خاصة «فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى».

و في مفاجأة هذه الجيفة، بهذه المشاهدة المنيعه، لقد كان القلب يحف والكيان

(١). راجع الفرقان تفسير سورة النجم حول آيات المعراج

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٩٩

يرتجف، موسى الفريد في صمت محيّم، بليل دامس، ويرد قارص وهو كارث، واهل بلا حارس، فإذا بنداء لم تسبق لها نظير «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ...»!

فأين هذه الذرة الصغيرة الهزيلة التي تتلاعب بها الرياح، وواجهة الجلال الذي لا تدركه الأبصار، وتجار دون معرفته الأفكار، وتتضائل في ظله الظليل كل حقير وجليل، اين هي كما هيه وتلقي ذلك النداء العال من الرب المتعال، لولا اختياره؟!.

و انما لحظة ترتفع فيها البشرية، فبحسبها ان يليق في جزء من أجزائها ان تتصل هكذا بالملا الأعلى، وأفضل منه وأعلى، أن يخاطبها الله بتلك النداء!.

«يا موسى إني أنا ربك فأخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» فأنت الآن يا موسى بقرب من الحضرة العلوية، فتجرد عن نعليك، ولا تطأ الوادي بهما وهو مجلى الطلعة المقدسة الربانية!.

أ ترى «فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ» ل «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ»؟ وقد كان يعلم موسى أنه هو ربه ولم يكن خالغ نعليه، وليس الذي حدث الآن معرفة له جديدة انه هو ربه حتى يخلع نعليه ل «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ»! ثم وليس على كل موحد لله ان يخلع نعليه على أية حال، وانما «فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ» «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

و الواد المقدس الذي طواه، هو واد الوحي الرسالي، وهو اقدس واد في الكون، فليكن طوايه أقدس من في الكون، وخلع النعلين هو من كمال القداسة المناسبة لواد الوحي.

عرفنا الواد المقدس وهو مهبط الوحي فما هي «طوى» التي طوى ذكرها آيتا طوى ثانيتهما النازعات «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٠

قد تكون «طوى» اسما للواد المقدس، ام اسم وطوله لأن الوصول اليه بحاجة الى طي مسافات بعيدة من مسالك المعرفة والعبودية أما هيه، ولكنه يقتضي قلب التعبير ك «انك بطوى الواد المقدس» فالواد بدل- إذا- عن طوى ام عطف بيان.

ام هي مصدر الطي، منصرفة خلاف الأولى، حالا عن الواد المقدس وعن موسى، فهي بمعنى الفاعل والمفعول مبالغة في الطي، فاعلا للواد المقدس حيث طوى موسى، ومفعولا لموسى المطوي به عما سوى الله، وعما سوى الوحي، فليخلع نعليه اللذين طواه عن نور الوحي، فليكن موسى طوى كما الواد المقدس طوى، طيا عما طواه وحواه من حجب، الى ما طواه من الوحي وحواه في الواد المقدس، فلما طوى ما طوى عن اهله وتحلل عنهم وسواهم، طواه الله بالوحي بعد انتشار حاله وتفرق باله.

و قد تكون «طوى» مثلث المعنى، اسما وفيا للواد المقدس وحالا عنه وعن موسى، ويا له من سمو المعنى.

ثم وما هما النعلان اللذان امر هنا لك بخلعهما «فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى»؟ أما نعلنا رجليه؟ إذ كانتا من جلد حمار ميت «١» و لبس الميتة غير مشكور، وهو في الصلاة محذور، وطوى الواد المقدس هي كالصلاة بل اولى، لذلك فرعت «فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ» على «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» وكان الواجب عليه خلعهما دون امر، مع ما في لبسهما في الصلاة والواد من غضاضة» «٢».

(١)

. تفسير البرهان ٣: ٣٣ ابن بابويه في الفقيه سئل الصادق (عليه السلام) عن الآية قال: كانتا من جلد حمار ميت و في الدر المنثور

٤: ٣٩٢ اخرج عبد الرزاق و الفريابي و عبد بن حميد و ابن أبي حاكم عن علي (عليه السلام) مثله

(٢). نور الثقلين ٣: ٣٧٣ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجّة القائم (ع) حديث

طويل و فيه قلت فاخبرني يا بن رسول الله عن امر الله لنبيه موسى: «فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» فان فقهاء الفريقين يزعمون انما كانت من إهاب الميتة قال صلوات الله عليه من قال ذلك فقد افتري على موسى و استجهله في نبوته لأنه ما خلا الأمر

فيها من خطيئتين: اما ان تكون صلاة موسى فيها جائزة او غير جائزة فان كانت صلاته جائزة جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة و ان كانت مقدسة مطهرة فليست بأقدس و اطهر من الصلاة و ان كانت صلاته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى (عليه السلام) انه لم يعرف الحلال من الحرام و علم ما جاز فيه الصلاة و ما لم يجوز و هذا كفر، قلت فاخبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال صلوات الله عليه ان موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال يا رب اني قد أخلصت لك المحبة مني و غسلت قلبي عن سواك و كان شديد الحب لأهله فقال الله تعالى: اخلع نعليك أي انزع حب أهلك من قلبك ان كانت محبتك لي خالصة و قلبك من الميل الى من سواي مغسول».

أقول هذا الحديث معارض بما تقدم، ثم هو متهافت من جهات عدة، منها «جاز لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة» و هي مقدسة حسب نص الآية! اثم «فليست بأقدس و اطهر من الصلاة» و هي اقدس منها لأنها بقعة الوحي و معراجها ارفع من معراج الصلاة! ثم «فقد أوجب الله على موسى انه لم يعرف الحلال من الحرام» و لماذا، فحين لا يعرف انها بقعة مباركة، على الله ان يعرفه كما عرفه «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى» و لما عرف خلع نعليه، ثم «و علم ما جاز فيه الصلاة و ما لم يجوز و هذا كفر»، ماذا يعني؟ فهل هو علمه بالنسبة للصلاة و جهله حكمه بالواد المقدس، و أين الكفر هنا او الفسق و الوحي يعلمه هنا انه الواد المقدس فاخلع، ثم لا نعلم ان ذلك الخلع كان واجبا في الصلاة كما هنا ام لا، إذا فالحديث متضارب في نفسه بعد تعارضه الحديث الأول، و عل الحق ما قلناه في المتن- / تأمل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠١

إلا أننا لا نعرف غضاظتها في الشرعة الموسوية وحتى في الصلاة! ولبس الميتة لا يلازم صحبتها في الصلاة، بل ولا يصح لبس النعل الطاهرة فيها لقداسة الموقف، وقدسية الواد كانت بحاجة الى بيان وقد تبين «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى».

قد يعني «نعليك» مصاديق لهما عدة، أولاها في المظهر وأولاها في الظهور هما النعلان الملبوستان، وهذه طبيعة الحال في كل واد مقدس يطوي ورده طيا وينطوي فيه انطواء، فكما ان ادب الحضور في الصلاة- وهي معراج المؤمن- يقتضي إصلاح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٢

الأدب الظاهر على ضوء الباطن، لبسا لظاهر الثياب ومحللها ونظيفها، كذلك خلع النعلين مهما كانا نظيفين فإنهما للمشي في الطرقات دون الغرف المفروشة فضلا عن الواد المقدس طوى، الذي هو اقدس من الصلاة وأطوى، حيث العلوم الربانية فيها مطوية، فالخفاء هناك اقرب الى التواضع والحفاوة، ولأنه يلاصق قدمه الوادي فيتبرك به، كما هو يتبرك ببركة الوحي الرباني، فكيف يقدم الواد المقدس طوى وهو مطوي تعلقا بغير الله، ام في رجليه بنعليه، اما هي من تعلقات تنافي الحضور المطلق.

و في هذه الآية لمحة أكيدة ان لبس النعلين حالة الصلاة غير مشكور، بل هو محذور، «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى» ولأنهما لم تقرنا بوصف الميتة ام سواها من محظورات، تتلمح ان اصل النعلين غير صالح بالواد المقدس، وأي ود اقدس لنا من ولدي الصلاة وهي معراج المؤمن، وحالة التظامن والذل لا يناسبها الوقوف بمظهر الماشي في الطرقات، واية عن القذارات، اللهم لمن اضطر غير متجانف لاثم فلا اثم عليه، كحالة الحرب والفرار عن المحذور، والرواية القائلة ان النبي صلى الله عليه و آله صلى في نعله قاحلة مفترية عليه جاهلة «١».

و من ثم الأهل زوجة وأولادا، حيث يتمشى بهما الأهل في حياته، و «هُنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِيَأْسُ هُنَّ» و النعل من اللباس «٢»
والسالك الى الله، والى ولدي المقدس

(١). في تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٨ و قد صلى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال: ما لكم خلعتنم نعالكم؟ قالوا: خلعتنم فخلعنا قال: فان جبريل اخبرني ان فيها قدرا» أقول و اقدر منه نسبة هذه الفعلة الهاتكة الى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) تاركا امر ربه «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى»

(٢). و رؤيا النعل و الخذاء في المنام تعبر بالزوجة، و من يقظته ان ابراهيم لما ذهب إلى مكة ليزور إسماعيل فلم يجده في بيته و لم تستقبله زوجته، قال لزوجه إذا جاء إسماعيل فقولي له بدل خذائك، فلما سمعها إسماعيل طلقها تعبيرا للخذاء بالأهل التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٣

طوى، عليه ان ينسى اهليه و في هذه السبيل، قدر ما هم يصدون عن السبيل، ام عن تكملتها، أم يخرج حبهم عن قلبه، مهما يهتم بأمرهم قدر الواجب في شرعة الله، فخالص الحب في الله، ولا سيما بالنسبة لمن يحمل رسالة الله، لا يلائمه حب غير الله، ف «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» وليكن قلب الرسول مليئا كافة من حب الله والحب في الله.

و كذلك الأمر «خوفيك» خوفه من ضياع اهله وقد خلفهما بمخض، وخوفه من فرعون» «١» ف «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يُخَشَوْنَهُ وَ لَا يُخَشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا» (٣٣: ٣٩).

فحين يريد الله ان يبلغ موساه الى مدرجة الوحي، بالواد المقدس طوى، وهو مطوي قبله بالكثرات، يبتليه بالعسرات، حيث يسلط عليه البرد وهو مع اهله في الصحراء، وظلمة الليل، وتفرق المشية، ومحاض المرأة، وعدم انقداح الزندة، وضلال الطريق حتى اندهش بغاية الدهشة، واستوحش بالغ الوحشة، ثم يريه نوره بمظهر النار المؤنسة، ويبلغه الى الواد المقدس طوى، طالبا منه «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

و من ثم رابعة: الخلع، ان يخلع نعلي الدنيا والآخرة، ألا يهوى فيهما ولا منهما إلا رضوان الله، دون هوات النعيم في الأولى، ولا لذاته في الأخرى، فان نعيم القرب

(١). تفسير البرهان ٣: ٣٣- / ابن بابويه بإسناد متصل الى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) انه قال في قوله عز و جل لموسى: اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٤

والرضوان أنعم من نعيم الآخرة والأولى.

و خامسة هي انخلاعه عن نعلي الحجب: حجاب الإنية الذاتية، والحجب الخارجية، حتى يستعد للوحي في مقام قاب قوسين دنوا الى الله حيث ليس بينه وبين الله أحد، وكما

يسئل الامام الصادق عليه السلام ما تلك الغشية التي تعتري رسول الله صلى الله عليه و آله؟ قال: ذلك هو الوحي، ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد».

و سادسة هي انخلاعه عن نعلي الروح والجسم، حيث الحيوية المتعوده تتبناهما، فليتركهما وحالهما، متجردا بقلبه الى الله، سفرا سافرا الى الله، لا يحسب نفسه شيئا يجنب الله، متغافلا عما لديه عند الله، متحللا عما سوى الله، متعلقا ككل بالله.

هذه اماميه من نعال فيها انشغال عن الله، عليه ان يخلعهما «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى»! فالنعل ما يمشى بها الى بغية، مادية ام معنوية، فإذا موسى واصل الى بغيته القصوى، الى الواد المقدس طوى، فليخلع نعليه، وقفا حافيا بقدميه، حيث يمشي منذ الآن ويمشي

برحلة الوحي من الله، فلا حراك له بعد ولا سكون الا بالوحي، دون سائر التعلقات والوسائل الماشية سوى الوحي، فانه منذ الآن مختار الله.

وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ١٣ .

و ترى موسى المختار لربه هو أدنى من الواد المقدس حتى يؤمر بخلع نعليه؟

اجل! انه كموسى قبل ان يوحى اليه ادنى من الوحي و وديه، وليست قدسية الوادي الا بقدسية الوحي، فان شرف المكان بالمكنين، فلا قداسة ولا نحوسة لمكان او زمان، الا بما حل في مكان او زمان، وقد حلت بارقة الوحي البازغة لموسى في ذلك الواد،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٥

فقدس بما كما قدس موسى، وأمر أن يخلع نعليه «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى».

و ذلك حكم عام لكل ود مقدس، كالمساجد وحضور الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة «١» ام قبورهم، حرمة لله، وتبجيلا للمقربين إلى الله.

هنا موسى خيرة الله- وطبعا على علم- على العالمين، وإلا فكيف يبعث رسولا الى العالمين، كما هو الصيغة الشاملة لكافة المرسلين، انهم خير العالمين باختيار رب العالمين.

و «اخترتك» هنا هي بصيغة اخرى هي ادل وأحرى في «طه» نفسها. «... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَىٰ وَ اصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي وَ لَا تَبَيِّنْ فِي دِكْرِي» (٤٢) و «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» (٧: ١٤٤) اجل «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي. وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي» (٢٠: ٢٩): نصريجات اربع تبين محتدة الرفيع التربوي الرسولي والرسالي!.

اجل والرسول كلهم صنائع الرب لنفسه، ليحملهم رسالاته آمنين مأمونين، حتى لا تشوبهم شائبة، ولا تنال منهم نائلة نائبة، فتصبح مساعيهم خائبة.

فيا لموسى تكرما كرما ان يختاره الله ويصطنعه لنفسه، وهكذا تكون رسالة الوحي، لا تستحق على الله، فانها خيرة الرب لا سواه، وليست سائر الأسباب

(١). نور الثقلين ٣: ٣٧٤ في الجرائح و الجرائح قال علي بن أبي حمزة كنت مع موسى (عليه السلام) (اي موسى بن جعفر) بمضى ثم

مضى الى دار بمكة فأتيته و قد صلى المغرب فدخلت عليه فقال: اخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى فخلعت نعلي و جلست معه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٦

للمختار برسالة الله، لإلتقدمة لظرفها الصالح لها، دون ان تكون المساعي الشخصية، او الشوراءات، لها مدخل قاطع في تلقي الوحي، فانما هي خيرة الله: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (٢٢: ٧٥).

فهي إذا رعاية الرحيم الرحمان لهذا الإنسان «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»؟

و الإختيار افتعال من الخير، فقد يختار الإنسان نفسه بما يعتدل من صالحات فيكتمل، ولكنه لقصوره في ذلك الاختيار لا يصل الى القمة وهي العصمة علمية وعملية وتطبيقية.

و لكنه حين تمتد اليه يد الرحمة الإلهية الخاصة، بعد ما سعى سعيه وقد اختار له ربه ظروف السعي العليا منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وإلى الولادة والنسوجة العقلية، آنذاك تشمله الخيرة الإلهية الثانية لإفاضة العصمة والتسيد الرباني، فهو مختار الله في ابعاد ثلاثة، والزاوية الوسطى بينها هي مساعي العبد باختياره على ضوء ما قدم الله له من قبل، ونظرة ما يؤخره له من بعد، والله الأمر من قبل ومن بعد.

و هاتان آيتان بدائيتان من الوحي القدامي أمام وحي الرسالة، تهيئان لموسى ظرف الاستماع لذلك الوحي بسمع القلب وقلب السمع، «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» وكان سامعا لما اوحى قبلها ولكن منذ الآن عليه الاستماع بعد سمع، تحضيرا لمسامع قلبه ولبه وفؤاده، بعد سمعه.

فحين يتم الإختيار الرباني لرجل رباني يحين حين استماع الوحي بعد سماعه، وبعد تحمل مشاق في سبل التخير، التي فيها أشلاء و دماء وحرمانات وكل ما هو آت في هذه السبيل المليئة بالألعاب والأشغاب.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٧

و في تفریع الاستماع «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» على الاختيار «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» دليل ان الاختيار دليل الاستماع، فلولا الاختيار لم يك استماع لما يوحى، فهو اختيار لوحي الرسالة، بعد ما اختير لعبودية كاملة هي ذريعة للرسالة.

موسى هنا بطبيعة الحال يستعد للاستماع بكامله وقد يصح ما قيل فيه انه وف على حجر واستند الى حجر، ووضع يمينه على شماله، والقى ذقنه على صدره وأصغى بشراشره، فأصبح كله أذنا صاغية وعية، ومن أدب الاستماع حضور المستمع بكل محاضره ومسامعه، تأهبا لتعلمه وتفهمه، ثم تطبيقه ونشره، وذلك هو الاستماع الكامل الحافل لغايته، وهو استماع الرسالة ورسالة الاستماع، وإلا فلا سماع ولا استماع.

فموسى الرسول هنا يستمع كرسول، دون ما استمعه من قبل بما يتبنى شخصه قبل رسالته نبوءة شخصية: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُخَوِّضُ الْمُحْسِنِينَ» (٢٨: ١٤).

فقد كان اصطناعه مرحليا كسائر الرسل، شخصا كما يجب ثم رساليا «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى»:

و هنا يختصر الوحي في بدايته الرسالية في بنود ثلاثة مترابطة مع بعض، التوحيد والعبودية والساعة، وهي بصيغة اخرى: المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد، وهذه هي الأصول الموضوعية الرئيسية للشرعة الإلهية ككل وفي كافة الرسالات.

و لماذا «لِمَا يُوحَى» بعد «أَنَا اخْتَرْتُكَ» دون «ما أوحى»؟ علّه لأنه مما يوحى لكافة الرسل ككل، لا فقط لموسى، بل «لما يوحى» على طول خط الرسالات،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٨

إيناسا له بعامة الوحي وهامته:

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٤.

كلمات ثلاث هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ومن ثم الى إحدى عشر آية، عرض لواجب الرسالة تدريبا لآياتها «وَمَا تَلْكَ بِمِيمِنِكَ .. لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى» ثم ذهابا الى فرعون وهو رأس الزاوية في متاهة الضلالة، ومن ثم اثني عشرة آية أخرى يتطلب فيها موسى من ربه شرح صدره، وتيسير أمره، وحل العقدة من لسانه، وشد أزره بوزير من اهله تكملة لأمره.

فقد فصلت الأصول الثلاثة هنا لك بعد ما أجملت، خلال ثلاث وعشرين آية، عرضا موجزا عن كل الرسالة الموسوية وكافة الرسالات فانها سلسلة موصولة في خيوطها وخطوطها على مدار الزمن الرسالي إذ «لا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

«انني» لا سواي «أَنَا اللَّهُ» لا سواي «لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» لا سواي، توحيدا في كافة جنبات الالوهية والربوبية.

و هذه هي قضية الحضور في الوحي، تعريف المسمى الحاضر باسمه في توحيد، تعريفا للذات بوصف الاسم، لا تعريف الاسم بوصف الذات، فالنص «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» لا «ان الله انا».

فالله ذاته هو حاضر بذاته، يعرف نفسه باسمه الذي يخطؤه الجاهلون الى سواه:

«انني انا» المسمى ب «الله» لا سواي، ف «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (١٩ : ٦٥)؟

و هنا بعد اثبات انه هو الله دون سواه، إذا ف «لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» لان الكل غير الله، فكيف يشرك غير الله بالله، والالوهية الاصلية خاصة بالله كما يعترف بها المشركون،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٠٩

ولكنهم يشركون به من لا يسموهم باسم الله، وانما آلهة دون الله، متهمين الله انه اشركهم بنفسه، ام هم يشركوهم به إذ لا يصلون اليه نفسه، فليصلوا بالهة اخرى هم من خاصة عبادة «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» (٣٩ : ٣).

و هنا «فاعبدني» يفرع عبوديته الوحيدة على ألوهيته الوحيدة، فاصل عبوديته «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» وانحصارها فيه حيث «لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» والعبودية وهي خالص الخضوع والخشوع للمعبود لا تحق إلا لخالق الوجود ومدبر كل موجود، وهو هو الله الخالق المدبر «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (٧ : ٥٤).

فالألوهية الوحيدة هي قوام العقيدة وقضية العمل وقها، والعبادة تشملها توجهها الى الله الواحد في كل نشاطات الحياة وواجهاتها، فليكن العبد بشرائه ظاهرة وباطنة عبد الله وتعبد في الله، وليست العبودية الا بعد المعرفة حيث تتبناها في البداية ثم زائد المعرفة تتبنى العبودية كما تتبنى سائر وائلها.

و لان الصلاة هي قمة العبودية وعمود الدين العبادة، لذلك تختص بالوصية بعد مطلق العبودية: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» فيا لهذا الوحي الحبيب من طلاوة، وفي تلاوته من حلاوة، حيث يؤثر فيمن يحمل غضاضة بكل هرازة وهو الخليفة عمر حيث يأخذ سيفه ليقتل محمدا صلى الله عليه و آله لأنه صبأ وأصبأ معه جماعة آخرين، فلما يقرأ طه الى هنا يؤمن! «١» اجل «و تَنْدَرِ بِهِ قَوْمًا لُدًّا».

(١). الدر المنثور ٤ : ٢٩٢- / اخرج ابن سعد و ابو يعلى و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن انس قال: خرج عمر متقلدا بالسيف فلقبه رجل من بني زهرة فقال له اين تغدو يا عمر قال: أريد ان اقتل محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: و كيف تأمن بني هاشم و بني زهرة فقال له عمر ما أراك الا قد صبوت و تركت دينك قال أفلا ادلك على العجب ان أختك و خنتك قد صبوا و تركا دينك فمشى عمر حتى أتاهما و عندهما خباب فلما سمع خباب بحسن عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم و كانوا يقرؤن طه فقالا ما عدا حديثا تحدثنا به قال فلعلكما قد صبوتما فقال له ختنه يا عمران كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه فوطئه و طأ شديدا فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفخها بنفخة بيده فدمى وجهها فقال عمر اعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤه فقالت أخته انك رجس نجس و انه لا يمسه الا المطهرون فقم فتوضأ فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى الى «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» فقال عمر: دلوني على محمد فلما سمع خباب قول عمر

خرج من البيت فقال: ابشر يا عمر فاني أرجو ان تكون دعوة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... فخرج حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه اخرج ابو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جبريل (عليه السلام) قال قال الله عز وجل:

إني انا الله لا اله الا انا فاعبدي من جاءني منكم بشهادة ان لا اله الا الله بالإخلاص دخل في حصني و من دخل في حصني أمن من عذابي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٠

و لان «أقم الصلاة لذكرى» تحمل قمة البيان للصلاة والدافع لها وغايتها، لأنها بداية الوحي على موسى، وهي موجّهة كذلك و باحرى الى محمد آل طه، فلتنكح حاوية كل ما للصلاة من صلوات بالعبد وباللّه وبانفسها شروطا واجزاء ومقارنات ومقدمات، بهذه الصيغة الاجمالية الجميلة، وهي كذلك حين نتأملها كيف نتعملها.

ف «أقم» تحمل كافة القيامات الظاهرية والباطنية، فردية وجماعية للصلاة، فانها قد تؤتى غير مقامه بما يتوجب فيها، وهذا قيام إليها دون اقامة لها «وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَأُونُ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (٤: ١٤٢) «وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالِي» (٩: ٥٤) (لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» (٤: ٤٣) و هذه و أشباهها هي من اضاءة الصلاة ولم تؤمر في كل القرآن إلا بإقام الصلاة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١١

و الصلاة تعمها قالا وحالا وافعالا، فلتنكح مقامة في مثلثها على أية حال. و من ثم «لذكرى» تحمل احتمالات عدة تلائم ادب اللفظ وحذب المعنى:

فالذكر هنا بين دافع وغاية، والاضافة في كل بين ما هي الى فاعل او مفعول، واللام في «لذكرى» بين توقيت وتعليل، والظرف بين تعلقه ب «فاعبدي» و «أقم» و «الصلاة».

ثم الذكر بين قال وحال وافعال، تواصلا في ذلك المثلث البارع، من ذكر اللسان وذكر الأفعال وذكر الأحوال، فطرية وعقلية، و فكرية وصدريّة وقلبية، ولبية، وفؤادية، حتى يصبح المصلي كله ذكرا لله كما كله عبد وعبادة لله.

فدافع الذكر للصلاة هو باضافة المصدر الى فاعله: لذكرى إياك، فكما اني أذكركم في عطيات دائبة فأقيموا الصلاة ذكرا لي كما أذكركم، ذكرا بذكر واين ذكر من ذكر.

و دافع ثان ان ذكرى مفطور في فطركم وعقولكم فأقيموا الصلاة بدافع ذكرى الفطري، حيث فطرتكم بتوحيدي، حتى وان لم آمركم بها، حيث الأحكام الفطرية ليست بحاجة الى أوامر منفصلة، اللهم الا ان تكون لها ذكرى، وكذلك سائر ذكرى في الآفاق وفي أنفسكم، من وي العقل ووحى الرسالات ووحى الكائنات ان لا اله الا انا فاعبدي حيث الكائنات برمتها هي ذكر لله بما قرره الله!.

ثم غاية الذكر بالصلاة هي باضافة المصدر الى مفعوله، أقم الصلاة لذكرك اياي، لتذكرني بها فانها خير ذكر قالا وحالا وافعالا، والى فاعله لغاية ذكرى إياك في أولئك وأخراك، وهذه كلها في وه التعليل المستفاد من اللام، دافعية ام غائية.

و من ثم «لذكرى» توقيتا، «أقم الصلاة» حين تذكرني، لا حين والغفلة كمن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٢

يأتون الصلاة كسالى ام سكارى، ثم لوقت ذكرى الذي فررت له لي «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا» (٤: ١٠٣) ومن ثم توقيتنا هامشيا لمن نسي صلاته في وقتها ف «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» حين تذكرها كما «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ» (١٧: ٧٨).

و انما كررت- فقط- هذه الاخيرة فيما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله وأئمة أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، لأنها أخفى مصاديقها بين المحتملات بما هي هامشية غير اصيلة.

فقد «سئل رسول الله صلى الله عليه و آله عن رجل غفل عن الصلاة حتى طلعت الشمس او غربت ما كفارتها؟ قال: يتقرب الى الله ويحسن وضوءه ويصلي فيحسن الصلاة ويستغفر الله فلا كفارة لها الا ذلك ان الله يقول: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» (١)».

و من هنا يتبين ان الفائتة مقدمة على الحاضرة، إلا إذا خيف على فوت الحاضرة كما استفاضت به الرواية عن الائمة الطاهرة «٢». وهناك ذكر القال في فيلات الصلاة، بحال ومنها النية الصادقة الصافية، وبافعال هي كل افعال الصلاة، وهذه المحتملات بضرب بعضها في بعض تصبح (٢٤٠) احتمالا وان كان بعضها مكرورا وآخر بين منكور ومشكور، والقرآن حمال ذو ووه

(١). الدر المنثور ٤: ٢٩٤- / اخرج الطبراني و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: سئل ... أقول: و قد اخرج قضاء الصلاة هكذا سنادا الى الآية بعدة طرق عن الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)

(٢). نور الثقلين ٣: ٣٧٥ بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: إذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت اخرى فان كنت تعلم انك إذا صليت التي فاتتك كنت في الاخرى في وقت فابدأ بالتي فاتتك فان الله عز و جل يقول: أقم الصلاة لذكري- / و ان كنت تعلم انك إذا صليت التي فاتتك التي بعدها فابدأ بالتي أنت في وقتها فصلها ثم أقم الاخرى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٣

فاحمله الى احسن الوجوه، ولان الصلاة هي خير موضوع لذلك «لا تترك الصلاة بحال».

و هكذا نرى ان للصلاة صلات عريقة دافعية وغائية وزمنية، كلها تحور على محور ذكر الله «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» وكيف لا؟ وانها أكمل صورة من صور العبادة وسيرها، وأفضل وبلة من وائل الذكر حيث تتمحّص لهذه الغاية، وتحصل بذلك الدافع، وتتجرد من كل الملابس الأخرى، فتجمّع الإنسان للاتصال بالله، حيث تعلّقه بالله بما دنى بها العبد أو تدلى، فكان قاب قوسين أو ادنى، ولذلك يروى عن صاحب المعراج قوله «الصلاة معراج المؤمن»!

ثم وفي تقسيم خاصر يحوي كل هذه التقاسيم «لذكري» انه بين قلبي وقلبي، وقلب الذكر هو ذكر القلب، وليس القلب الا حاكيا عن القلب فمزيدا لذكر القلب، والجمع فيهما هو جمع الذكر، ان يصبح الإنسان كله ذكرا لله، إيصالا للصلاة القلبية الى الصلاة القلبية، ومن ثم الى كافة المراحل الروحية.

فحين تحلّق الصلاة الذكر والذكر الصلاة على الإنسان ككل، يصبح كله صلات بالله بصلاة لله، وأنداك «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» (٢٩: ٤٥).

و من افحش الفحشاء الرئاء، فصلاة المرثي ليست «لذكري» بل لذكر الناس في أسفل درك من الرئاء، ولجمع الذكريين في سائر دركاتهما، وان ذكر الفطرة وذكر العقل وذكر الوحي لله، وكذلك ذكر الله وكل ذكر دافعا وغاية، انما تنافي الرئاء وتنافيتها الرئاء! إن السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُحْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ١٥.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٤

و في هذه الزاوية الثالثة من أركان الشريعة الإلهية تكتمل اصول الدعوة مبدء ومعادا وما بين المبدء والمعاد، وهذا هو الوحي بأحكام العبودية وفي قمتها الصلاة، فتمت بذلك اصول الدين بفروع في صيغة مختصرة مختصرة، هي لكل شرعة إلهية، مهما اختلفت الشرائع في طقوس عبادية حسب المظهر والصورة.

و لأنه ليس ليلتزم عبودية الله- فقط- لأنه الله لا اله الا هو- إلا من شغفه حبا وهي عبادة الأحرار، وهم قلة قليلة بين عباد الله، ثم الثلة الباقية هم بين عبيد وتجار، لذلك يثنى دافع المبدء بالتوحيد المعرفة الخالصة، بدافع المعاد، فبين المبدء والمعاد يكثر العباد رغبة في الثواب وخوفا من العقاب.

و عرض المعاد في ذلك المثلث البارح، عرض عريض في المعنى الاجمالي عن المعاد وقعا وغاية قصوى، وهنا لك تتم الشريعة الإلهية أصولا وفروعا في مطلع الوحي الموسوي كما هو في كافة المطالع الرسالية السامية، وقد جمعت لسيد المرسلين وامام النبيين أتمها وأعمها وأهمها كما يناسب الخلود.

نجد «الساعة» المعنية بها القيامة في احدى وأربعين آية بين (٤٨) مرة «الساعة» في سائر القرآن، وهي ثانية الأسماء كثرة وشهرة بعد القيامة السبعين، مما يدل على مدى اهميتها تعبيرا عن ذلك اليوم العظيم.

و اصل الساعة من ساع الشيء إذا زال وضاع، فهي إذا وت ضياع الكائنات عن بكرتها في قيامة التدمير، واطلاق الساعة على جزء من الزمان انما هو لتصرفه وضياعه دونما رجعة، وكذلك امر الساعة إذ لا رجعة فيها الى الاولى، وانما هي الاخرى «لْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى». وقد تعنى «الساعة» الساعات الثلاث كلها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٥

«ساعة الرجعة والموت والقيامة» لْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» حيث المجهولية في كل منها تدفع الى السعي خوفا منها، مهما كانت الاخيرة هي الاصلية بينها، والأوليان تتبناها.

ثم «أَكَادُ أُخْفِيهَا» في مواصفة الساعة، قد تعنى سلب الخفاء وإيجابها معا، فلو عنت السلب فقط، فقضية الفصاحة: أكاد أظهرها، حيث السلب في مادة الإفعال بحاجة الى قرينة تسلبها عن إيجابها كما في «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ» اي مسلوبي الطاقة في الصيام، ثم وعناية الإيجاب هي قضية ظاهر الإيجاب.

و الجمع هنا بين سلب الخفاء وإيجابها جمع بين ما يعنى من الساعة، ف «أَكَادُ أُخْفِيهَا» سلبا لخفائها مدى الحتمية القاطعة لوقوعها، لحد أكاد أظهرها قبل أوانها، ام أعلن بوقتها قبل مرساها، ولكن «يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (٧):

(١٨٧).

فذلك السلب مستحيل، و «أكاد» فيه مبالغة لتحقيق وقوعها لحد أكاد أسلب الآن خفاءها، ومن ثم سلب الخفاء عن واقعها وهو إقامتها في وقتها، وذلك ممكن، وأكاد فيه تقريب لوقوعها: «وَيُقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا» (١٧: ٥١).

و إيجابا: ان الساعة خفية حسب الحكمة العالية والمصلحة الملزمة، «أَكَادُ أُخْفِيهَا» على نفسي* كما أخفيتها على غيري، ف «أكاد» هنا مبالغة لطيفة تعني غاية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٦

الخفاء لها، لحد لو أمكن لكنت أخفيها على نفسي!.

و «أكاد» هنا لا تكاد تعني قرب الزمن لإخفائها سلبا أو إيجابا، وانما هي تأكيد لامعة لتأكد وقوعها في وقتها، واستحالة إظهارها قبل وقتها حيث «ثقلت في السماوات والأرض لا يجليها لوقتها الا هو!» وما ألفتها وأعمقها تعبيراً عن مدى خفاء الساعة، ولماذا؟

«لِتُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ .. لِتُخْزَى ..»

و «أكاد أخفيها لئلا تُخْزَى» فأصل الجزء هو غاية الساعة في إتيانها، وخفاءها غاية «بما تسعى»، ام «لئلا تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» غاية لهما.

فان الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العدل والفضل، فتتجه إليها النفوس المؤمنة فتحسب حسابها، سائرة في الطريق مراقبة تخشى الانزلاق بجيئتها المفاجئة الفجيعة.

إذا كانت المجازاة هي المقصودة من إتيان الساعة، فلتكن قاطعة الإتيان لحد «أكاد أخفيها» إزالة لخفائها، ولتكن خفية في وقتها ليكون الخلق في كل حين على حذر من مجيئها ووجل من بغتتها، فيستعدوا لها قبل حلولها، ويمهدوا أنفسهم قبل نزولها «لئلا تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى».

و المجهول زمنا، القاطع اتيانا، هو عنصر اساسي في حياة الإنسان ام اي مكلف كان، لتكوينهم النفسي، متطلعين اليه، متبئين حياتهم عليه، فلو كانت الساعة لهم مكشوفة لوقفت نشاطاتهم، وامنت حياتهم، ولكنهم واء المجهول المأمول يجزون، فيعملون لما يأملون، ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وسائر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٧

الطاقات، فيرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد.

تلك الساعة المجهولة الأمد تبشرهم بثوابها إن عملوا الصالحات، وتحذّره عن عقابها ان عملوا الطالحات، فهم بذلك مندفعون الى كل خير، دافعون عن أنفسهم كل شر، حتى إذا أتتهم ساعة الجزاء فتبغتهم راجحين، ساعة الموت او الرجعة ام القيامة الكبرى «لئلا تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» - «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَ أَنْ سَعِيَّهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» (٥٣: ٤٠).

و هنا نعرف ان السعي - فقط - هو عامل الجزاء ليس إلا، فلا فوضى هنا لك في الجزاء، ولا تزر وزرة ور اخرى، ثم ولا جزاء بنية دون عمل فانها ليست مما «تسعى» اللهم الانية الصالحات لمن لم يسطع ان يعملها، فلصاحبها الجزاء الحسنى فضلا من العلي الأعلى، وذلك بدلالات اخرى غير «بما تسعى» وكما ان آيات حصر الجزاء بالأعمال «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» تخص العقوبات - فيما تخص - بالأعمال الطالحة دون النيات فقط.

ثم «بما تسعى» دون «بما تعمل» قد تلمح بكبح في العمل، فالصالحات المتفلتة دون سعي، والطالحات مثلها كما للمم، قد لا يجزى بها ام يقل، ففي الاولى القلة حاصلة، وفي الطالحات العفو على شروطه المسرودة في الذكر الحكيم.

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ١٦.

«فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا» تأكيد صارم صدا عن الصد عنها، تفريعا على «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» صدا

عقيديا عن إتيانها، او خفاءها، ام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٨

جزاء كل نفس فيها بما تسعى، ام صدا عمليا رغم التصديق بها، والصاد عنها هو «مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» في نكرانها و الدعاية ضدها، فلو صددت عنها «فتردى» في جحيم الضلالة و المثاهة، بما تتردى في همجية الأعمال بسفاسف الأخلاق.

و هناك ردى في نكران المبدء والمعاد هي أردى، وهنا أخرى بنكران المعاد عقيديا، وثالثة عمليا، «فَلَا يَصُدُّنَّكَ» تشمل ذلك الثالث كله، حيث الصد عن المعاد بعد الصد عن المبدء أردى فتشمله «فتردى» بأولى وأخرى.

و قد تعني «عنها» و «بها»- فيما عنتا- كلمة التوحيد المستفادة من «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» والعبادة المعنية من «فاعبدني» والصلاة المذكورة بنفسها وفي خلالها الرسالة المبيّنة لهما كما تعني الساعة أخيرا، وقد تقتضيها طبيعة الحال في بنود الرسالة المسرودة هنا، فان إثباتها يقتضي تأكيد السلب عن الصّد عنها، وهنا لك تردّيات عدة في الانصداد عن كلّ منها، فهنا في المرجع لضميري «عنها وبها» احتمالات يحتملها اللفظ والمعنى*.

«فتردى» في هَوَات الإِشْرَاقِ بالله عند الصد عن كلمة التوحيد، فتهلك في هذه الردى.

«فتردى» في الشهوات واللّهوات في صدك عن عبادته وعن الصلاة لذكره تعالى.

«فتردى» عن التزامات العبودية والصلاة ولزاماتها عند الصد عن الساعة، فهناك- إذا- ثلوث من التردّيات والتهلكات في الانصداد عن مثلث المعتقدات.

و قد تعني كلّ من «عنها وبها» فيما عنتا، كلا من هذه الثلاثة، حيث اللإيمان في كلّ منها يصد عن الاخرى كما يصد عن نفسها، فنكران التوحيد صدّ عن العبودية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١١٩

والساعة، ونكران العبودية والصلاة صد عن المبدء والمعاد، ونكران الساعة كذلك صد عنهما.

و من هنا نعرف ان الواجب في اصول الدين وفروعه ليس هو الاعتقاد بها والعمل لها فحسب، بل والتصلب والصمود فيها لحد لا تنفصم عراها.

و هنا في وجب العلم بالأصول وفروعها مراحل: القناعة الشخصية دون تزعزع ولا تلوّك، ثم الحفاظ عليها في المخالطات الضرورية مع الناس، ومن ثم في السّبح الطويل في خضم المجتمع، ثم الدعوة إليها والدعاية الصالحة لها.

فالمرحلتان الأوليان مفروضتان، إذ لا بد للإنسان من مخالطة حيوية مع المجتمع، كضرورة للحياة، والثالثة لا تصح إلا لمن صحح يقينه لحد لا ينفصم بمن يصد عنه، وإلا فذلك تورط وترد في وطات وهوات.

و الرابعة هي للدعات الى الله على شروطها، أخذنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والى القيادة الربانية الشاملة غير المعصومة، والى قيادة العصمة في أئمة الهدى، الى قيادة الرسالة، وكلّ درجات

لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رُبُّكَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ».

و البلاء العام في «مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا» هو «وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» إذ لا برهان على الصد عنها فطريا ولا عقليا ولا أيا كان، اللهم إلا اتباع الهوى، ولا يتبع هوى أصحاب الهوى إلا من هو من أصحابها، تغافلا عن فطرته وتجاهلا عن عقليته، وتعاميا عن آيات الرسالات الإلهية.

ف «انما أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل اما اتباع الهوى فيصد عن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٠

الحق واما طول الأمل فينسي الآخرة» «١» و «انما بدء ووع الفتن أهواء تتبع واحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالات فلو ان الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيحيثان معا فهنالک استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقتم لهم من الله الحسنی» «٢».

و ترى موسى المختار من ربه لوحيه ما كان موحدًا يعبد ربه ويصلي لذكره ويعلم آتية الساعة، حتى يخاطب في بازغ وبه جملة عن تفصيل ما اوتي في الألواح، بهذه الأصول المعرفية والعملية.

اجل ولذلك اختاره الله، ولكنه كرسول يحمل - بما يوحي - رسالة الله الى العالمين، اضافة الى تكملته نفسه بأكمل مما كان كما هو قضية الحال في كل رسول على آية حال، وقد امر محمد صلى الله عليه و آله

وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» وما الى ذلك من أوامر، تصطنع شخصه أكثر مما كان، ورسالته الى العالمين.

هنا لك تمت المرحلة الأولى لنداء موسى، حاوية جملة الرسالة، وبينما هو في شغف الاستماع وشغفه بكل كيانه حيث أصبح كأنه كله سمع واستماع، إذا بمرحلة ثانية في مسألة حبيبة:

(١). نور الثقلين ٣: ٣ عن اصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال قال امير المؤمنين (عليه السلام): ..

(٢). اصول الكافي بسند متصل عن امير المؤمنين (عليه السلام) و مثله في النهج باختلاف يسير في بعض ألفاظه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢١

وَ مَا تَلِّكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ١٧.

«و» هنا عطفًا على نبوءة الوحي قد تلمح ان في سؤاله بجوابه وحي آخر نبوءة أخرى كما مضت، أم رسالة أما هيه من خارقة إلهية.

ثم «ما» سؤال عن الماهية دون فاعليتها، و «تلك» اشارة الى عصاه تأشيرًا انه تعالى يعرفها كما هيه ولكنه يعني بسؤاله موسى ان يعرفها كما هي، يعرفها لبيان البون بينهما، الذي لا يعرفه موسى.

و «بيمينك» دون «يدك» علّه لبيان الموضوع، فعلّ بيساره شيئًا آخر كالحاتم وسواه.

فلم يكن السؤال استفهامًا، بل هو اختبار لمدى معرفة موسى بعصاه حتى يزيد أخرى لا يعرفها، وما اختيار موسى لما يوحي بالذي يدل على انه يعرف الأمور كلها، بل هو كما كان هو الآن بحاجة في معرفة عصاه الى تعريف من ربه، فضلًا عما سواها من معرفيات.

و نرى موسى بدلا عن ان يجيب عن ماهية عصاه، يكتفي بذكر اسمها ثم مآربها عنده، وقد كان يكفي «هِيَ عَصَاي» عسى ان يزيده ربه تعريفًا بعصاه، ولكنه لشغفه البالغ لتلك المحاورة الحبيبة مع ربه، حين ما يسأله عن أبسط شيء متعطفًا عليه، لذلك يطوّل في

الجواب بأقصى ما يعرفه عن عصاه، عساه ان يزيده ربه علما بعصاه.

وقد عني من هذا السؤال ان يستحضر موسى معرفته بعصاه، وانها كعصاه منسوبة اليه ليست إلا كما عرفها، فلما تصبح حية تسعى او ثعبانًا مبينا بما ألقى، يعرف ان ذلك من ربه وليس منه، فقد كانت معه ردحا كثيرا من الزمن فلم تكسب من معيته ما كسبت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٢

من مفارقتها بإلقاء موسى، ثم ليؤكد انها خشبة كسائر الأخشاب حتى إذا قلبت حية تسعى فلا يخشاها، بل يعرف انها قلبة الهية عصا رسالية لموسى بعد ما كانت عصى بشرية، واين عصى من عصا؟.

و ترى ان موسى بذلك الخطاب دون حجاب يفضل على نبينا؟ كلا حيث خوطب نبينا صلى الله عليه و آله دون اي حجاب، ولموسى حجاب النور والشجرة، ثم موسى لم يصل في ويه الى مقام «أَوْ أَدْنَى» ومحمد صلى الله عليه و آله ولها، وقد أعلن الوحي الخاص الى موسى في اذاعة توراتية وقرآنية، ووحي محمد الخاص به لم يعلن بعد:

«فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ! قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَ لِى فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَىٰ ١٨ .
«قال» موسى «هي» التي يميني «عصاي» وفي الخبر انها «قضيبي من آس من غرس الجنة» «١» .
«كانت لآدم عليه السلام فصارت الى شعيب ثم صارت الى موسى وانها عندنا» «٢» اي

(١). تفسير البرهان ٣: ٣٤ عن الكافي بسند عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: كان عصا موسى قضيبي آس من غرس الجنة أتاه بها جبرائيل لما توجه للقاء مدين و هي و تابوت آدم في بحيرة طبرية و لن يلبيا و لن يتغيرا حتى يخرجهما القائم (عليه السلام) إذا قام

(٢). المصدر عن الكافي بسند عن محمد بن الفيض عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كانت عصاموسى لآدم فصارت إلى شعيب ثم صارت إلى موسى بن عمران و انها لعندنا و ان عهدي بها أنفا و هي خضراء كهيبته حين انتزعت من شجرتها و انها لتنطق حين استنطقت، أعدت لقائنا يصنع بها ما كان يصنع بها موسى (عليه السلام) و انها لتروع و تلقف ما يأفكون، و تصنع ما تؤمر به انها حيث أقبلت تلقف ما يأفكون بفتح لها شعبتان إحدهما في الأرض و الاخرى في السقف و بينهما أربعون ذراعا تلقف ما يأفكون بلسانها.

وفيه عنه (عليه السلام) قال: خرج امير المؤمنين (عليه السلام) ذات ليلة بعد عتمة و هو يقول همهمة و ليلة مظلمة خرج عليه السلام الامام عليه قميص آدم و في يده خاتم سليمان و عصى موسى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٣

اهل البيت عليهم السلام، ولا تصدقها «هي عَصَايَ ..» او تكذبها، ولئن كانت فيها من قبل خوارق عادات لذكرها في عداد العاديات من فوائدها، اللهم إلا ان تكون معنية فيما يعنى عن «مَآرِبُ أُخْرَى».

و لو ان «مَآرِبُ أُخْرَى» تعني ما قد يروى من خوارق العادات، فكان موسى- إذا- تعودها منها، فلما ذا يخافها إذا هي حية تسعى؟! «قَالَ حُذِّهَا وَ لَا تَخَفْ سُنْعِيْهَا سَبْرَتِهَا الْأُولَى!» و من المحتمل ان الخوارق من هذه العصا بدأت منذ ألقى، و الى ضربها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والبحر فحصل بها فيه اثني عشر طريقا يبسا، ثم الى القائم منا عليه السلام وعساه يعمل بعصاه هذه أكثر من موسى وكما قد يروى.

و موسى هنا بعد تسمية العصا ذكر لها مآرين من مآربه، فاصدا تطويل الجواب أنسا طائلا في نداء ربه، إذا بالكلام متفلتا عنه استحياء منه ام لعدم مساعدة الحال واضطراب البال فأجمل سائر مآربه الى قوله

وَ لِى فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى» او يعنى بها ما يجهله الآن وقد تلمحه من ملامح البيان عساه يذكره ربه لعصاه، وبينهما مآرب التوكؤ والهش، فلنفسه:

«أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا» اعتمادا في مثلث القيام والمشى والوقوف، ولغنمه:

«وَ أَهْشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي» خبطا لأوراق الأشجار الهشّ وهو الرخو اللين سريع الحث والكسر لحد يكفيه هش العصا.

ثم ومن «مَأْرِبُ أُخْرَى» التي أجملها، الاستظلال بها ركزا لها وجاه الشمس
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٤

والقاء لكسائه عليها، ودفعاً لذئب وسواه من الضاريات حين تعرضه وغنمه اما هيه من مأرب اخرى معنيّة.
و الأمر جمع المأربة وهي الحاجة، وقد ذكر منها اثنتين بعد تعريفه بما يمينه، ثلاثة غير مسئول عنها حيث السؤال ب «ما» ليس إلا
عن الماهية، دون «كيف» واضرابها التي هي للكيفية، ولكنه ما كان ليعرف من ماهيتها الا «هي عَصَاي» ثم الله ابرز لها ماهية اخرى
فإذا هي حية تسعى.

قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى ١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ٢٠.

ترى ولماذا إلقاءها هنا لتكون حية تسعى؟ ان ذلك تدريب له بما تعدّ له من آيات ربه الكبرى، وليكون على معرفة وأهبة بما سوف
يفعله الله عند فرعون آية لموسى!.

و قد يعني على هامش ذلك المعني إبرازاً لسيرة ما يتوكؤ عليه من غير الله انه حية تسعى، تخلصاً. لموسى ان يتوكأ نفسياً على اي متكأ
سوى الله، كما خلع عنه نعليه إذ هو بالواد المقدس طوى، حيث التجرد من كل التعلقات لزام الحضرة الربانية لتلقى الوحي، وهنا لك
ينعكس خلع النعلين- لتخليه عما سوى الله- ويا يوحى، ثم إلقاءه عصاه آية لوحيه أمام عدوه حية تسعى. وكيف تنقلب العصا حية
تسعى كما هنا، ام جانا مهتزا كما في النمل (٣١) والقصص (١١): (رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) ام ثعبانا مبينا كما في الشعراء (٣٢)
والأعراف (١٠٧) والأوليان حالة وحدة، والأخيرة حين ذهب الى فرعون؟.

إنها خارقة الهية كآية تدل على وحي الرسالة ورسالة الوحي، وركب العلم السائر مهما كان حائراً فيها وحق له ان يختار، ولكنه ببلوغه
ذروة من رقيّه يختار ما فيه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٥

يختار، انه في امكانية الانقلاب يوافق الأصول العلمية الثابتة، ولكنه لا يسطع عليه الا الله دون سواه، حيث العناصر تتركب من
جزئيات، وهي من ذرات، وهي من أجزائها من الكثرونات وبروتونات ..
إذا فالأصول الفيزيائية والكيمائية لكافة العناصر هي الذرات المنتهية الى أجزائها معروفة وسواها، وما اختلاف العناصر والجزئيات
والذرات إلا باختلاف التركبات مادة ومدة وعدة وعدة.
و قد اتيح للعلم لحد الآن تبديل عناصر الى اخرى! أفلا يتاح للقدرة الربانية الخلاقة لها تبديلات أخرى لا يقدر العلم عليها، اختصاصاً
بساحة الربوبية كما هو في اصل الخلق وفروعه.

فالأجزاء التي تتشكل منها الحية هي التي شكلت منها العصا، ثم هنا لك.

خارقتان اثنتان، أولاهما القفزة الزمنية لذلك الانقلاب سراعاً، وقد يحتاج الى الآفات من السنين وتوافقات لا يعلمها ويقدر عليها إلا
الله، وثانيتها خلق روح الحية كما في سائر الأرواح على الإطلاق.

إذا فليست الخارقة الإلهية خرقاً لضوابط العلية، وحرقاً للعلل، بل هي تسريع في ترتيب العلل بقفزة زمنية أما هيه من جانب علة العلل،
فهو الخالق للأسباب والمسببات، وله الأمر في شروطها وكافة لزاماتها وتدبيراتها وتقديراتها «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ».

ثم وما خلق حية تسعى من عصا بأصعب منها المخلوقة بولادتها، ام في أصلها الاول حيث خلقت من تراب، والأفعال الإلهية كلها من اختصاصات ساحة الربوبية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٦

ليس لأحد فيها نصيب حتى المرسلين، فإنهم ليسوا إلا أداة ومظاهر لفعل الرب، ويا ام آية تنبته.

قَالَ حُذِّهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ٢١.

«وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ» (٢٨ : ٣١) (وَ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِيَّيْ لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِيَّيْ عَفْوٌ رَحِيمٌ» (٢٧ : ١١).

لقد خاف موسى من حية تسعى وهي من عصاه؟ عساها تلدغه علّه ظلم وعصى، فنهاه ربه «لا تخف» بعد ما «وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ» «لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ» كمن معك، و «لَا يَخَافُ .. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ» كما ظلم فرعون وخاف شعبانه العظيم «إِيَّيْ لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلُونَ» «حُذِّهَا وَ لَا تَخَفْ» وهي حية تسعى «سنعيدها» بعد أخذك إياها «سِيرَتَهَا الْأُولَى» وهي العصا. و ترى كيف يجوز لموسى ان يخاف فعل الله الآيه، وهو لدى الله، رسالة من عند الله، يخاف آية الرسالة الإلهية؟.

موسى هنا وفي بداية الحال، المنقطعة النظير حتى الحال، لم يكن يعرف انه آية الهية لرسالته، فعله حسبها امتحانا من الله ببلية جليلة عما قدم فأخره عن رسالته وكما قال حين قضى على القبطي «إِيَّيْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَعْفِرْ لِي» (٢٨ : ١٦) ام خافها خوفا ان تكون هي الحية التي أضل آدم وأغوى.

ثم وخوفه منها دليل ان قلب العصا إليها لم يكن من فعله فما هو إذا بسحر حيث

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٧

السحر من فعل الساحر فلا يخافه، وهكذا تكون آيات الرسالة كلها انما من افعال الله تظهر على ايدي رسل الله لتدل بذلك على اختصاصهم بالله فيصدقون في وحي الله.

و هنا «سنعيدها» دليل امره بأخذها وهي حية تسعى، ولكنه تعالى طمأنه انه سيعيدها بعد أخذها سيرتها الاولى، وهي آية اخرى، فكما ان قلب العصا آية كذلك قلب الحية عصى آية، وفيها كرامة لموسى ان اظهرها بيده، ولكي يعرف بذلك اختصاصه بكرامة ربه رسالة بآية بيينة.

فانما عليه الإلقاء وعلى الله قلبها بذلك حية تسعى، ثم عليه أخذها وعلى الله ان يعيدها سيرتها الاولى، ووعا للمعجزة في صورتها الاخرى كما كانت العصا في حالتها الاولى.

و لماذا «سِيرَتَهَا الْأُولَى» دون صورتها، حيث الصورة الأولى لا تلازم السيرة الاولى، فقد يجوز ان تتصور الحية بصورة العصا، ولكن السيرة الاولى وهي الخشبية تلازم صورتها الاولى.

و ترى ما هو عامل النصب ل «سيرتها» انصبا بنزع الخافض؟: الى سيرتها الاولى، ام بفعل مقدر من نفس السيرة: تسير سيرتها الاولى، والحذف دون مرجح ولا قرينة خلاف الفصاحة!.

«نعيدها» ادبيا تتطلب مفعولا ثانيا هو بطبيعة الحال «سيرتها الأولى» وهو المتعين معنويا حيث الإعادة متعلقة بحية تسعى، و المعاد هنا ليست الصورة الاولى بل مثلها ضمن السيرة الاولى الخشبية، والمادة نفس المادة، زادت لها صورة حية تسعى بسيرتها، ثم أعيدت المادة نفسها الى ما كانت وصورة، وذلك اعادة مثل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٨

الصورة الاولى الى المادة وليست هي الالهية.

و إعادتها صورتها الاولى نفسها مستحيلة في بعدين، إعادة المعلوم فأنها ممتنعة، وتبديل المادة صورة بلا مادة، واما إعادتها سيرتها فليست اعادة شيء بل هي تعني قلب الصورة الثانية وسيرتها الى الصورة الاولى وسيرتها والمادة هي المادة.

فهنا في قلب العصا حية تسعى، قلب لصورة العصا وسيرتها، إعداما لهما الى اخرى، ثم في إعادتها سيرتها الاولى سلب أول هو سلب روحها، وسلب ثان هو سلب صورة الحية، وبينهما خلق لمثل الصورة الاولى، ومجموع هذه الثلاث عبر عنها بإعادتها.

هناك قال موسى عن عصاه «هِيَ عَصَايَ أَنْتَوَكُّؤُا عَلَيَّهَا» .. عصى لأمره كموسى، وهنا انقلبت الى عصى الرسالة حيث يتوكؤ عليها فيها، ويهش بها على غنمه- وهي أمته- هشا، ولانفجار اثنتي عشرة عينا من الحجر، ولنفس العدد طريقا يبسا في البحر، ثم له فيها مآرب اخرى قدرها الله لهذه العصا، علّ منها مآرب القائم المهدي (صلوات الله عليه) من هذه العصا أفضل مما كان لموسى.

هذه آيتا العصا، ومن ثم آية اليد البيضاء، وهي ألصق به من الآية الاولى:

وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ٢٢ . اسلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» (٢٨ : ٣٢).

الجناح هو الكتف والإبط تشبيها بجناح الطائر حيث يعنى منه هنا ان يجنح طائر الرسالة الموسوية الى محطة الدعوة القاسية الفرعونية، فأصبحت اليد والعصا برهانين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٢٩

من ربه الى فرعون وملئه.

و «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» تعني ان بيضاءها سليمة دون برص أو مرض «١»، فلذلك، ترجع الى ما كانت كما أعيدت العصا الى سيرتها الاولى.

و قد خرجت يد موسى- وعلّها هي اليمنى- بيضاء مشرقة وقد كانت سمراء «٢» وقد تكون اشارة الى اشراقه اليد الرسالية الموسوية في بلاغها، وكما خرجت مشرقة في بلوغها، فهنا موسى يسلك يده ويدخلها تحت إبطه، وقد صور له صورة الجناح لما فيها من رفقة وطلاقة في ذلك الموقف المنح الطليق من رتبة الأرض وثقله الجسم لتخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى.

لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ٢٣ .

«لنريك» قد تتعلق ب «ألقها» و «اضمم» كبدية وتقدمة: قلنا لك ألقها واضمم لنريك ... واخرى ب «أذهب» كغاية: اذهب لنريك من آياتنا الكبرى، كما قدمنا لك من آياتنا الصغرى مثالا ونموذجا للكبرى، وحقا إن الآيات التي أوتيتها موسى هي من الآيات البصرية الكبرى، لها دلالاتها البالغة القصوى، آيات لفرعون وملئه، واخرى لهم ولقوم موسى.

و ترى إذا كانت العصا واليد البيضاء «مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى» فكيف تكون آية القرآن

(١). نور الثقلين ٣: ٣٧٥ في كتاب طب الائمة باسناده الى جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال: يعني من غير مرض وفي البرهان ٣: ٣٥ عن ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: من غير مرض
(٢). البرهان ٣: ٣٥- عن تفسير القمي بسند عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان موسى شديد السمرة فاخرج يده من جيبه فأضاءت له الدنيا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٠

هي الكبرى وهي في القمة العليا، لا نظير لها ولا تسامى؟.

«من» هنا تعني أنها البعض من الكبرى، مهما كانت الكبرى درجات، كما اولوا العزم من الرسل خمسة وهم درجات، ام تعني- فقط- الآيات البصرية وهي في الحق من الكبرى، وقد تسامي آيات بصرية لرسول الهدى، واما الآية البصرية فهي منحصرة في القرآن، منحصرة عما سواه من كتابات الوحي، فلا تعنيها هنا «الكبرى» لأنها الوحيدة لا تناظر او تسامى، فلا تدخل في نطاق الجمع من «آياتنا الكبرى» وهي الكبرى الوحيدة غير الوهيدة بأية نظيرة في آيات الرسالات، لأنها منقطعة النظر بين كل بشير ونذير! اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٢٤.

يذكر فرعون في اربعة وخمسين موضعا من الذكر الحكيم، مما يدل على مدى فرعنته اللعينة، ثم «الشيطان» في (٤٨) مهما ذكر إبليس مرة، والمجموع تزيد خمسة وعشرين على فرعون، فهو- إذا أخ له كبير بين الملائين الملاعين من اخوته الشياطين! ولما تبلغ الفرعنة الى ذلك الطغيان على الله ادعاء للربوبية: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى»، وعلى عباد الله استخفافا فتعبدا له: «فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ» عند ذلك التمرد والتمرد التفرعن يؤمر موسى بالذهاب اليه، دون نظرة لذهاب فرعون اليه، إذ صده طغيانه عن الله فضلا عن رسول الله! فالى هنا كان الوحي بآياته لموسى نبوءة دون رسالة، وهنا بزغت الرسالة الضخمة الصعبة الملتوية، فلقد عاش جوا من طغيان الفرعنة ردحا من عمره، فلا يرى من نفسه بنفسه نجاحا تاما في هذه الرسالة الا بإمدادات ربانية، فليسأل ربه في هذه الحضرة المباركة ما يطمئنه في هذه المواجهة الخطيرة، ويكفل له قوامه في هذه الرسالة، فلذلك:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣١

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥ وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦ وَ اخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨.

هنا يتطلب نصرة ذاتية متصلة بساحة هذه الرسالة في بنود ثلاثة، ومن ثم نصرة منفصلة في ثلاثة أخرى هي أزر للأولى واولى له ثم اولى ان يستعد بزيادة وراحلة ارحل في هذه السفرة الشاقة الطويلة، لا لأمر إلا ل «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا»! نرى سؤال موسى هنا في احدى عشر آية، لم يكن ليسألها قبل امر الرسالة، مما يدل على انها كلها سؤال الرسالة بمسئولياتها الخطيرة.

و البند الاول من سؤله الاول «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» وذلك شرح لتلك الرسالة بعد شرحه للوحي النبوءة فليس- إذا- سؤالا لسؤال حاصل، فانه سؤال جاهل، وسؤال قاحل، فقد اختاره الله حين اوحى اليه، وكيف يختار ضائق الصدر عن تلقي الوحي؟ وكما شرح الله صدر محمد صلى الله عليه و آله وان كان دون سؤال: «أَمْ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ «لَكَ» كرسول الى قوم لدوامه خالدة، وكذلك لموسى الى فرعون اللدود وامة لدودة.

فانشراح الصدر لنبوءة الوحي أمر، وانشراحه للرسالة بعدها والنبوءة أمر آخر، حيث يلتقي فيها جماهير الامة، ومكذبو الرسالة، فلكل مجال حال ولكل حال مجال، ولكل هدى شرح للصدر كما لكل ضلال ضيق: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ..» (١٢٥: ٦).

فانشراح الصدر في سبيل الرسالة يحول مشقة المسؤولية الكبرى الى متعة، وعناها الى لذة، مهما كانت السبيل شاقة شائكة وملتوية طويلة، وهنالك ينجح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٢

الرسول وتنجح الرسالة في هدفها الأسمى بمكانتها العليا.

اجل انه ود لنفسه ضيقا في هذه الرسالة دون ما قبلها: «وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمٌ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون. وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ. وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢٦: ١٤) فشرح الله صدره عن ضيقه في نفسه وبوزيره هرون.

و في تقديم نداء الرب في الدعاء «رب» تعليم لكيفية الدعاء أنها تبدأ باسم الربوبية، فان من قضيتها الاستجابة بعد الدعاء بشروطها، والتربية الرسالية تتطلب في سؤلها شرح الصدر عطاء من الله، كما تتطلب العصمة الإلهية.

و «لي» هنا دون «لنا» دليل الاختصاص لذلك الشرح، فللمؤمنين به، الصابرين معه، المثابرين على إيمانهم، إن لهم شرحا كأمة، ولموسى الرسول شرح كرسول واين شرح من شرح؟.

اجل «اشرح لي» فانا الذي امرني بالذهاب الى فرعون، اشرح لي حتى لا يضيق إذا ازدحمت علي عقبات الدعوة وخلفيات الدعاية. و البند الثاني: «وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي» وطبعا هو امر الرسالة المعسور، يتطلب الى ربه ان يجعله الميسور، وليس ذلك سؤالا لتخفيف في رسالته، ام لتفيف عن ويه ودعوته، كأنه يبين سؤل الرسالة، فانه مزيد منها في كل حلقاتها، ويا وآية وعة في دعوة و دعاية. انما هو يسرها لموسى على عسرهما، يمثل من التأيد الرباني، مزيدا في تصبّره، ووزيرا من اهله، وتأييدا في نجاحه من عنده تيسرا للعسير، لا تقليلا للكثير، فانه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٣

حظ من ساحته، ومس من كرامته، وكيف يدعو عاقل ربه هكذا فضلا عن نبي كموسى!.

ففي ذلك التيسير ضمان لنجاح الرسالة، مهما أودى الرسول في سبيلها، حيث الهدف الأسمى منها نجاحها، لا أريحية الرسول في حياته الدنيوية دونما أية صعوبة، فان طبيعة كل رسالة هي الدوائر المتربصة بها، المحتفة عليها، كلما كانت الرسالة أوسع، والمرسل إليهم اشرس، فدوائر السوء عليها اكرس واكثر.

و البند الثالث: «وَ اٰخُلُّ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي.».

ففقّه القول الرسالي ضرورة في متن الرسالة، فلتحلل كافة العقد عن لسان الرسول حتى يفقهوا ما يقول.

أ ترى «عقدة» هنا كانت حبسة في لسانه لخلل عضوية «١»؟ وتلك حبسة في أوصل وسائل الرسالة، ونقص في الرسول، فان السنة القولية هي من مثلت السنة المعصومة الرسالية، بل هي أولاها دلالة مهما كانت العملية أولاها تأثيرا، فقصور اللسان ام تقصيره في بلاغ الرسالة خلاف كونه حجة بالغة الهية، «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ

(١). في نور الثقلين ٣: ٣٧٧ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزین عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: و كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون و يربى موسى و يكرمه و لا يعلم ان هلاكه على يده فلما درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين- / فأنكر فرعون ذلك عليه و قال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللحية فهلها اي قلعها فآلمه ألما شديدا فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول و قد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بل يدري فقالت له: ضع بين يديه تمرا و جمرا فان ميز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمرا و جمرا و قال له: كل فمد يده الى التمر فجاء جرثيل فصرفها الى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه و صاح و بكى فقالت آسية لفرعون: الم اقل لك انه لم يعقل فعفى عنه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٤

البالغة! ثم «وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» (٢٨: ٣٤) انها تكذب نقص العضو، وتحبس عن لسانه حبسته العضلانية، فان معقود اللسان ليس فصيحاً حتى يكون هارون افصح منه. ثم الفصاحة ليست سبب التصديق، ولا خلافها سبب التكذيب، فرب غير فصيح يكذب، ورب غير فصيح ام اخرس يصدق!. فتلك إذا عقدة عن الإفصاح تقية أما هي، فحل عقدة هنا هو إزالة التقية عن لسانه وكفاية سطوة فرعون وغواته، حتى يؤدي عن الله أمناً، ويقول متمكناً لا خائفاً ولا ولا، فلا يكون معقود اللسان بالتقية، ومعكوم الفم بالخوف والمراقبة. فتراه يقول «وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ. وَ هُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢٤: ١٤) فكما ان ضيق صدره كان بالنسبة لهذه الرسالة، كذلك عدم انطلاق لسانه لأنه ربي عند فرعون ويدها، وقتل من غواته نفسا، وطبيعة الحال هنا تقتضي بتناقل اللسان مهما كان فصيحاً، وبتكذبه وهو اصدق الصادقين:

«قَالَ أَلَمْ نُزِدْكَ فِينَا وَّلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (٢٤: ٢٢).

فقد يعقد لسان المتكلم الفصيح لعقد نفسانية ام خارجية، فلا يسطع افصاحا لمرامه، او مضيا في مرامه، او يطلق لسان غير الفصيح، وحتى المعقود اللسان او الأخرس، لطلاقة نفسية وتجابو خارجي، وموسى على سابقته، بمجابهة فرعون أن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٥

قتل منه نفسا، رغم تربيته الولادية عنده، ما كاد ليفصح عما يروم، صدا نفسيا عن إفصاحه، وآخر خارجيا وجاه فرعون وغواته، فلا بد له إذا من وير تخفيفا عن وره، وشدا لأزره، وردءا لكلامه.

هذا وان كنا قد نصدق حسب الرواية هذه الحبسة العضوية الى حين الرسالة، حفاظا على حياة موسى، ولكنها حلت منذ الرسالة بدعائه المستجاب: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» وقد تلمح «عقدة» منكرة دون «العقدة» انها تعني العقدتين وقد حلها بازالة الرثة العضوية والضيقة النفسانية، ثم بأخيه هارون رداً يصدق.

و من هنا يبدأ بتطلب سؤله الثاني في بنود ثلاث ليكتمل الأول في إنجاح رسالته.

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ٢٩ هَارُونَ أَخِي ٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣١ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ٣٣ وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ٣٥.

و هنا البند الأول «وَزَيْرًا مِنْ أَهْلِي» وهو حامل وزر الرسالة الموسوية ودعوة ودعاية، فكما الله وقع عن محمد صلى الله عليه و آله وره بوزيره علي عليه السلام أخيه، كذلك يضع عن موسى وره بهارون أخيه، وكما تواتر عنه صلى الله عليه و آله «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي»

فعلي يحمل ور الرسالة المحمدية دون وحي ورسالة، وهارون يحمل ور الرسالة الموسوية بوحي ورسالة، والوزارة هنا كالوزارة هناك إلا النبوة.

و الوزير من الوزر: الثقل- حيث الوزير يحمل ثقل الملك مع الملك، ام من الوزر: الجبل الذي يلتجئ اليه، حيث الملك يلتجئ اليه في مهامه، والاول اسلم لساحة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٦

النبوة حيث يكون فيه الوزير الحامل الثاني لحمل الملك وعبأه، وهو الشخصية الثانية لمسؤولية القيادة العليا، زمنيا او روحيا ام كليهما، كما هما حق للقيادة الروحيتين أنبياء وأئمة وعلماء ربانيين.

ثم البند الثاني والثالث هما كتفسير وإيضاح لحدود الوزارة، فشد الأزر هو تحكيم القوة الرسالية والعون فيها، والشركة في الأمر هي في أمر بلاغ الرسالة بالوحي، وليس الوحي فقط إذ لم يكن عبئا عليه شخصيا، وإنما هي في حمل الرسالة بكل مسؤولياتها، واما الدعاية لها والدعوة إليها بعد بلاغها الرسالي، فهو على عواتق المؤمنين بما ككل، دون اختصاص بوزير من اهله، فإنهم كلهم وراءه في ذلك الأمر قضية الإيمان به، فالوزارة- إذا- منصب خاص يتلو منصب القيادة العليا بانتصاب إلهي ليس إلا.

فلتكن الشركة المعنية هي في شؤون الرسالة وقيادتها الشاملة روحيا وزمنيا، فهو النائب الاول، والوزير الوحيد في كل ما قل وجل من الشؤون الاصلية الرسالية كما هي على عاتق موسى، إزرا وردءا وتصديقا لتلك الرسالة السامية «وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَدِّبُونَ» (٢٨: ٣٤).

و قضية الحال هنا ان لو دام هارون بعد موسى لكان خليفته في رسالته، فان الوزير في حياة الأمير هو الشخصية الاولى بين الشعب في كافة شروط القيادة، فهو الأمير بعد واته دون سواه.

هنا «وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» تقتضي الشركة في كافة شؤون الرسالة، وحيا وبلاغا وحجة أما هيه، ولذلك نرى الرسول صلى الله عليه و آله يجعل عليا منه كما هارون من موسى ثم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٧

يستثنى النبوة.

و لا فحسب ان عليا عليه السلام وير الرسول محمد صلى الله عليه و آله في متواتر السنة تنظيرا بآية الوزارة، بل وهو اخوة وولده بل ونفسه المقدسة لآية المبالهة ومتواتر السنة، فقد كملت الشروط وفيه فيه لعرش الخلافة الاسلامية، ودة واخوة ووزارة ونفسية نفيسة هي انفس القواعد الأربع لعرش الخلافة.

و لترجع هنا الى مادة الدعاء لموسى في هذه الوزارة السامية، لكي تتعرف الى الوزارة العلوية العالية، وعلى ضوء متواتر الرواية عن النبي صلى الله عليه و آله على غرار الآية وقرارها.

«وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا...» دليل ان جعل الوزارة الرسالية مخصوص بالله، و ليس للرسول أن ينتصب لنفسه وزيرا في أمره فضلا، عن أمته فكما الرسالة هي من الله، كذلك وارثها من الله، والا فلما ذا يسأل الله ان يجعل له ويرا. و «من اهلي» وطبعا هي الأهلية الرسالية دون التسيبة فحسب، ولا سواها من أهليات لا تؤهل لوزارة الرسالة.

«هارونَ أَخِي» ويا للأهلية من جمع جميل ان تعم جانبي الرسالة والرسول، فهارون اهل لذلك الرسول رساليا، واهل له نسبيا، فهو اخوه في كلتا المرحلتين.

«اشدُّدْ بِهِ أَرْزِي» والأزر من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده إذا استعد لصعاب الأمور، وهارون يشد أزر موسى في بلاغ الرسالة رساليا، لا فقط ايمانيا، فانه يعم كافة المؤمنين بهذه الرسالة، ولذلك يلحق اشراكه في الأمر بشد الأزر.

«وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» شركة رسالية في كافة بنودها دوغما إبقاء لواحدة منها، إلا ان

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٨

موسى هو القائد الرسالي وهارون ويره.

فالأزر هنا هو ظهر الرسالة الموسوية، لا يشد إلا بمظاهر رسالي من نفس النمط وهو عضد الرسالة كما قال «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا» (٢٨: ٣٥).

و قد تنطبق هذه المواصفات بصورة اجلى وسيرة اسمى وأعلى في وزارة علي عليه السلام للرسول صلى الله عليه و آله فسورة الإنشراح تشرح آية الوزارة، ومتواتر الرواية عن طريق الفريقين يؤكد ذلك الشرح.

هنا تعالى معي الى سرد لألفاظ ما أخرجه الحفاظ والرواة عن النبي صلى الله عليه و آله لتعرف ابعاد هذه الوزارة العلوية العلوية.

لقد روى حديث المنزلة أول ما روى الرسول صلى الله عليه و آله عن الله تعالى إذ «هبط جبرئيل على النبي صلى الله عليه و آله فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى لكن لا نبي بعدك» (١).

و من ثم يكرره الرسول صلى الله عليه و آله في عدة مواطن ود رواه عنه صلى الله عليه و آله جماعة من الصحابة منهم الإمام علي عليه السلام نفسه ان رسول الله صلى الله عليه و آله أراد ان يغزو غزاة فدعى جعفرأ فأمره ان يتخلف على المدينة فقال لا أتخلف بعدك يا رسول الله صلى الله عليه و آله قال فدعاني رسول الله صلى الله عليه و آله فعزم علي ان أتخلف قبل ان أتكلم قال فبكيت فقال رسول الله صلى الله عليه و آله ما يبكيك يا

(١). أخرجه جماعة عن اسماء بنت عميس عنه (صلى الله عليه و آله و سلم) منهم محب الدين الطبري في الرياض النضرة (٢):

(١٤٤) و في ذخائر العقبى ص ٦٤ و القندوزي في ينابيع المودة ص ٢٠٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٣٩

علي؟ قلت يا رسول الله صلى الله عليه و آله يبكيني خصال غير وحدة، تقول قريش غدا ما أسرع ما تخلف عن ابن عمه وخذله، وتبكيني خصلة أخرى كنت أريد ان أتعرض للجهاد في سبيل الله لأن الله تعالى يقول: «وَلَا يَطُؤُنَّ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» فكنت أريد ان أتعرض لفضل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله اما قولك يقول قريش ما أسرع ما تخلف عن رسول الله صلى الله عليه و آله وخذله فان لك بي أسوة، قالوا لي ساحر وكاهن وكذاب، واما قولك: أتعرض الأجر من الله اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي» (١).

و منهم عمر بن الخطاب انه رأى رجلا يسب عليا فقال ابني أظنك منافقا سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: انما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا انه لا نبي بعدي» «٢».

و منهم معاوية بن أبي سفيان حيث سأله رجل عن مسألة فقال: سل عنها علي بن أبي طالب عليه السلام فانه اعلم، قال: يا امير المؤمنين قولك فيها أحب الي من قول علي فقال:

بئس ما قلت ولؤم ما جئت به لقد كرهت رجلا كان رسول الله صلى الله عليه و آله يغيره العلم غرا ولقد

(١). رواه جماعة من القوم منهم النيسابوري في المستدرک ٢: ٣٣٧ و الحموي في فرائد السمطين و الذهبي في تلخيص المستدرک و الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٠ و المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٥٥ و البدخشي في مفتاح النجا ص ٤٥ و الحلبي في انسان العيون (٣: ١٣٢) و البغدادي في تاريخه ٧: ١٩٤

(٢). أخرجه عنه جماعة منهم البغدادي في تاريخ بغداد ٧: ٤٥٢ و محب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢: ١٦٢ و قلندر الهندي الحنفي في الروض الأزهر ص ٩٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٠

قال له رسول الله صلى الله عليه و آله أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ولقد كان عمر بن الخطاب يسأله فيأخذ عنه و لقد شهدت عمر إذا أشكل عليه شيء قال: ها هنا علي، قم لا اقام الله رجلك ومحى اسمه من الديوان» «١».

و لقد روى حديث المنزلة عن رسول الله صلى الله عليه و آله بألفاظ عدة في مواطن متعددة ثلة من الأصحاب» «٢».

(١). أخرجه عنه جماعة منهم ابن المغازلي في كتاب مناقب امير المؤمنين (عليه السلام) و الطبري في ذخائر العقبى ص ٧٩ عن الامام احمد في المناقب و في الرياض النضرة ٢: ١٩٥ و الحموي في فرائد السمطين و الواسطي في المناقب ص ١١٨

(٢). مثل سعد بن أبي وقاص ٣- و جابر بن عبد الله الأنصاري روي عن عشرة كتب ٤- و أبي سعيد عن ١٥، ٥- و حبشي ابن جنادة السلولي عن ٤، ٦- و سعد بن مالك عن ٥، ٧- و اسماء بنت عميس عن ٨، ٨- و ابن عمران عن ١٠، ٩- و ابن أبي ليلى عن كتب عدة، ١٠- و مالك بن الحريث عن كتب عدة، ١١- و سفيان الثوري عن ٣، ١٢- و ابن عباس عن ستة، ١٣- و ام سلمة عن عدة كتب، ١٤- و عبد الله بن مسعود، ١٥- و انس بن مالك، ١٦- و زيد بن أرقم، ١٧- و أبي أيوب، ١٨- و أبي بردة، ١٩- و جابر بن سمرة، ٢٠- و غيرهم من الصحابة و التابعين من الحفاظ و المحدثين كلهم عن كتب معدودة هنا و غير معدودة و إليكم اسماء قسم من الكتب:

٣- / فسعد بن أبي وقاص يرويه عنه ابراهيم بن سعد رويناه عن اربعة و عشرين من كتب أعظم محدثي العامة، و عائشة بنت سعد عن تسعة كتب و عامر بن سعد عن خمسة عشر و مصعب بن سعد عن احد و ثلاثين و سعيد بن المسيب عن تسعة عشر، و حديث آخر عنه عن اربعة، و عبد الدين سعد عن ثلاثة و عبد الله ابن بديل عن عدة كتب.

٤- / و جابر بن عبد الله أخرجه عنه احمد بن حنبل في المسند ٣: ٣٣٨ و الترمذي في صحيحه ١٣: ١٧٥ و الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣: ٤٨٨ و ابن الأثير في جامع الأصول ١: ٤٦٩ و الحموي في فرائد السمطين و القرشي في البداية و النهاية ٧: ٣٤١

و العسقلاني في لسان الميزان ٥: ٣٧٨ و السيوطي في ذيل اللثالي ص ٥٩ و المبيدي في شرح الديوان ١٧٣ و الواسطي في المناقب ١١٨.

٥- / و ابو سعيد أخرجه عنه و ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣: ٢٤ و القشيري في تاريخ الرقة ١٣٣ و ابن المغازلي في المناقب و اليتيمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ و الهروي القاري في شرح العين ٣٥٦ و القندوزي في ينابيع المودة ٥٠ و النبهي في الفتح الكبير ٣: ٣٤٣ و اليتيمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩ و النعساني في تعليقه على تاريخ الرقة ١٣٣.

٦- / و حبشي بن خبابة أخرجه عنه ابو نعيم في اخبار اصبهان ١: ٢٨١ و النعساني ١٣٣ و الطبراني في المعجم الصغير ١٩٠ و الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٩.

٧- / و سعد بن مالك أخرجه عنه ابن سعد في الطبقات ٣: ٢٤ و احمد بن حنبل في مسنده ١: ١٧٣ و ٣: ٥٧ و ٦٦ و ٧٤ و في المناقب ٣: ١٢٤ و النسائي في المخصص نص ١٧.

٨- / و اسماء بنت عميس أخرجه عنها الامام احمد في المستدرک ٦: ٤٣٨ و الفضائل ٣: ١٠٧ و النسائي في الخصائص ١٧ و البغدادي في تاريخه ١٠: ٤٣ و ١٢: ٣٢٣ و ابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٤٥٩ و الحموي في الفرائد و الذهبي في تاريخ الإسلام ٤: ٩٤١ و الهيثمي في مجمع الزوائد.

٩- / و ابن عمران أخرجه عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٠.

١٠- / و ابن أبي ليلى أخرجه عنه المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٣٠.

١١- / و مالك بن الحريث أخرجه عنه البخاري في التاريخ الكبير ٤: ٣٠١.

١٢- / و سفبان الثوري أخرجه عنه الخطيب في ٤: ٧١ من تاريخه و في موضع أوهام الجمع و التفريق و الطبري في الرياض النضرة ٣: ١٦٣.

١٣- / و ابن عباس أخرجه عنه ابو نعيم في تاريخ اصفهان ٣: ٣٢٨ و ابن المغازلي في المناقب و ابن عساكر في التاريخ الكبير ١: ١٠٧ و الهيثمي في الجمع ٩: ١٠٩ و البدخشي في مفتاح النجاة ٤٤ و القندوزي في ينابيع المودة ٢٣٤.

١٤- / و ام سلمة أخرجه عنها الدمشقي في البداية و النهاية ٧: ٢٤١ و الهيثمي في الجمع.

١٥- / و ابن مسعود أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقبه.

١٦- / و انس بن مالك أخرجه عنه ابن المغازلي و المتقي الهندي في منتخب كنز العمال ٥: ٢١.

١٧- / و زيد بن أرقم أخرجه عنه الشافعي في سعد الشموس و الأعمار ٣٠٩ و الهيثمي في مجمع الزوائد.

١٨- / و ابو أيوب أخرجه عنه الهيثمي في الجمع ٩: ١١١.

١٩- / و ابو بردة أخرجه عنه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣.

٢٠- / و جابر بن سمرة أخرجه عنه القندوزي في الينابيع ٥٠ و الهيثمي في الجمع

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤١

و هؤلاء الأعظم كلهم سمعوا حديث المنزلة عن رسول الله صلى الله عليه و آله أخرجه عن كل منهم جماعة من الأساطين وهم حسب ترتيب العدد يذكر بعضهم في الهامش.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٢

و كل هذه الاخراجات متفقة في «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» ام بزيادة «اما ترضى» ثم «الا انه لا نبي بعدي» «١» «لا نبوة بعدي» «٢» «لا نبوة بعد نبوتي» «٣» «الا النبوة» «٤» «لا نبي معي» «٥». «غير انه لا نبي» «٦» «و لو كان لكتبته» «٧» «إلا انك لست بنبي» «٨» «الا النبوة وأنت خليفتي» «٩» «انه لا ينبغي ان

- (١). هذا هو الأكثر المطلق و يعني «من بعدي» من بعد نبوتي لا بعد وفاتي، كما يفسره سائرالنصوص
- (٢). أخرجه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ١٤٨ عن عدة طرق عن سعد بن عامر عنه (صلى الله عليه و آله و سلم) و احمد بن حنبل في المسند ١: ١٨٥ و جماعة آخرون من الحفاظ
- (٣). أخرجه الحافظ ابو نعيم في حلية الأولياء ٧: ١٩٥ و النسائي في الخصائص ١٥
- (٤). أخرجه الشيباني المروزي في المسند ١: ١٧٠ و في الفضائل، و النسائي في الخصائص ١٤ و ١٦ و الحموي في الفرائد و الدمشقي في البداية و النهاية ٧: ٣٤٠ و المتقي الهندي في كنز العمال ٦: ١٥٣ و عبد الرحمان الرازي في علل الحديث ٢: ٣٩٠ و الخطيب في تاريخه ٨: ٥٢ و ابن المغازلي في المناقب كلهم عن عائشة بنت سعد عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و البخاري في التاريخ الكبير ١: ١١٥ عن سعد عنه (صلى الله عليه و آله و سلم)
- (٥). أخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب و القندوزي في ينابيع المودة ٨٦
- (٦). أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦: ١٠٧ دخل سعد على معاوية فقال له بعد مكلمة بينهما: انك لتأمرني ان أقاتل رجلا سمعت فيه من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي فقال له معاوية من سمع هذا معك قال: فلان و فلان و ام سلمة
- (٧). الخطيب البغدادي في تاريخه ٣: ٢٨٨ بسند متصل عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعد و لو كان لكتبته
- (٨). أخرجه ابن المغازلي في مناقبه و البدخشي في مفتاح النجا ٤٤ مخطوط و ابن سعد في طبقات الكبرى ٣: ٢٤ عن البراء بن عازب و زيد ابن أرقم.
- و احمد بن حنبل في مسنده ١: ٢٣٠ و الفضائل ٢: ٢٤٠ و النسائي في الخصائص ٨ و النيسابوري في المستدرک ٣: ١٣٢
- (٩). أخرجه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٢٣ عن أبي بردة قال خرج علي ..
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٣
- اذهب الا وأنت خليفتي» «١» صارخة صارخة ان لا استثناء عن تلك المنزلة الا منزلة النبوة، حيث ختمت بمحمد صلى الله عليه و آله بهذه التصريحات العشر.
- وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله قوله «يا علي أنت مني بمنزلة هبة الله من آدم، ومنزلة سام من نوح، ومنزلة إسحاق من ابراهيم ومنزلة هارون من موسى، ومنزلة شمعون من عيسى الا انه لا نبي بعدي» «٢».
- و حديث المنزلة على ضوء آيتها ليس يثبت لعلي عليه السلام فقط الخلافة بعد الرسول، بل الوزارة زمن الرسول صلى الله عليه و آله و الوزير في حياة الرسول، أخرى ان يكون الأمير بعد واته.
- و هذه قلة من ثلة من أحاديث المنزلة والتفصيل الى المفصلات.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ٣٦.

و السؤال هو الحاجة وهي هنا حاجة عضد الرسالة وأزرها، وقد أوتيت لموسى، وكذلك سأل الرسول محمد صلى الله عليه و آله لأخيه علي عليه السلام ما سأله موسى لأخيه هارون فأوتي سؤله واين سؤال من سؤال سؤال، فقد سجل سؤال موسى بسؤله في الذكر الحكيم في آيات بضع، وسجل ستول الرسول دون سؤال في سورة الانشراح! هذه هي المنة الثالثة على موسى، وقبلها اصل الوحي والرسالة، وقبلهما:

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ أَقْرِبْنِي فِي

(١). أخرجه ابن كثير في البداية و النهاية ٧: ٣٣٨

(٢). البحار الطبعة الحديثة ٣٧: ٢٠٤ بالإسناد عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و الإخراجات السابقة نقلناها عن تعليقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٥ ص ١٣٢- / ٣٣٤

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٤

التَّابُوتِ فَاقْدِرْ فِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتُ نَفْسًا فَتَجَنَّبْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَمَّ بَتَّ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بَايَاتِي وَ لَا تَنبَأُ بِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَى (٤٦) فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨) وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ٣٧ و هي المنة الاولى و ان كانت هي الاخرى بالنسبة لما هنا:

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ٣٨ مهما بان البون بين وبين، فثانيتها «ما يُوحَى» الى رسول الهدى وحي رسالي، والاول وحي الهامي الى ام موسى وقد شمل ذلك الوحي نبأ عن وي التكوين الى اليم وان يأخذه عدو لله وعدو لموسى.

و ذلك المن الاول دون سؤال يؤكد تحقيق منه سؤال، ولا سيما بعد الرسالة، وعل «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ» تشمل كل سؤاله منذ ولادته الى تربيته والى رسالته ومتطلباتها، فان ذلك قضية المضي المؤكد ب «قد» في «قَدْ أُوتِيتَ» فمنه تعالى مرة اخرى وهي الاولى داخل في سؤاله فانه ليس سؤالاً حتى يختص بالحال، بل هو حاجة تقتضيه الحال على اية حال، سألها بلسان القال او الحال ام لم يسألها في مقتضى الحال.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٥

و لماذا «مَرَّةً أُخْرَى» والمذكور في ما يوحى ممن ثمان؟ علّه لأنه نظرا الى حياته الرسالية وقبلها، فالمنن عليه في كل منهما مرة مهما كانت شتى، فقبل رسالته منة هي ثمان ام تزيد، وقبلها اخرى هي ستة ام تزيد فهما متتان كمجموعتين، وهما منن- لأقل تقدير- هي اربعة عشر كعديدها.

فالمن الاول من الأخرى: «إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى» فان مادة الوحي كانت لصالح الحفاظ على حياة موسى:

أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ٣٩. أتري هذه المادة الهامة الخطيرة من وحي الإلهام كانت رؤيا في المنام، كان تأويلها قذفه في التابوت ثم في اليم؟ وليست هنا لك قاطعية في تأويلات الروئي إلا ان يكون المؤول من الأنبياء، والنص هنا لا يشير الى رؤيا ولا تأويله ولا نبي في البين!. انها- بطبيعة الحال- وفي هذه الهامة الخطيرة، إلهام الى قلبها في حدّ من الظهور والبهور لا يقبل اي تردد، وكأنها تحس الواقع المستقبل من نجاة موسى، لحدّ ألقته في التابوت إلى اليم. كيف لا و «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نُحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» (٤١: ٣١).

أو ليست ام موسى من هؤلاء- وهي تحمل امانة الرسالة الإلهية- حتى تستحق نزول الملائكة عليها بذلك الوحي، حفاظا على رسالة الوحي؟! وكما تمثل لأم عيسى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٦

روح الأمين «فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا» لكي يلقي إليها غلاما سويا.

فهنا أم موسى يوحى إليها ما فيه الحفاظ على ويداها، وهناك ام عيسى يوحى إليها ليلقي إليها بشرا سويا، وهما من أفضل الوحي فيما سوى النبوة والرسالة، ومن أدناه الوحي الى النحل ثم للأرض.

فما كل ما يسمى ويا، يحمل رسالة إلهية، وهو في الأصل اشارة في رمز تكويننا او تشريعا، خيرا او شرا، كما «إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» (٦):

!(١٢١).

و كما ان وحي الشيطان دركات، كذلك وحي الرحمن درجات، أدناها للأرض، وأعلىها الى المرسلين وبينهما متوسطات. فلقد قذف في قلب ام موسى لأول ما يوحى «أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ» ...

أم حنون تلد ودا كموسى، فبدل ان تحتضنه تقذفه في التابوت، وهي ما يلقي في الماء! صحيح انها تاكدته ويا من الله، ولكنها كيف تجرء على الإقدام بما تؤمر، والعاطفة المرفهة والهيمن البالغ تمنعنا عن ذلك، مهما الوحي يأمرها بذلك!؟.

هنا قذف في التابوت، ثم قذف في اليم، قد يلمحان بسرعة في العمل دون أية رعاية، تعجيلا دون اي تأجيل، مما يوحش ولا سيما الأم الحنونة، لولد تعرفه من هو!؟.

و لكننا النص التالي يطمئنها ان ليس في إلقاءه إغواء: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» أمرا تكوينيا لليم ان تلقيه من خضمها الى الساحل، ثم امر آخر كما الاول لا قسى قلب واعصى عبد: «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ» و هو فرعون الطاغية، عدو لله إذ ينكر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٧

ربوبيته بل يدعي هو الربوبية بديله، وعدو لموسى إذ يعلم ان بيده قضاء فرعنته وملكه، ولذلك أخذ يقتل الذكر ان من بني إسرائيل «١» ولكنه مأمور تكوينيا باختيار

(١). بحار الأنوار ١٣: ٢٥ عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر

(عليه السلام) قال: لما حملت به امه لم يظهر حملها الا عند وضعها له و كان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط

تحفظهن و ذلك لما كان بلغه عن بني إسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهن حتى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال و النساء و حبس الرجال في المحابس فلما وضعت ام موسى بموسى نظرت اليه و حزنت عليه و اغتمت

و بكت و قالت: تذبح الساعة، فعطف الله الموكلة بما عليه فقالت لام موسى مالك قد اصفر لونك فقالت: أخاف ان يذبح ولدي فقالت لا تخافي و كان موسى لا يراه احد الا أحبه و هو قول الله: و ألقيت عليك محبة مني» فأحبته القبطية الموكلة به و انزل الله على ام موسى التابوت و نوديت: ضعه في التابوت فاقد فيه في اليم و هو البحر و لا تخافي و لا تحزني انا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين فوضعت في التابوت و أطبقت عليه و ألقته في النيل و كان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره و معه آسية امرأته الى سواد في النيل ترفعه الأمواج و تضربه الرياح حتى جاءت به على باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال: هذا إسرائيلي فلقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك في قلب آسية و أراد ان يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذة ولدا و هم لا يشعرون انه موسى و لم يكن لفرعون ولد فقال التمسوا له ظفرا تربيه فجاءوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن احد من النساء و هو قول الله: و حرمننا عليه المراضع من قبل

وفي بحار الأنوار ١٣: ٤٦ فض ضه روى مجاهد عن ابن عمرو و أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في خير طويل قال: ان موسى بن عمران (عليه السلام) كان فرعون في طلبه يقرر بطون النساء الحوامل و يذبح الأطفال ليقتل موسى (عليه السلام) فلما ولدته امه أمرها ان تأخذه من تحتها و تقذفه في التابوت و تلقي التابوت في اليم فقالت و هي ذعرة من كلامه يا بني اني أخاف عليك الغرق فقال لها: لا تحزني ان الله يرديني إليك فبقيت حيرانة حتى كلمها موسى و قال لها: يا ام اقدفيني في التابوت و القى التابوت في اليم قال: ففعلت ما أمرت به فبقي في اليم الى ان قذفه الله في الساحل و رده الى امه برمته لا يطعم طعاما و لا يشرب شرابا معصوما مدة.

وفيه عن الكافي عن سدير الصيرفي عن الصادق (عليه السلام) قال: ان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يد موسى امر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه و انه من بني إسرائيل فلم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفا و عشرين الف مولود و تعذر عليه الوصول الى قتل موسى لحفظ الله تبارك و تعالى إياه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٨

ان يأخذ عدوه موسى و يحتضنه ليحتزن به على جهله:

«و أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا...» (٢٨: ٨).

هنا و هناك يطلعه ربه عرضا عليه من منة قبل رسالته، ليزيد علما و طمأنينة انه لم يذهب و لن .. غفلا عن عين الله و رعايته حين ضعفه على اية حال، فكيف يذهب غفلا في تلك الحال و قد بلغ أشده و أرسل بالوحي و آيات الرسالة القاهرة الباهرة؟.

أ ترى لماذا الإلقاء في التابوت و هي حمل الجنائز مما يخيف بدل ان يطمنن؟.

«التابوت» معرفا دليل انه صندوق خاص، و عل أصله «تابوه» من «تباه» العبرية (؟؟؟) و هي بين: الصندوق- / فلك نوح و تابوت العهد، و الهاء في آخر (تباه) إذا أضيفت الى كلمة اخرى تقلب تاء فيقال: تبت مكتابيت صندوق الرسائل.

إذا فالتابوت لغويا صندوق خاص فيه صيانة تامة لما فيه، و شاهدها له قرآنا «إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ» (٢: ٢٤٨).

فكما في هذا التابوت سكينه من ربكم و بقية مما ترك آل موسى و آل هرون تحمله الملائكة، كذلك التابوت الذي قذف فيه موسى و قذف في اليم تحمله رعاية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٤٩

الله في خضم اليم «فَلْيُلْهِمِ اللَّيْمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَ عَدُوٌّ لَهُ!» و علّه هو التابوت الاوّل نفسه و قد وضع موسى فيه المن و عصا هارون ولوحي العهد، كما في الرسالة الى العبرانيين الاصحاح التاسع: وامر اللاويين ان يضعوا فيه كتاب التوراة بجانب عهد الرب في التابوت كما في تنبيه التوراة ٣١: ٢٥.

و على اية حال هو فاعول يدل على مبالغة في معناه، يوضع فيه الثمين الثمين حفاظا عليه- بالغا- عن الضياع، وقد يسمى تابوت الميت باسمه، لأنه يصونه عن الضياع حيث كان يوضع في صندوق ويدفن معه بماله من حاجيات ضرورية حيوية عله يحتاجها في قبره!. و لماذا «فَلْيُلْهِمِ اللَّيْمُ بِالسَّاحِلِ» دون «الى الساحل»؟ علّ الساحل هنا مأمور كما اليم، فاليم يلقيه بواسطة الساحل الذي يلتقيه، فقد يلقي اليم ولا يلتقى الساحل ما ألقاه، أم يلتقى الساحل ولكن اليم لا يلقي، فهنا هما مأموران تكوينيا دون اختيار إلقاء و تلقيا، وكما فرعون مأمور قذفا في قلبه تكوين الإختيار! إذا فهنا أوامر اربعة، أولاها لام موسى «و ثانيها لليم: «فَلْيُلْهِمِ اللَّيْمُ» وثالثها للساحل: «بالساحل» ورابعها فرعون: «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَ عَدُوٌّ لَهُ».

و ترى «اليم» هنا هو البحر؟ او النيل النهر؟ فلما ذا لم يأت كلّ باسمه الخاص!.

انه البحر وعظيم النهر، فلان النيل كان في عظمه كالبحر الملتطم، لذلك جاء بصيغة اليم.

و الضمائر الاربعة كلها راجعة الى موسى «اقذفيه. فاخذيه.. فليلقه.. يأخذه» فانه الأفصح الأصح من اختلاف المراجع، في ادب اللفظ وادب المعنى، حيث

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٠

الخور الأصيل هنا هو موسى، و ما التابوت إلا حاملا له كسفينة مأمورة في امر اليم والساحل.

و كيف «يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَ عَدُوٌّ لَهُ»؟ حيث «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فان فرعون كان يعادي كل إسرائيلي عله موسى، فكان يعاديه كأحد منهم بهذه الحائطة، واصل عداه لان بيده انهباره، فلم ينج بهذه الطريقة الخارقة للعادة ان يأمر بأخذه من الساحل الا بما القى عليه محبة منه ولحدّ تقول اهله: «فُتِّرْتُ عَيْنَ لِي وَ لَكَ لَا تُفْتَلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (٢٨: ٩)!. أحبته فأحبه فرعون خلافا لما يحكمه الجو الفرعوني!.

ف «ألقى» إلقاء خاص بالغاء كل بواعث العداة وكوارثه، و «عليك» تجعل المحبة الملقاة سترا له يشمله كله، فظاهره يجلب و باطنه يجذب، اللهم إلا فيمن يعرفه من هو وهو يعاديه لأنه هو، كفرعون الطاغية، ولكنه عرفه بعد وعانده ما عاند.

و ترى «مني» متعلقة ب «ألقى»: إلقاء مني؟ ام بمحذوف ك «حاصلة»؟ او المعنيان معنيان، فكما المحبة ملقاة من الله كعناية خاصة، كذلك هي حاصلة من قبل الله لمن يحب الله فيحبه الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» (٩٦: ١٩).

فموسى وان لم يكن منذ ودهته كما وحى الله حتى يجعل له ودا- وهو كما واف وفوقه- ولكنه يوده لأنه سيجعله رسوله، فهو يصنعه على عينه، وذلك فوق الايمان شريطة لاستحقاق الود من الرحمن.

ثم «محببة» منكبة تلمح الى ضخامتها وفخامتها القليلة النظير، و «مني» تجعلها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥١

خاصة من لدنه، فقد استقرت عليه محبة ربانية، فلا يراه احد إلا أحبه دون ان يعرفه، الا ان يعرفه عدو له.

فيا للقدرة العجيبة التي تجعل من المحبة اللينة الهينة درعا تنكسر عليها الضربات، وتتحطم عليه الأمواج، وتعجز كل قوات الشر والطغيان عن ان تمس حاملها بسوء وان كان طفلا رضيعا، كيف وقد بلغ أشده، ثم حين عرفه عدوه يتربص به كل دوائر السوء فلا يقدر عليه او يغدر به حتى إذا أدركه الغرق ونجى موسى ومن معه!

فالقوى الطاغية المتربصة بالطفل لا تقوى عليه على طغواها، حيث «محببة ميني» تحرسه عنها، دون نزال له ولا صيال، وهي بكل صيال ونزال!

و لماذا «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»؟ لأمر عدة تستحقها رحمة ميني ولتصنع على عيني» وهكذا يصنع الله على عينه من يشاء ان يلقي عليه محبة منه.

ام «و لتضع على عيني»- «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» حيث الرسل صنائع الله يصنعهم على عينه كما يشاء ويصلح لحمل اعباء الرسالة الإلهية.

ف «عيني» هنا، وهي ككل الرقابة، تعني عين العلم والقدرة والتربية الربانية، فمثلت العين التربوية الإلهية تصنعه كما يريد، وليس يعني ان في الكون شيئا يغيب عن رؤية الله، ولكنه يفيد الاختصاص بشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة ان تترى بحيث أراك وارعاك، فلان الحافظ لشيء في الأغلب يديم رعايته بعينه، جاء هنا باسم العين بدلا من الحفظ، تلطيفا في الكلام، ومشاهدة لما بين الأنام، فانه تعالى يكلمنا بألسنتنا.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٢

و هذه الصناعة تخلق على كل كيانه وكونه، منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، الى الولادة، الى التربية، الى النبوة والرسالة والنبوة، والى ان قضى نجبه. وقد تعني «و لتصنع» فيما عنته، امه، فان صناعتها هي من صناعته في طيب الحمل و الولادة، وحسن الصنعة باثتمارها امر ربحا في قذفها في الهم، وما أجمله جمعا بين الصناعتين فإنهما صناعته، ولأنه صبغة التذكير، ليست لتختص بما فاتها «لتصنعي» خطابا، اللهم إلا في غياب الصيغة وهو بعيد عن السياق، والجمع اجمع وأجمل.

أنت تصنع على عيني تحت عين فرعون عدوا لي وعدوا لك، كما تحت عيني أمك، فكما أنت على عين أمك بكل حنانها، كذلك تحت عين فرعون وفي متناوله بلا أي حارس وعلى أشرف كل كارث، ولكن عينه لا تمتد إليك إلا على عيني، لأنني «أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»!

و ترى «محببة ميني» ميّزه لموسى وحتى على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله إذ لم يشمل النص، ولم يختص بنص آخر؟ ان الرسول محمد يفوق موسى ومن فوقه بفائقات عدة، منها ان «لا تتم الشهادة إلا ان يقال: اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله، ينادي به على المنابر فلا يرفع صوت بذكر الله عز وجل الا رفع بذكر محمد صلى الله عليه وآله معه «١» وذلك قوله عز وجل

«وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»! وانه رسول الى النبيين كما الى

(١). نور الثقلين ٣: ٣٧٩ في كتاب الاحتجاج روى موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال: ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فلقد القى الله على موسى (عليه السلام) محبة منه؟ قال علي (عليه السلام) لقد كان كذلك و لقد اعطى الله محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) ما هو أفضل منه لقد القى الله عز و جل عليه محبة منه فمن هذا الذي يشركه في هذا الاسم إذ تم من الله عز و جل به الشهادة فلا تتم الشهادة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٣

جميع العالمين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ: أَلَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (٣: ٨١).

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَتَجُنِّبْنَاكَ مِنَ الْعَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ٤٠.

«وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِهِ فَبُصِّرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ.

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٢٨: ١٣).

هنا- وبعد قذفه في اليم والتقاط آل فرعون له- تقصه أخته بأمر أمه فتبصر به عن جنب وهم لا يشعرون، ولأنه لم يكن يرتضع من اي ثدي حيث حرمت عليه المراضع من قبل إلا امه، عرضت لهم من يكفله رضعا ونصحها، كفاية لحاجته روحية اضافة الى بدنية، وهم بطبيعة الحال يفتشون عن هكذا مرضعة.

«إذ تمشي» عله ظرف ل «وَ لَتُصْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي» أخذنا لصناعته منذ رضاعته وهو صنيع ربه قبلها وبعدها حتى ارتحاله الى رحمة ربه، ولكننا الرضاعة لأهميتها هنا كأنها بداية صناعة الرب، وهو صنيعه منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى النهاية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٤

في تطواف الرسالة وقضاء أمرها.

فلقد كان من صناعته له على عينه ان جعله لا يقبل ثدي المرضعات «وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ» فآل فرعون يبحثون له عن مرضعة مرضية، وتتسامع المرضعات هذه الطلبة الفرعونية فتتسابق الى القصر تكسبا لهذه المفخرة ان تصبح إحداهن مرضعة فرعونية، فيدبر الله امره ان تمشي أخته ضمن المشاة فتقدمهما لما يتطلبون «فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ» ولكي يتم ود الله له حيث حرمت عليه المراضع من قبل، وذلك من قرير عينها ألا يرتضع الا منها جمعا بين حق الربوبية وصالح الرسالة وبغية الامومة!.

و هكذا يتم التدبير الرباني للطفل وأمه، حيث تأتمر وتقذف فلذة كبدها في اليم، ليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو الله وعدو له «وَ لَتُصْنَعْ عَلَىٰ عَيْنِي» فيكون الأمان بلقائه في خضم اليم الملتطم، وتكون النجاة من فرعون بلقائه بين يديه بلا حارس و لا معين وبكل كارث!.

و هنا يتناسى السياق مساع موسى منذ ارتضاعه الى بلوغ أشده، الى عرض منة اخرى:

وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَتَجُنِّبْنَاكَ مِنَ الْعَمِّ «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ دَخَلَ الْمَدْيَنَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ

مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعُفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٥

أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَمُوتُنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ. وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ..» (٢٨: ٢٢).

فلقد اغتم موسى بهذه القتل الخاطئة غير القاصدة كما تلمح له «فَنَجِّنَاكَ مِنَ الْغَمِّ» - «قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» - «إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ» فقد وزه وزه فأصبحت قتلة خاطئة «١» وحتى لو كانت عامدة ما كانت منه خطيئة، فان القبطي كان ونيا محاربا وحكمه وضح، ولكن هذه القتل غير العامدة خلقت تأخيرا للرسالة الموسوية، وهي من هذه الناحية كانت خطأ وغما فنجاه الله من غمه. «وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا» عدة، منذ رضاعتك وصبك وبلوغ أشدك في البلاط الفرعوني، إلى قتل النفس، وإلى قضايك في مدين، وفتن الرسالة هي طبيعة الحال لمن يعد لها عدة، ولكي يتمرن على المصائب المصاعب، ويتدرب على درب الرسالة الشاقة الملتوية، ويتجرب بما يحضره لكل نائبة.

و تراه كيف قتل نفسا خطأ وهو صنيع ربه، معصوما عن كل وصمة عامدة او

(١). الدر المنثور ٤: ٢٩٦- / اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: انما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ يقول الله: و قتلت نفسا فنجيناك من الغم وفي المجمع روي عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) انه قال: رحم الله اخي موسى قتل رجلا خطأ و كان ابن اثني عشرة سنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٦

خاطئة؟ علّه من فتن الله، المعني من «فتونا» ولكي يعرف انه لو وكله الى نفسه طرفة عين لتطرف وانحرف، وذلك قبل الرسالة الرسمية حيث حصلت بعد سني مدين الفاتنة له، المرية إياه.

يتمتحنه ربه بالخوف والهرب من القصاص، وبالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وبالخدمة ورعي الغنم، نحلة لأهله ونفقة، وقد تربي منذ ودته حتى حينه في قصر أعظم ملوك الأرض!

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدْرًا يَا مُوسَى.

و هذه السنون هي من ضمن فتنة الفتون، حيث يصنعه ربه على عينه في شغل رعاية الغنم ورعيها، نحلة عن زواجه، واستعدادا لرعاية الرسالة العالمية ورعي الامة الاسرائيلية.

و «سنين» هذه بين ثماني حجج وعشر، وعلّه قدم العشر تقديما لافضل الأمرين الأمرين وأتمهما «١» كما هي شيمة الرسل بجانب الله.

و طالما النص يلوي عن عرض أشغاله في سني مدين، حيث الأهم هو عرض هامة الرسالة بينودها، ولكن «ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدْرًا يَا مُوسَى» تقدّر مقادير تحضره في سنيّه الفاتنة الفاتنة.

و ذلك القدر هو قدر وية عزم الرسالة كما قدر الله، الوقت المقدر لما نضج واستعد وخرج عن كل هرج ومرج، حيث ابتلي وصبر وامتنح فجاز الامتحان، كما وتهيات

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في تفسير القمي قيل للصادق (عليه السلام) اي الأجلين قضي؟ قال: أتمها عشر حجج

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٧

الظروف في مصر لتقبّل الدعوة الموسوية، إذا فهو قدر التقدير وتا، وقدر المقدر حالة نفسية كما «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» (٥٤: ٤٩) وابن قدر عام من ذلك القدر، ومن قدره عمره الأربعون.

فموسى قبل جبته هذه كان «إلى قدر» ولكنه بعد ربح من الزمن، وذوق الفتن كما الذهب غير الخالصة تفتن لخلاصها فخلوصها «ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ» وصلا اليه، محيطا عليه، لائقا لابقا لحمل أعباء الرسالة الى فرعون وملاه، وفي هذه الجيئة الثانية: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ٤١.

و هي افتعال من صنعتك، إذ ليست الصناعة الرسالية الموسوية كسائر الصنعة لسائر الناس، فان فيها مزيدا عليهم، يحضّره رسولا إليهم و «لنفسى» بيان لغاية ذلك الاصطناع، حتى يكون رسولا معصوما أميناً من الله.

فليس موسى لنفسه ولا لسواه إلا لله، يعيش حياته الرسالية في الله والله، دون اتباع لهواه أقرن سواه، فانه بعين الله ومختار الله و صنيع الله، فكيف يكون لغير الله!.

ثم المنتفع من غاية اصطناعه ليس إلا هو ومن ثم المرسل إليهم، فان الله ليس لينتفع من عباده «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» و ما لم يكن العبد لله لم يكن لنفسه ولا لعباد الله.

و لانني «اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» وجعلت لك وزيرا من أهلك هارون أخاك ف:

أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بآيَاتِي وَ لَا تَنبِأ فِي ذِكْرِي ٤٢.

«اذهب» بحمل الرسالة العالمية لبلاغها «أنت» كأصل فيها ورأس الزاوية لها «و أخوك» أزرا ووزيرا، «بآياتي» الدالة على رسالتكما الإلهية «وَ لَا تَنبِأ فِي ذِكْرِي»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٨

من الوبي: الفترة والضعف والكلال والإعياء والإهمال والتقصير.

ثم «ذكرى» هي من اضافة المصدر الى الفاعل والى المفعول: ذكرى إياكم وذكركم اياي، قالا وحالا وأفعالا، في أنفسكم وفي المرسل إليهم، حيث العقبات أمام ذكر الله كثيرة خطيرة، فلتكافح الرسالة كافة العراقيين، لتجتازها الى تحقيق رسالة الله في عباد الله.

و لقد كان الأمر قبل استجابته في سؤاله يخصه: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ طَغَى»

و هنا يشقّ به اخوه تحقّقا لسؤاله، وترى هارون الغائب الآن عن هذا المحضر كيف يؤمر بما يؤمر به موسى؟ انه يؤمر ضمن ما يؤمر موسى، وبلاغه اليه على عاتق موسى، وكما اوحى الى هارون نفسه في نفس الوقت مهما كان بعيدا عن ذلك المحضر، حيث الكون كله محضر لله، يخاطب من يريد خطابه مهما اختلف الزمان والمكان.

ام انه خوطب بعد ما اجتمع الى هارون، ودليلا عليه «قالا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى» ٤٥ والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان ويترك فجوات بين مشاهد القصص، هي معلومة من نفس السياق، ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر الأعماق في سير القصص وفي ودان الناس.

و في جمعية الآيات «بآياتي» ولم يؤت من ذي قبل إلا آيتي العصا واليد البيضاء، تبشير لهما الى آيات اخرى.
أذهبها إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٤٣.

و هنا نخص دعوة الداعية بعد عمومها فرعون الطاغية لأنه رأس الزاوية في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٥٩

عرقلات الدعوة، وكل دعوة إلهية تبدأ بالسلب وتنتهي الى الإيجاب، فما دامت الفرعات قائمة، لا تجد الدعوة الالهية مجالاً لتحقيقها، إذا ف «أذهبها» في بداية الدعوة «الى فرعون» ولماذا؟ «إِنَّهُ طَغَى» استعبادا لبني إسرائيل، واستعبادا بالحكم عليهم، فلتبدأ بحسمه وقصمه لكي تجد الدعوة سبيلا الى تطبيقها.

ترى وكيف يصلح ذهاب الداعية الى الطاغية، إصلاحا له، ام سدا عن بأسه وصدا عن سلطانه؟

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٤. ونص القول اللين نجده في النازعات «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. أَذْهَبْتَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» (١٩) و كما نجده هنا «فقولوا...».

و نرى الداعية موسى طول حوارها مع فرعون الطاغية لا يقول له إلا قولاً لينا «لعله يتذكر أو يخشى» ولكنه زاد طغوى على طغوى، وهذه طبيعة حال الدعوة الصالحة ان تكون لينة بالتي هي احسن، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن، استنباطا لدفين الحق المستور تحت ستار الهوى، وفي آخر المطاف «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» «١».

(١). الدر المنثور ٤: ٣٠١- / اخرج احمد في الزهد عن ابن عباس قال لما بعث الله موسى الى فرعون قال لا يغرنكما لباسه الذي ألبسته فان ناصيته بيدي فلا ينطق و لا يطرف الا باذني و لا يغرنكما ما متع به من زهرة الدنيا و زينة المترفين فلو شئت ان ازينكما من زينة الدنيا بشيء يعرف فرعون ان قدرته تعجز عن ذلك لفعلت و ليس ذلك لهوانكما علي و لكني البستكما نصيبكما من الكرامة عن ان لا تنقصكما الدنيا شيئا و اني لأذود اوليائي عن الدنيا كما يذود الراعي ابله عن مبارك الغيرة و اني لأجنبهم كما يجنب الراعي ابله عن مراتع الهلكة أريد ان أنور بذلك صدورهم و اطهر بذلك قلوبهم في سبامهم الذين يعرفون بهم و أمرهم الذي يفتخرون به و اعلم انه من أخاف لي وليا فقد بارزني و انا النائر لاوليائي يوم القيامة.

أقول: مثل ابن عباس لا ينقل حديثا قدسيا عن الله دون ان يسمعه من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا فهو عنه (صلى الله عليه و آله و سلم)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٠

ثم القصد من هذا الذهاب الى فرعون بقول لين «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ» فنحصل له تقوى بعد طغوى، ام إذا لم يتذكر هكذا «او يخشى» لأقل تقدير، فتلك عبادة التجار وهذه عباد العبيد وقبلهما للأحرار ان يعبدوا الله لأنه الله.

و لان موسى قد تربى عند فرعون، ثم قتل منه نفسا، ثم يأتيه رسولا، وهو الطاغية الباغية، فهذه الأربع تدفع الداعية الى قول لين معه اكثر من الواجب في طبيعة الحال الرسالية حيث القصد- لأقل تقدير- سدّ أذاه وإخماد لظاه، وخشن القول مما يزيد لظى في أذى.

و كيف «لعلّه» ولا تردّد في علمه سبحانه انه لا يتذكر ولا يخشى؟ انه ترجّ للداعية نتيجة الدعوة بصورة عامة، وحتى إذا تأكّد انه لا يتذكر ولا يخشى، فانها «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» فالنذر بين تذكر وخشية، والعذر لبلاغ الحجة، ولكيلا تكون للناس على الله حجة، حيث الناس في انقسامات ثلاث، ناس وأشباه ناس ونسناس، فالناس بين دعاة يدعون، ومدعوين يتقبلون الدعوة، والنسناس هم المصرون على الباطل، وأشباه الناس عوان بينهما متوقفين بين الأمرين.

و على الدعاة ان يكونوا في دعوتهم «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» فالعذر أمام النسناس لبلاغ الحجة، والنذر للذين يتقبلون الدعوة دون امهال فهم المتذكرون، وللعوان المترددين المتقبلين بامهال فهم الخاشون، و «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» يخص الأخيرين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦١

ويجمعهما «نذرا» ثم «عذرا» على الأولين.

و الباعث القوى للدعوة ان يتذكر المدعو او يخشى، وأما ان يطغى كفرعون فباعث الدعوة فيه ضعيف، ورجاء التأثير في الدعوة هو الباعث لها بقوة.

ف «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» هما رسم لخطوط الدعوة وخبوطها بصورة عامة، واما الدعوة الخاصة كما الى فرعون، فلا تصلح ان يؤكد فيها انه «عذرا» قطعاً بعدم التأثير، فانه وحي للدعوة شاء الداعية ام ابى، «فانما قال: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» ليكون احرص لموسى على الذهاب» «١» ام وباحرى انه تذكر وخشي ولكن متى؟ عند رؤية البأس،

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٠ في علل الشرايع بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال قلت لموسى بن جعفر (عليهما السلام) اخبرني عن قول الله عز و جل لموسى «أذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» فقال: اما قوله فقولا له قولاً لينا اي كنياه و قولاً له يا أبا مصعب و كان كنيته فرعون أبا مصعب الوليد بن مصعب، اما قوله «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» فانما قال ليكون احرص لموسى على الذهاب و قد علم الله عز و جل ان فرعون لا يتذكر و لا يخشى الا عند رؤية البأس الا تسمع الله عز و جل يقول: حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فلم يقبل الله إيمانه و قال: «الآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

وفيه عن تفسير القمي عن عدي بن حاتم و كان مع امير المؤمنين (عليه السلام) في بعض حروبه ان عليا (عليه السلام) قال ليلة الهير بصفين حين التقى مع معاوية رافعا صوته يسمع أصحابه: لأقتلن معاوية و أصحابه ثم قال في آخر قوله: ان شاء الله- / يخفض به صوته و كنت منه قريبا فقلت يا امير المؤمنين انك حلفت على ما قلت ثم استثنيت فما أردت بذلك؟ فقال: ان الحرب خدعة و انا عند اصحابي صدوق فأردت ان أطمع اصحابي في قولي كيلا يفشلوا و لا يفروا فافهم فانك تنفع بهذا بعد اليوم ان شاء الله تعالى، و عن الكافي مثله و فيه بعد ان شاء الله تعالى: و اعلم ان الله جل ثناءه قال لموسى (عليه السلام) حين أرسله الى فرعون «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» و قد علم أنه يتذكر و لا يخشى و لكن ليكون ذلك احرص لموسى (عليه السلام) على الذهاب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٢

حين لا تنفعه الخشية والذكرى «١».

و على اية حال فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف التي يعيشها الطغاة، بل ومن شأنه إيقاظ القلب غير المقلوب، والحجة القاطعة على القلوب.

قالا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٢٥).

هنا خوف الداعية في سبيل الدعوة، يعرضه على الله، لا اعراضا عن امر الله، وانما سؤالا لمزيد التأييد كما سأل من ذي قبل فاعطي سؤله.

فلم يكن خوفا للداعية على نفسه «وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢٦):

(١٤) إذ طمأنه ربه لما أعطاه سؤله: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا» (٢٨: ٣٥).

ف «أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا» كرسولين، فرطا على الدعوة تعجيلا بالعقوبة قبل الآية المعجزة، و «أَوْ أَنْ يَطْغَى» هي طغوى عليهما وعلى بني إسرائيل، بعد ما طغى، فهي مزيد الطغوى، إظهارا لدفينها.

فذلك- إذا- خوف على الدعوة ان يسبقها فرط من فرعون بقتل الداعية، ام يزيد طغوى على طغوى، فلا تفيد- إذا- هذه الدعوة الا بنصرة الهية هي المطلوبة في ذلك

(١). البحار ١٣: ١٣٥ عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث له طويل حول القصة قال له سفيان قلت يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل يجوز ان يطمع الله عز وجل عباده في ما لا يكون؟ قال: لا فقلت: فكيف قال الله عز وجل لموسى و هارون «لَعَلَّه يَتَدَكَّرُ أَوْ يَحْتَشِي» و قد علم ان فرعون لا يتذكر ولا يَحْتَشِي؟ فقال: ان فرعون قد تذكر و خشي و لكن عند رؤية البأس حيث لم ينفعه الايمان

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٣

العرض.

فهما هما ذان الرسولان المأموران الخائفان على بلاغ الرسالة يتوجهان الى ربهما بمخاوفهما، ويطمئنهما ربهما فيطمئنان على طول الخط الى نهاية المطاف.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى ٤٦.

«لا تخافا» على أية حال ل «إِنِّي مَعَكُمَا» معية العلم والقدرة والنصرة «اسمع» المقال «و ارى» الحال، ولست أهمل الرسول و الرسالة، او أهمل الفارط والطاغي على الدعوة، فان ذلك نقص في الرسالة، ونقض للهدف من الدعوة!.

هذه المعية الربانية تعم المرسلين كافة والذين معهم على درجاتهم:

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» و لا تعني النصر الضمان على حياة الرسول و المؤمنين، و عدم

أذاهم، وانما هي الضامنة لحياة الرسالة والايمان وتقدمهما وثباتهما مهما صعبت الظروف والتوت.

فلا تعني «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى» عدم مسهما بأي أذى و قدمتهما أذى كثيرة، حتى و لا عدم قتلها مهما لم يقتلا، و هذه هي سنة الربوبية في الرسالات كلها «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى».

و ترى كيف خافا على اي امر كان وهما رسولان و «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ.

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢٧: ١١)؟

المهم هنا موقف «الدي» وقد حصلت لهما لما طمأنهما ربهما «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى» فزال عنهما كافة المخاوف في سبيل الدعوة الى فرعون الطاغية ومن معه!.

و من «قَوْلًا لِّبَنَاءٍ» هنا بعد ما في النزاعات «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى . وَ أَهْدِيكَ إِلَى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٤

رَبِّكَ فَتَحْشَى» (١٩): بصيغة اخرى تفصيلا للأخرى:

فَأْتِيَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى ٤٨ .

و تراهما كيف أتياه ومن عادة الطغاة عدم السماح لمن يستأذن منهم، إلا إذا كان لصالحهم وهم يعرفون بصدق لهم وإخلاص؟. يروى انه «أتى بابه فاستأذن عليه ولم يؤذن له فضرب بعصاه الباب فاصطلت الأبواب مفتحة ثم دخل على فرعون فأخبره انه رسول من رب العالمين .. «١» و لكنه

(١). البحار ١٣: ١٢٠ عن القمي أبي عن ابن فضال عن ابان بن عثمان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما بعث الله موسى الى فرعون أتى بابه .. و فيه ١٣: ١٠٩ الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان فرعون بني سبع مدائن فتحصني فيها من موسى فلما امره الله ان يأتي فرعون جاءه و دخل المدينة فلما رأته الأسود بصبغت بأذناهما و لم يأن مدينة الا انفتح له حتى انتهى الى التي هو فيها فقعد على الباب و عليه مدرعة من صوف و مد عصاه فلما خرج الأذن قال له موسى (عليه السلام) اني رسول رب العالمين إليك فلم يلتفت فضرب بعصاه الباب فلم يبق بينه و بين فرعون باب الا انفتح فدخل عليه و قال انا رسول رب العالمين فقال اتني بآية فالقى عصاه و كان لها شعبتان فوقعت احدى الشعبتين في الأرض و الشعبة الاخرى في أعلى القبة فنظر فرعون الى جوفها و هي تلتهب نارا و أهوت اليه فأحدث فرعون و صاح يا موسى خذها و لم يبق احد من جلساء فرعون الا هرب فلما أخذ موسى العصا و رجعت الى فرعون نفسه هم بتصديقه فقام اليه هاما و قال: بينا أنت اله تعبد إذ أنت تابع لعبد و اجتمع الماء و قالوا: هذا لساحر عليهم، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم فلما القوا لهم و عصيهم القى موسى عصاه فالتقمتها كلها و كان في السحرة اثنان و سبعون شيخا خووا سجدا ثم قالوا لفرعون ما هذا سحر لو كان سحرا لبقيت حبالنا و عصينا ثم خرج موسى (عليه السلام) ببني إسرائيل يريد ان يقطع بهم البحر ..

أقول «ثم هنا تفصل بين بداية امره و نهايته كما هو مستفاد من آيات القصة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٥

خلاف اللين في اللقاء مهما كان مع البواب، وقد تعامت الآية عن كيف دخل فنسكت عما سكت الله عنه.

و نرى هنا ألين اللين في بزوغ الدعوة، فلم يقلوا «انا رسولا رب العالمين» كيلا ينبري لإدخاله في العالمين، وهو داخلهم! ولا «إنا رسولا ربنا» فصلا له عن ربهما وهو فصل عن قبول اصل الدعوة، وهو الطاغية الداعية: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» وانما «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» الذي رباك، فلست أنت ربا لنفسك، ولا لغريك ممن هو مثلك من العالمين، ولا أنت رب العالمين، وانما لك رب رباك كما ربانا وربى سائر العالمين، تهديما لصرح الخرافات الوثنية ان لكل قوم إلهة كما كانت سائدة بينهم.

ف «ربك» هنا اختصاصا له بربوبيته تعالى يوافق طبيعة حاله، ويستحته على سؤاله العجائب، من هو ذلك الرب، وطبعا هو ربكما كما هو ربي، ولذلك أرسلكما الي على زعمكما.

و قد جمع في «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» حجة بارعة فارعة على لينها، دون ان تؤثر اللينة في قاطعية الحجّة فتنقص عنها، ولا ان تؤثر الحجة في تحول اللينة الى القساوة، وهذه هي الجدال بالتي هي احسن، ان تداد عنها مساويها، وتزاد فيها محاسنها، فتصبح قاطعة على لينوتته، ولينة على قاطعيته!.

ثم في هذه البداية لا يفرعان على «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» تطلّب الايمان به من فورهما، وانما ادنى ما يتطلّب من مريوب لربه ان يتخلى عن سلطته الظالمة على مستضعفي عبادة:

«فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ» كان ذلك هو فقط مادة الرسالة اليه لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٦

سواها، و لكي لا تأخذ العزة بالإثم و الغيرة، فيأتي بمعرة فوق معرة.

«فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» كإيجاب وحد في هذه الرسالة «وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ» كسلب وحد فيها، و «لا تعذبهم» بدل «لا تظلمهم» ليونة في التعبير، حيث الظلم يخص القبيح، والعذاب منه فيصح ومنه صحيح، ولأنهما يرأسان بني إسرائيل، فلو أنهم يستحقون العذاب فحوّل عذابهم إلينا وأرسلهم معنا، فلا لكم ولا عليكم اي شأن منهم شائنا ام سواه.

و لئن تطلب برهانا على هذه الرسالة ف «قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ» آية ذات دلالتين، أولاها انه ربك، وثانيتهما انا رسولا ربك.

و لماذا «آية» وقد اوتي موسى تسع آيات حيث أرسل «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» (٢٧: ١٢)؟.

لان الموقف هنا في مقام اثبات رسالتهم بآية الهية، دون كمها وكيفها، وان الآيات التسع هي كواحدة في اصل التندليل على صحة الربوبية والرسالة، فآيات الرسالات كلها تنحو منحى هدف وحد هو اثبات الرسالة الإلهية، على اختلاف صورها وسيرها.

و هنا بعد ثبوت الرسالة والألوهية- وهما الهدى الإلهية- بخطط مصير كل من اهل الهدى والردى بمسيرهما:

«وَ السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى» دون من عارضها، ام لا لها ولا عليها، فهلا تريد يا فرعون ان تكون من اهل السلام باتباع الهدى وترك الهوى.

ثم العذاب وأنت تعذب بني إسرائيل «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» كذب الهدى بعد إتيانها، و تولى عنه الى غيرها، فهل انهم كذبوا الهدى وتولوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٧

عنها حتى يستحقوا عذابك؟ وهم موحدون مهتدون!.

ام أنت المكذب للهدى، المتولي عنها ولذلك تطغى، فاترك الطغوى الى التقوى حتى يسلم السلام على من اتبع الهدى، وذلك تنديد بكل مكذب بحق متول عنه أيا كان «١».

نرى هنا في ذلك العرض الحكيم لتلك الرسالة السامية كل برهنة ساطعة قوية بكل ليونة، فلا ينسبان الى الطاغية تكذيبا للهدى وتوليا عنها واستحقاقا للعذاب بصيغة صريحة، وانما يوضحان اسباب الهدى والردى بمسيرهما ومصيرهما، وليعرف فرعون من هو من هذا البين «لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى»! فهنا ترغيب واستمالة «وَ السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى» فلعله منهم، يتلقى السلام باتباع الهدى، ثم تحديد وتحذير غير مباشرين كيلا يستثيرا كبرياءه او يحطاه من علواه: «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» فلعله ليس ممن كذب و تولى.

و لماذا هنا «رَسُولَا رَبِّكَ» وفي سائر القرآن «رسول- او- رسولا رب العالمين»؟.

(١). نور الثقلين ٣: ٢٨١ في اصول الكافي باسناده الى عبد الله بن ابراهيم الجعفري قال: كتب ابو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) الى يحيى بن عبد الله بن الحسن: اما بعد فاني أحذرك و نفسي و أعدك اليم عذابه و شديد عقابه و تكامل نعماته و أوصيك و نفسي بتقوى الله فانها زين الكلام و تثبيت النعم- / الى قوله-: / أحذرك معصية الخليفة و أحثك على بره و طاعته و ان تطلب لنفسك أمانا قبل ان تأخذك الأظفار و يلزمك الخناق من كل مكان فتروح الى النفس من كل مكان و لا تجده حتى يمن الله عليك بمنه و فضله و رقة الخليفة أبقاه الله فيؤمك و يرحمك و يحفظ فيك أرحام رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و السلام على من اتبع الهدى انا قد اوحى إلينا ان العذاب على من كذب و تولى

(٢). ففي الأعراف و الزخرف «و لَكَيْتِ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) و في الشعراء» نَأ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٨

لأن الذي هو رب فرعون المدعي للألوهية أخرى ان يكون ربا للعالمين أجمعين، إذا «رسولا ربك» صيغة أخرى عن «رسولا- او- رسول رب العالمين» ام انه قاهما بصيغة عامة لكافة المرسل إليهم واخرى خاصة بفرعون رعاية للبيونة التعبير.

هنا يمتن فرعون على موسى ان ربه ويدا كأنه نعمة تمنعه عن هذه الرسالة جزاء بما: «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَ لَبَّثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَ أَنَا مِنَ الصَّالِينَ. فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّكُمُ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُزْسَلِينَ. وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» (٢٦: ٢٣).

فهنا نرى الطاغية يلوي شذفه متجاهلا ان الله ربه، سائلا موسى وهارون عن ربهما دون ربه ولما يعترف به.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَ ارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ فِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَ لَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي (٥٦) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٦٩

مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَ لَكُمْ لَا تُقَرَّبُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَ قَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا وَ يُدْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِاهَتُمْ وَ عَصَبُهُمْ مِثْلُ خَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَمَّا تَسْمَعِي (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفُفًا مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدَّ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِمَّا تَقْضِي هَذِهِ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ وَ أَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ جُمُوعًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ٤٩.

هنا يخاطب موسى في «فَمَنْ رَبُّكُمَا» إذ عرف انه الأصل في هذه الرسالة، وذلك السؤال تهكم في الحوار، وتراه دهريا ناكرا لالوهية الله لقلوه «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٠

وقوله هنا «فَمَنْ رَبُّكُمَا» ناكرا لربهما الذي لا يصدقه ربا لنفسه، وفي القصص «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (٨٦) «١»؟ وهذا ظاهر الحال من قاله.

ام انه ناكر لربوبيته وعبوديته دون ألوهيته، ولا دليل عليه إلا تأويل عليل!

انه ناكر للربوبية العالمية ككل فضلا عن ربوبية رب العالمين لنفسه فيقول هنا «و من ربكما يا موسى» ثم في الشعراء «وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» استنكارا للربوبية العالمية التي يقوها موسى وهارون لربهما.

و على اية حال فهذه النخوة الجاهلية هي من شيم الفراعنة، وكما وجهه آذنه أول مرة بكلمته الهازئة اللاذعة «اما ود رب العالمين من يرسله غيرك» «٢».

اجل وهم كما قال الإمام امير المؤمنين عليه السلام: ان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم و لقد دخل موسى بن عمران ومعه اخوه هارون على فرعون عليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء

(١). و كذلك في المؤمن «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا...»

(٢). البحار ١٣: ١٣٧ يسوق القصة مرفوعة .. حتى انتهى الى قصر فرعون الذي هو فيه فقعد على بابه و عليه مدرعة من صوف و معه عصاه فلما خرج الآذن قال له موسى استأذن لي على فرعون فلم يلتفت اليه فمكث بذلك ما شاء الله يسأله ان يستأذن له فلما أكثر عليه قال له: اما وجد ... فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه و بين فرعون باب الا انفتح حتى نظر اليه فرعون و هو في مجلسه فقال: أدخلوه فدخل عليه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧١

الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاً الذي عليهما اساورة من ذهب؟

إعظاما للذهب وجمعه، واحتقارا للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وان يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الأنبياء ولما وب للقابليين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين» «١».

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠.

تعريف جامع خاصر حاصر برب العالمين، فان كان فرعون شيئاً شملته ربوبية رب العالمين وهدايته، وان لم يكن شيئاً، فما للآشياء ان يعارض في الربوبية رب كل شيء؟.

ذلك اجمال من تفصيل الشعراء: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ... رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» (٢٦: ٢٨).

و «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» هي الربوبية الشاملة لكل خلق ولكل هدى، فليس الخالق غير الهادي - لو كان - ربا، وليس الهادي غير الخالق - لو كان - ربا، والرب هو الذي يجمع بينهما بصورة شاملة كاملة دون إبقاء.

ف «ربنا» هنا جواب عن «فَمَنْ رَبُّكُمَا» ثم «الذي ..» يتخطى فيه بربوبيته الى

(١). البحار ١٣: ١٤١ عن نهج البلاغة عن الامام علي أمير المؤمنين (ع)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٢

كل شيء ومنه فرعون وملأه، وهذه بلاغة بارعة في الحوار ان يتبنى ما يتبنى عليه الخصم دون زيادة ولا نقيصة، فلما قالا «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» قدماه في صلته بالرب، ثم لما قلب الأمر فحول إليهما: «فَمَنْ رَبُّكُمَا» تحوّلًا قائلين «ربنا» ولكنه في مواصفة تعرف به انه رب كل شيء ومنه فرعون وملأه.

و ترى «خالقه» مصدر؟ وهو فعل الرب، لا يعطيه لاي شيء حتى أفضل الكائنات! ام هو المخلوق؟ وكيف يعطى مخلوق لمخلوق! انه اسم المصدر، وإعطاء الخلق لكل شيء هو إيجاد عظمة منه ربانية، وحاصل الإيجاد هو الوجود، وحاصل الخلق هو المخلوق، فالوجود المخلوق هو المعنى من «خالقه».

و ترى ما هو الشيء الذي يعطى خلقه، فان كانت العظمة قبل ووده فليس شيئاً حتى يعطى خلقه، وان كان بعد ووده فهو تحصيل للحاصل، إذا فلا حاصل ل «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ»؟

الشيء هنا هو الكائن مستقلاً، واطلاق كلمة الشيء عليه باعتبار الأول دون الفعلية، فمثله كمثل قوله «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ فَبُكُونُ».

ثم الشيء ان كان هو المادة الأولية للكون فإعطاء خلقه هو إيجاد لا من شيء، وان كانت المواد الاخرى المتحوّلة عنها، ثم كل عن الاخرى، فإعطاء خلقه هو تحويله وتغييره، فهو خلقه من شيء خلقه قبله، فهناك شيء أول شيئاً سائر الأشياء منه على اختلاف ذراتها وجزئياتها وعناصرها.

و من ثم «ثم هدى» تعني تراخي الهدى ترتيباً عن الخلق وزمناً على طول الخط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٣

ما دام الكون كائناً، والهدى لزام الخلق عطاء و إلا فضلال يخالف حكمة الخلق «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ» (٣٦: ٣٨) (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَ الَّذِي قَدَّرَ فْهَدَى» (٧٨: ٣).

فالهدى لزام الخلق بعده، ومهما كان معه زمناً فانه بعده ترتيباً، و «ثم» هنا تدل على التأخر ترتيباً او زمناً ام فيهما، فمن الهدى ما لا يصل إليها الخلق إلا بعد شروط تتطلب زمناً بعيداً، ومنها ما هي له منذ خلق، هدى اولى هي التي تخطو بالخلق إلى مراتب اخرى، فكل خلق يعيش هدى تناسب حاله والهدف من خلقه، وليس الضلال في كون او شرعة ام تطبيقها إلا تخلفاً من النسناس الذين

يعارضون شريعة الناس ويعرقلون السير على السالكين سبيل الهدى، ثم الهدى هنا بعد الخلق تعم التسوية والتقدير كما في آيتي الأعلى، وهي ككل تعم الهدى التكوينية في كل شيء، وهي القوانين المحكّمة على كل شيء، هندسيا وكيمائيا وفيزيائيا اما هيه، والغريزية في أصحابها، ثم الفطرية والعقلية في العقلاء، ومن ثم الهدى التشريعية لهم، وعلى ضوءها تكوينية اخرى «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى» (٢٧: ٤٧).

ثم و «ثم هدى» كما تعني هدى كل الى الكمال اللائق به الهادف له، كذلك هدى كل الى الآخر تكميلا له او تكاملا به ف «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (٦٧):
(٣).

فقد هدى الخلق ككل منذ البداية حتى النهاية بما تراح به العلل، ويتكامل معه الخلق، من سلامة الأعضاء واعتدال الاجزاء وترتيب المشاعر والحواس ومواقع الأسماع والأبصار، لكل على حسبه وبمستواه، وذلك هو الخلق الحكيم سبحانه
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٤
الخلق العظيم.

و مثلا على تلك الهدى الشاملة هدى الأرض لتسجيل الصور والأصوات:
«يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» ثم هدى النحل الى هندسة بيوتها واستجلاب عسلها: «وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» ومن ثم كل وحي الى كل حي وميت من الكائنات تهدي به الى ما خلقت لأجله تكوينيا وتشريعا من مختلف طرق التكامل ماديا «١» ومعنويا.

و قد تعني «ثم هدى» مثلث الهدى، ثانيها هدى كل شيء الى ربه ف «إِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (١٧: ٤٤) والثالثة هدى العقلاء- بإحكام الخلق في كل شيء- الى الخالق الحكيم، إذا ف «هدى» تعني كل شيء الى شيئه، وبعض الشيء الى مخلوقية سائر الأشياء بدلالة عقلية، فما من هدى تكوينية او تشريعية او شرعية فعلية ام مستقبلية إلا وهي من الله، كما خلق كل شيء من الله، ثم لغير الله الاختلاق والضلال، كما له الخلق والهدى ف «الخير كله بيديه والشر ليس اليه».
فقد كان ذلك الجواب الحاسم القاصم للطاغية تعريفا عريفا برب العالمين حيث جمع كل جوانب الربوبية لربهما كرب العالمين، سلبا لسائر الربوبيات المدعاة، فان الكل فقيرة في ذاتها فضلا عن إعطاء خلق ام هدى لسواها! فالخلق بمدها الواسعة

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨١ في الكافي عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز و جل «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» قال: ليس شيء من خلق الله الا و هو يعرف من شكله الذكر من الاثني، قلت: ما يعني ثم هدى قال: هداه للنكاح و السفاح من شكله.

أقول: هذه هدى لبقاء النسل كمصداق من المصايق المادية للهدى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٥

الشاسعة، والشاملة كل كائن من الذرة وما دونها وما فوقها، من الخلية الواحدة الى ارقى اشكال الحياة، مشمول «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى».

هذا الكون الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، كل ذرة فيه تنبض وكل خلية تحيا، وكل كائن يتفاعل او يتعامل مع الكائنات الاخرى .. تعمل منفردة ومجتمععة داخل إطار النواميس المودعة في كينونتها او غريزتها او فطرتها وعقليتها، بلا تعارض كوني ولا خلل ولا فتور.

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ٥١.

لما أفحم الطاغية بهذه الحجة البالغة المحلقة على الأصول الثلاثة، انتقل في حوارها الى وجهة اخرى، استبعادا لها: «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» والبال هو الفكر والحال، الحال التي يكثر بها كما يقال: ما باليت بكذا بالة، اي ما اكثرت به، والحال التي ينطوي عليها الإنسان فيقال: خطر ببالي.

فهنا استبعاد أول في بال الفكر للقرون الاولى، إذ كانت الاكثرية المطلقة منهم مشركين، فإذا كان التوحيد حقا فما بال القرون الاولى إذ كانوا مشركين؟ سنادا في ابطال الحق الى الاكثرية الساحقة من القرون الاولى كأنها حجة تدمغ بالغة الحجة.

ثم استبعاد ثان، ان لو كان التوحيد حقا وان العذاب على من كذب وتولى، فما حال القرون الاولى التي مضت وضلت في الأرض، فهو كقيلة لهم اخرى: «وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (٣٢: ١١).

ما شأن القرون التي مضت، اين ذهبت، وكيف ومتى عذبت؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٦

قَالَ عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى ٥٢.

لماذا لم يؤمنوا؟ «عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي!» وكيف يتواجدون حتى يعذبوا؟

«عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ» ما كتبه عليهم من اعمالهم فهي ثابتة في انفسهم وفي أماكنهم وسائر الشهود «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ...

«لَا يَضِلُّ رَبِّي» عما خلق وهدى، وعما أمات وأحيى، فهو عالم بخلقه على أية حال، ثم «وَلَا يَنْسَى» بعد ما علم، علم دائم لا حول عنه ولا خلل فيه ولا نقص يعتربه.

فالخالق كل شيء، الهادي كلا الى شئيه بما أعد له من طاقات وامكانيات، كيف يضل عن فعله او ينسى؟.

ولماذا «ربي» دون «ربك» او «ربنا» او «رَبِّ الْعَالَمِينَ»؟ لعله تاشير الى أن الربوبية الخاصة التي تجعل لمثلي علما هكذا، فأفحمك بجملة قاطعة، إنما باحرى ان تحلق علما على القرون الاولى وسواها.

إذا فليس «عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي» تحويلا للجواب الى ربه، علما بانه تعالى ليس ليحييه، بل هو جواب حاسم ان ربي لا يضل عما خلق وهدى ولا ينسى، لأنه «أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حُلُقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ».

و من هدها الفطرية، وهي بال القرون الاولى مهما تحلفوا عنها، ومن هدها تسجيل أحوالهم واعمالهم والحفاظ على أرواحهم بأجسادهم بعد موتهم كما قبله، فلا يضلون عن علمه ولا ينسون، فهو هو يجازيهم يوم القيامة بما كسبوا وما الله بغافل عما يعملون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٧

و من ثم يذكر لربه مواصفات تؤكد علمه المحيط وجزاءه الأوفى لكل من سعى:

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣.

«كم» فيها لا تختص بحاضر الإنسان زمن الخطاب كقضية وقعية، بل الخطاب فيها وأمثاله قضية حقيقية تشمل مثلث الزمان حاضرا ومستقبلا وغابرا، منذ سكن إنسان الأرض والى يوم الدين.

فلقد كانت الأرض قبلكم ولم تكن مهدا، ثم الله جعلها لكم مهدا: متحركة بجراك دائب، فكما مهد الطفل يحركه لإراحته، وهو مربوط برطتين تربطانه والطفل عن السقوط والتبعثر، كذلك مهد الأرض فانها مربوطة برطانات منها القوة الجاذبية العامة، تربطها وأطفالها عن السقوط في هوات الأجواء البعيدة، وهي متحركة بحركات عدة متداخلة لطيفة حنونة، لحد لا ندرك منها الا كل رياحة.

و من ثم هي مهد المهاد «أَمْ لَمْ نُجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا» (٧٨: ٦) حيث مهدت حياة الإنسان بسائر الأحياء المستخدمة لصالح الإنسان، فههدت للإنسان كل حاجيات حياته، مهدا حانيا على طفولة الإنسان يضمه ويرعاه، وتمهده- ان سلك فيها سبيل ربه- للحياة الاخرى، وهي أخرى من الاولى وارقي.

ف «سَلِّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا» لا تختص بالسبل الحيوانية لحياته، بل وانسانية الحياة هي الأهم الأخرى، «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (٦: ١٥٣).

وكذلك الأمر في «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى»:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٨

نابتات نباتية وحيوانية وإنسانية اما هي: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» (٧١: ١٧).

. و «أزواجا» هنا تعم الذكورة والأنوثة كظاهرة مطردة في كافة الأحياء الثلاثة الأرضية، والنبات يحمل في الغالب خلايا التذكير والتأنيث معا في نبتة وحدة، وأحيانا يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية، وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع.

و قد جمعت الآية عطية الخلق والهدى، الناحية منحى هدى الإنسان الى غايته القصى، اعطى الأرض خلقها ثم هداها بتمهيدها لطفولتها التي تحتضنها بمهدها، وسلك سبلها ثم هداها ان سبلها لإنسانها في مختلف سؤلها روحية ومادية، وانزل من السماء ماء ثم هداها وهدى الأرض ان اخرج منها أزواجا من نبات شتى.

كُلُوا وَ ارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ٥٤.

«كلوا» من نباته الشتى «وَ ارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ» منها، ان في ذلك الإنعام لكم وللإنعام «لآيات» تدل على توحيد الله والحياة الأخرى وما بينهما «لأولي النهى».

و «النهي» جمع النهية وهي العقل الناهي عن القبائح كلها، حيث التاء هنا للمبالغة كما في العلامة، فلم يقل «اولي العقول» حيث العقل منه مدخول لا ينهى بل وينهى بناهية النفس ومن ناحيتها، ام لا ينهى ولا ينهى، بتلة بطة كأن لا كون لها ولا كيان، فلا تستعمل لصالح الحياة ولا طالحها، كالعقول المجنونة، او المحجوبة عن فاعليتها.

و هذه الآيات انما هي «لأولي النهى» تلك العقول الناضجة الناتجة عن تعقلات وتنهيات عن الهوى، فالعقل ما عبد به الرحمن واكتسب الجنان، فالذي في معاوية وكل طاغية هو النكراء والشيطنة، حيث تستخدمه الهوى وتربطه بنفسها فيصبح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٧٩

صاحبه كله هوى دون أية نهي، ورسل الله وأئمة الهدى هم أفضل اولي النهى «١».

فما من عقل مستقيم يتأمل ذلك النظام البارِع العظيم متطلعا، ثم لا يطلّع فيه على آيات تدله على الخالق الهادي الحكيم «الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» سبحانه الخلاق العظيم! مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥.

«كم» في هذه الثلاث تعم كافة الأنسال الإنسانية الحالية الباقية الى يوم الدين، والسابقة المنقرضة.

و هذه الآية تحمل رباطات ثلاث بين الإنسان ومهده المسبّل له في مختلف مراحل، قبل الدنيا وفيها وبعدها، وما أجمله تعبيراً عبيراً عن
مثلث الكيان للإنسان، عبرة للمعتبر، وتبصرة للمتبصّر!.

و هنا «خلقنا» دليل انه ليس من تنمة المقال لموسى، وعل «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ..»

ايضا هكذا، فلحدّ «لا ينسى» هي من حوار موسى، ثم الآيات الثلاث الاخرى

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٢ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رثاب عن مروان عن أبي عبد الله (عليه
السلام) قال: سألته عن قول الله عز و جل: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» قال: نحن و الله اولوا النهى، قلت: ما معنى اولي النهي؟
قال: ما اخبر الله به رسوله مما يكون بعده من ادعاء أبي فلان الخلافة و القيام بها و الآخر من بعده و ثالث من بعدها و بني امية
فأخبر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و كان كما اخبر الله به نبيه و كما اخبر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عليا
و كما انتهى إلينا من علي فيما يكون من بعده من الملك في بني امية و غيرهم فهذه الآية التي ذكرها الله في الكتاب «إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» الذي انتهى إلينا علم ذلك كله فصبرنا لأمر الله عز و جل فنحن قوام الله على خلقه و خزانة على دينه نخزنه و
نستره و نكنم به من عدونا كما كنم رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى اذن الله له في الهجرة و جاهد المشركين فنحن على
منهاج رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حتى يأذن لنا في اظهار دينه بالسيف و ندعو الناس اليه فنصيرهم عليه عودا كما
صيرهم رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بدوا».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٠

تلحيقات تكملها في هذه الشريعة الأخرى.

و قد تكون هذه الثلاث في آيتنا تعنيها السجدتان فيما عنت و عنتا فالسجدة الاولى:

اللهم انك منها خلقتنا، ورفع رأسك: ومنها أخرجتنا، فقد تعنيهما «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ» والسجدة الثانية: وإليها تعيدنا، ورفع رأسك من
الثانية: ومنها تخرجنا مرة اخرى» «١».

ثم «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ» تعني تناسل الذرية الى جنب الإنسان الاول، مهما بان البون بين الخلقين من تراب، «وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ» اعادة ما
خلق منها فيها «وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» إخراج لما خلق منها وأعيد فيها، و «كم» في هذه الثلاث تعني جزئي الكيان الانساني
جسدا وروحا وهي أخرى ان تعينها «كم» فقد خلقنا بأرواحنا وأجسادنا من الأرض منذ البداية في تناسل الذرية، فالإنسان الأول
خلق جسمه من تراب ثم روحه المنفوخ فيه سلالة من الجسم نفسه، ثم الإنسان عبر التناسل مادة ارضية حتى الجنين ومن ثم «تُمَّ
أُنْشَأُهُ خَلْقًا آخَرَ» روحه المنفوخ فيه هو إنشاء خلقا آخر، سلالة من جسمه، وعلى حد المروي عن أئمتنا هو «جسم رقيق قد
البس قالبا كثيفا».

فجسم الإنسان الظاهر وجسمه المثالي، بروحه النباتي والحيواني والانساني، انه في هذه الخماسية مخرج من الأرض ثم يعاد فيها ثم يخرج
منها مرة أخرى كما

«فكذب» بها «و ابى» عنها، ناسبا لها الى سحر دونما أية برهنة:

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى ٥٨.

هنا «بسحرك» دليل انه اراه من آيات الله، فيهدده:

(١). و هي «أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَحْوَكُ بِآيَاتِي وَ لَا تَبِيَا فِي ذِكْرِي» فانه ذهاب رسالي الى فرعون و ملائه ككل، دون بدايتها حتى تخص بالآيتين النموذجيتين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٣

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ» وكما في الأعراف: «قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ...» (١١١).

«قَالَ أَجِئْتَنَا» استفهام انكار بكل استكبار «لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى»؟.

«قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ» (١٠ : ٧٨). (فَقَالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ» (٢٣ : ٤٧).

و «لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا» نموذجة تعني هذه كلها، ان تستلبونا سلطاننا فلنخرج من أرضنا إذ لسنا نعيش تحت سلطتكم ولا ان نبذل ديننا، وذلك إحماء لنا عن كياناتنا، واجتثاث لجذور حيوياتنا.

«فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ» مماثلة في اصل السحر ولكننا نحن الغالبون:

«لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ» (٢٦ : ٤٠) في سحرهم سحره فطلب موسى في البداية ان يرسل معه بني إسرائيل، والطاغية يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم خوفا من تكاثرهم فتغلبهم، ثم ظهور آية خارقة بيده، لذلك خاف على ملكه، وهذه الثلاث قاهرة باهرة على فرعون وملائته.

فهنا الطاغية يتهم موسى سياسيا لإثارة السياسة والرعية ومن يجبون ارض

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٤

الوطن، وفي نفس الوقت يتهمه دينيا «لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»- وفي الغافر- يجمع بينهما: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ» (٤٠ : ٢٦).

(٢٦ : ٤٠).

و هما من أهم ما يهم كل امة، تمسكا بمبدئي العقيدة والقومية، وحين تجتمعان فهنا لك الطامة الكبرى على من يعارضهما، وهكذا يكيد فرعون أمام موسى بمسمع ومرأى حاشيته وشعبه، تفلتا عن برهانه، وتلفتنا الى ما يصرفهم عنه عليهم يثبتون «وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ».

ثم وليعارضه- على زعمه- يتطلب اليه ان يجعل موعدا لمغالته في سحره!:

«فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا» لمعارضة السحر و مغالبتة «لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ» موعدا لا يعذر أحد منا عن حضوره، «مكاناً سُوًى» و طا بين الطرفين، سويا دون ارتفاع ولا انخفاض، فان السوى هي المستوي طرفاه، وهو يعم استواءه في نفسه وبالنسبة للطرفين في المباراة.

و نرى الطاغية في ذلك الكيد الأكيد يستحكم موعده زمانا ومكانا سوى، ولكي يخيّل الى شعبه انه على شيء، والا فلما ذا أصل الموعده، ثم لماذا التأكد من زمانه ومكانه العام لتكون المظاهرة في مشهد ومسرح عام؟.

انه يستحكمه اعتمادا على شايع قدرته وبالغها عند شعبه، فلأن موسى كان بينهم فلا بد انه تلميذهم.

و قد كان ذلك بشاره من حاشيته: «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ غَلِيمٍ» (٧: ١١١).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٥

و هذه طبيعة الحال ممن يعارض البرهان، فليس على موسى ان يتطلب ذلك الذي طلبه لأنه على حجته الباهرة القاهرة، ثم على استعداد تام ليكرر لهم حجته يوم حشرهم لتتم عليهم كلهم، فلذلك يجاوبهم من فوره: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَى .٥٩

و قد اختار موسى لتلك المباراة أفضل في اجمع يوم: «يَوْمَ الزَّيْنَةِ» العيد الشعبي العام حيث الناس فيه يحشرون، اضافة الى نداءه العام ان يجمعوا فيه لهذه المباراة من سحرة ومن الناس «فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ» (٢٦: ٤٠).

ثم «وَ أَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحَى» ليكون الوقت ضاحيا في أوضح فترة من فترات النهار وأشدها تجمعا يوم الزينة، لا في الصباح الباكر والجميع لما يغادروا البيوت، ولا في الظهيرة إذ قد يعوقهم الحرّ ام حاجة الغذاء، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع ام من ووح الرؤية، وانما وطا بين الظهيرة والمساء. وذلك مربع «١» من الحائطة الفائقة لتجمع أكثر عدد ممكن لمسرح المباراة، وليعلم فرعون وقومه ان موسى احرص منه وأحرى بتلك المباراة، وان ما عنده أقوى مما عند فرعون من قوة في ذلك الصراع. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ٦٠.

«فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ» عن موسى وعن الحق الذي جاء به وعن مجلس المواعدة

(١). و هو ان الموعد يوم الزينة- / و قد دعي السحرة- / و دعي معهم الناس- / و ان يحشر الناس ضحى، و هذه الزوايا الأربع هي

التي تجعل ذلك المجتمع اضخم ما يكون و أهمه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٦

«فَجَمَعَ كَيْدَهُ» المنتشر بين السحرة والحاشية الملكية وفي نفسه اللقيمة، فما أبقي كيدا الا جمع بعضه الى بعض علّه يتغلب على موسى الذي زعمه ساحرا كسائر السحرة.

فقد أجمل «كيد» كل قاله وحاله وفعاله في كيدته مما أشار به ملائمه وأشاروا له، وما دار بينه وبين السحرة والحاشية من تحميس وتحريض وتحريض، ووعده بكل ثمين ورخيص، «ثم» بعد ذلك الجمع الجامع الجامع في ظنه «أتى» يوم الموعد بكل خيله ورجله ورجاله «١» فما هو- اذن- دور موسى في ذلك الجو الكادح الكالج! وليكون الباطل هو الفالج والحق هو الفالج.

انه يبدأ قبل كل شيء في هذه المباراة بالعظة الحسنة، المذكورة المحذرة:

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَإِلَّكُمْ لَا تُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ٦١ .
«قال لهم» وهم فرعون وملائه وسحرته فإنهم من كيد «٢» وضمير الجمع راجع اليه بكيد الشامل لهم كأصول، ثم سائر الجمع كهوامش الضلالة، وكلهم من المفترين

(١). البحار ١٣: ١٢١ القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) في حديث له طويل عرض فيه القصة على طولها و قد مضى شطر منها «فلما ارتفع النهار من ذلك اليوم و جمع فرعون الخلق و السحرة و كانت له قبة طولها في السماء ثمانون ذراعا و قد كانت لبست الحديد الفولاذ و كانت إذا وقعت الشمس عليها لم يقدر احد ان ينظر إليها من لمع الحديد و وهج الشمس ..

(٢). البحار ١٣: ١٢١ في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) .. و جاء فرعون و هامان و قعداعليها (القبة) ينظران و اقبل موسى ينظر الى السماء فقالت السحرة لفرعون: انا نرى رجلا ينظر الى السماء و لم يبلغ سحرنا السماء و ضمنت السحرة من في الأرض فقالوا لموسى اما ان تلقي و اما ان نكون نحن الملقين ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٧
على الله كذبا، فرية في اشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، وتسميتهم وحي الله أساطير، وآية الله سحرا، ورسول الله ساحرا، وقد اشترك ذلك الجمع كلهم في هذه الافتراضات أصولا فيها ام فروعا وهوامش، فالنصح - إذا- يشملهم كلهم، و «ويلكم» كلمة مركبة من «وي- و لكم» اي تبا لكم وواها وعذابا وآها.

«لَا تُفْتَرُوا .. فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ» ان افترتكم على الله كذبا دون توبة ولا أوبة، والإسحات من السحت وهو استئصال الشّعر بخلق، فهو الاستئصال والإهلاك الساحق الماحق، و «بعذاب» يعم مثله، هنا وفي البرزخ والاخرى، وقد شمل فرعون بجنوده في كل زواياه لأنهم كانوا هم الأصلاء في فرية الكذب على الله «وَقَدْ خَابَ» وخسر على أية حال «من افترى» على الله ام وعلى خلق الله، فالفرية دركات كما التصديق درجات.

و الخيبة وهي عدم الوصول الى الهدف من الفرية، هي عذاب فوق العذاب، فللمفترى إسحات عذاب وخبية أمل، ظلمات بعضها فوق بعض.

لقد قال موسى كلمته القاطعة القاصعة، فلمست منهم بعض القلوب غير المقلوبة من السحرة فتلجلج في امر موسى، وأخذ المصريون على المباراة يجادلونهم متنازعين:

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى ٦٢ .

و هكذا تنزل الكلمة الصادقة كالكذيفة في معسكر المبطلين فتزعزع نفسياتهم على قدراتهم فتوقع الربكة واللجلجة في صفوف السحرة المقربين المدربين، فتحوجهم الى إسرار النجوى خوفا من فرعون وموسى!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٨

و التنازع من النزاع وهو جذب شيء من مستقره لينقلع، والنجوى هي المسارة في امر بكلام وسواه، وإسراها هنا تعميق في إخفائها كيلا يسمعها موسى.

و لقد كان «أمرهم» الذي تنازعه بينهم امر التصديق والتكذيب لموسى، فطائفة تحنّ الى تصديقه، واخرى الى تكذيبه، وثالثة عوان بين ذلك، متجادبين أمرهم بينهم في سر مستسر، فالاولى لا تجرّ على اظهار أمرها تخوفا من فرعون وملائه ولما يظهر امر موسى

ويبهز، وحتى يتبلج امره بعد ما تلجلج، فضلا عن ان يجذب المعاندين الى الحق، والثانية تحاول جذبها والثالثة الى التكذيب، وبالفعل أصبحت هذه الأقلية الصالحة تحت ضغط الاكثرية الكالحة فسكتوا عما:

قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۖ ٦٣.

و عله خطاب ذو بعدين من الاكثرية المضللة، لأنفسهم استحكما لعري ضلالهم، وللحائرين مزيدا في تحيرهم، سنادا الى أهم الأمور الحيوية لكل امة سياسيا وروحيا، إخراجا من أرضكم، وإذهاها بطريقتكم الروحية المثلى، وكل ذلك بسحر دون أية حقيقة، فهو- اذن- باطل يريد ان يذهب بحقين حقيقين بالبقاء لكل امة.

فإذا هو ساحر فأنتم اولى بالسحر منه، ثم اولى منه بأرضكم وعرضكم، وطريقتكم المثلى التي لا نظير لها، وذلك اخطر كيد على امة، لتبقى تحت نير الذل والفرعنة دون ان يؤتى لها مجال التفكير لصالحها يوما ما! فلقد استحثوا دفائن ثورتهم من فورهم يدا واحدة ضد من يريد القضاء على بعدي الحياة الراقية! فالיום هو يوم المعركة الفاصلة بين الحق والباطل:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٨٩

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ۖ ٦٤. اجماع كيد جماعي في صف واحد متراص للاستعلاء على من يريد القضاء على السلطة الزمنية والروحية، وليس- فقط- من الاكثرية المضللة، بل ومن الاقلية المتلجلجة ايضا «و قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى!» ولاجماع الكيد بعد ان، اولهما جمع كافة مكائدهم مع بعض البعض دون فراق، وثانيهما ان يتشاوروا فيما بينهم في ذلك الكيد المجموع.

فالى ميدان النزال للنضال حتى يعرف الداني من العال، آخذين كل حائطة حاضرة وباتية:

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۖ ٦٥.

و هنا عدم البدء من موسى سياسة لائقة به لابقه في المباراة، فانه مدافع وليس مهاجما حتى يبدأ، ثم البادئ في الحوار خاسر على أية حال لا سيما إذا لم يكن مؤيدا من عند الله، فليخسروا هم بتلك البادئة الخاسرة، فلا يرد عليه ان تقديم الشبهة على الحجة إدخال في اللجة ثم لا يعلم الخروج عنها؟ لأن حجية هذه الحجة لم تكن لتظهر الا بعد ظهور الشبهة، ثم البالغة الدامغة للشبهة!

ثم هؤلاء المتعودون على اتباع فرعون لم يكونوا لينظروا الى الحجة البادئة بعين الاعتبار لأنهم في انتظار ما أتى به السحرة، ولكنهم بعده يتأكدون من الحجة اللاحقة الماحقة له، فلتكن حجة الرسالة لاحقة دمغا لسحر السحرة.

و علّ خطورة الموقف دفعتهم الى تحييره في الإلقاء، دون إلزام عليه احد الأمرين، ثم تقبلهم ما اختاره موسى هو من مخلفات اقتراحهم واختياره، ثم من غرورهم بعددهم وعددهم وهم بمحضر فرعون وملائته، وكأنهم يروثهم في «أَوَّلَ مَنْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٠

أَلْقَى» متقدمين عليه بكل شجاعة وهيمنة لا يتخوفون عن إلقاءه، ولا يتخرجون دفاعه في إلقاءه! قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَ عَصِيْبُهُمْ يُجْئِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَهَّا تَسْعَى ۖ ٦٦.

و «القوا» هنا خطابا لجمع السحرة إلغاء لسحرهم قبل إلقاءهم، فلو لم يطمنن موسى الى غلبه عليهم كان «القوا» منه إلغاء، لإلقاء نفسه بعدهم الى التهلكة، وهذه اولى خطاه توهينا لما يلقون، وتوهينا بإلغائه ما يلقون.

و ترى كيف خيّل الى موسى من سحرهم انها تسعى، وقد آتاه الله ما أتى؟ إن «يخيّل» هنا هو طبيعة الحال من سحرهم لكل من رأى، خيالاً لا يعارض يقينا في بال على أية حال، وذلك نصيب موسى من سحرهم ولكن لمن سواه «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ» (٧: ١١٦).

ثم «يخيّل» المستقبل دون «خيّل» الماضي، تقضي على ذلك الخيال ايضا فلا تعني «يخيّل» إلا طبيعة الحال من سحرهم لمن يخال دون وقع الخيال لموسى.

ثم السحر من السحارة وهي ما يزرع من السحر- طرف الحلقوم- عند الذبح، فيرمى به، وجعل بناءه بناء التّفاية والسقاطة، فالسحر هو إصابة السحر كسقاطة ونفاية دون وقع، فالساحر كأنه يذبح المسحور وليس يذبح، ويأخذ عقله وحسه وليس يأخذ، وانما هو تخييل لا يرجع الى عقل ولا واقع.

فالسحر مهما بلغ من حالة خارقة للعادة، ليس ليأخذ مأخذه في القلوب والعقول، وانما خطفة من عين ام اذن، وهو يبطل بسحر مثله وكما يبطل مثله، ولا يؤثر فيما يؤثر إلا بإذن الله: «و ما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (٢: ١٠٢) اللهم إلا في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩١

دعوى الرسالة ام معارضة آية الرسالة، فانه اضافة الى القصور الذاتي فيهما يبطله الله تعالى عن بكرته لكيلا ينعز به ضعفاء العقول، فضلا عن ان يأذن الله!

و تراه كيف يأمرهم بسحرهم والسحر محرم في شرعة الله، ولا سيما ذلك المضلل لعباد الله؟.

انه يأمرهم به لكي يغلب الحق في صراع الباطل، ولا يظهر له غلب عليه لولا ذلك الصراع! ولكي يدافع عن نفسه تهمة السحر الموجهة إليه من فرعون وملائته.

و هنا «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ» وهناك «بِسِحْرِ عَظِيمٍ» يشيان بعظمة ذلك السحر وضخامته عددا وعددا حتى ليوجس خيفة في نفس موسى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧.

و الوجس هو الصوت الخفي، فالإيجاس هو التصويت الخفي، فلو كان جليا لتجلى في صفحات وجهه، وكان محجوجا بسحرهم قبل آيته، فلم تكن إلا «خيفة» خفيفة وجسة طفيفة في قرارة النفس، دون استقرار فيها ولا استغرار لها، وانما هي على غرار ما خيّل اليه. و يا عظماهم من سحرهم ووا عجباه إذ بلغت بهم البراعة في فنههم والبراعة في سحرهم الى حدّ يوجس في نفسه خيفة موسى، وما هي النفس البشرية لو انقطعت عنها العصمة الإلهية أنا ما، خافت عما لا يخاف منها، وقد تكون هذه الوجسة مشيرة الى عظم الموقف وضعف الواقف في نفسه حتى تدركه العصمة الإلهية بالبشرى، وإيجاس الخوف لا يطارد العلم بانه غالب، وكما يخاف الميت على علم انه لا حراك له ولا ضرر منه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٢

قد تكون خيفة موسى من ضلال الناس في هذا المجال، ف «لم يوجس موسى خيفة على نفسه اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال» «١».

ام الوجستان معنيتان معا وهما ناحيتان منحى براعة الصناعة وسرعتها وهيبتها، فجاءته من ربه البشرى:

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ٦٨.

أنت الأعلى في آيتك العظمى، وأنت الأعلى في هدى من اهتدى حيث يتحرى عنها.

«لا تخف»- «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» فمعك الحق كله ومعهم الباطل كله، معك ربك ومعهم الطاغية، معك العقيدة ومعهم الحرفة بغية اجر المبارة، أنت متصل بالقوة الكبرى وموصول النياط والنبات بالرب الأعلى، وهم يتصلون بالأردل الأدنى، ف «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى».

«لا تخف» هنا كما «لا تخف» عند ما «فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى» فانه لم يكن عشيرا لخارقة قبل ان يرى ما رأى من آيات ربه الكبرى، ام سحر خيّل اليه بجابلهم وعصيتهم انها تسعى، فكان من طبيعة الحال خوفه، ولكنه أمام الآيه الالهية ظاهر «قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ» «فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَيِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» (٢٧: ١٠).
فهنا خوف ظاهر يوليه مدبرا عن آية باهرة، ولكن هناك إيجاس خيفة لأنها خارقة

(١). نهج البلاغة عن الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٣

خارقة، والخوف هو طبيعة الحال مما لم يأنسه الإنسان على اية حال، ولكنه لما طمأنه ربه- وقبل ان يلقي- أخذ يعظهم وينبئهم بغلبة عليهم بعد قليل «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَنْظِلُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» (١٠: ٨٣). ثم حقق ما أنبا وأوعد بأمر الله:

وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ٦٩.

و هنا بصورة قاطعة إفلاج الساحر رغم محاولته في إفلاحه، وهناك «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» مما يبرهن ان الساحر المتحدي آيات الرسالة فالج غير فالج حيث أتى، وبأية قوة واية كيفية كانت، وعلى ضوءه ندرس ان الآيه المعجزة غالبية على اية حال على السحر أيا كان وحيث أتى.

و هكذا نعالج بأس كل ساحر بسحره بقراءة آيات من الذكر الحكيم على موضع السحر بنية صادقة فيبطل.

وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله: «إذا أخذتم السارح فاقتلوه ثم قرأ: «وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى»: قال لا يأمن حيث وجد» «١» و القدر المعلوم منه من يعارض بسحره آية النبوة.

و انما «ما في يمينك» دون «عصاك» على طوله واجمالها، واختصارها وصراحها؟ عساه ينتبه مرة اخرى ان ليست عصاه بما هي عصاه تلقف

(١). الدر المنثور ٤: ٣٣- / اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله (صلى الله عليه و

آله و سلم) ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٤

ما صنعوا، تخلية لها عن اعتماده عليها، وتخلية لها بتجردها عن نسبتها اليه، وان الله هو الذي يحولها كما يريد، وهو الذي يعيدها سيرتها الاولى كما خلقها.

ثم و «تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا» كنتيجة حاسمة لتحويلها ثعبانا مبينا يلقف كيد ساحر: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» (٧: ١١٩).

فبالفعل ألقى موسى عصاه ووقعت المفاجأة الفاجعة الكبرى، فحولت كامل مشاعرهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه، ولا يكفي النطق للإفصاح والإفصاح به، فأنهت كل طاقاتهم النفسية فوقوا على الأرض سجداً وكأنها دون اختيار، حيث الساحر اعرف بسحره من غيره، فأعرف بالآية الربانية التي تختلف تماماً عن كل أنواع السحر «١».

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى ٧٠.

و هنا «فألقي» المجهول يصوّر ضخامة الموقف، بمدى تأثير الآية الإلهية في نفوس السحرة لحد لم يتمالكوا أنفسهم عن سجدة كأنها اتوماتيكية، وتراهم كيف

(١). البحار ١٣: ١٢١ في حديث الامام الصادق (عليه السلام) ... فالقى موسى عصاه فذابت في الأرض مثل الرصاص ثم طلع رأسها و فتحت فاهها و وضعت شدقها العليا على رأس قبة فرعون ثم دارت و التقت عصي السحرة و حبالها و غلب كلهم و انهزم الناس حين رؤوها و عظمها و هو لها مما لم تر العين و لا وصف الواصفون مثله قبل فقتل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضا عشرة آلاف رجل و امرأة و صبي و دارت على قبة فرعون قال (عليه السلام) فأحدث فرعون و هامان في ثياهما و شاب رأسهما و غشي عليهما من الفزع و مر موسى في الهزيمة مع الناس فناداه الله: حُذِّها وَ لا تَحْفَ سُنْعِيْها سِيْرَتِها الأولى» فرجع موسى و لف على يده عباءة كانت عليه ثم ادخل يده في فمها فإذا هي عصا كما كانت ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٥

ألقوا سجدا بعد ما ألقى موسى عصاه، حيث ألقوا ما ألقوا؟

لأنهم رأوها «تَلَفُّ ما يَأْفِكُونَ» (٧: ١١٧) واللقف هو تناول بحذق، وقد تناول ثعبان العصا وتلقف كل ما افكوا.

فصلى صغيرة تتحول ثعبانا عظيما فتلقف كل عصيهم وحبالهم من ناحية، ولها ما للثعبان من أعضاء خلاف حبالهم وعصيتهم التي كان يخيل اليه من سحرهم - فقط - انها تسعى دون أعضاء، من اخرى، وعدم رجوعها ما لقفته من ثالثة، وعودها عصي صغيرة كما كانت من رابعة، - وواحدة منها يستحيل ان تتم بأية حيلة ساحرة - كل ذلك جعل السحرة قاطعين كوضح النهار أنها آية الهية قاهرة وليست حيلة ساحرة!.

و إنما اللمسة المفاجأة القوية تصادف العصب الحساس فينتفض كيان الإنسان كله، كما تصادف الذرة فتفجرها وتشرق النور عن ظلامها، وقد تحولت السحرة كلهم من ظلام الشرك الى نور التوحيد بكلمة وحدة ساجدين «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى»! ولماذا «بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» دون «ربنا» او «رب العالمين»؟ حتى يميزوه تعالى عن أرباب اخرى. ف «ربنا» و «رب العالمين» قد يخيل منه انه الطاغية لمكان دعواه «أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى» ولكن موسى وهارون الناكرين لكل ربوبية الا الله، كان التصريح بما في ذلك الموقف صراحة لتلك الربوبية الصادقة الماحقة لسائر الربوبيات، مهما بدلوا الصيغة في حوارهم مع الطاغية: «قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ» (٢٦: ٥٠).

تحسم مادة ربوبية الطاغية لموسى «أَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلَيْدًا» فانه موسى دون هارون، فليقدّم عليه هارون حسما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٦

لذلك التخيل واستأصالا له عن بكرته.

هنا «السحرة»- جمعا محلى باللام الدال على الاستغراق-، ألقوا سجدا مؤمنين بالله وهم اليه منقلبون، وفي يونس «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِيهِمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ» (٨٣) و السحرة جم غفير و هم لم يكونوا من قوم موسى فكيف التوفيق؟.

علّ هذه القلة المؤمنة من قومه كانت قبل ان يلقي عصاه- وقد القوا حياهم وعصيهم- وبعد عظته لهم: «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ... فَمَا آمَنَ لِمُوسَى ...».

و لكنما السحرة آمنوا به بعد ما القى عصاه صامدين غير متخوفين كما هو صراح حوارهم مع الطاغية حين أخذ يهددهم!: قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لأَصْلَبَنَّنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى ٧١.

ذلك! وأنى للطغاة أن يدركوا الإسلام ويميزوه عن الاستسلام، أنى لهم ان يدركوا كيف تتقلب القلوب بأمر من مقلب القلوب، و حتى قلب الطاغية حيث أحب عدوه موسى ورباه في حجره عمرا دون ان يعرفه بعدائه.

و هكذا يجتبل هنا الى الطاغية ان الايمان بالله هو- من ضمن سائر الاستسلامات لأمره- لا بد وان يكون باذنه، وكأن القلوب من ممتلكاته كما القوالب ضمن ما سيطر عليه بالسيف والنار، خلطا بين القوالب والقلوب وهي لا تقبل بإكراه ولا يغلب عليها بإكراه «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٧

و ركيزة الايمان في القلوب درجات، فقد تضعف ام تنمحي بما يتغلب عليها تسويلا، ام تبقى ولكن صاحبها يتظاهر بخلافها حفاظا على حياته «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» و قد تركز لحد تحلق على كل كيان المؤمن، و للحفاظ على سيادة الايمان أمام الطاغية، وهدى المستضعفين المستغلين الى الايمان، لا يخافون اي تحديد او تهديد وكما نراه من سحرة فرعون، فان موقفهم الحاسم كان يتطلب هكذا صمود في ظاهر الايمان كما في باطنه، فما قيمة ايمان في الباطن بكفر يتقى به في الظاهر، حيث يغري المتحرين عن الهدى ويبقي الباغيين للردى، وليس «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» إلا جوالا يضر بكتلة الايمان، و لا بالضالين المتقبلين له بحجة ظاهرة باهرة.

و نرى الطاغية هنا وقد خسرت السحرة وهم كل من يملكهم من الحججة في تلك المباراة، نراه يتهمهم كما اتهم موسى، حسما للموقف المتزعزع بين الحاضرين: «إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» فهنا لك تواطؤ بينكم ومؤامرة كانت خفية، وقد ظهرت في ذلك المسرح الصريح.

و قد صبغ الموقف بصيغة سياسية اضافة الى الروحية، ان السحرة احتفوا حول كبير لهم هو موسى وكما في الأعراف «قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ» «لَأُقَطِّعَنَّ .. قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» (١٢٥).

و هذه هي دعاية متعودة بين فراعنة التاريخ امام الرسل والمؤمنين، صدا لزعزعات المستضعفين، تزيينا لهم سلطاتهم الروحية و الزمنية، و تهديدا بان في تقبّل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٨

الدعوة الرسالية زوالها وهي حياة الرعية، فالقائد يعارض تلك الدعوات حفاظا على صالح الرعية روحيا وزمنيا.

و ان في ذلك تعمية منهم في بعدين بعيدين، أولاهما هي فاسد السلطة الروحية الحاضرة، وأخرها هي صالح الاخرى الزمنية المحتضرة، إظهارا للحق بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق «فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى». و لما يرى الطاغية ان هذه الدعاية والفريفة الماكرة لا تؤثر في صميم إيمانهم، ولا يزعزع من مكين إيقانهم، انتقل منها الى تهديد بنوع آخر: «فلاقطعن» استعلاء بالقوة الغاشمة الوحشية التي تستعمل مع الوحوش، دون تمييز بين انسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالنائبة. «فَلَا قُطِعْ أَيْدِيكُمْ وَ أَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلافٍ عَذَابًا مَعْمُولًا مَتَدَاوِلًا بِحَقِّ أَفْسَادِ الْمَفْسُودِينَ، ثُمَّ «وَ لِأَصْلَبِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ» عذابا فوق العذاب لقمة الإفساد، ولكي ينظر الناظرون فيعتبروا، وينذر المنذرون فلا يتبعوهم، ومن ثم «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى؟» هل هو موسى بما يهددكم بعذاب الأخرى، ام انا المعبذ لكم هكذا في الاولى، واين غائب من حاضر، وموعد من واقع؟ ثم «و أَبْقَى» سلطة، هل ان موسى هو الأبقى وهو في يدي وتحت سلطتي، ام انا الابقى، فأين إله موسى حتى يعذبني وملني حتى لا نبقي؟ واين هو من هذا المسرح حتى يبقى موسى فلا نبقي؟.

فلقد هددهم فرعون بما هدد فما أبقي، ولكنه ما يصنع التهديد- أيا كان- بحديد الايمان وشديده بأشده، اللمسة الإيمانية التي وصلت إلى أعماقهم، واندغمت في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ١٩٩

ذواتهم، فلا تزهق مهما أزهقت أرواحهم، حيث أثروها على الحياة الدنيا بجذافيرها، فلا يخافون إذا أظافيرها بجذافيرها: قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِمَّا تَفْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢ إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى .٧٣

«قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢٦: ٥١) - (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَ مَا تَنْقُمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَقَّنا مُسْلِمِينَ» (٧: ١٢٦).

هنا نرى قمة الصمود على ضوء الايمان المحلّق على كل جنباتهم الحيوية، فلا يؤثرون عليه امرا، ولا يؤثّر فيهم دونه امر مهما كان إمرا. ثم «إلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» قد تلمح بأنهم كانوا من قبل موحدين، ام انه انقلاب بحكم الفطرة والعقل والآية البينة، ثم «وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» تصرّحاً أنهم ما سحروا هناك مباراتا بل مجاراتا للطاغية اكرها منه عليه، وعله بعد الانقلاب الاول لعصى موسى ثعبانا مينا لدى فرعون، وبعد ما وعظهم «فَتَنَارَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى» ثم اكرههم فرعون على سحرهم و أن «قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ..» فلذلك تادّبوا وتليتوا مع موسى في المباراة.

و لذلك أصبحوا هنا «أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» صمودا وزمنا، ومن صمودهم إحالتهم إيثار الطاغية «قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» فطرية وعقلية وحسية وعلمية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٠

أما هيه وعلى «الَّذِي فَطَرْنَا»، أم قسما بالذي فطرنا، وهما معا معنيان، وأنت كمثلنا مفضور له، وقد فطرنا على فطرة التوحيد، ففطر الخلق من ناحية، وفطرة التوحيد المندغمة في الخلق من أخرى، آيتان بيتان بجانب هذه الآية العظمى انه هو الله ربنا لا إله إلا هو «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ عَلَيْنَا كَمَا تَهْدِدُنَا ف «إِمَّا تَفْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» قضاء مقصورا بها، محصورا فيها، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل.

ف «مِنَ الْبَيِّنَاتِ» هنا تعم الأنفسية إضافة إلى الآفاقية، ونفس قصة العصا بيّنات، انقلابا ولفقا وعودة إلى سيرتها الأولى دون إعادة لما لقيت!.

و ترى كيف «تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» وليست قضاءه الا فيها على من فيها ام لهم؟ علّما لأنّها مفعول به، وقضاء هذه الحياة الدنيا هي إزالتها، فقصارى قضاءك هنا قضاءها، حياتنا كما حياتك، واما الحياة الاخرة وهي العليا فليس لك قضاءها، فأنت تهددنا بقضاء هذه الحياة وهي الدنيا، وشرعة الله تهددنا بالآخرة وهي الحياة العليا، وأنت شر وادنى وأنى «وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى».

ثم و «مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ» قد تعني تعلمه وتعليمه وإعماله من قبل وفي هذه المباراة، والتماس الغفر عن الخطايا ليس الا في المقصرة العامدة، ام والمكره عليها فيما يمكن التخلص عنها كهذه التي ارتكبوها وارتكبوا فيها، والآن هم يستغفرون الله عنها في ذلك الموقف الحاسم، القاصم ظهر الطاغية، الجاسم الباسم ظهر موسى والذين معه، وهذه هي من قمم التوبة العليا، انقلابا كليا الى الله سنادا الى آياته الباهرة وتبيننا لها بين الجموع المحتشدة الحاضرة، ملتتمسين من الله ان يفرغ عليهم صبرا امام الطاغية، وان يتوفاهم مسلمين، تخليصا لايمناهم عن هذه اليد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠١

الأثيمة اللثيمة، مهما قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبوا في جذوع النخل، ف «إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا- وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى!» انه «خير» في ذاته و صفاته و أفعاله «و أبقي» فيها ثوابا و عقابا، وذلك رد على قولة الطاغية «وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى».

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى ٧٢. و تراها و اللتين بعدها هي تنمة المقال للسحرة؟ و كيف يكون لجديد الايمان والناشئ على الكفر هذه المعرفة السليمة عن مستقبل المجرم والمؤمن! فهي إذا بيان رباني لقضية الموقف، ام هم درسوا الشرعة الإلهية من ذي قبل كما تلمحناها من ذي قبل فنقلوا ما قالوه عن لسان موسى.

«و مجرما» هنا تعني اجرام ثمره الحياة قبل إيناعها، إجراما عقديا واجراما علميا وأخلاقيا وعمليا، فرديا وجماعيا، نكرانا لخالق الحياة ام إشراكا به، وتكديبا بالحياة الأخرى ورسالة السماء، فلا يعني فاعل الصغيرة ولا الكبيرة فانه لا يخلد في النار و «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .. وَ نَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ» (٧٧: ٤٣).

«إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا» ان يموت بحالة الإجمام دون توبة صالحة «فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» حيث الحياة الإجرامية حياة جهنمية، ثم و «يأت ربه» دون «الله» هو إتيان الى يوم الرب ربوبية الجزاء، كما كان آتيا اليه يوم الدنيا ربوبيته التكليف، فليس إذا إتيان المجرم الى مكان للرب، وانما الى مكانة الربوبية المناسبة ليوم الجزاء- ف «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» صادرون منه و راجعون اليه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٢

ثم «لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى» مواصفة لأبدية الخلود، و قد يتمسك بها في لا نهائيتها الحقيقية، و لكن التعبير الصالح عنها «لا يموت» دون تقيد ب «فيها»، حيث الموت يعني بقاء جهنم بعد موت من فيها، والآية تنفيها، واما الموت معها إذ لا نار ولا اهل نار، فالآية لا تنفيها، ثم تثبتها ادلة اخرى كما فصلناها في مواضعها الأخرى «١»، و من أهل النار من يخرج منها ويدخل الجنة، فلا يموت ابدا لا في النار ولا في الجنة فالآية- إذا- تشملهم.

و قد تخص «لَا يَمُوتُ فِيهَا» المؤيدين فيها، واما الخارجون عنها فقد يموتون فيها ثم يجيئون للجنة «٢» ولكنه احتمال لا نصير له قاطعا، والموت في الخبر مؤول الى موت الاجزاء البدنية الجهنمية.

اجل «لا يموت فيها» تخلصا عن عذابها وهي باقية، «و لا يحيى» في «لا يموت» حياة لها حظوتها، بل هي موتات متواترة دون فصال، حيث عوامل الموت حاصلة، والحياة معها ماثلة، وذلك أشد العذاب ان يوازي عمر المعذب فلا هو ميت

(١). كما في سورة الأسرى و البناء و اضراهما حيث فصلنا البحث عن استحالة الابدية الحقيقية للعذاب. و موت اهل النار في محتملات اربع: موتهم فيها قيل فناءها، ام موتهم بعد فناءها، ام بقاءهم فيها دون زوال إطلاقاً، ام موتهم معها فناء لها، و الآية انما تنفي الاولى، و الثانية تنفيها ابدية الخلود، و الثالثة منفية بادلتها، فالرابعة هي الصالحة بادلتها

(٢). الدر المنثور ٤: ٣٠٣ اخرج مسلم و احمد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) خطب فأتى على هذه الآية «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا..» فقال (صلى الله عليه و آله و سلم): اما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و اما الذين ليسوا بأهلها فان النار تمتهم اماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نحر يقال له الحياة او الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٣

فيستريح ولا هو حي فيتمتع، انما هو العذاب الواصب ما هو حي وما دام العذاب، ثم لا نار ولا اهل نار. وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ٧٥.

فهنا لك أشد العذاب لألبدين في النار، وهنا الدرجات العلى للمؤمن الذي عمل الصالحات، وهذه تخص السابقين والمقربين وقسما من اصحاب اليمين، فان لهم خالص الرحمة في الأخرى «فأولئك لهم الدرجات العلى». و بين الفريقين طائفة اخرى من اصحاب اليمين لهم درجات عالية ام متوسطة ام دانية حسب درجات الايمان والصالحات، وهم لا يدخلون النار.

و طوائف من اصحاب الشمال يدخلون النار ثم يخرجون عنها قبل فناء النار، طال مكوثهم فيها ام قصر.

و تلك الدرجات العلى، الشاملة حظوة الروح والجسم معا حيث «رضوا من الله أكبر». هي:

جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ٧٦.

و العدن هي الاستقرار، والحياة المطلقة دون ممت ام خروج هي قضية فضل الله، كما الفناء مع فناء النار لألبدين في النار هو قضية عدل الله، «و ذلك» البعيد المدى والعظيم المشوى «جزاء من تزكى» قلبا وقالبا، ايمانا وعملا صالحا.

و هذه من المشاهد القليلة النظير في تاريخ الرسالات حيث تعلن في إذاعة قرآنية مدى حرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطانها، وانتصار الحق والايمان في وقع الحياة المشهود، بعد انتصارها في عالم الفكرة العقيدة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٤

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَ لَا نَحْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَعَفَاؤٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَ مَا أَعْجَلْنَاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى

قَوْمِهِ غَضَبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَمْ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَ لَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاها فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنِّي رَأَيْتُكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْفُتْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انظُرْ إِلَى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٥

إِهْلِكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنَحْرِقَئِهِ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) هنا يطوي السياق طيا عن كل ما حصل بعد هذه المواجهة من فرعون وملئه مع موسى وملئه، ففرقة الى مسرح الانتصار الأخير بعد الاول وليعتبر اولوا الألباب، وقد نلتمح كصراح من آيات اخرى للقصة ان لم يكن وحي الإسراء دون فصل عن ذلك المسرح، وان هناك ردحا من الزمن بينه وبين غرق فرعون وملئه «١» عاشه موسى والمؤمنون به في الجو الفرعوني، حتى قضى موسى ما حمل «في تسع آياتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ ..» (٢٧: ١٣) و فرعون يحتال حيلة لتشويه السمعة الرسالية الموسوية: «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (٢٨: ٣٨).

و موسى يؤمر ان يتبوأ لقومه بيوتا: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (١٠: ٨٧).

و ذلك هو قضية الحال من تلك الآية الالهية في ذلك الحشد العظيم، وما ركزت في قلوب من آثار، فلا يسطع فرعون ان يقتل موسى ومن معه لتثاقل الجوّ وتعاضله إذ كانوا يمنعونه رغم همه: «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لِيَدْعُرَّ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» (٤٠: ٣٦).

(١)

. البحار ١٣: ١٢٨ عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: املى الله عز و جل لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم اخذه الله نكال الآخرة و الاولى و كان بين ان قال الله عز و جل لموسى و هارون: قد أجيبت دعوتكما و بين ان عرفه الله الاجابة أربعين سنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٦

مهما كان هناك مرتزة من ملئه يشجعونه على قتله: «وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتِكَ قَالَ سَتَقَاتِلُ أبنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» (٧: ١٢٧).

فلما قضى موسى ما عليه من آيات بينات، وتصبر ما كان له مجال على أية حال، ووصل امره الى ملاحقة فرعونية شاملة حاسمة للدعوة والداعية، أتى امر الله:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى ٧٧.

و وحي الإسراء هكذا يوحي بمدى الملاحقة الفرعونية بعد ذلك المسرح الصراح للحق في صراع الباطل، و «عبادي» مما يلمح بإيمان من آمن من السحرة كما لمسناه، أمن سواهم كما هو قضية الموقف، فلا تعني «عبادي» فقط بني إسرائيل مع ما لهم من تحلفات عن توحيد الله وعن شرعة الله، فهؤلاء السحرة هم أحق منهم وأحرى بهذه الصيغة السائغة للصالحين، وكأضرائهم في بني إسرائيل مهما كانوا قلة، ومنهم من هم أحرى من السحرة في «عبادي» ثم الثلاثة الباقية منهم تشملهم «عبادي» قضية كونهم موحدين مهما ضعفوا، وانهم كانوا يستضعفون، والله يضيفهم الى نفسه تحننا عليهم وترحمنا.

و علل القدر المعلوم هنا من «عبادي» هم بنو إسرائيل حيث النص لا يذكر السحرة من هذا المسرح الى آخر المطاف، فلعلهم قتلوا كما أوعدهم الطاغية، ام ولأقل تقدير سجنوا ام حوصروا كيلا يلحقوا بموسى، فضلا عن سواهم من القبط الذين آمنوا هناك.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٧

«أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» وهو سري الليل وسيره: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» (٤٤):

(٢٣) فسرى الليل سر يخفى على الطاغية.

فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا: «أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ» (٢٦: ٦٣).

و اليبس ما كانت فيه رطوبة ثم زالت او ماء فذهب، فقد انفلق البحر وأصبح طريقا يبسا ف «لا تخاف دركا» من الطاغية «و لا تخشى» غرقا في البحر.

و هنا «طريقا في البحر يبسا» بصيغة الأفراد قد تطارد الرواية القائلة انه ضرب في البحر اثني عشر طريقا حسب اقتراح الأسباط الإثني عشر، ام تعني «طريقا» جنسه المناسب لعدديه، ولا دليل عليه ولا هو الأظهر منه او الظاهر بل «فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ» (٢٦: ٦٤) تلمح باهرة لوحدة الطريق.

ذلك! إضافة الى ان في اتباع الحق أهوائهم، ولا سيما هذه المفرقة بينهم وهم بحاجة الى توحيد الكلمة على كلمة التوحيد، ان في ذلك فسادا لهم وكسادا للحق المرتجى منهم على ضوء هذه الرسالة القدسية الماحقة لمختلف الأهواء، الساحقة لمختلف الآلهة! و من ثم فانقسامهم الى اقسامهم الاثني عشر ليختص كل بكل، هذا يتطلب فرصة، وقضية الفرار ولا سيما بعد ما ترائى الجمعان، هي التسرع دون اي لبث لأية مهمة او قرار، فحتى ان كانوا متطلبين ذلك التفرق لتفاصيل الأسباب، لم يكونوا يتطلبونه وهم في خطر الإدراك وكما قالوا «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ»! فهنا نقطع ان «طريقا» هي وحدة، والرواية هي من المختلقات الاسرائيلية.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٨

و هذه خارقة إلهية اخرى تظهر من عصا موسى، فيها نجات بني إسرائيل وغرق فرعون بجنوده:

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِنْ آيَمِهِمْ مَا عَشِيَهُمْ ٧٨.

التبعية هي اللحوق والمتابعة، والاتباع هو الملاحقة، فقد لاحقهم فرعون بجنوده ليأخذهم، ولكنه متى؟ «فَأَتْبَعَهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْأَحْرِينَ، وَأَحْبَبْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَحْرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢٦):

(٦٧).

«فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ» غرقا شاملا «ما عَشِيَهُمْ» منه، وما أجمله اجمالا عن غرقهم بصورة مهينة وكأهم غناء «فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ...» (٢٨ : ٢٠).

وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى ٧٩.

و من إضلاله قوله لهم «وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» (٢٩ : ٤٠) حيث صَوَّر لهم ضلالة هدى، وهدى موسى ضلالا، أضلهم على طول الخط في سلطته الجبارة والى غرقهم، وعلل منه ما يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله ان قال: من قوله لعنه الله لجنوده: . ترون البحر قد يبس من فرقي فصدقوه لما رأوا ذلك» «١».

(١). نور الثقلين ٣ : ٣٨٥ في كتاب سعد السعود عن ابن عباس ان جبرئيل قال لرسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) -/ و نقل حديثا طويلا في حال فرعون و قومه وفيه «و انما قال لقومه «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» حين انتهى فرآه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه: ترون البحر.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٩

و بطبيعة الحال لم يكن غرقهم أجمعين الا بعد اقتحامهم في البحر أجمعين، نزولا الى الطريق اليبس، إذ لو رجع البحر حين نزلوا الى ما كان لم يلحق اخرهم أولهم، وانما مكروا ببقاء الطريق اليبس حتى آخر نفر منهم ثم أطبق عليهم دون إبقاء، بعد ما نجى موسى و من معه: «وَ أَجْنَبْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ» - ف «ثم» هنا تؤخر غرقهم عن نجاته موسى و من معه.

و يا لها من معركة صاحبة بين كتلتى الايمان والكفر، فالأولون يملكون كافة الطاقات الروحية، والآخرون لهم طاقات مادية، فلم تكن الطاقتان متكافئتين في الواقع المادي، فلا سبيل الى خوض المعركة ماديا حيث تكفل الطاقة الروحية أمام من لا أرواح لهم إنسانية.

فهناك تتولى يد القدرة الإلهية إدارة المعركة، بعد ان اكتملت حقيقة الايمان والتصبر عليه في نفوس نفيسة لا تملك قوة سواها، فترفع راية الحق مرفوفة عالية، وتنكس راية الباطل مخففة خاوية، وليعلم الذين آمنوا ان الله هو ناصرهم في حاضرهم كما في مستقبلهم: «إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» فقد ناسب الجو هنا التذكير بمامة النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وما واجهوها بها من تخلف ونكران وكفران لأنعم الله، ما يوطئ الرأس لاصقة بالأرض تحجلا لو كانت لهم رؤس انسانية!

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٠

عَلَيْكُمْ الْمَنَّانَ وَ السَّلْوى ٨٠ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ٨١ وَ إِلَيَّ لَعْفًا لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ٨٢.

عرض لبعض النعم التي أنعم الله عليهم، سلبيا: «قد أنجناكم من عدوكم» من سلطته الزمنية والروحية الطاغية حتى صلح الظرف لا يجاب السلطة الشرعية بإيجابا: «وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» اضافة الى منن مادية: «وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّانَ وَ السَّلْوى» ومتى؟ حين كنتم تتيحون في الأرض أربعين سنة في صحراء قاحلة جرداء، وعلهما من الغذاء وسلوى الأمان كما فصلناهما في البقرة.

قاتلين لكم «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْعَمُوا فِيهِ»: فيما رزقناكم طغيانا في نعم الله، ابتغاء له من حرام، ام صرفا في حرام من سرف أو أيا كان، ام نكرانا فكفران كذلك «وَ لَا تَطْعَمُوا فِيهِ» الله، في ألوهيته ان تشركوا به ام تنكروه، «فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ

يَجْلَلُ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى» في هَوَات رغم ماله من قوات، و لقد هوى فرعون أمامكم، هويًا عن عرشه إلى فرشه ثم هوى إلى الماء ومنه إلى جهنم وبنس المهاد .. والهوي يقابل الطغيان وهو من خلفياته طال أم قصر، قل أو أكثر.
و ترى ماذا يعني غضب الله وهو تغير الحال والله لا يتغير من حال الى حال بل ليست له حال على أية حال ف «لا يتغير بانغيار المخلوقين»؟

انه من الله العقاب، حيث الصفات والأفعال المتشابهة المنسوبة الى الله تجرّد عما لا يناسب ساحة الالهية، إذا فغضب الله عذابه كما رضوانه ثوابه و «من زعم ان الله عز وجل زال من شيء الى شيء فقد وفه صفة مخلوق، ان الله عز وجل لا يستفزه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١١

شيء ولا يغيره» «١».

و إذا ابتليتكم بذنب من اشرك بالله ام آية كبيرة عقائدية او عملية «وَإِنِّي لَعَفَّارٌ...».

هنا «وَ وَاَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» و في البقرة: «وَ إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٥٢) وفي الأعراف: «وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَمْتَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (١٤٢).
أ ترى هذه الثلاث تحمل مواعدة وحدة جامعة مرة كما هنا، ومفردة اخرى كما في هاتين؟.

كأنها هي! حيث الأربعون هي الثلاثون المتممة بعشر، أم الأربعون تجمع المواعدتين، الثلاثين الحاضرة الظاهرة، والعشر المتممة لها بعدها ابتلاء لبني إسرائيل، إلا انها لم تكن ظاهرة من ذي بدء.

و هذه المواعدة وان كانت تعم بني إسرائيل، ولكنما موسى عليه السلام هو المحور الأصيل فيها، فعله لذلك «واعدنا موسى ثلاثين- او- أربعين ليلة» ثم هنا «وَ وَاَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» و هو الجانب حيث فيه يمين الوحي ويمنه. «واعدناكم» لنزول ألواح

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٦ في كتاب التوحيد باسناده الى حمزة بن الربيع عن ذكره قال كنت في مجلس أبي جعفر (عليه السلام) إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له جعلت فداك قول الله تبارك و تعالى: «وَ مَنْ يَجْلَلُ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى» ما ذلك الغضب؟ فقال ابو جعفر (عليه السلام) هو العقاب يا عمرو انه من زعم ...

وفيه عن الاحتجاج عنه (عليه السلام) مثله و فيه: من ظن ان الله يغيره شيء فقد كفر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٢

التوراة الحامل لهذه الشرعة الإلهية.

«وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» علاج حاسم ذو قواعد اربع بالنسبة لكل عصيان او طغيان، و منه الإشراف بالله وكما تطلبه حين جاوزوا البحر: «وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ هُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا هُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجْهَلُونَ» (٧: ١٣٨)، ومن ثم توغلوه في غياب موسى، مهما كان قتل أنفسهم شريطة التوبة: «وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٢: ٥٤).

و التوبة في هذه الأربع هي الخطوة الاولى الى المغفرة، وليست هي لفظة تقال، انما هي عزيمة في القلب توبة الى الله في ترك الحوبة، ومن المعصية الى الطاعة، ومن طاعة الشيطان الى طاعة الرحمن.

ثم الخطوة التالية لها «و آمن» حيث العصيان يضر بالايان او يحويه، فليرجع بالتوبة الى ما كان من الايمان، فلا يكفي الإصلاح عمليا ما لم ينبع من ايمان.

ثم الثالثة «و عَمِلَ صَالِحًا» حيث الايمان دون العمل الصالح لا يفيد تلك الفائدة المترتبة، فكما ان العاصي عصى في قلبه وبقلبه، فليؤمن بقلبه وقالبه، و «صالحا» منكرًا هو الذي يصلح ما أفسده ويزيله الى صالح لحظيرة الايمان وحضرة الرحمان.

ثم الرابعة والاخيرة في هذا المسرح «تَمَّ اهْتَدَى» أتراه لم يهتد بعد بهذه الثلاثة، وكلّ من بنود الاهتداء؟ اجل، ولكنما المعني من «تَمَّ اهْتَدَى» بعدها، هدى بعد هدى، فلا تكفي للمغفرة الشاملة الكاملة ان يهتدي عن خصوص ما ضل، وله ضلالات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٣

اخرى غيرها، قبل التوبة وبعدها، فلا تضمن هذه التوبة الثلاثية إلا خصوص ما تاب عنها، واما إذا ما «اهتدى» هدى عن كل ضلال «فاني لغفار» غفرانا مؤكدا بلغا ذروته مبالغا، يشمل كل ما يتطلب الغفران، غفرا عما كان إجماء له، ام عما يريد ليحصل صدا عنه، فهي إذا مغفرة رافعة ودافعة، تجعل المغفور له في هدى صالحة غير كالحة.

و قد تعني «ثم اهدى» مع ما عنيت، الاهتداء الى الله بالسبل الى الله، فما قيمة توبة وايمان وعمل صالح دون ويط الوحي، وهو الرسول أولا ومن ثم الأئمة من آل الرسول الذين يحملون كل ما حملة عن الله «١».

و مَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ۚ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَنزَيْتَنِي وَأَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ۚ ٨٤.

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٧ في امالي الصدوق باسناده الى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) حديث طويل و فيه يقول لعلي (عليه السلام) و لقد ضل من ضل عنك و لن يهتدي الى الله من لم يهتد إليك و الى ولايتك و هو قول ربي عز و جل «وَإِنِّي لَعَقَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا تَمَّ اهْتَدَى».

وفيه عن اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال: ان الله تبارك و تعالى لا يقبل الا العمل الصالح و لا يقبل الله الا الوفاء بالشروط و العهود فمن و في الله عز و جل بشرطه و استعمل ما وصف في عهده حال ما عنده و استكمل وعده ان الله تبارك و تعالى اخبر العباد بطرق الهدى و شرع لهم فيها المنار و أخبرهم كيف يسلكون فقال:

و اني لغفار ... و قال: انما يتقبل الله من المتقين- / فمن اتقى الله فيما امره لقي الله مؤمنا بما جاء به محمد (صلى الله عليه و آله و سلم).

وفيه عن تفسير القمي عن الحارث بن عمر عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: الا ترى كيف اشترط و لم ينفعه التوبة و الايمان و العمل الصالح حتى اهتدى، و الله لو جهد ان يعمل ما قبل منه حتى يهتدي، قال قلت الى من جعلني الله فداك؟ قال إلينا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٤

لقد اعجل موسى عن قومه الى ميعاد ربه لمرضاته تعالى، فانه مفتاق الى مناجاة ربه مشتاق، و «المشتاق لا يشتهي طعاما ولا يلتذ شرابا ولا يستطيب رقادا ولا يأنس حميما ولا يأوي دارا ولا يسكن عمراننا ولا يلبس لباسا ولا يقر قرارا ويعبد الله ليلا ونهارا راجيا بان يصل الى ما يشتهى اليه ويناجيه بلسان شوقه معبرا عما في سريره كما اخبر الله موسى بن عمران عليه السلام في ميعاد ربه بقوله «و»

عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» وسر النبي صلى الله عليه و آله عن حاله انه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئا من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوما شوقا الى ربه «١».

فبالفعل ترك موسى قومه الى جانب الطور الأيمن، حيث غلب عليه الشغف الى مناجاة ربه وقد ذاق حلاوتها من ذي قبل، فهو إليها مشتاق عجول، فيسأله ربه عما أعجله عن قومه، ولماذا لم يصاحبهم والمواعدة كانت تشملهم معه، وهو يجيبه «هُمُّ أَوْلَاءِ عَلَى أَثْرِي» يتبعوني حسب القرار من فورهم «وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» حيث المواعدة انما هي لصالح الرسالة، فليسبق الرسول قومه لتلقيه، ولكي يحضّر موسى نفسه قبلهم في ميعاد ربه، وعلى آية حال لم تكن هذه العجلة إلا «لترضى».

و قد تعني «على اثري» فيما عنت، أثر التربية الرسالية فلا خوف عليهم رجعة عنها، ثم وهارون اخي هو خليفتي عليهم فحتى إذا تأجلوا فهم تابعون اثري.

أ ترى ان قومه كلهم كانوا على ميعاد مع موسى، وقد سبقهم ان يكونوا على أثره

(١). مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام) أقول: و قد يعني ترك ما ترك في ذلك الأربعين عدم الاهتمام به دون ترك

مطلق حيث لا يطبق الإنسان أيا كان ان يترك حاجيات الحياة البدنية طيلة هذه المدة الطائلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٥

دون تأجيل، فكيف يستخلف موسى أخاه هرون في هذه العجالة القريبة: «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (٧: ١٤٢).

قد تصلح الخلافة لفترة قصيرة كما الطويلة، حيث الحفاظ على بني إسرائيل كان ضرورة دائبة على ضوء هدي الرسالة، فليخلف موسى أخاه هرون في هذه العجالة، ولعلمهم تأجلوا عن أثره لحوقا به، فتخلفا عن اثره في شرعته.

ام ان المواعدة لم تكن تعني الا السبعين المختارين: «وَوَاحْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ..» (٧: ١٥٥) وطبعاً لم يكونوا هم ممن عبدوا العجل وإلا فكيف يختارهم لميقات ربه؟.

و قد تلمح آية الإختيار بلحوقها آيات الاختبار في غياب موسى، أنه اختبارهم من بينهم بعد ما عبدوا العجل.

فظاهر المواعدة وان كان يشمل قومه كلهم، ولكن نكسة الاختبار حوّلهم الى ذلك الاختيار، فلا يليق من عبدوا العجل لحضور الميعاد المختار.

و على آية حال فقد استعجل عن قومه كلهم او مختارهم، ونرى عرض القصة في الأعراف بنفس النمط باختلاف في صيغة التعبير يسير: «وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيَّتِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ. وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَعْفُرْنَا لَنُكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا قَالَ نِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَابَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٦

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُفْتَرِينَ

.. وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَ فِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ..» (٧: ١٥٥).

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥.

لهذه الفتنة الاسرائيلية جانبان، ربابي وشيطاني، والثاني مقسم بينهم وبين السامري، فقد كانوا منحازين الى الأمور المادية والحسية في قرارات أنفسهم، اضافة الى الاستعباد الطويل في ظل الفرعة المادية الطاغية، مما زاد في الطنبور نعمة اخرى، تاركا في كياهم النفسي خلخلة واستعدادا لكل تقليد أعمى وانقياد، فلذلك ما كان يتركهم موسى وأفسهم، وترك لهم أخاه هرون في هذه العجالة ولكنهم فتنوا.

و السامري من ناحية اخرى أضلهم على ضلالهم، وقد تركهم الله وإياه في ذلك المجال العجال فتنة لهم ونبهة لموسى، فلو أنهم كانوا مؤمنين مطمئنين لانكسر السامري أمامهم بكل حيله فأصبحت فتنة خيرة، ولكنها فتنة شر لهم لأنهم كانوا على شر والى شر، فأبدى الله كامن شرهم، ولم يكن من الله إضلال، وانما اظهار الضلال في هذا المجال: «وَ تَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الحَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (٢١: ٣٥) «وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (٧: ١٦٨) «وَ لَتَبْلُوَنَكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ» (٤٧: ٣١) وبالنسبة لخصوص هؤلاء الانكاد: «كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» (٧: ١٦٣) وتري من هو السامري؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٧

هنا تعترض الجمعية الامريكية على القرآن .. هذا من الجهل بالتاريخ وعلم توقيع البلدان ان يسمى صانع العجل السامري، ولم يكن في عصر شيء يقال له سامرة ولا سامري الا الذي ملك بعد سليمان بخمسين سنة «١».

و هامشم العربي في تذييلاته المستقلة (٥٥) بعد تصديقه لذلك التكذيب يقول: لا منشأ للتسمية بالسامري الى ان اشترى الملك عمري ملك إسرائيل جبل السامرة من شامر بوزنتين وبني على الجبل ودعى المدينة التي بناها باسم شامر السامرة فالقرآن يعزي صنعة العجل الذهبي الى رجل من مدينة سامرة المبنية بعد موسى زهاء خمسمائة وسبعين سنة!.

و لكنهما غفلا عن تصريحات التوراة ان وحدا من ود يساكر بن يعقوب كان يسمى شمرون (تك ٤٦: ١٣) وان جما غفيرا من ولد شمرون وعشيرته كانوا مع موسى وهم وتمذ يبلغون الألوف (عد ٢٦: ٢٣).

و عربية القرآن تقتضي تعريب اللغات غير العربية فيه ومنها الشمروني حيث عربت الى السامري، والجمعية الرسالية تتحاشى عن ان يكون الشمروني هو السامري صانع العجل جهلا او تجاهلا بالحقيقة، في حين تصادق على ان هارون هو الذي صنع العجل!.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ٨٦.

(١). في ج ١ ص ٣٧ من كتاب جمعية الهداية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٨

«فَرَجَعَ مُوسَى» من فوره «إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ» عليهم من فعلتهم «أسفا» على ذلك وعلى إعجاله عنهم «قَالَ بِسْمَا حَلَفْتُمْوِي مِنْ بَعْدِي» (٧: ١٥٥) وذلك الأسف والغضب والتنديد لم يخص فقط هؤلاء الذين عبدوا العجل، بل والذين سكنوا عن فعلتهم، وحتى هرون الذي منعهم عنها ولم يمتنعوا!.

أ ترى موسى رجع فور ووله الى ميعاد ربه، إذ قال له حينه «وَأَعَجَلَكَ ... قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ؟» وقد ظل في الميعاد أربعين يوماً كما ود، وليس من الممكن عادة حصول كلما حصل في هذه الفترة القصيرة؟!.

طبعاً لا، وعلّ «وَأَعَجَلَكَ» كان بعد انقضاء الأربعين، وواو العطف تعطف ما أعجلك بكل ما قاله تعالى وفعله طول الأربعين من إنزال الألواح وسواه، واما انه إخبار له فور ووله بما يحصل في المستقبل فلا يناسب ادب اللفظ، ولا موقف موسى ان يصير على ضلالهم الآتي دون رجوع لصددهم، إذ لم يكن القصد من تلك المواعدة إلا نزول التوراة، وهو مؤخر رتبياً وفي الحكمة التربوية عن تنزيههم وقد سقطوا في عبادة العجل في تلك العجالة.

هنا يأخذ في تأنيبههم «أَمْ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا» فيما واعد أربعين ليلة «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» و لم تلحقوني على اثري؟ و «وَعَدًّا حَسَنًا» بانزال التوراة في هذه المواعدة «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» في انتظارها وعدم التخلف عن توحيد الله؟ وطاعة هرون في هذه العجالة حق تلحقوني؟.

و وذكّم بمواصلة الإلتصاف ودخول الأرض المقدسة في ظل التوحيد وظلال الشريعة الجديدة؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢١٩

«أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ» - «أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» (٧: ١٥٠) فطال عليكم عهد فراقى، وقد قصر! وان كان طائلاً؟ فيما تأخرتم عن موعدي! ام طال عهد رجوعي بالألواح؟ ولم يكن إلا كما وعد الله! ام طال عليكم عهد الحفاظ على توحيدكم؟ وهذا هرون نبيكم خليفتي! ام طال عليكم عهد الرحمة السابقة السابعة إذ أنجيناكم من آل فرعون وأغرقنهم: «فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ» (٥٧: ١٦)، ام «عجلتم امر ربكم» بانزال الألواح؟ وليس امره بأيديكم!.

ام «عجلتم» امر عذابه ان يحل بكم بما أخلفتم موعدي؟ «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»؟. فحتى لو طال عهد الله فأخره لحكمة عن مواعده، كما حوّل الثلاثين الى الأربعين، فانما هو ابتلاء لكم، ليس ليحولكم في هذه العجالة القصيرة الى العجل، لو انكم آمنتم بالله صادقين، بل «أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»!. فمن طول العهد عليهم انهم عوهدهوا في ظاهر الحال ثلاثين ليلة كما في آية الأعراف: «وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ» إذا فتأخير العهد الظاهر هو من ضمن الفتنة التي فتنوا بها، فتنة مثلثة الزوايا ثلاثتها: «وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ» وهم يزعمون ان الله اخلف وده، فلذلك انعطفوا الى عجل السامري بين الموعدين، وكان عليهم ان يحملوا ود الله على الأصلح، ان الثلاثين غير حاصر، فاضافة العشر إليها لا تعارضها، فهذه ضابطة عقلانية ان اثبات شيء لا ينفي ما عدها، فمواعدة الثلاثين لا تنفي العشر، وحتى إذا نفته، فقد تتكرر بمواعدة اخرى تلحقها. قالوا ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَ لَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٠

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧.

اعتذار عليل، يكشف عن اثر الاستعباد والاستحمار الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي الكليل الكليل، يكشفون فيه عن ضؤولة أنفسهم وصغارها لحدّ كأنهم لا يملكونها امام مكر السامري.

«قالوا ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» إذ كان الأمر أكبر من طاقتنا، فهو يملكنا أكثر من ملكنا أنفسنا فضلاً عن ان نملكه. والملك مصدر الملك، فيخلاف موعده كان خارجاً عن ملكنا ومقدورنا «وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ» فهل القوم هم آل فرعون؟

فكيف أخذوا أوزارا من زينتهم وهم كانوا تحت إمرتهم، ثم من هذا الذي حملهم إياها دون ان يختاروها، وهم كانوا بطبيعة حالهم راغبين إلى زخرفات الحياة وزينتها، ولا سيما إذا كانت غنيمة من آل فرعون!

ام ان القوم هنا هم بنو إسرائيل أنفسهم كما في الأعراف: «وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ...؟» إذا فالمحملون في هذه المكيدة هم أصول الضلال السامري إذ أصبحوا اداة لكيده «١» والقوم سائر بني إسرائيل الذين اغتروا بقرار السامري، فحملوا الأولين أوزارا وأثقالا من زينتهم، استجابة لما تطلبه منهم السامري فقتلوه في مقذفها كما قذف السامري. ثم «فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ» دون «قذف» قد تعم مع قذفه أوزارا من الزينة كما

(١). البحار ١٣: ٢١٦ عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ان الذين أمروا قوم موسى بعبادة العجل كانوا خمسة انفس و كانوا اهل بيت يأكلون على خوان واحد و هم: اذينو و اخوه ميندويه و ابن أخيه و ابنته و امرأته و هم الذين ذبحوا البقرة التي امر الله عز و جل بذبحها... (الخصال ج ١: ١٤٠)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢١

قذفوا، تعم إلقاء بينهم هذه المكيدة المضللة، ام هي الأصل في ذلك المسرح كما تلمح له الفاء.

ذلك، والتوراة تنسب هذه المكيدة المضللة الى هرون كما في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج: «و لما رأى الشعب ان موسى ابطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون. وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير امامنا لأن هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا اصابه. فقال لهم هرون انزعوا اقراط الذهب التي في آذان نساءكم وبينكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى هرون. فأخذ ذلك في أيديهم و صوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه، و نادى هارون وقال غدا عيد للرب، فكبروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب» (١: ٦).

هكذا تنهم التوراة هارون عليه السلام ثم يعترض علماء العهدين على القرآن ان نسب صنعة العجل الى السامري لشبهة لغوية وهية!

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهُ مُوسَى فَتَسَبَّى ٨٨.

«فَأَخْرَجَ لَهُمْ» السامري بما ألقاه وقذفوا «عجلا» وطبعا بما أذاب الحلي فصنع لهم عجلا ذهبيا، ومهما لم ندر من هو السامري ندري انه كان من صنّاع التماثيل والأصنام، عارفا- بجنب صنعه- هكذا تدليس وتلبيس لحد يتمكن من إضلال ذلك الحشد الكبير، وفيهم هارون وقلة قليلة من المخلصين لم يقدرروا على صده وايقافه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٢

لحدّه.

و «جسدا» هنا تخرج العجل عن كونه حيا، و «له خوار» وهو صوت العجل تثبت له صوته، فما كان- إذا- له من آثار الحياة إلا خوار، فالروايات القائلة ان الله أحياء فتنة لهم مطروحة «١».

و ترى ذلك العجل الجسد أخرجه لهم السامري فمن اين «له خوار» والجسد ليس له خوار؟ فهل الخوار من السامري؟ وكيف يكون للإنسان خوار- مهما احتال- من دبره الى فمه! و «له خوار» ينسبه الى العجل الجسد نفسه دون السامري، والا كان حق البيان «فخار فيه»! ام انه من فعل الله؟ والله لا يضل ولا سيما هكذا مستضعفين في العقلية والعقيدة!

قد يكون «له خوار» ان جعل دبره في مهب الريح فصوتت من فمه كما الخوار؟
ولكنه صوت الريح، وليس خوار العجل لحد يشبه العجل الحي! ثم «له خوار» مطلق

(١). الدر المنثور ٤: ٣٠٤- / اخرج ابن مردويه عن وهب بن مالك عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: ان الله لما وعد موسى ان يكلمه خرج للوقت الذي وعده فبينما هو يناجي ربه إذ سمع خلفه صوتا فقال: الهي! اني اسمع خلفي صوتا، قال لعل قومك ضلوا، قال: الهي من أضلهم به قال: السامري، قال: كيف أضلهم؟
قال: صاغ لهم عجلا جسدا له خوار، قال: الهي! هذا السامري صاغ لهم العجل فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: انا يا موسى، قال: فبعزتكم ما أضل قومي احد غيرك قال: صدقت قال يا حكيم الحكماء لا ينبغي حكيم ان يكون احكم منك.
وفيه اخرج الفريابي، و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه عن علي رضي الله عنه قال: لما تعجل موسى الى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني إسرائيل فضربه عجلا ثم القى القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسدا له خوار فقال لهم السامري هذا إلهكم و اله موسى.

أقول في الحديثين مواضع من مجال النظر فتأمل قياسا الى الاستفادة من القرآن
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٣
لا يخصه بوضع خاص!.

قد يلمح «انا فتننا قومك من بعدك» ان خواره كان من فعل الله فتنه لهم ليظهر مكنون حمتهم من عمقهم، وليس من البعيد وكما قال
موسى:

بعد ما «أَخَذْتُهُمُ الرَّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَ لِيُنَّا فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» (٧: ١٥٥) «١».
فبالفعل «اخرج لهم عجلا جسدا له خوار» وهم في بلاهة فكر وبلاهة روح، وعقل معقول بحب الزينة، وقلب مقلوب «فقالوا هذا إلهكم و إله موسى فتسي».

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٨ في محاسن البرقي بسند عن أبي جعفر (عليه السلام) ان فيما ناجى الله به موسى ان قال: يا رب هذا
السامري صنع العجل، الخوار من صنعه؟
فأوحى الله تبارك و تعال اليه: ان تلك فتنتي فلا تفحص عنها.

وفي البحار ١٣: ٢٢٧ شي عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله «وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» قال: لما
ناجى موسى (عليه السلام) ربه اوحى الله اليه ان يا موسى قد فتنت قومك قال: و بماذا يا رب؟ قال: بالسامري، قال:
و ما فعل السامري؟ قال: صاغ لهم من حليهم عجلا قال: يا رب ان حليهم لتحتمل ان يصاغ منه غزال او تمثال او عجل فكيف
فتنتهم؟ قال: انه صاغ لهم عجلا فخار، قال: يا رب و من أخاره؟ قال: أنا، فقال عندها موسى «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ
تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ»، قال: فلما انتهى موسى الى قومه و رآهم يعبدون العجل القى الألواح من يده فتكسرت فقال ابو جعفر
(عليه السلام) كان ينبغي ان يكون ذلك عند اخباره الله إياه، قال: فعمد موسى فبرد العجل من انفه الى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار

فدرة في اليم، قال: فكان أحدهم ليقع في الماء و ما به اليه من حاجة فيتعرض بذلك للرماد فيشربه و هو قول الله «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» وفيه ص ٢٢٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال موسى يا رب و من أثار الصنم فقال الله انا يا موسى أخرته فقال موسى: إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ».... وفيه ص ٢١٠ عن تفسير القمي زيادة قوله تعال: انا لما رأيتهم قد ولوا عني الى العجل أحببت ان أزيدهم فتنه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٤

هب انه «إلهكم» فكيف هو «إله موسى» وقد ذهب لمناجاته بمواعدهته؟.

إنه إلهة وقد ضل عنه فراح يبحث عنه على الجبل «فنسي» انه هنا لا هناك!.

ام «فنسي» السامري الله الذي أنقذهم من آل فرعون وأنعم عليهم بما لا يحصى، فعكف على العجل الذهبي واعكفهم عليه وأضلهم لحد فقأوا هذا إلهكم و إله موسى فنسي» الله و «نسي» الاستدلال بحدث الأجسام على استحالة الوهيتها.

و «نسي» انه هو الذي أخرجه، فهو الخالق له فكيف أصبح إلهه وإله سائر الحضور مع موسى، وقد كان- إذا- هو أخرى بدعوى الألوهية وليس له، فان موسى عمل ما هو اولى وأعلى من خوارق العادة ولم تثبت له الوهية.

«فنسي» آيات الله الكبرى التي أوتيتها موسى من ثعبان العصا واليد البيضاء، نسيان التجاهل التناسي.

و النص يساعد نسيان السامري وموسى، ولكنه في نسيان موسى نقل لكلامهم، وفي نسيان السامري هو كلام الله، والمعنيان معنيان حيث يتحملها اللفظ ويناسبهما المعنى.

أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا ٨٩.

هب ان العجل الذهبي خار وهو جسد، فما هو فضله على العجل الحيوان؟ وبأن خوار العجل الجسد خارقة؟ فقد سبق لكم ان الله أحيا لكم بقرة وهو خارقة أعظم، وقلب عصى موسى حية تسعى ويده بيضاء من غير سوء، وفرق بكم البحر، فهل ان خوار العجل الجسد أفضل من كل ذلك؟ وإن كان يدل على شيء فليدل على ما دلت عليه هذه الآيات، ام وهي فتنة شر فليجتازوها بخير.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٥

ثم «أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا» لا قولاً منه يفهم، ولا اجابة لقولة الدعاء، فكيف هو آله يعبد ولا يستطيع قولاً بدء ولا رجعا، وأنتم لكم القول بادئا وراجعا، فليعبدكم العجل- إذا- لو جاز، دون ان تعبدوه، فأنتم الذين شاركتم في صنعه بحليكم، والسامري صنعه بحيلته فليعبدكم العجل، والسامري.

ثم «وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا» و لا لنفسه: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ» (٧: ١٤٨) فما قولتهم العاذرة «ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» الا قولة كاذبة ماكرة، بل هم ظالمون بحق الحق وبحق أنفسهم ورسولهم.

قال بعض اليهود لعلي عليه السلام: ما دفتنم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال: انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جئت أقدامكم من ماء البحر حتى قلت لنيبيكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة «١».

و ترى لو رجع إليهم قولاً وملك لهم ضرا او نفعاً او هداهم سبيلاً لكان بكل ذلك إلهاً؟.

كلا، وإنما هذه كلها من الشروط البسيطة البدائية للألوهية، فالفاقد لها يفقد- باحرى- كلها، ثم الواجد لها قد يكون إلهاً حين يملك سائر الشروط، ام لا يكون إلهاً حين لا يملكها كما لا يملكها.

فيا ولاه كيف عبدوا عجلا جسدا له خوار ولا يصل إلى درجة الحياة الحيوانية الا خوارا، فلا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية، عبدوه- فقط- لان له

(١). تفسير الفخر الرازي ٢٢: ١٠٥ في ظل الآية ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٦

خوارا!- ذلك:

وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أطيعوا أمري (٩٠).

فتلك عقولهم المدخولة الظالمة في أنفسهم. واطافة الى كل حجة بالغة انفسية لتزييف تلك العبادة الزائفة، قد ذكروا بلسان الوحي «إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» فليس ذلك الخوار الا فتنة لكم، فتتكم الله به بالسامري، فليس ذو الخوار ربكم «وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ» الذي خلقكم والعجل والسامري والحلي والعلمين أجمعين، فهل ان العجل رحمان وأنتم صانعوه؟ ام «إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ» الذي فطر الخلائق برحمته وقدرته؟ «فاتبعوني» فيما خلقت بينكم «وَ أطيعوا أمري» دوما تخلف عني، فاني خليفة موسى الرسول حين قال: «اخلفني في قومي و أصلح و لا تتبع سبيل المفسدين» (٧): (١٤٢).

و نرى هنا سرد الرسالة اجمالا في أصولها وفروعها، ابتداء بالسلب فيما فتنوا به، ثم الإيجاب «إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ» ثم الرسالة «فاتبعوني» ومن ثم احكام الرسالة «وَ أطيعوا أمري».

و لكنهم بالرغم من الحجة البالغة الفطرية والعقلية انفسيا، والرسالية آفاقيا، صمدوا على كفرهم وقالوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٩١.

و إذا كان رجوع موسى رجعة لهم عن ضلالهم حجة لرجوعهم، فهذا اخوه هارون مؤتمر مطاع من قبله، وطاعته طاعته ومعصيته معصيته، ولا يقول الا قوله، ولكن لا حياة لمن تنادي، وان هي الا عاذرة حمقاء ابتغاء لهذه الفرصة اللقيمة في عكوفهم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٧

على عجلهم.

ثم وفي «لن نبرح» قضاء على امده: «حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى» حيث استحالوا رجوعهم عن عجلهم في هذه العجالة، مهما أتتهم من برهنة قاطعة، فهم أولا- إذا- لن يرجعوا في تصميمهم الحالي، مهما تحولوا بعد رجوعه ورجعوا!

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣.

ترى ما هو اتباعه له المرغوب المترقب منه الذي تركه حتى عده عاصيا لأمره فأخذ برأسه وحيته «وَ ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره إليه» (٧: ١٥٠) وقد سمعناه وظهم ووبخهم وأمرهم بما أمرهم؟ ونص الوصية الموسوية في هذه الخلافة «وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونُ اخلفني في قومي و أصلح و لا تتبع سبيل المفسدين» و قد خلفه و ما اخلفه و أصلح ما استطاع حتى كادوا يقتلونه. «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي» (٧: ١٥٠) و لم يتبع سبيل المفسدين تركا لأمر او نهي، ام دخولا في نهي.

الإتباع المرغوب هنا هو أن يلحقه بمن معه كما وعدهم الله مع موسى، ولا سيما «إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» دون وجب الدعوة- فقط- و الموعدة، وقد فعل لحد كادوا يقتلونه «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي» و لم يبق من واجب نهيهم عن ضلالهم إلا قتالهم و قد

استضعفوه، او فراقهم ويدا او بمن معه، وما كان يتبعه الا الذين اتبعوه، وذلك تفريق بينهم وفي حشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم ترقت قولي»

فقد امره ان يحافظ على ودتهم!. و طبيعة الحال في رسول كموسى انه لما يرى الحال هذه المريرة- وبعد اللتيا والتي- أن يفور غضبا لله، وظاهر الحال كان يدفعه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٨

لهكذا سؤال، دون ان يتهم أخاه هرون إلا تساءلا لاتضح الحال «أ فعصيت أمري» وما هكذا الظن بك، فوضح لي الحال، حتى يسكن البال ويصفو المجال.

فلم يكن له- إذا- في اتخاذهم العجل ذنب «١»، ولا في عدم اتباعه موسى ذنب، إلا أن ظاهر الحال كان يقتضي ذلك التأنيب العجيب أن قال ما قال وأخذ برأس أخيه يجره اليه كما والقي ألواح التوراة، ثم لما تبين امره استغفر لنفسه ولأخيه: «قال رب اغفر لي و لأخي و أدخلنا في رحمتك و أنت أرحم الراحمين» (٧: ١٥١).

ل يا بن أم لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي إني حشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم ترقت قولي ٩٤.

و ذلك الاعتذار يبين بوضوح أن موسى عليه السلام لم يتساءله الا عن عدم اتباعه الى الطور الأيمن، أخذاً بهم معه، ليعالجهم موسى ما خالجهم، ام فراقاً عنهم كزاوية اخيرة للنهي عن المنكر.

لقد تهدرت اعصاب موسى حين رأى ما رأى لحد لم يتمالك نفسه ان يفعل إلا ما فعل ومن ثم اعتذر: «... و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء و لا تجعلني مع القوم

(١). نور الثقلين ٣: ٣٨٩ في كتاب علل الشرايع باسناده الى علي بن سالم عن أبيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل و فيه قال قلت: فلم أخذ برأسه يجره اليه و بلحيته و لم يكن له في اتخاذهم العجل و عبادتهم له ذنب؟ فقال: انما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك و لم يلحق موسى و كان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب، الاترى انه قال لهارون: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت امري- / قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقواي حشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم ترقت قولي»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٩

الظالمين. قال رب اغفر لي و لأخي و أدخلنا في رحمتك و أنت أرحم الراحمين» (٧: ١٥١).

و هنا تساءلات حول تأنيب موسى واعتذار هارون:

كيف يأخذ برأس أخيه ولحيته يجره اليه دون ان يتأكد منه عصيانا لأمره وكما تردد «أ فعصيت أمري» وهو يعرف أخاه انه من أهم سؤاله الحجاب في دعوته، وانه رسول الله معه، فكيف يهتكه هكذا او يتردد في امره؟.

قد يعذر موسى فيما فعل انه قضية الموقف المختار، وعلله هكذا يفعل بأخيه المختار ليدل المتخلفين من بني إسرائيل على مدى تخلفهم في فنتهم «فئنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وليرقبوا على أنفسهم أشد من ذلك وأنكى، حين يفعل الداعية بخليفته البريء عما فعلوا وهو اخوه، يفعل هكذا، فما ذا- إذا- يفعل بهم بما افتعلوا، تعبيدا لجو التأنيب الشديد، والأمر الإمر أن «اقتلوا أنفسكم».

و هذه سنة سنوية في النهي عن شديد العصيان والتحذير عما يخلفه، فهو من باب:

إياك اعني واسمعي يا جاره، وكما يخاطب الله نبيه أحيانا بخطابات تنديدية وهو يقصد الامة المتخلفة.

فليعلم عبدة العجل حينذاك انه ليس بتاركهم وقد فعل بأخيه البريء ما فعل لماذا لم يفارقهم اليه.

و هكذا يوجّه قوله له كما يوجّه فعله وجاه هؤلاء المتخلفين وليعلموا ان شرعة العدل لا تعرف نسبة ولا قرابة ولا خلافة في ظرف التخلف عنها، فضلا عن امة متخلفة هكذا، وليعرفوا مدى عصيانهم لرسولهم ألاّ مسامحة فيه ولا سماح عنه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٠

ثم وكيف يعذر هارون عما قصّر إن قصّر خشية التفرقة بين بني إسرائيل، وليست الوحدة مرغوبة إلا في ظلال التوحيد، فحتى ان قتل دون منعمهم عما افتعلوا لكان حقا رساليا بمسؤولياتها الدعائية الاصيلية، وما الدعوات الرسالية إلا مفرقة بين الناس من متقبل لها او معارض، ثم موّحدة بين المؤمنين بها، فكيف يعذر هارون ان قصّر بقوله **يَحْشِيْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**؟.

انه وعظهم وندّد بهم حتى كادوا ان يقتلوه، فلم يقصّر - إذا - في الدعوة، ثم قتل الداعية انما يسمح فيه في شرعة الرسالة إن اثر في قبول الدعوة ام مزيد الحجة، ولكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوة لهم في البربرية إزالة لمن يصددهم، وتقليلًا لعديد الداعية، فتعريض هارون نفسه للقتل لم يكن الا تعريضا للرسالة الى الخمول وتضعيف الساعد المساعد لموسى الى الهمول، ثم التفرقة المحظورة هي التي كانت تشجّع المتخلفين في عكوفهم على عجلهم لما يرون الجو دون معارض ومشاغب، ثم تفريقا بين المؤمنين ان يلحق بعضهم بعبدته، وآخرون يلحقونه الى موسى، تمزيقا لذلك الجمع دون فائدة عائدة الى صالح الحق، إلا طالحا ضد الحق، ولقد كانت الرقابة لقول موسى الحفاظ على الوحدة ما دامت صالحة مهما ضل منهم من ضل، حيث الفرقة آنذاك كانت تزيديهم ضلالا على ضلال، وفيها دلالة لمن ضل وأضل.

و لماذا **بَنَى أُمَّمٌ** دون «اخي» كما في عرض سؤله واجابته؟ علّه لأنه كان أخاه من امه، ام جاء له من ناحيتها وان كان أخا لأبويه، لأنها أشد حساسية وارهافا واستحاشة للرحمة الاخوية، تكسيرا عن شدته وتكثيرا لرحمته.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣١

و كيف هنا «أم» وقضية الأدب كسرهما للاضافة؟ عليها مخففة عن «أماه» نداء لها ضمن نداءه ليكون أكد في الاسترحام.

و ترى موسى كيف لم يغضب عند ما أخبره الله، غضبه حين رأى ما رآه؟ انه على حد المروي عن أخيه المصطفى: «يرحم الله اخي موسى ليس المخبر كالمعابن، لقد أخبره الله بفتنة قومه وقد عرف ان ما أخبره ربه حق وانه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع الى قومه فرآهم فغضب والقى الألواح...» «١».

و عله- وبطبيعة الحال- غضب هناك كما هنا ولكنه أخف ولم يأت له ذكر إذ لا مظهر له وهنا أخره يظهره.

هذا دور هارون في قصة العجل، ومن ثم السامري وهو اصل البلاء:

و انما بدء موسى بالقوم، لأنهم هم المسؤول الاول في هذه الزلة الا يتبعوا كل ناعق وبمسمعهم ومرآهم آيات الله تترى من بين أيديهم ومن خلفهم.

و من ثم هارون لأنه المسؤول الثاني في هذه المعركة ان يحول بينهم وبين هذه الهوة المضلّة، لأنه خليفة موسى والقائد المؤمن في غيابه. ثم السامري هو الأخير لأنه لم يفتنهم بقوة قاهرة ام معجزة باهرة، ولم يضرب على عقولهم، وانما ود الجوّ صالحا للإضلال حيث استضعف القائد وتخلف وتعنف المقود، وقد كانوا يملكون ان يثبتوا على هداهم فطريا وعقليا، وعلى هدى نبيهم الأول ونصح الثاني:

(١). البحار ١٣: ٢٠٤ و قال الطبرسي روي عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) انه قال: ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٢

قَالَ فَمَا حَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ .
و الخطب هو الأمر الخطير الذي يهيمه صاحبه، فما هذا الأمر يا سامري حيث أهلك في هذه المكيدة المضللة المدللة؟ مسا من كرامة الله، وتضييعا لرسالة الله، ونكرانا لنعم الله! «قال»: ...

و لأن القصة منقطعة النظير في القرآن، لا تحملها إلا هذه الآية، وهي غامضة في نفسها، لذلك تتطلب إمعان النظر أكثر مما له نظائر، وقد تضاربت في تفسيرها الأقوال، وأصبحت مجالا فاسحا للقبيل والقال.

بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»: بصر به هو العلم والمعرفة عن بصر العين، قد يعلمه غير الباصر وقد لا يعلمه، وهنا «بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ» تختص بالباصر الخفي كما «فَبَصُرْتُ بِهِ عَنْ حُجُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (٢٨: ١١).

فهناك امر بصر به وهم لا يبصرون، معرفة أو علما بما يجهلون، وكان بالإمكان ان يبصروا به ولكنهم مستغفلون، فلم تكن - إذا - معرفة خارقة للعادة في مساح المعرفة، بل هي لمحة خفية لأمر عن تحرّ وتفتيش، لم يكن هؤلاء بصدده حتى يتلمحوا له، والسامري يأتيهم هنا مما يجهلون بما سولت له نفسه من الإغراء لإجراء مكيدته البائتة الدفينة.

«بَصُرْتُ .. فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا» وهنا القبضة متفرعة على البصر، ثم النبذة تنفرع على الأثر، وكل ذلك من تسويلات نفس السامري: «وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٣

فما هي القبضة، وما هو الأثر؟ وما هي نبذة الأثر؟ ومن هو الرسول المقبوض الأثر؟.

فهل الرسول هنا هو جبريل، وأثره موضع حافر فرسه، فقبض قبضة من تراه فنبذها في حليهم المركوم فأصبح عجلا جسدا له خوار؟ كما قد تداولته أقلام المفسرين في الأكثرية المطلقة.

و المتداول من «الرسول» في القرآن هو الرسول البشر، مهما شمل جمعه الرسول الملك «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» (٢٢: ٧٥) وليس يعني «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» جبريل الا بتأويل عليل، ثم جبريل وهو الطائر القدسي الرسالي ليس يركب فرسا! ولا يظهر لغير الرسول، ولئن ظهر فأنما هو في صورة البشر، فكيف عرفه السامري؟ أبصوته الاصلية؟ ولا تصلح لغير الرسول! ام بصورة انسانية، فكذلك الأمر! ثم كيف يعرف - إذا - انه جبريل، اللهم الا للرسول.

و تحلي جمع من الملائكة لقوم لوط لم يكن ملائكيا كما لم يعرفوهم، ولم يكونوا حملة الوحي الرسالي، ام أعوانا لقوم لوط المحرمين! ومن ثم كيف يكون لأثر حافر فرسه ام قدمه ذلك الأثر المعجز، والآيات المعجزة إنما هي من افعال الله، يخصها بمن يحملون رسالات الله تتيبنا لها، دون سواهم مهما كانوا رسل الوحي الى الرسل، فضلا عن الدجالين المضللين، تحليا لهم بحيث يعرفوهم، ويزيدون اضلالا بأياتهم الخارقة!.

و مهما كان ذلك فتنة من الله فليست الآية المعجزة منها، ولو كانت آية لأصبح العجل الذهبي حيوانا، ونص الآية «عَجَلًا جَسَدًا» يطارده! وليس الله يطارد آية منه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٤

بأية اخرى بل يؤيدها بما يبطل بما غيرها المدعى أنها منها «قال موسى ما جئتكم به السحر إن الله سببطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين» وصنع العجل الآية بقبضة من اثر الرسول هكذا، إصلاح لعمل المفسدين سبحانه الله عما يصفون!.

ام ان الرسول هنا هو موسى وأثره هو أوزار الزينة التي حملوها، نسبت اليه هنا لأنه أمرهم بأخذها من القبط، فقبض منها قبضة و طرحها مع القوم في النار فخرج لهم عجلا جسدا له خوار؟.

و لكن أوزار الزينة لم تكن للقبط بل هي من حليتهم أنفسهم «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ». و أتى لهم ان يأخذوا من زينة آل فرعون وهم مستضعفون بينهم وملاحقون، فضلا عن ان يحملوا أوزارا من زينتهم! اللهم ان تحملهم أمواج البحر بعد غرقهم ولا برهان له، و «من حليتهم» برهان عليه، وهي على أية حال لم تكن اثر الرسول، مهما كانت لأولاء ام هؤلاء، وحتى لو كانت من ملكة موسى فالصيغة الصالحة لها «اثر موسى» دون اثر الرسول، حيث الحلي والزينة هي من آثار الحياة الدنيا وليست «اثر الرسول» فانما اثره الرسالة بآثارها.

ثم القبضة المتفرعة على «بما لم ينصروا به» هي بطبيعة الحال عنهم خفية، وهم عارفون انه ألقى مما ألقوا: «فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ!» ومهما يكن من امر فالصيغة الصالحة له «فقبضت قبضة من زينة القوم» ولكنه على هذا الحال ايضا لم يقبض من زينة القوم وانما «حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاها فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ!» ومن ثم فكيف يقال لموسى - وهو حاضر - قبلة الغائب والصحيح «من أترك - او - من

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٥

حليتك! ام انه هو هارون وهو غائب عن مسرح التخاطب مهما كان حاضرا بينهما، والأثر إما كالأول او كالثاني؟ ولكن الصيغة الصالحة عن هارون هي لفظه دون «الرسول» وإمامه موسى وهو اصل في هذه الرسالة، ثم عليه ما على الأولين الا المحذور الأخير. علّ الرسول هنا هو موسى لأنه المحور في هذه الرسالة، الظاهر بنفسه وبرسالته وآثارها، فالتعبير بالرسول كغائب دون «أترك» علّ للتدليل على ان ما قبضه كان آثار الرسالة، بما فيه من تعريض على هذه الرسالة كما في نظائرها: «يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» (١٥ : ٦) ولان السامري كان ناكرا للرسالة وقبلها للربوبية:

«وَ انظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً...» فقد يعني من قوله: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ» أنني عرفت من بطلان هذه الرسالة ما لم يعرفه هؤلاء، ولكي أبين لهم ضلالهم جئتهم من حيث يعرفون «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» وهو شطر من سنته ثم «نبذتها» إلغاء لها لأززل من اركان إيمانهم المزعزعة في نفسها، ام «نبذتها» خلطا لها بباطل من عندي ثم أظهرت حقا بمظهر الباطل والباطل بمظهر الحق.

و نفس النبذ هنا - دون القذف - خلاف ما هناك - وأنه رفض بعد القبض - مما يدل على انه تضليل بعد تدليل: «قبضت فنبذت» فالقبض هو الأخذ قبولا وتصديقا، والنبذ هو الرفض تكديبا، وهذه هي أضل طرق الإضلال ان يقبض من اثر الرسول كمصدق له، ثم ينبذ ويرفض نفس المقبوض تكديبا وكما كان يفعله الدجالون: «آمَنُوا بِالَّذِي نُزِّلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهُ تَّهَارٍ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (٣ : ٧٢).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٦

و لو كان المنبوذ هنا هو المقذوف هنا لك ام الملقى هناك لكان قدفتها ام ألقيتها «١» والنبذ صريح في الرفض دون الإلقاء والقذف، فقد قذفوا حليتهم بإلقائه «فَقَدَفْنَاها فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ» ومن قبل قبض قبضة من اثر الرسول فنبذها تمويها لايمانهم، فلو ظلوا على

إيمانهم ما ضلوا بالقائه قذفا لحليهم، وما قالوا «هذا إلهكُم و إله موسى فَنَسِيَ» فانما زعزعهم عن بقية الايمان بما قبض و نبذ، ثم القى بينهم قذف حليهم ليصنع لهم ما يعبدون كما كانوا يأملون!.

و علل من اثره مواعدة الثلاثين، التي انقلبت الى الأربعين، فقد قبضها في قبضته، ثم نبذها في نبذته، قبضا كوعد الله، ونبذا كخلف لوعد الله، وعودا بالله!.

و من اثره «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى» فقد قبضه كتصديق ثم نبذه بتلك المواعدة، ان لو كان إلهه معه فكيف واعدته الى جانبه الطور الأيمن؟!.

هذا وقد يؤيده ان خطب السامري المسؤول عنه لم يكن صنعة العجل الجسد لأنها كانت ظاهرة لا تدفع لسؤال، بل هو الأمر الخطير الذي أهمله فدفعه لصنعه والدعوة الى عبادته، كما ويؤيده أخيرا «وَ كَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي».

(١)

. لم يأت النبذ في القرآن الا بمعنى الرفض ك «نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» (٢: ١٠١) (فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ» (٢٨: ٤٠) (أ وَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ» (٢: ١٠٠) (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيْلًا» (٣: ١٨٧) (كَأَلَّا لِيُنَبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ» (٤: ١٠٤).

و فيما جاء النبذ في غير المرفوض فهو نائب مناب المرفوض مثل يونس «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيْمٌ» (٣٧: ١٤٥) و «لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ مَدْمُومٌ» (٤٨: ٢٩) و كما مريم «إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيْفًا» (١٩: ١٦) تباعدا عنهم لما وجدت من نفسها نبذا و رفضا لما حملت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٧

و طبيعة الحال قاضية في ذلك المسرح ان ليست صنعة العجل الجسد الذي له حوار بمجردا هي السبب لضلال من ضل، إلا بتقديم ما يصفي الجو لتقبل ذلك الضلال المبين وقد فعل وافتعل فأضل كما ضل.

ثم الحوار للعجل الجسد فتنة إلهية وليست آية تمكّن صاحبها من دعوى الألوهية او الرسالة، كيف وقد انقلبت عصي موسى حية تسعى و ثعبانا مبينا، وهذا العجل الذهبي ظل جسدا الا ان له حوارا، وهذا الاحتمال على اية حال اسلم من كل ما قيل او يقال، صيانة لكلام الله عن عضال لا يزول الا بمزيد اشكال، ومشكلة الحوار قد تدفع بدافع غير ما ذكر انه كان بسبب صناعي ووضع خاص هندسي أمام الريح فهو كصوت العجل وليس صوته.

حدّث السامري بقولته ما حدث، وتقلّص فيه وما تخلّص، واعترف في ذلك الموقف الحاسم القاصم ان ذلك من تسويل النفس، ونرى موسى كيف يطرده من الجماعة طول حياته ويجرق الهة أمام من ضل به وينسفه في اليم نسفا، إحراقا لهذه الضلالة عن بكرتها ونسفا لها.

قالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُحْمِلَهُ وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِهْلِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ٩٧ (قالَ فَادْهَبْ» من هذا الجمع المستضعف، فليس لك هنا مكان ولا مكانة، تعرّب عنهم طريدا شريدا مدحورا فريدا «فإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ» ما هو أصعب واتعب من الممات «أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» ليس انك لا تمس أحدا ولا يمسك احد في غريبتك، بل وتتعذب بأي مساس كان رحمة لك عيشة بين الجماهير، تتعذب لحد ليس لك في الحياة إلا ان

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٨

تقول «لا مساس»! فقد أصبح قصاصه «لا مساس» وهو شر قصاص! فالغربة المطلقة في الحياة عذاب، وعذاب القرية فيها عذاب فوق العذاب، حيث بدلت له الرحمة زحمة وكما بدّل نعمة الله كفراً وأحل قومه دار البوار جهنم يصلها وبئس القرار. و لان «مساس» مصدر من المفاعلة كما الضراب من المضاربة، فهو مس من الجانبين أيا كان المسّ، سمعياً او بصرياً او بديناً، ام اية معاطاة أخذنا وعطاء روحياً او مادياً، فقد أصبح المساس الذي به الحياة الزاهرة بين الجماهير، شراً من الممات وكأنه من دوافعه، إبعادا له عن حظوظه، وابتعاداً لهم عن شذوذه، فأصبح- بالفعل- لا هو ميت ولا هو حي، مجموعاً له شر الحياة وشر الممات اضافة الى العذاب الذي هو آت.

و يا يؤساء لمن إذا سألته عن حاله يقول «لا مساس» وإذا قلت له ام سمعت قاله يقول «لا مساس» وإذا تدتت اليه أهله ام وده يقول «لا مساس» وإذا دتت اليه ما له ام حاجة من حاجياته يقول «لا مساس» «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» فما ذا إذا بعد الممات؟:

«وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ» بعد الممات، العقوبات التي ولدها المضللون المكذبون بآيات الله.

ثم «وَ أَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا» وظلوا أولاء بما أضللتهم «لنحرقه» حرقاً لنفسك التي سؤلت لك، وحرقاً لقلوب من ظلوا عليه عاكفين «ثُمَّ لَنَسْفَعُ فِي النَّيِّمِ نَسْفًا» طرحاً له، فيه طرح النسافة وهي ما تتور من غبار الأرض،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٣٩

حيث يبده الحرق غباراً لا يبق له صورة ولا سيرة، اعداما له عن بكرته، ازالة حاسمة لأثر الضلال. كل ذلك بمسمع ومرأى الذين عبدوا العجل وسواهم، وعلى مشهد الإله المزخرف المزيف المحرق المنسف يعلن الداعية حقيقة العقيدة الصالحة:

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨.

دون هذا الإله المعدم، وهو في ووده له شركاء أفضل منه وأعلى، ولا علم له بنفسه حتى يدافع عنها، بل هو الذي لا إله الا هو وسع كل شيء علماً و «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء».

و مهما ختم السياق هنا الى ما هنا، فليس ليختم في وقع الحال إذ أمر الذين عبدوا العجل ان يقتلوا أنفسهم كما في البقرة. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَ إِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِئْتُمْ عَلَيْنَا لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٠

بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرٌ مَا لَهُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ لِبَلَاءٍ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ اتَّمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي فَلَمَّا رَأَى رَبَّهُ قَالَ لَنْ تُرَآهُ وَ لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

هنا درس فصل عن قصة موسى مع فرعون وملئه بين مواجهتهم إياه بنكران ربوبية الله، وإغراقهم أجمعين إلا من آمن منهم بالله، وهي قصة وسعة الأطراف لا مثل لها بين قصص المرسلين اللهم إلا خاتم النبيين صلى الله عليه و آله فإنهما متماثلان في كثير من الميزات الرسولية والرسالية. يذكر «موسى» (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة وأكثرها ذكرا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤١

له وأعرفها «الأعراف» فانه فيها يذكر (٢١) مرة مما يدل على أن ذكرها فيها أكثر من غيرها.

و يذكر فرعون (٧٤) مرة في (٢٧) سورة، أكثرها ذكرا له «الأعراف وص» وعلى الجملة نرى قصة موسى وفرعون أكثر القصص ذكرا وشرحا في الذكر الحكيم، اللهم إلا رسول القرآن فإنه المحور الأصيل بين الرسل والرسالات كلها، وهنا بعد ذكرى رسالات منذ نوح حتى شعيب يأتي تفصيل القول حول موسى عليه السلام وحالاته الرسالية وحالاته مع فرعون وملئه.

ذلك القصة نص باهر في الغرض من سياقه، فالقصة قاطعة إلى مشاهد حية توجع بالحركة والحوار، زاخرة بالانفعالات والسمات، وتتخللها توجيهات إلى مواضع العبرة الواعظة الباهضة، كاشفة عن طبيعة الحال للمعركة المتناحرة بين الحق والباطل، منذ تشرد موسى من بأس الطاغية خائفا يترقب، حتى غرق الطاغية، وإلى مستمر رسالته بواجهات أخرى.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَا لَهُ مِنْ مَلَائِكَةٍ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣).

هنا «بعثنا» متكلمة مع الغير يعني جمعية رسالية اجتمعت في شخص موسى الرسول وكأنه بنفسه رسل، وهو حقا رسل إذ جاء برسالة مفصلة منقطعة النظير بين الرسل كلهم لإلهذا البشير النذير.

ثم «بآياتنا» وهي الآيات الرسولية والرسالية جمعا مستغرقا لآليات الربانية، قد تعني الجمع بين كافة الآيات المبصرة المبصرة، فهي كلها بصرية مشهودة للأبصار،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٢

ولكن الآية الرسولية والرسالية المحمدية وهي القرآن وهي رسول القرآن، إنها آية مستمرة خالدة مع الزمن، متناسبة الآيات العابرة الغابرة، متناسبة خلود الشريعة الأخيرة إلى يوم الدين فانها آية البصيرة على مدار الزمن، لا بديل عنها ولا تبديل لها، بل هي تجريجي الشمس في مشارق الأرض ومغاربها.

أم تعني جمعا من الآيات التي تناسب الرسالة الموسوية لأنها بمفردها جمعية رسالية، فلا تعني طليق الاستغراق.

و الرسالة الموسوية عالمية لا تختص بجمع دون آخرين كما كان نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، ولا تعني «إلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ» هنا إلا المحطّ الأول لرسالته السامية سلبا للفرعنة الطاغية، ثم المحطّ الإيجابي الأول هم بنو إسرائيل كما في آيات، ك «وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» (١٧: ٢)، ثم الثاني و الأخير هم كل العالمين كما في أخرى: «قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بَكَلَامِي» (٧: ١٢٤) - (وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنِي حَمِيدٌ» (١٤: ٨) - (وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ» (٢١: ٤٨) إذا فليس «إلى مصر ولدها»! «١».

(١). نور الثقلين ١: ٥٤ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه: تم ان الله تبارك و تعالى أرسل الأسباط اثني عشر بعد يوسف ثم موسى و هارون إلى فرعون و ملأه إلى مصر وحدها.

أقول: هذا خلاف أمية الرسالة الموسوية إلا أن يأول إلى المحور الأول لرسالته و منطلقها كما تفسير الآيات القائلة أن محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) بعث إلى هؤلاء القوم اللد «وَ تُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٣

ذلك، ولأن أنحس المستكبرين الطغاة في زمنه هم فرعون وملأه وأتبع المستضعفين هم بنو إسرائيل، لذلك نراها في مطلع الدعوة الموسوية سلبا لأنحس طغيان وإنجاء لأضعف المستضعفين في ذلك الزمان، ومن ثم تتخطى هذه السلبية والإيجابية إلى كافة المستكبرين والمستضعفين في العالمين بالشرعة التوراتية حتى الإنجيل، ومنها حتى القرآن العظيم.

ذلك وقد «ظلموا بها» حيث أنكروها وكذبوا بها شر تكذيب «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» حيث التكذيب بآيات الله هو رأس الزاوية في هندسة الإفساد في الأرض.

وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ. إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤).

هنا «يا فرعون» دون ألقاب هي إلغاب زور وغرور لكل سلطان غرور ك «يا مولاي» وما أشبه وإنما باسمه «فرعون» في أدب واعتزاز ليقرر له حقيقة أمره أنه فقط «فرعون» أمام «رب العالمين» وهو منهم خلاف زعمه: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» فهكذا يخاطب الرب الأعلى! ليعرف موقفه في بداية الحوار قائلا: «إني» متأكدا دون أية ريبة «رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» دون «الله» أو «الرب» أو «ربي» حتى لا يخيل إليه وإلى ملأه أنه يعنيه فيكذبه ويكذبونه إذ لم يرسله فرعون، ثم وكيف يخبره وإياهم بما أرسله هو؟!.

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٤

إِسْرَائِيلَ (١٠٥).

و لأني رسول رب العالمين، إذا ف «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» قضية صادق الرسالة الربانية، ورسالة الله هذه وقول الحق على الله ليست دعوى فاضية، بل هي فائضة ف «قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ»: آية بينة ربانية لا حول عنها ولا حميد، فالله من واءها شهيد، «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» - «وَ لَا تُعَدِّبْهُمْ» (٢٠: ٤٧) فقد يعني بذلك الإرسال إرسالهم عن أسرهم بأسرهم في إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، إذ كانوا لهم عبيدا إمعان لا يقدر على شيء مما كسبوا لأنفسهم إلا ما يهواه

فرعون وملائه!. ولماذا هنا «أَقُولَ عَلَى اللَّهِ» دون «أَقُولُ عَنِ اللَّهِ»؟ «على» هنا تعني العهدة، وقول الرسول رسالة دون أصالة ليس لإعلى عهدة الله وبعهد الله، كما و «على» في «حَقِيقٌ عَلَى» هي للحيطة والتحليق ف «على» هو الحقيق دون «عن» حسب متواتر النص على مدار الزمن القرآني السامي.

و «حقيق» هنا حق ثابت لا حول عنه إذ لا يحق لرسول أن يقول على الله إلا الحق «وَأَوْ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (٦٩: ٤٧).

ذلك، والرسالة الربانية إلى أمثال فرعون وملائه تعني- أول ما تعني- إبطال كل شرعة مدعاة لكل طاغوت يحكم محاذًا لشرعة الله، تبعيدًا لهم عن تعبيد الناس إلى عبودية الله.

و إعلان الربوبية الوحيدة غير الوهيدة لله وده، إنه إعلان تحرير الإنسان عن عبودية أمثاله وكل معبود من دون الله.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٥

و لأن هذه الدعوة تحمل قلب نظام الحكم الفرعوني، لذلك يطالب موسى بكل مهانة وإهانة وإحالة أن يأتي بآية إن جاء بها، زاعما أنه كاذب حيث أخذته العزة بالإثم، فلا يستقبل أي دعوى تناحر فرعنته وطغيانه، إلا بكل فرعنة ورعونة:

قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦).

«قال» فرعون: «إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ» في رسالتك المدعاة المدعاة «فأت بها» أمامنا «إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ» وهنا «كنت» قبل «جئت» تعني إحالة هذه الكينونة بعمقها، ثم «إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ» تمديد عتيد إن لم يأت بها فهو- إذا- من الكاذبين.

فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (١٠٨). فَأَلْفَى عَصَاهُ عِجَالَةً دُونَ إِجَالَةٍ، عِيسَاهُ يَهْتَدِي بِإِجَالَةِ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ «فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ» كونه ثعبانًا حقيقياً دون أن يسحر أعين الناس فيروا العصا ثعباناً، ومن كونه مبيناً أنه هدّد فرعون بصرحه لحد لمس العذاب حينه فقلّ منه خائفاً ذعراً «١».

و لا تعارض بين قلب العصا هنا ثعباناً مبيناً، وقلبه «حَيَّةٌ تَسْعَى» (٢٠: ٢٠) حيث «رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ» (٣٨: ٣١) لاختلاف الموقفين، فالحالة الثانية هي ليلية الطور لما رأى من جانب الطور ناراً، والأولى هي عند فرعون.

(١). نور الثقلين ٢: ٥٤ في تفسير العياشي عن عاصم بن المصري رفعه- / و ذكر قصة مواجهة موسى فرعون إلى أن قال:- / فألقى عصاه و كان له شفتان فإذا هي حية و قد وقع إحدى الشفتين في الأرض و الشفة الأخرى في أعلى القبة، قال فنظر فرعون في جوفها و هي تلتهب نيراناً قال: و أهوت إليه فأحدث و صاح: يا موسى خذها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٦

ثم والطنطنة الغوغاء في قوله استحالة المعجزات يحلها تقدّم العلم أن العناصر متشابهة في الجزئيات والذرات، وإنما الاختلاف في فواصل وعديد الذرات، فلخالق الذرات أن يبدل فواصلها وعديدها قفزة طرفة عين، وذلك سر الإعجاز أن ذلك التفاعل الذي يحتاج في تبدل عنصر إلى آخر إلى آلاف من السنين، يحصل بالقدرة غير المحدودة الربانية في طرفة عين.

ثم زود آيته تلك بأخرى، متصلة به بعد الأولى المنفصلة عنه، إتماماً للحجة وإثارة للمحجة، كيلا يقال إن ثعبان العصى ليس من إلقاءه، بل هو صدفة عمياء، وأما يده فلا يظل عليها من ظلال ذلك الضلال: «وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى» (٢٠: ٢٢)- (اسلُكْ يَدَكَ فِي جَنِيحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» (٢٨: ٣٢).

و هنا في ظلال هاتين الآيتين خرس فرعون متخوفا ذاعرا ما يدري من أين إلى أين، ولذلك يتكلم ملاء تبتينا له وتشجيعا إياه وكما تفعله الهوامش الملكية بالملوك:

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠).

هنا العصب الحساس يبرز بكل كيد وميد مضللا من مضللي الملا، يخاطبون أنفسهم وآخرين، بمن يرأسهم وهو فرعون، ابتداء بتزييف موقف موسى من آيته الكبرى: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ» ثم وما عليه في سحره إذا كان في خدمة فرعون، ولكنه «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» إخراجا من السلطة الفرعونية ملكا وملكا فيجعلكم لا شيء بعد أن كنتم كل شيء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٧

فلو كان ما جاء به آية ربانية صادقة ما كان خطرا ذلك الخطر، أم لو كان يريد أن يخرجكم من أرضكم دون آية ولا سحر فكذلك الأمر، ولكنه جامع بين الأمرين الأمرين، فإنه بسحره يريد قلب النظام وهذا ما لا يقبله أي مواطن فضلا عن الملك وأصحاب السمو الملكي، «فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ» نا، نحن الذين نعرف صالح أمر الحكم من طاحه.

هنا- بعد ما حصل فرعون على هذا الرأي- «قَالَ أَ جِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ» (٢٠: ٥٨) فقد تشاوروا أولا: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى» (٢٠: ٦٣) ثم عرضوا عليه حصالة هذا الرأي ثم «قَالَ أَ جِئْتَنَا...».

و هكذا أدرك فرعون وملاءه خطوة هذه الدعوة التوحيدية وكما يدركها كافة الطواغيت المحادين المشاقين الله، وكما قيل لرسول الله صلى الله عليه و آله حين أخذ يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله: «هذا أمر تكروه الملوك!» و «إذن تحاربك العرب والعجم» حيث القائل عرف معنى لغة التوحيد أما ثورة على الحاكمين بغير شرعة الله، الطاغين على عباد الله، فإن لتلك الشهادة الحقة جدبتها و فاعليتها، وطبيعة الحال قاضية ألا ملائمة بين «لا إله إلا الله» وألوهة غير الله من آلهة الأرض والسماء.

فلذلك ينبري الملاء من قوم فرعون، الأخصائبيون في تدبير أمور الملك قائلين «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» إخراجا لكم عن كيانكم وعرضكم، وقد حسم الموقف عجالة أنهم:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٨

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢).

.. «وَ أِبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ» (٢٦: ٣٧) فالقصد من «ساحر» هنا هو «سحار» ويلمح له «عليم» وهنا يشير عليه ملاء المتأمرين، بإمهاهما حتى حين «وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ» المصرية «حاشرين»: جامعين «يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ» دون مجاهيلهم أو سقاطهم.

و هنا «أرجه» أمهله، دون «أقتل - أو - أسجن» مما يدل على أن الطاغية كان أعدل من هؤلاء الطغاة الذي لا يمهلون مناوئهم، حكما بالإعدام أو السجن دون امهال لمناورة!.

و يروى أن عديد هؤلاء السحرة بين سبعين شخصا إلى ثمانين ألف وبينهما متوسطات «١»، ولقد كانت أرض مصر تروج بالكهنة الساحرين في شتى المعابد الكهنوتية، يديرون أمورهم، ويدبرون، بكل سحر ومكيدة، إذ ما كانوا يملكون حقائق الأمر الذي به يحكمون.

و هكذا يقتزن السحر والكهانة وسدانة الآلهة في كافة الوثنيات على مدار تاريخها، وفرعون هذا بما يحمل من كل فرعنة وطغيان، لقد كان في إرجاءه موسى وأخاه أفل طغيانا من الطواغيت المتحضرة في القرن العشرين في مواجهة الدعاة إلى رب العالمين.

(١)

. و هي تسعمائة- / اثني عشر ألفا- / خمسة عشر ألفا- / سبعة عشر ألفا- / تسعة عشر ألفا- / ثلاثون ألفا- / و سبعون ألفا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٩

وَ جَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤).

لقد استغلوا فرصة فریضة لهم فریضة، حيث يحتاجهم فرعون في هذه الغائلة المجتاحة لعرشه وملكه، فتطلبوا إليه أجرا متميزا عن سائر الأجر في الحالات العادية، فوعدهم ذلك الأجر وزيادة «إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» إلى البلاط الملكي أكثر مما كنتم من ذي قبل. و هم على أية حال عملاء محترفون، يحترفون السحر كما الكهانة على سواء، والأجر هو هدف الاحتراف سواء في هذا أم في ذلك، وهنا يعدهم الطاغية أجرا أكثر من المأمول المعمول هو القربى منه زيادة في الإغراء، وهم كلهم جاهلون ذلك الموقف أنه موقف الآية الربانية التي لا يعالجها أي أجر وتقريب وإغراء.

و هنا «إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا» إخبارا دون إنشاء الاستدعاء، مما يلمح بموقفهم المستعلي على فرعون لفاقته إليهم، فقد فرضوا عليه في صيغة الإخبار الذي هو أكد من الإنشاء.

إذا فهو إنشاء في صيغة الإخبار وكما الإنشاء في الشعراء: «أئن لنا لأجرا..»

(٤١)، أم وهو إنشاء حذف أداته تلميحا لأکید الإنشاء إذ هو بصيغة الإخبار.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦).

هنا يخيّر موسى بين تقدّمه في إلقاءه وتأخره كتحد جاهر في ذلك التخيير التخيير، على تأدب ظاهر، وهو يرجح تأخره عنهم لكي يأتوا بكل ما لديهم ثم يجتته

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٠

بأسره حيث يثق بنفسه كل الثقة مستهينا بتحديثهم، كما هم كانوا وثقين لا يفرقون بين إلقاءهم أولا وإلقاءه، ولو أنه تقدم، ما كان هناك ظرف لما تقدمه أن يلقف ما يأفكون، وهذه تكتيكية لصالح الحوار أن يتطلب صاحب الحق أن يتقدم محاوره بما عنده على البساط حتى يسهل له القضاء عليه، تهديما بكل صرحه، وفصما لكل طرحه، وحسما له عن بكرته، فلذلك استهان بتحديثهم بكلمة وحدة تبدو فيها قلة مبالاته بهم:

«قَالَ أَلْقُوا» ما عندكم من السحر «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ» دون عقولهم وقلوبهم العارفة أنها صورة دون حقيقة وسيرة «وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ» طلبا لرهبتهم وهم لا يرهبون لإظهارها «وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ» ما أعظمه بين مختلف ألوان السحر لحد «قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» (٢٦: ٢٤) فما يصنع ساحر وحد مهما كان عظيما أمام سحر هؤلاء العظماء من سحرة البلاد!؟

فأهم فاعليات السحر أن يسحر أعين الناس ويستربهم في المعاينة دون أي وقع واء سحر الأعين، وذلك من الفوارق العظيمة بين السحر والآية الربانية، ولو استطاع ساحر أن يقلب وقعا إلى آخر بسحرة لكانت السحرة المهرة الفرعونية تقلب التراب ذهابا دون طلب

لأجر من فرعون، أم وبقبلوا سلطان فرعون إلى سلطاهم فبتروكو عبوديته إلى حريتهم أنفسهم، وقد أتينا بقول فصل حول الفوارق بين السحر والآية المعجزة في البقرة فراجع.

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧).

«ألق عصاك» إلقاء لما ألقوا من جباهم وعصيتهم التي سحرت أعين الناس «فإذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥١

هِيَ تَلْقَفُ»: أكلا سريعا حاذقا خارقا «ما يأفكون» دوغما رجوع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية ربانية رسولية بعيدة عن حقل السحر، حيث السحر يخيّل - فقط - للأبصار، والآية يحقق الحق للبصائر.

ذلك، وحين تتغلب عصى موسى - وهي أدنى من آية القرآن بكثير - على ذلك السحر العظيم - وهو أعظم من أي سحر على الإطلاق - أفلا يقدم القرآن على أي سحر؟

أجل وكما يروى أن قراءة مائة آية من أي القرآن شئت تبطل أي سحر كان وأيان!.

و لقد كانت هذه جيئة مفاجئة مذهلة غير منتظرة للسحرة، مما قلبهم ظهر بطن فما ملكوا أنفسهم إلا أن ألقوا ساجدين:

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعَلُّوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١٩).

أجل، وان الباطل يتنفس قليلا ثم يتنفس، ويسحر - فقط - العيون، وهو سحر عظيم، يتنفس كالقنفذ وينطفئ كشعلة الهشيم تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا.

أجل «فَوَقَعَ الْحَقُّ» موقعة الباهر في ذلك المسرح العظيم أمام سحر عظيم «وَ بَطَلَ مَا كَانُوا» هم أولاء الفرعونيون «يعملون» و يأملون انكماشاً بعد الزهو الذي سحر المليون وبهر أصحاب العيون «فَعَلُّوا هُنَالِكَ» أمام الجماهير المحشورة المحتشدة «وَ انْقَلَبُوا» إلى فرعون وعن حالتهم تلك الطاغية الباغية «صاغرين»: ذليلين، فأصبحوا صفر الكيان أمام هذه الآية الربانية العظيمة، بكل صغار وهزيمة، وقد حسم الموقف هنا:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٢

وَ أَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (١٢٢).

و تراهم من الذي ألغاهم فألقاهم ساجدين لرب العالمين حيث النص «ألقي» مجهولا دون «ألقوا أنفسهم»؟.

انه هيبة الموقف الحق الباهر إذ عرفوا أنه ليس مما ألقوه، فألغاه موسى بما ألقاه، فلم يتمالكوا أنفسهم لإلتساقطاً على الأرض سجداً لله، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالته عنهم كل ركامة عاشوها من ذي قبل، فتحولوا بكل كيانهم إلى «ساجدين» ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين ف «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». وإنها صولة الحق الباهر في أعماق الضمائر والمشاعر، فالسحرة المهرة هم أعلم الناس بواقع فنهم غير الواقع ومدى ما بالإمكان أن يبلغه من مبلغه، وهم - أيضا - أعرف الناس بالحق الذي جاء به موسى، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً لتقبل الحق، وكما نرى السحرة منقلبين من التحدي السافر الطليق إلى التسليم الظاهر الطليق الخليق، ما لا يزعزعه أي تهديد بليغ حميق.

و لكي لا يخيّل إلى الطاغية أنهم يعنونه بما قال: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» وصفوه ب «رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ» و هنا ينبري فرعون الطاغية بتهديد شديد على السحرة الساجدين:

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤).

«قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٣

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» (٢٤: ٥٩).

ويكأن الإيمان أيضا كسائر الأمور بحاجة إلى إذن؟ وهو أمر قلبي! فلأن ذلك البليد الطاغي هو الرب الأعلى بزعمه فلتكن أزمة القلوب طرا بيده كما بيده سائر الأزمة.

هنا «ءامنتم به» تنديدا بنفس الإيمان، وفي الشعراء «آمنتم له» تنديدا بشاكلة الإيمان، أنه ليس إلآله ولصالحه، حسب المدبر المقرر بينكم من مكر مكرتموه في المدينة.

و هنا يهرف بما يحرف أن ثعبان العصا «لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا» تسمية لآلية البينة الربانية سحرا لهدف قلب نظام الحكم، ولا يمكرون هكذا إلآ إذا كان موسى معلمهم في السحر، ومتى كان معهم حتى يعلمهم السحر وهم كانوا سحرة قبل وده؟ وحتى لو كان معهم فهو متعلم منهم لأكثر تقديرا!

و لأنه لمس منهم أنهم ليسوا ليغيروا موافقهم بذلك التنديد أخذ في شديد التهديد:

«لأقطعن ..» وهو عقوبة كانت تجري بأعصى العصاة البغاة، ولو كان إيمانهم مكرًا لكانوا يتركون موسى إلى فرعون تائبين، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية إلهذه الآية، فلو كانت سحرا لما كانوا يظنون معه فيدلون!.

فذلك الصمود رغم ذلك التهديد- وهم مهرة الفن- دليل قاطع لا مردّ له أنهم أثبتوا دون ريبة أن الحق مع موسى الرسول، فلا مرد لإيمانه به وله ولا تحويل، ولكن الطاغية ليس ليدرك كيف يتسرب النور إلى القلب فيقلبه من علواء السوداء إلى علياءه البيضاء، وهو يحسب القلب قالبًا يتقلب بتقلبيه ويتألب بتأليه، وهو بين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٤

أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء.

فيا ولاء لفرعون صاحب العرش الروحي! والزمني، أن ينفلت من سلطة الكهنة السحرة الذين هم سناد الناس في التسليم لفرعنته، فما ذا يصنع إذا بالناس ولا حراس هنا بعد عليهم لصالحه ولا أكثراس لأساس.

ذلك ومن دأب الفراعنة الدائب أنهم يواجهون أندادهم بالتنكيل والتعذيب بعد ما كلّ دليلهم وعلّ كليلهم فهم مفضوحون، وهنا اليد السماوية تكسر اليد الأرضية حيث تنتصر في المسرح المصرع العقيدة الصالحة على كل زخرفات الحياة، احتقارا للفناء الزائل البواء إلى جوار الخلود المقيم البقاء.

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥).

«منقلبون» انقلابا محتوما محتوما عن أي انغلاب، لا يقلبنا عن ذلك الإيمان أي عامل قاس بأي مراس وأكثراس، حيث إن صاحب الإيمان السليم لا يفزع ولا يتزعزع أو يخضع ويخضع.

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوْفِنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦). فنغمة النغمة ليست لمكر مكرناه، إنما هي «أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا» فلا إيمان إلا به، ولا ملجأ إلا إليه «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا» يشملنا ويغطي علينا «و تَوْفِنَا مُسْلِمِينَ» صلبا أم سواه.

و هنا يقف الطغيان حائرا ذعرا أمام صامد الإيمان، أمام كامل الوعي والثقة والاطمئنان، أمام القلوب التي خيل إلى الطاغية أنه يملكها كما يملك الأبدان، وأنه موقف حاسم جاسم في تاريخ الإنسان يكرره القرآن بمختلف المجالات المؤاتية،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٥

فإنه يكرس انتصار الإنسان على الشيطان «فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ»؟.

فلقد أفلست المادية العمياء البكماء الصماء أمام الإيمان الصامد من هؤلاء السحرة المهرة الذين كانوا يسألون فرعون أجرا على عمالتهم، حيث انقلبوا إلى مؤمنين مستعلين على الطاغية بكل جرأة واصطبار، مستهينين بكل تهديد ووعيد، صابرين على كل ألوان التنديد والتبديد!

و هنا يذهب التهديد هباء، ويتلاشى الوعيد سدى، ويمضي الإيمان الوضاء في طريقه الوضيء دون تفلت ولا تفلت حيث لا يحدد والله من واءهم رقيب عتيد «١».

و ذلك درس لنا صائب أن ليس الكفر الحاضر دليلا على سوء العاقبة كما الإيمان الحاضر لا يدل على حسن العاقبة، فقد عاش سحرة فرعون كفرا «فرجعوا مؤمنين» «٢».

و قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذْرُكَ وَ آهَتِكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧).

علّ «الملاء» هنا هم «الملاء» هناك، فاللأم- إذا- لعهد الذكر، كما اللأم في الأول

(١). راجع تفاصيل أكثر حول قصة موسى و فرعون إلى سورتي طه و الشعراء

(٢). نور الثقلين ٢: ٥٦ في الكافي عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن أبيه عن جده (عليهما السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام): كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو- إلى أن قال-: «و خرجت سحرة فرعون يطلبون العزة بفرعون فرجعوا مؤمنين» وفيه عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: و من ذهب يرى أن له على الآخر فضلا فهو من المستكبرين، فقلت له: إنما يرى أن له عليه فضلا بالعافية إذا رآه مرتكبا للمعاصي، فقال: هيهات هيهات فلعلة أن يكون غفر ما أتى و أنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى صلوات الله عليه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٦

للتعريف، فهم ملأ معروفون بهذه الاستثمارات والشوراءات العليا بشؤون الملك.

هنا لما خسروا صفقتهم تلك في إرجاء موسى لتلك المباراة الهامة، لم يجدوا بدا من استئصال موسى والذين معه بدعوته، وتساءلوا فرعون في شأنهم «أ تَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» ضد السلطة الروحية و الزمنية الفرعونية «و يذرك» و أنت الرب الأعلى «و آهتك» وهم أربابك المنتخبون «قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ» لكي يفنوا عن بكرهم «و نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» إبقاء لمن أحياء وإزالة لحيائهم، فما ذا يبقى بعد لهم؟ ثم «و إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» برفابة قوية تامة طامة إياهم فلا يستطيعون حراكا ولا عراكا ضد سلطتنا.

و هذه سياسة مدروسة إبليسية لتضعيف ساعد الدين والدّينين أن يقضى على المساعدين المناصرين للداعية، فتخمد دعوته، وتحمد دعاديته، فلا يقدر على تحريك ساكن أو إسكان متحرك.

و هذه مرحلة ثانية من مراحل القضاء الفرعوي على الدعوة الموسوية، ومن ثم تصميم في الصميم، خطوة ثالثة من الخطوات الإبليسية أن يقتل الداعية: «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبِّي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ» (٤٠: ٢٦).

و ترى حين يدعي «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» فما هو موقف «أهنتك»؟ قد تعني «أهنتك» الآلهة الفروع التي ادعى أنه ربهم الأعلى فهم الأدنون، أم ان هذه الدعوى تأخرت عن هذا الموقف إلى موقف ثان وكما يلح من آيتها: «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى، فَكَذَّبَ وَ عَصَى. ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٧

الأخيرة وَ الْأُولَى» (٧٩: ٢٠-٢٥).

فقول الملا: «و أهنتك» كان في الموقف الأول بعد خسارهم في المباراة، وقوله:

«أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» كان في حشر ثان تجديدا للبيعة وقبيل ما أخذه الله نكال الأولى حيث أغرقه وملاه.

و هكذا ترعّ الطاغية الذي كان يحسبه في عداد سائر الآلهة أنه الرب الأعلى، ثم خطوة ثالثة هي توحيده في ألوهيته: «وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ..» (٢٨: ٣٨). و لأنه في دعوى ربوبيته الأعلى ثم توحيده فيها يخاطب قومه، فقد يعني أعلى الربوبيات وتوحيدها بين قومه فقط دون العالمين أجمعين، وقد لا ينافي ذلك أن كانت لهم آلهة غيره، حيث هو الأعلى وغيره الأدنى والأوسط، وانه الوحيد في الربوبية العليا.

و هنا الإفساد في الأرض المدعى على موسى لا يعني إلا الدعوة إلى توحيد الربوبية الذي يصادم ألوهة فرعون الأعلى وسواها، وألوهة سائر الإلهة، حيث التوحيد يعني- تلقائيا- بطلان شرعية الحكم الفرعوي وقلب نظامه عن بكرته.

ف «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تناقض تماما «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» فليقتض على كلمة التوحيد بداعيتها والذين معه استقلالا للحكم الفرعوي فيبقى دون منازع ولا ند.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨).

طمأنة بالغة من موسى الرسول لقومه المهتدين بتكرار العذاب المتواتر عليهم قبل أن يأتيهم، وذلك على قواعد أربع يبنى عليها صرح الإيمان والاطمئنان.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٨

١ (اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ) في هذه الورطة الحالكة الهالكة ٢ (و اصبروا) في الله على ما يصيبكم في سبيله ٣ (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وليست لأحد سواه ٤ (و العاقبة) وهي الحياة العاقبة الصالحة هنا وفي الأخرى «للمتقين» دون الطاغين، والمصدق الأجلى للحياة العاقبة هو الدولة الأخيرة الموعودة لزمان القائم الموعود عليه السلام للمتقين، كما في آيات وروايات عدة ومنها ما يروى عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام إجابة عن توبيخ هشام: أيها الناس أين تذهبون وأين يراد بكم، بنا هدى الله أو لكم وينا يجتمم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكا مؤجلا وليس بعد ملكنا ملك لأننا أهل العاقبة يقول الله عزّ وجل:

«وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» .. «١».

فلاستعانة بالله في الهزاهز، والصبر على المكروه وترك اللذائذ، هما مما يورثان أصحابهما أرض الله وحسن العاقبة في الحياة، و لكن قوم موسى لم يكونوا بأقل شراسة ونحوسة من قوم فرعون حيث كانوا يواجهونه بكل تأليب وتأنيب:

(١). نور الثقلين ٢: ٥٧ في أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك و صار ببابه قال لأصحابه و من كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي (عليهما السلام) ثم رأيتموني قد سكت فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبخه، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر (عليه السلام) قال بيده: السلام عليكم فعمهم جميعا بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقا بتركه السلام عليه بالخلافة و جلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه و يقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصي المسلمين و دعى إلى نفسه و زعم أنه الإمام سفها و قلة علم و وبخه بما أراد أن يوبخه فلما سكت أقبل عليه القول رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم فلما سكت القوم نخض (عليه السلام) قائما ثم قال: أيها الناس ... فأمر به إلى الحبس ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٥٩
 قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩).

فجئتكم فجعبة كما قبل جيئتك، فهما سواء لنا فما هي عائدتك وفائدتك حتى نطمئن بها ونؤمن لك؟ «قال» لا تستعجلوا ناظرين إلى عجلة الأمر، مع أنها تتبنى إجالتكم حيث تغلبنا على فرعون في المباراة وذلك حاضرة جيئتي، وأما مستقبلها ف «عسى ربكم أن يهلك عدوكم» على طوله وحوله وقوته وضعفكم ثم «و يستخلفكم في الأرض» بديله «فيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» بعد ما يعلم كيف تعملون.

ذلك «و تلك الأيام تُدَوِّها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» (٣: ١٤٠) و «الدهر يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلهما ستختبر».

هذا، ولقد بدأوا موسى الرسول عليه السلام بهذه القولة اللاذعة وهو يطمئنهم ويأمرهم ويرجيهم برحمة من الله، ولكن لا حياة لمن تنادي، فإسرائيل هي إسرائيل صلته صلته و هنا بعد ما يعدهم موسى باستخلاف الأرض ينبههم أنه ابتلاء من الله دون فوضى جزاف، وادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه!.

و ترى «تعملون» تختص بعمل الجوارح؟ إنه حين يقرن بقال أو حال، يعني عمل الجوارح، وهو الطليق عما سواه يعم مثلث الأعمال قالا وحالا وأعمالا.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام في الإجابة عن سؤال: أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئا إلا به؟ قيل: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة، وأشرفها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٠

منزلة، وأسناها حظا- قيل: ألا تخبرني عن الإيمان فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل يفرض من الله بين في كتابه، وضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه- قيل: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه؟ قال: الإيمان حالات ودرجات

وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه- قيل: إن الإيمان ليطم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قيل:

كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جارحه جارحة إلا وقد وُلت من الإيمان بغير ما وُلت به أختها: فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما، ويداه اللتان يبطش بهما، ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به، ورأسه الذي فيه وهه- فليس من هذه جارحة إلا وقد وُلت من الإيمان بغير ما وُلت به أختها، بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها، ويشهد به عليها- ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، ... فأما فرض القلب ... «١».

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (١٣٠).

(١). الكافي ٢: ٣٣- / ٣٧ وفيه تفاصيل وظائف الجوانح و الجوارح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦١

هذه الآية والخمس الآتية هي آيات ست لفرعون وملاؤه، ثم وآيات تسع لبني إسرائيل وكما قال الله: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ..»

(١٧: ١٠١) والجمع بينها وبين هذه الست بيناه على ضوء الآية في الأسرى «١».

ذلك من مشارف إهلاكهم كما ود الله «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ» و «السنين» جمع السنة ولكنها هنا سنة الجذب فإنها هي من أخذة العذاب، دون أصل السنة الشامل لكل الكائنات، ثم وهي الجذب المتراوح سنة دون سنة كسنين يوسف، وكما يروي عن النبي صلى الله عليه و آله: «اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف».

و سني الجذب والقحط في أرض مخصصة معطاء كمصر تبدو ظاهرة قاهرة تلفت الإنظار، أمّا الإنذار الداعي لليقظة بعد النوم و النبهة بعد الغفلة، فلو أن فرعون هو الرب الأعلى فكيف عجز عن استمرارية الجذب الذي هو قضية طبيعة الأرض المصرية؟.

ثم «وَلَقَدْ نَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ» وعلها تجمع إلى ثمرات الزروع والأشجار وسائر الثمار التجارية والصناعية، ثمرات الأولاد، عكسية ماثلة بين أيديهم بما قتلوا أبناء بني إسرائيل واستحيوا نساءهم جزاء واقا، فأين إذا «مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِي» (٤٣: ٥١) وقد كان يعرضها بمعرض الناس دليلا على رجاحته على موسى «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ. وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ» (٤٣: ٥٢).

هنا عجالة يأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات دون أن يستأصلهم بأسرهم،

(١). ج ١٥: ٣٦١- / ٣٦٣ فراجع.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٢

إجالة للنظر في سنن الله بوعده ووعيده، ولكنهم لغلظ حسهم وانقلاب فطرهم وعقليتهم لم يكونوا لينتبهوا إلى العلاقة الوطيدة بين كفرهم وطغيانهم وبين أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات في مصر التي كانت ولا تزال تفيض بالخصب والعطاء، إلا ما كان زمن يوسف تذكيرا للسلطة الجبارة، وفسحا لمجال الدعوة الربانية ليوسف.

ذلك، بل هم زادوا غباوة وطغيانا على ضوء السنين ونقص من الثمرات:

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١).

فمن «الحسنة» سنة الإخصاب وتمام الثمرة، كما من «السيئة» سنة الجذب ونقص من الثمرات، فعند مجيء الحسنة «قَالُوا لَنَا هَذِهِ» حسنة مستحقة بكل جدارة ولباقة، ثم عند مجيء السيئة «يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ» أنه هو سبب السيئة «ألا» أيها الناهجون «إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» يجازيهم به سيئة بسيئة، وهكذا كانوا يعللون مختلف الأحداث «حسنة وسيئة» تعليلا عليلا كليلا خلوا عن الواقعية عقلية وعلمية وعقيدية وطبيعية، فما هي القاعدة التي تحكم بأن الحسنات في الحياة هي مستحقة للجبارين الطالحين، ثم السيئات فيها هي من مخلفات دعوات الصالحين، اللهم إلا هياما مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة ولا تجتمع وق نظام، فاللهم إلا الصدفة العمياء الفوضى الجراف كما قاله خروشوف صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسات الطبيعة في تعليل نقص الثمرات والغلات، ومعه كل هؤلاء الذين يمضون مع هذه «العلمية» الجاهلية غابرة وفي القرن العشرين، المدعاة في تعليل الحوادث بهذه النظرة الفاصرة الباسرة: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٣

هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»!

هكذا يتطير المجاهيل في تيارات الحوادث والكوارث إنما من نكبات حملة الدعوات الربانية، فالحسنة التي تجيئهم هي من حسن حظهم المستحق، والسيئة هي من شؤم من يخالفهم في شهواتهم وحيواناتهم وإباحياتهم الطليقة!

و هكذا نجد كل طغاة التاريخ على مدار الرسالات الربانية، ففي صالح لما «قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَعْرِضُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ» (٢٧: ٤٧).

و في رسل المسيح عليه السلام: «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لِيَمْسَكَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» (٣٦: ١٩).

فالقرآن يبين كلمة وحدة أن طائر كل معه وعند الله، معه بما عمل ويستحقه، وعند الله بما يحققه علما وجزاء واقا هنا وفي الأخرى «وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (١٧: ١٤): (وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» وأقلهم يعلمون ولكنهم على علمهم يحدون، و «لا يعلمون» هنا جهالة عن تقصير يندد بها كما يندد بالعالمين.

فالطائر هو العمل اعتبارا بطيرانه إلى الغير أم إلى الفناء كما يحيل إلى المجاهيل، واعتبارا بطيرانه إلى نتائجه هنا وفي الأخرى لأنه لا يفنى ولا يطير إلى غير عامله، كما يقول الله «١».

(١). واصل التطير ما كان الجاهليون في وثنيتهن يزاولونه فقد كان منهم من إذا أراد أمرا جاء إلى عش طائر فهبجه عنه فإذا طار عن يمينه- / و هو السانح- / استبشر بذلك و مضى في الأمر الذي يريده و إذا طار الطائر عن شماله- / و هو البارح- / تشاءم به و رجع عما عزم عليه فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي و اصل محله التفكير العلمي الصحيح و العمل، و قد شرحنا حول الطائر على ضوء آية الأسرى فراجع

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٤

فالتطير بالغير هو تخيل أن شؤم الغير بعمله يطير إلى غير عامله، فلما كانوا يتشأمون بدعاة الحق، كانوا يحسبون كل سيئة تصلهم أهما من جزاء شؤم هؤلاء الأكارم، وكل حسنة هي مستحقة لهم أنفسهم وهكذا «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ».

ذلك، ولم يكتفوا في هذه الخطوة الثانية الخاطئة- بعد رمي موسى بالسحر- إلا أن غالوا في عتوهم: وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَتَسَحَّرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢).

و هنا يسمون ما يأتي به موسى «آية» هزة ومهانة بما حيث تعقبها «لِيَتَسَحَّرْنَا بِهَا» أم وإيقانا بما حيث «جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتُوًّا» (٢٧: ١٤) فقد صدوا على أنفسهم كل منافذ النور و الإيمان حيث حلحوا ذلك النكران على كل آية دوغما استثناء «فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» إعلانا جاهرا بكفر طليق على آية حال، إذا فهنا استحقاق عذاب الاستئصال دون إبقاء لأي مجال، ولكن الله بمهلهم- مع الوصف- حتى حين:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣).

ففي خضم خماسية هذه الآيات المفصلات خماسيتهن استئصالا لعلواتهم أمامها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٥

حتى تطلبوا إلى موسى أن يكشف عنهم الرجز فيؤمنوا ولكنهم ناكثون!.

و «الطوفان» من الطوف، ففعلاونه طوف بالغ لا مرد عنه، وهو يشمل طوفان الماء كما كان لقوم نوح، وطوفان الريح الشديدة الحاملة لما تحمل من غبارات وقذارات، فقد طاف بهم الطوفان فاستأصل كل رياحة عن حياتهم، وهكذا سائر الخمسة من الرجز.

و «آياتٍ مُفَصَّلَاتٍ» قد تعني إلى فصل بعضها عن بعض تفصيل كون كل وحدة منها آية مستقلة دون أن تكون لزاما من خلفية الأخرى، كما ولا صلة بين هذه الخمس في مظاهر عللها الطبيعية، ومفصلات مبيئات في الدلالة على كونها آيات الله.

و من كونها مفصلات أن كلاً كانت تأتي بفصل خاص خطوة خطوة، من دان إلى عال إلى أعلى، فقد كان «الدم» أعلاها عذابا و «الطوفان» أدناها، وبينهما متوسطات، كما هي طبيعة الحال في البلوى ليدكروا بما.

و ما أنسبها خماسية العذابات هذه، خماسية اللعنات في هؤلاء الأناكاد، فالطوفان المدمر لأنهم كانوا طوفانا يدمر الحق وأهله، والجراد حيث يجرد الثمر، إذ كانوا يجردون الحياة الإنسانية عن ثمرتها السامية، والقمل حيث تمتص الدم وتؤدي صاحبه وهي تسكن مساكن

القذارات، وهم يمتصون دماء الحياة ويؤذون ذوي الحياة، والضفادع إذ ضفدعوا:

متقبضين منكمشين أمام الحق، والدم إذ كانوا دماء يسيلونها في سبيل الباطل:

«آياتٍ مُفَصَّلَاتٍ» عن السحر، مبيئات لإحقاق الحق فاستكبروا» عن الخضوع لها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٦

«وَكَاثِرًا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» يجرمون ثمرة الحياة قبل إيناعها، نكرانا لآليات على التمتعها.

هناك «أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ» وهنا «أرسلنا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ..»

تختصان هذه العذابات الست بهم دون بني إسرائيل على اختلاطهم بهم، مما يدل على أن هذه لم تكن لهم عذابا وإنما هي لهؤلاء، فقد تصدق الرواية أن القبطي كان يأخذ الماء من النيل دما أحمر له طعمه ولونه، والإسرائيلي يأخذه منه ماء فراتا له طعمه و لونه، وهكذا الطوفان والجراد والقمل والضفادع إذ لم تكن تؤذي الإسرائيليين!، وكانت تستأصل كل رياحه عن حياتهم أولئك اليومية، حتى اضطروا على فرعتهم وغرورهم أن يلتجئوا إلى موسى لما وقع عليهم ذلك الرجز العذاب الأليم «١»:

(١). نور الثقلين ٢: ٥٨ علي بن إبراهيم باسناده عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام) -/ دخل حديث بعضهم في بعض - / قالوا: لما أمنت السحرة فرجع فرعون مغلوبا و أبي هو و قومه إلا الإقامة على الكفر قال هامان لفرعون: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل فتابع الله عليهم بالآيات و أخذهم بالسنين و نقص من الثمرات ثم بعث عليهم الطوفان فخرّب دورهم و مساكنهم حتى خرجوا إلى البرية و ضربوا الخيام و امتلأت بيوت القبط ماء و لم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة و قام الماء على وجه الأرض لا يقدرّون على أن يجرثوا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا و قال هامان لفرعون: لئن خليت بني إسرائيل غلبك موسى و أزال ملكك و أنبت الله لهم في تلك السنة من الكلاء و التمر و الزرع و الثمر ما أعشبت به بلادهم و أخصبت فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا و خصبا فأنزل الله عليهم في السنة الثانية -/ أو في الشهر الثاني -/ الجراد فجردت زروعهم و أشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم و لحاهم و تأكل الأبواب و الثياب و الأمتعة و كانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل و لا يصيبهم من ذلك شيء فعبجوا و ضجوا و جزع فرعون من ذلك جزعا شديدا و قال يا موسى ادع لنا ربك أن يكف عن الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعى موسى ربه فكف عنه الجراد بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة -/ أو الشهر الثالث -/ القمل و هو الجراد الصغار لا أجنحة له و هو شر ما يكون و أحبته فأتى على زروعهم كلها و أفاها من أصلها فذهبت زروعهم و لحس الأرض -/

-/ كلها ... و أخذت أشعارهم و أبشارهم و أشفار عيونهم و حواجبهم و لزمت جلودهم كأنه الجدري عليهم و منعتهم النوم و القرار فصرخوا و صاحوا فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا القمل لأكفن عن بني إسرائيل فدعا موسى (عليه السلام) حتى ذهب القمل بعد ما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة -/ أو الشهر الرابع -/ الضفادع فكانت يكون في طعامهم و شرابهم و امتلأت منها بيوتهم و آنتهم فلا يكشف أحد ثوبا و لا إناء و لا طعاما و لا شرابا إلا وجد فيه الضفادع و كانت تنب في قدورهم فتفسد عليهم و كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع و بهم أن يتكلم فينب الضفدع في فيه و يفتح فاه لأكله فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه فلقوا منها أذى شديدا فلما رأوا ذلك بكوا و شكوا إلى موسى (عليه السلام) و قالوا: هذه المرة نتوب و لا نعود فداع الله أن يذهب عنا الضفادع فإنا نؤمن بك و نرسل معك بني إسرائيل فأخذ عهدهم و موآثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقام عليهم سبعا من السبت إلى السبت ثم نقضوا العهد و عادوا لكفرهم فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دما فكان القبطي يراه دما و الإسرائيلي يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلي كان ماء و إذا شربه القبطي كان دما و كان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك و صبّه في فيّ فكان إذا صبه في فم القبطي

تحول دما و ان فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماءها في فيه دما فمكتوا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون إلا الدم و لا يشربون إلا الدم- / قال زيد بن اسلم: الدم الذي سلط عليهم كان كالرعاف- / فأتوا موسى (عليه السلام) فقالوا: «أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا و لم يخلوا عن بني إسرائيل»

أقول: و المقبول من هذه الرواية و أمثالها ما لا تخالف القرآن و ان لمحة و إشارة، فقد كثرت الإسرائيليات في أحاديثنا لحد ما نجى أى كتاب حديث و فقه و تفسير عنها فلنتجرد لما يوحيه لنا القرآن، و لنجوده عن التفاسير التي تخالفه أم لا توافقه إذ لا تواتر لنا إسلاميا يعلو القرآن أم يساميه و يوازيه، فليطرح كل حديث يحدثنا بما لا يصدقه القرآن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٧

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٨

أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٣٥).

«الرجز» هنا هو الحياة البئيسة التعيسة النكدة النكبة من جزاء خماسية العذاب «قألوا يا موسى» وقضية الجمع أن يكون فرعون بملكه معهم «ادْعُ لَنَا رَبَّكَ» وذلك سوء أدب معه أنه تعالى فقط ربه لا ورهم «بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» من إجابة الدعاء خارقة للعادة كما عودتنا «لئن كشفت عنا الرجز - بدعاءك - لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» ودان اثنان هما العصب الحساس ضد ما تعصبوا عليه من الكفر والاستبعاد «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ» بدعاء موسى فالكاشف - إذا - هو الله دون موسى، وتلك كانت غلطة غليظة، «لَئِن كَشِفْتَ» ك «ربك»، «كَشَفْنَا ... إلى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ»، وهو المهلة التي بلغوها ولما يؤمنوا «إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ» ما عاهدوا، وهذه المهلة هي بين ما أمهلهم موسى إياها أم هم أمهلوا أنفسهم فيها، وعلى أية حال كان أجلا هم بالغوه بطبيعة الحال و قبل أن يغرقوا عن آخرهم في تقدير الله.

ذلك وقد تحتل «بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» إلى عهد إجابة الدعاء، أصل الرسالة التي هي عهد خاص من الله، والباء بين سببية ف «ادع» بسبب الرسالة التي هي أزلف الزلفى إلى الله، وقسم. ف: قسما برسالتك من الله إن كنت رسولا، كما وأن «ما» تحتل الموصوفة إلى الموصولة، فلقد كانوا يناقضون في أقوالهم بمختلف حالاتهم، فتارة ينكرون رسالته وأخرى يتعلقون بها في قضاء حاجاتهم الضرورية! فلقد كانوا يلجئون إلى موسى، يتطلبون بإصرار تحت ضغط البلية الفاضحة الفادحة، يعدونه الإيمان له وأن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها بدعائه ف «إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ»!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٦٩

ذلك، فلما انتهى أمر الابتلاء إلى ما لا منفذ فيهم بما من الذكرى فلم يبق مجال إلا استصالحهم، تطهيرا للأرض عن هؤلاء الأُنكاد البعاد:

فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦).

ذلك وليس انتقام الله منهم ومن سواهم عجزا منه وتحسرا ودفاعا عن نفسه، إنما هو إصلاح للأرض بإزالة المفسدين الذين لا يرجى منهم أي خير إذ صدوا على أنفسهم كل منافذ النور والهدى. فقد «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» كلها رسولية ورسالية، آفاقية وأنفسية «و» الحال

أهم «كأنوا عنها غافلين» عن عمد وتقصير، فالغفلة العائدة العائدة ليست بالتي يعنى عنها في شرعة العدل والحكمة، إنما هي الغفلة القاصرة على قدر القصور فيها، فهذه هي ضفة الكفر والنكران، فإلى ضفة الشكر والإيمان:

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧).

إن «كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى» شملت بني إسرائيل لإيمانهم وأنهم «الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» ثم «تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» فمثلت الإيمان المستضعف الصابر هي هندسة تمام كلمة ربك الحسنى، فلذلك أورثناهم مشارق الأرض المقدسة ومغاربها التي باركنا فيها، وفي الطرف المقابل اللإيمان الاستكبار وعدم الاضطراب «دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ» من صناعات «وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ» من بنايات وجنات معروشات.

ذلك وبركات الأرض التي باركنا- وهي مصر القدس الكبير، وهو فلسطين الكبير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٠

بما فيه سوريا والأردن ولبنان- هي من ناحيتي القدسية الروحية والمادية، فقد بعث أكثر المرسلين منها ودفنوا فيها، ثم البركات المادية هواء وماء وكلاء وسائر الإخصاب نجدها فيها أكثر من غيرها.

صحيح أن الأرض المباركة والمقدسة هنا في القرآن هي فلسطين الكبير، ولكن «أورثنا» هنا تشمل مصر حيث كان فيها فرعون وقومه، فقد سبطهم الله على مصر وما ولاها وفلسطين وما ولاها ولا سيما في زمن داود وسليمان.

و قد نحتمل قويا أن يعنى من «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَعَارِبَهَا» إلى محال وراثتهم محال استضعافهم.

إذا ف «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» في مشارق الأرض ومغاربها «أورثناهم» مشارق الأرض ومغاربها، فهم أورثوا نفس الأرض التي استضعفوا فيها وهي مصر، ولأن «الأرض» طليقة هنا من حيث الإيراث مهما كانت مختصة بمصر من حيث الاستضعاف، إذا فمحل إيراثهم أوسع من محل استضعافهم، ولكنها ليست كل الأرض لمكان «الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» فهي الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

و «كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى» هي التي قالها لهم موسى، منها: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» وقال من ذي قبل «وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَ تُمْكِنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِي فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ» (٢٨: ٦) مهما كانت الأرض هنا لأصحاب المهدي (عج) كل الأرض، ولذلك أطلقت حتى تشملها، فقد تمت هذه الكلمة الحسنى عليهم في إيراثهم بمصر أولا ثم في الأرض المقدسة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧١

التي كتب الله لهم، ولكن ليست بجدارة طليقة كيفما كان عملهم، وإنما «فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» وكان عملهم الأول كفرا وكفرانا لهذه الحسنى فقابلهم الله بمثل ما عملوا:

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨).

«وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ» وهو أليم الذي أغرق فيه آل فرعون إذ ضرب لهم موسى بأمر الله طريقا يبسا حيث انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وعلى أية حال «جاوزنا ..».

«فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ» إذ كانوا من المشركين الرسميين «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» وهم موحدون حسب الدعوة الموسوية، ولكنهم منحازون إلى المادة لحد رغبتهم في عبادة الأصنام «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» تفعلون جهالة عريقة عميقة بعد ما رأيتم آيات الله البينات لكم على قوم فرعون.

يقول بعض اليهود لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: ما دفتتم نبيكم حتى اختلفتم؟ يقول له: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلت لنيبيكم: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون! «١».

و ذلك أول ما نظر الله كيف يعملون بعد ما تمت كلمة ربك الحسنی عليهم بما صبروا، وإلى أمثاله المسرودة مفصلا في الذكر الحكيم بطيات آياتها.

(١). نصح البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و في تفسير البرهان عن محمد بن شهر آشوب أن رأس الجالوت قال لعلي (عليه السلام): لم تلبثوا بعد نبيكم إلا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف؟ فقال علي (عليه السلام): و أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلت: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٢

لقد تمت مواجهة موسى آل فرعون بما أغرقوا، فلا يواجه بعد اليوم طاغوت فرعون وملاه، ولكنه تواجهه معركة أخرى مع أقربائه بعد أغربائه هي أشد منها وأقسى وأنكى منها وأشجى وأطول أمدا، حيث يواجه بني إسرائيل برواسب الذل الذي أفسد سجيتهم من ناحية، ورواسب الوثنية التي أفسدتها من أخرى، وكذلك الالتواء والقسوة والضعف والجبن عن حمل التبعات مع الذعر الدائم والتوقع القائم للبلاء.

ذلك رغم أنهم في الأصل على دين التوحيد، ولكنهم رغم ذلك كانوا قوما ماديين يعيشون أصالة الحس والمادة دون عناية إلى ما واءها إلى التشريفيا دون أصالة، كهالة قدسية؟؟؟ تتبدل إلى حالة عقيدية راسخة، وكما هو الظاهر من التوراة المحرفة حيث حرفوا لاهوت الألوهية إلى شاكلة إنسان له ما لسائر الإنسان، ولكنه أقوى، أم وهو أضعف أحيانا من إنسان، كما في قصة فنوتيل حيث تقول صارعه يعقوب فصرعه فاقتضى منه بركة النبوة حتى يخلصه فتقبل فنجي.

و تراهم طلبوا إليه أن يجعل لهم إلهًا بديل الله هو كما الله؟ والإله المجعل لموسى ليس لإلّا من خلقه واختلاقه فكيف يكون إله العالمين!. القصد هنا هو ألوهية المعبودية تقربا بالآلهة إلى الله زلفى كما يقولها سائر المشركين: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» فأجيبوا ب «إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» المقاييس والموازن أن تعبدوا غير من خلقكم وفضلكم على العالمين!.

فعملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام منذ الآن بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزهم البحر،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٣

وهذه النفوس البئسة التعيسة ستواجه الحرية الحقبة بكل رواسب الذلة والمسكنة، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية بكل خلفياتها، بل وأنحس منها، فإن سحرة فرعون آمنوا بعد ما رأوا آية ثعبان العصا واليد البيضاء و هم لم يؤمنوا بعد ما رأوا كل الآيات الموسوية وهي بضع عشرة آية، اللهم إلا قليل منهم وفي لرعاية الحق.

و ها هم ما أن يجاوزا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، وإذا هم يطلبون طلبهم، ويغلبون أمام الأصنام غلبهم، حيث يطلبون من موسى رسول التوحيد من رب العالمين أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة .. طبيعة مخلخلة العزيمة، سريعة الهزيمة، ضعيفة الروح، قوية الشكيمة، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما ظلت ترتفع وتزيد حتى تنحط وتقل، فأين الدعوة التوحيدية الموسوية قرابة عشرين سنة أم تزيد، فقد نسوا آياته الرسولية والرسالية، وحتى التي أنتجتهم في اللحظة الأخيرة إذ جاوز بهم البحر بعد ما أغرق فرعون وملأه! ولو أنهم اتخذوا لأنفسهم إلهًا لكان أقل غرابة وعتامة من أن يطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة! وما كان جوابهم المختصر عجالة إلا «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» تجهلون كافة المعالم الإنسانية والإيمانية، ف «تجهلون» من الجهالة ضد المعرفة، ومن الحماقة ضد العقل، ومن البلاهة ضد الشعور، فما ذلك التقول التعلل إلا من أحمق الحماقة وأعمق الجهالة والبلاهة إلى غير حدود!.

ذلك وحق يقال إنهم أحمق وأعمق جهالة من آل فرعون المشركين إذ صمدوا على باطلهم ولم يهتدوا ولا مرة وحدة أن يوحدوا الله، وهم أولاء

الأنكاد البعاد عشيرة التوحيد وقد عاشهم رسول التوحيد عشرين وما زاد، ومن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٤

قبل كان منهم رسل التوحيد تترى، ثم بلحظة ما عند ما نجوا، بدلا أن يشكروا الله ويوطدوا توحيدهم تطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة!.

و لقد استحقوا بذلك التطلب الهراء الخواء ثالثا من «تَجْهَلُونَ» - إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ ... أَعْبَرِ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إلهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» وقد حفل سلبا لألوهة غير الله بالأولين وإثباتا لألوهة الله بالآخرين: إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩).

جملة معترضة اعترضت بين قالي موسى لهم، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون، ف: يا بني إسرائيل «إن هؤلاء» الفرعونيين وسائر الوثنيين «متبرّ» منقطع «ما هُمْ فِيهِ» من عبادة آلهة دون الله «وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

و ما كل من يسمع إلى هذه القصة «إن هؤلاء» من بني إسرائيل ...

فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف.

قَالَ أَعْبَرِ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إلهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أُنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١).

فيا سبحان الله قوم أنجاهم الله من عبودية الطاغية، وجاوز بهم البحر وأهلك عدوهم وأراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل! ولقد جاء من نظراءهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث

«خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل حنين فمررنا بسدة فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٥

اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدره ويعكفون حولها- وكانت تعبد من دون الله- فقال النبي صلى الله عليه وآله: الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم» «١».

فيا أغبياء! «أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا» لكم «و هو» الذي «فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» بمكرمات «و» اذكر منها «إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ... وَ فِي ذَلِكَ» السوم من العذاب «بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» حيث ابتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفي طه مثلها باختلاف يسير في التعبير، وبينهما بعض الميزات الخاصة بكل فصلنا التي ل «طه» فيها، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها.
وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَمْتَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢).

(١). الدر المنثور ٣: ١١٤ عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا ..

وفيه أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده قال: غزونا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عام الفتح و نحن ألف و نيف ففتح الله له مكة و حيننا حتى إذا كنا بين حنين و الطائف أرض شجرة دنوا عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط و كانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) صرف عنها في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): إنها السنن قلت، و الذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٦

هنا عديد المواعدة مذكور دون «طه»: «وَ وَاَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ» (٢٠: ٨٠) و لكنها في البقرة: «وَ إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ» (٢: ٥١).

ف «أربعين» هناك هي مجموع المواعدتين المتصلتين، و «ثلاثين» هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث «و أتمناها بعشر فتم ميقات

ربه أربعين ليلة» «١» ف «ثلاثين» هي في صبغة التعبير كانت امتحانا لبني إسرائيل دون أن يعلموا «وَ أَمْتَمْنَاهَا بِعَشْرِ» ابتلاء بهذه المتمة هل هم بعد على انحرافهم الشركي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، ولكنهم ضلوا إلا قليل بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين «٢» وعجل السامري: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (٢٠: ٨٥).

(١)

. نور الثقلين ٢: ٦١ عن أبي جعفر الباقر (عليهما السلام) أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوما ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشرا و ليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذب الوقاتون كذب الوقاتون أن موسى (عليه السلام) لما خرج وافدا إلى ربه واعددهم ثلاثين يوما فلما زاده الله على الثلاثين عشرا قال قومه: قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، و إذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله توجروا مرتين.

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن موسى (عليه السلام) لما خرج وافدا إلى ربه واعداهم ثلاثين يوما فلما زاد له على الثلاثين عشرا قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا

(٢). ثلاثون يوما لقول الله عزّ وجلّ: «وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» و مثله في الكافي عنه (عليه السلام).

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تفتري على المعصومين (عليهم السلام)!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٧

و ترى لا يستدل بظاهر العدد- إذا- على ألا يعني أزيد منه كما لا يعني الأنقص؟

إن الأنقص هو خلاف النص، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو- إذا- مصرح الحصر، كأن تسأل ما عندك من الدراهم؟ فتقول:

عندي عشرة، فإنها- إذا- نص في العدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص، وأخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندي عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، وهكذا يعني قول الله:

«وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَآمَنَّا بِعَشْرٍ» فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، و مهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى- كما هنا-

لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضا على إيجابها، فلنسكت عما واء العدد إيجابا وسلبا، مهما يلمح بالسلب لما واهه.

و هنا «ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» دورها دور السكوت عما واهها، فإذا تأخر موسى الرسول كان ذلك دليلا على ود آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، ولا فرق- إذا- بين «آمَنَّا بِعَشْرٍ» بعد «ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» دون فصل بطرح الوحي، وبين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، والوحي الثاني بحمله لموسى نفسه.

ذلك، وحتى إذا كان العدد نصا في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذب هذا الآخر فإن للنسخ مجالا وسعا حين تتأكد من النص الثاني، فضلا عما هنا حيث العدد ليس نصا في الحصر ولا ظاهرا بينا، وإنما له لحة الظهور.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٨

و كضابطة في الأعداد وسائر القيود هي بين حالات ثلاث: ١ أن تدل قرائن على الحصر ٢ أم على سلبه، ٣ أم لا دلالة على الحصر إيجابيا ولا سلبيا، وهنا «وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» من القبيل الثالث، مهما كان ظاهرا طهورا ما في الحصر، احتمالا راجحا لحصر المواعدة في «ثلاثين» ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما «وَآمَنَّا بِعَشْرٍ» أم كذب الله وعودا بالله، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتمامه في قول الله وقول رسول الله، المبرهن على رسالته بآيات من الله، هذه الأدلة تجعل ذلك الاحتمال احتمالا وفي بوتقة النسيان، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالا لفرية الكذب في الساحة الربانية والرسالية.

ذلك، فالقول: إن إثبات الشيء لا ينفي ما عده لا يصح إلا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تخلق على كل إثبات انه لا ينفي ما عده، إنما هو الإثبات غير الحاصر حدّه بعده أو مدّه. ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم، ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، وإلا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة وحدة هي «أربعون ليلة».

إذا ف «أَتَمَّتْهَا بِعَشْرٍ» بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللهم إلا بتأويل أن الله واعدته الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بما ابتلاء لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيقي بالتصديق، وهم مكذوبوه، فهي - إذا - من بلية الشر جزاء واقا، وعدلا بما أوتوا من تلکم البراهين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٧٩

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه:

«واعدناكم» و «وَ مَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثْرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» فقد كانت المواعدة الأصلية هي ثلاثين ليلة ثم «وَ أَتَمَّتْهَا بِعَشْرٍ» إتماما للعدة المعنية بذلك العدد المبارك وعشر ذي الحجة. ذلك وللأربعين عديدا ومعدودا منزلتها في مختلف الحقول تكوينا وتشريعا ف «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوما إلا زهده الله في الدنيا وبصره داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه...».

و هي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة- حيث اتفقت هكذا حين المواعدة- وعشر من ذي الحجة، وما يروى سنادا إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوما «١» هي خلاف الواقع المكرور، كما وأن «ثلاثين»

(١). أربعين حديثا يعم القرآن و السنة، بل و القرآن أخرى أن يكون حديثا: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ- / اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ثم و لا يعني «حفظ» فقط حفظا عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلما و تحلقا و تعليما و تطبيقا في الأصول الثلاثة و في الفروع. عشرة في الفروع العشرة، و ثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفظ كثير و لكننا الرعاة قليل. وقد يروى «من بلغ أربعين و لم يتعص فقد عصي» فقد تعنى مثلث العصي لهندسة كمال الإنسان و هي عصي الفطرة و العقلية و الشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين الله سليما صالحا.

ذلك و قد ورد «على أمي» بديلا عن «من أمي» كما في البحار ٢: ١٥٦ ح ٨ وفي العيون ٢: ٣٧ ح ٩٩ عن الرضا (عليه السلام) و ابن زهرة في الأربعين ٣٩ بالطريق الأول من السند رقم ٤٠ و رواه الشهيد الأول في مقدمة أربعين بالإسناد رقم ٦٤ و أخرجه كنز العمال ١٠: ٤٢٥ ح ٢٩١٨٥- / أخرجه ابن الجوزي بلفظه عن علي (عليه السلام) و الدار قطني في العلل عن ابن عباس بلفظ «من حفظ على أمي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله فقيها عالما»، و أخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه و ابن عدي و ابن عساكر من طرق عن أبي هريرة و ابن الجوزي أيضا عن أنس و أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعا، و ذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصارا و كما يناسب موسوعتنا التفسيرية.

و مما يشهد على أن الحفظ لا يعني- / فقط- / حفظا عن ظهر الغيب، بل هو الحفظ لأربعين على العامة في أمر الدين فرديا و جماعيا، كنماذج من أصول الدين و فروعه، ما

رواه في الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي (عليهم السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) و كان فيما أوصى به أن قال له يا علي! من حفظ من أمي أربعين حديثا يطلب بذلك وجه الله عزّ و جلّ و الدار الآخرة حشرة الله يوم القيامة مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا. فقال علي (عليه السلام) يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أخبرني ما هذه الأحاديث؟ فقال: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، و تعبد و لا تعبد غيره، و تقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، و لا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة

غضب الله عزّ وجلّ، و تؤدّي الزكاة، و تصوم شهر رمضان، و تحج البيت إذا كان لك مال و كنت مستطيعا و أن لا تعق و الديك، و لا تأكل مال اليتيم ظلما، و لا تأكل الربا، و لا تشرب الخمر و لا شيئا من الأشربة المسكرة، و لا تزني، و لا تلوط، و لا تمشي بالنميمة، و لا تحلف بالله كاذبا، و لا تسرق، و لا تشهد شهادة الزور لأحد قريبا كان أو بعيدا، و أن تقبل الحق ممن جاء به صغيرا كان أو كبيرا، و أن لا تركز إلى ظالم و إن كان حميما قريبا، و أن لا تعمل بالهوى، و لا تقذف المحضة، و لا ترائي- / فإن أيسر الرياء شرك بالله عزّ وجلّ، و أن لا تقول لقصير يا قصير، و لا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه، و ان لا تسخر من أحد من خلق الله، و أن تصبر على البلاء و المصيبة، و أن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، و أن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه، و ان لا تقنط من رحمة الله، و أن تتوب إلى الله عزّ وجلّ من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، و أن لا تصر على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئين بالله و آياته و رسله، و أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، و أن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، و أن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية و الآخرة باقية، و أن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، و ان تكون سريرتك كعلانيتك، و أن لا تكون علانيتك و سريرتك قبيحة، فان فعلت ذلك كنت من المنافقين، و أن لا تكذب و لا تخالط الكذابين، و أن لا تعضب إذا سمعت حقا، و أن تؤدب نفسك و أهلك و ولدك و جيرانك على حسب الطاقة، و أن تعمل بما علمت، و لا تعاملن أحدا من خلق الله عزّ وجلّ إلا بالحق، و أن تكون سهلا للقریب و البعيد، و أن لا تكون جبارا عنيدا، و أن تكثر من التسييح و التهليل و الدعاء و ذكر الموت و ما بعده من القيامة و الجنة و النار، و أن تكثر من قراءة القرآن، و تعمل بما فيه، و أن تستغنم البر و الكرامة بالمؤمنين و المؤمنات، و أن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين، و أن لا تمل من فعل الخير، و لا تنقل على أحد، و أن لا تمن على أحد إذا أنعمت عليه، و أن تكون الدنيا عندك سجنا حتى يجعل الله لك جنة- / فهذه أربعون حديثا من استقام و حفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله، و كان من أفضل الناس و أحبهم إلى الله عزّ وجلّ بعد النبيين و الصديقين، و حشرة الله يوم القيامة مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا.

وفي الخصال عنه (صلى الله عليه و آله و سلم): «من حفظ من أمتي أربعين حديثا من السنة كنت له شفيعا يوم القيامة» أقول: و أفضل السنة هو القرآن، أصلا لسائر السنة.

وفي صحيفة الرضا (عليه السلام) عن آباءه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «من حفظ على أمتي أربعين حديثا ينتفعون بها بعنه الله تعالى يوم القيامة فقيها عالما» (العوالم ٢- / ٣: ٤٤٥- / ٤٤٨)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨١

في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن!.

و إنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهارا» أو «أياما» ل «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلاً» (٦: ٧٣) فإن فيه اجتماعا للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار.

و يا للأربعين من موقف مشرف تكويننا وتشريعنا، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوما، ثم وفي التشريع قد ابتعث النبي صلى الله عليه و آله في الأربعين من عمره، وهكذا- كما يروى- سائر النبيين عليهم السلام

«و ليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين» أي في صورة من له أربعون، ومن شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً» و «من قرأ الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه الله» وإن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عز وجل إلى ملكيه اني قد عمرت عبدي عمرا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٢

فغظا وشددا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره» وإذا بلغ العبد ثلاثا وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزح..» و «و أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده» وإذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وهه وقال: بأبي وه لا يفلح» ومن حفظ من أمتي أربعين حديثا مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما» «١»
و قد «بكى آدم أربعين صباحا على الجنة» و «أنصب الماء زمن نوح من السماء أربعين صباحا» و احتبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه و آله أربعين يوماً» «و اعتزل صلى الله عليه و آله عن خديجة أربعين صباحا لحملها بفاطمة عليها السلام وولادتها إياها» «و تاه قوم موسى في التيه أربعين سنة» «و أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى» وذا مات المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلا من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيرا وأنت أعلم به منا، قال الله تبارك وتعالى: «قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون» «٢».

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٥ الى ١٤٥]

وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَفْوَةً وَ أَمْرًا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِبْكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ

(١).

(٢). هذه كلها مروية عن الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) و عترته (عليهم السلام) كما في سفينة البحار ١: ٥٠٤- / ٥٠٥

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٣

يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَيْبِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْيَبِهِمْ عَجَلًا حَسَدًا لَهُ خَوَازِ أَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يُعْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَابِ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَمْتَلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا مِمَّا عَصَبَتْ مِنْ رَحْمَةٍ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْعَصْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِ وَ فِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنِّي أَ أَتْلُكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا

فَتَشْتَكُ تَضَلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَ لِيُنَا فَاعْفُرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عِدَايَ أُصِيبَ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٤

(١٥٦) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤).

هنا طمأنة لخاطر موسى المحروم عن الرؤية القممة المعرفية ب «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ» لا على المرسلين ككل «برسالاتي» التي تحملها إلى الناس «و بكلامي» إياك، وذلك حدك الذي حددته لك «فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ» دون ما ليس لك «وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» ما آتيتك من الرزق المقسوم، فلا تحزن ولا يضق صدرك بحرمانك عن تلك الرؤية القممة، واكتف بما أعطيت، وكن من الشاكرين الله عليه. «اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ..» ل «إني قلبت عبادي ظهرا لبطن فلم أجد فيهم أحدا أذل لي نفسا منك ..» «١».

و الاصطفاء هو استخلاص الصفة الصالحة بين الناس ومن أشبه، وهكذا يكون كل رسل الله أنهم مصطفون على كل الناس الذين هم أرسلوا إليهم، من مرسلين ككل

(١). نور الثقلين ٢: ٦٧ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أوحى الله عزّ و جلّ إلى موسى (عليه السلام) أن يا موسى أتدري لما اصطفتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب و لم ذاك؟ قال: فأوحى الله تبارك و تعالى إليه يا موسى ... يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب- / أو قال- / على الأرض، وفيه عن علل الشرايع باسناده إلى محمد بن سنان عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن موسى (عليه السلام) احتبس عنه الوحي أربعين أو ثلاثين صباحا، قال: فصعد على جبل بالشام يقال له: أريحا فقال: يا رب إن كنت حبست- / عني وحيك و كلامك لذنوب بني إسرائيل فغفرانك القديم، قال: فأوحى الله عزّ و جلّ إليه: يا موسى بن عمران أتدري لما اصطفتك لوحيا و لكلامي دون خلقي؟ فقال: لا علم لي يا رب، فقال: يا موسى اني اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشد تواضعا لي منك فمن ثم خصصتك بوحي و كلامي من بين خلقي قال: و كان موسى (عليه السلام) إذا صلى لم يتنفل حتى يلصق خده الأيمن بالأرض و الأيسر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٥

مثل خاتم النبيين صلى الله عليه و آله أم نبيين إسرائيليين ومن سواهم من المكلفين أجمعين كموسى عليه السلام.

وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥).

«الألواح» هنا هي ألواح التوراة، ثم «و كتبنا» هي كتابة ربانية كما الكلام رباني، فلم يكن هنا وهناك ويط غير رباني في الكتابة والكلام، فقد «كلمه ربه» وكتب «في الألواح» وفيه «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» تحتاجه الأمة التوراتية من شرعة «موعظة» هي جانب العظة التوراتية «وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» من الأحكام وسائر المعارف الربانية لدور الشرعة التوراتية «فخذها» ما كتبناها «بقوة» إيمانية رسولية ورسالية علمية وعقيدية وعملية «وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا» وكلها الحسنى لردح الزمن الرسالي التوراتي «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» هنا ويوم الدين، والفاسقون هنا هم المتخلفون عن التوراة، المستكبرون أمامها، وترى كيف «يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا»؟ وهي كلها الحسنى!.

هنا «أحسنها» قد تعني أحسن قوة، أن خذوها بأحسن قوة فإنها أقرب مرجعا وأصلح معنى، وهنا «أحسنها» دون موسى فإنها له «بقوة» فإن قواهم كانت مادية ناحية منحى الشهوات، وأما موسى ف «بقوة» رسولية ورسالية عاصمة عن كل زلة وعلة. أم تعني أحسن أخذة، دون أن يأخذوها علميا ويتركوها بغيره، أم يأخذوها عقيديا ويتركوها عمليا، فهي إذا أخذة شاملة كاملة تحلق على كل وجهات التوراة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٦

علميا وعقيديا وتطبيقيا ودعائيا.

هذا ومن «أحسنها» هو أحرها بالأخذ في دوران الأمر، ففي الواجبات أوجبها، وفي المنذوبات أندبها، ثم في المحرمات تركها لها أشدها وكذا في المرجوحات، ومن ثم فيما يتقرب به إلى الله على ضوء شرعة الله يأخذوا بأشقها فإن أفضل الأعمال أحزمها.

و باحتمال خامس القصد من أحسنها كلها، لأن كلها هي الحسنى فهي من إضافة الشيء إلى نفسه، فموعظة التوراة وتفصيلها لكل شيء، هما أحسن مما في سواها من كتابات الوحي على مدار الرسالات حتى اختتام شرعة التوراة.

ثم الأحسن المطلق هو وحي القرآن: «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (٣٩: ٥٥).

و من الفوارق بين التوراة والقرآن أن التوراة «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ»: بعضها منهما، و القرآن «تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ» كما أن رسول القرآن هو شهيد الشهداء رسوليا ورساليا: «وَ يَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بَشِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ» (١٦: ٨٩) ف «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا» (١٧: ٩) و كما يذكر بعد التوراة و الإنجيل مهيمننا عليها: «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٧

وَ مُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ» «١».

ثم اللوح هو صحيفة معدة لأن يكتب فيها، لائحة ظاهرة لمن يقرؤها، من لاح البرق إذا لمع، إذا فألوح الألواح هنا هو لوح قلب موسى عليه السلام له و لمن يقرء الرسالة التوراتية من قاله وحاله وأعماله، ثم هو لوح التوراة حيث كتبه الله بيده، ومن ثم ألواح صدور وقلوب المؤمنين بها، وألواح قالاتهم وفعالهم، فالكتابة هنا- إذا- تعم أصلها من الله، وفصلها من أهل الله رسلا ومرسلا إليهم.

ذلك، وأما ما هي نوعية الألواح المكتوب فيها التوراة؟ فقد أجمل عنها القرآن، فلا علينا أن نعرف ماهية؟ بعد ما نعرف التوراة التي هي الأصل فيها، وقد ودت فيها آثار مستغربة وأخرى مستغربة إلى التصديق «٢».

ثم «دَارَ الْفَاسِقِينَ» الموعودة إراءته لهم قد تعني إلى دور الفسوق هنا «٣» والدار

(١). نور الثقلين ٢: ٦٨ في كتاب الاحتجاج عن عبد الله بن الوليد السمان قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما يقول الناس في أولي العزم و صاحبكم أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ قال قلت: ما يقدمون على أولي العزم أحدا، قال فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إن الله تبارك و تعالى قال لموسى (عليه السلام): و كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة .. و لم يقل: كل شيء، و قال لعيسى (عليه السلام): و لأبين لكم بعض الذين تختلفون فيه و لم يقل: كل شيء و قال لصاحبكم أمير المؤمنين (عليه السلام): قل

كفى بالله شهيدا بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب و قال الله عزّ و جلّ: «و لا رَظِبٍ و لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» و علم الكتاب عنده

(٢). كما في الدر المثور ٣: ١٣٠- / أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي

(صلى الله عليه و آله و سلم) قال: الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعا

(٣). نور الثقلين ٢: ٧٠ في تفسير العياشي عن محمد بن سابق بن طلحة الأنصاري قال: كان ماقال هارون لأبي الحسن موسى

(عليه السلام) حين دخل عليه: ما هذه الدار؟ قال: هذه دار الفاسقين، قال: و قرأ هذه الآية، فقال له هارون: فدار من هي؟ قال:

هي لشيعتنا قرة و لغيرهم فتنة قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟ قال: أخذت منهم عامرة و لا يأخذها إلا معمورة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٨

الدنيا لأهلها الفسقة و في الأخرى، تعني الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وقد كانت دار الفاسقين من العمالقة المشركين.

ذلك، و في نظرة أخرى إلى الآية «مَنْ كُفِّرْ شَيْءٌ» لا تعني «كل شيء» على الإطلاق، و لا كل شيء من دين الله الموزع على الشرائع

الخمسة، بل هو «مَنْ كُفِّرْ شَيْءٌ» تصلح للشرعة التوراتية لزمناها، ف «كل شيء» في حقل شرعة الله تعني الدين كله، و «من» هنا

تعني بعضا منه يختص بالدور التوراتي و كما تعنيه «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِينا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّينا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ

مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..» (١٣: ٤٢).

ثم «موعظة» تليينا لهم بعد بالغ الحجة التي تحويها هذه الألواح، و من ثم «تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» تخص الشرعة التوراتية، دون كل شيء

كما القرآن، المهيم على ما بين يديه من كتاب، الحاوي لزيادة عليه يحتاجها المكلفون إلى يوم الدين.

«فَحَذُّهَا بِقُوَّةٍ» في بعدي العصمة البشرية التي حصلت عليها قبل العصمة الرسالية، وهذه العصمة الرسالية، تكريسا لكل قواتك

لأخذ الألواح علميا و عقيديا و عمليا رسوليا و رساليا.

«وَ أَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا» وهنا مفعول «يأخذوا» محذوف معروف من ذي قبل وهو الألواح، فالباء في «بأحسنها» لا تعني

التعدية، فهي في مثلث العناية:

ابتداء و مصاحبة و سببية، أن يكون بازغ أمرهم «أحسنها» مصاحبين إياه و متسببين به إلى كل خير.

و «أحسنها» كما أسلفناه هو أحسن أخذة و أحسن قوة، و أحسن نفسية و نفاسة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٨٩

حيث الألواح كلها أحسن، ثم و أحسن عند دوران الأمر بين المهم و الأهم فيها، أم و الأخذ بالأحسن هو أقل تقدير في تلك الأخذة

بالقوة، دون و خزة.

فيقرب خماسية بأحسنها في مثلث معاني الباء تصبغ المحتملات خمسة عشر احتمالا: أخذا بأحسن أخذة ابتداء و مصاحبة و سببية،

و بأحسن قوة كأخذة، و بأحسنها ككل، ابتداء بالكل و مصاحبة للكل و تسببا بالكل، و بأحسنها عند دوران الأمر، ابتداء به و مصاحبة

و تسببا، و بأحسنها نسبيا.

و المحتملات الخمسة عشر كلها صالحة للعناية من «بأحسنها» أدبيا و معنويا.

و إذا كان الأخذ بأحسنها فريضة توراتية، فبأحرى الفريضة القرآنية، يجب أخذها بأحسن أخذة و أحسن قوة و سائر الأحسن دون

أي فتور.

استقطابا وتكريسا لكافة الطاقات الحاضرة والمستحصلة لتحقيق حقيق بالقرآن بكل حقوله الدراسية والعقيدية والعملية والدعائية. و أين هذا مما تعيشه الحوزات الإسلامية من رفض القرآن، مهما خيل إليها أنه أول الأدلة الشرعية، ولكنك لا تجده ودا صالحا في العلوم الحوزوية عن بكرتها!.

و هنا «سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» - وهي الجحيم بدركاتهما - تهديد مديد بمؤلاء الذين لا يأخذونها بأحسنها، تركا لأية أخذة بأية قوة، أم أخذة بوخزة.

و من المسائل المستفادة هنا أن الأمر هو برهان الفرض، فإن تاركي هذه الأخذة التوراتية مهددون بدار الفاسقين، الذين يفسقون عن أمر الله بلسان رسوله، وأن الأمر بالأمر كما الأمر من أدلة الفرض.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا آيَةً لَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٠

يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦).

«سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي» كلها، رسولية ورسالية، تكوينية وتشريعية، صرفا عن نقضها أو النقص منها، وصرفا عن الإيمان بها قضية استكبارهم في الأرض بغير الحق.

فهنا صرف عن آيات الله حفاظا عليها من دوائر المتكبرين، وصرف عنها ألا يؤمنوا بها حيث عاشوا تكذيبها والتغافل عنها، جزاء واقا.

فالمتكبر في الأرض بغير الحق - وكل تكبر في الأرض هو بغير الحق وليس التكبر مع المتكبر تكبرا في الأرض بل هو خاص بحقله الخاص - هو مصروف عن آيات الله، ومن منتجات ثاني الصرفين - الذي هو من منتجات «بَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» بعد تكبرهم في الأرض وقضيته - إن منها «وَ إِنْ يَرَوْا كُفْلًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا» كراس الزاوية من ثالث منتجاتهم «وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» رغم رؤيتهم «إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» جبلة تنجح عن سبيل الرشد حيثما رآته، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها.

إذا فهي جبلة الغي والضلال إذ هي تعاكس الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١٠٤ : ١٠٨).

فهنا سببان اثنان تلو بعض، ونتيجة بعضها البعض، هما «يتكبرون - كذبوا ..» وهما الموجبان لصرْفهم عن آيات الله، ولثاني الصرفين ثالث «لا يؤمنوا بها - لا يتخذوه -

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩١

يتخذوه».

هذا، وذلك تهديد شديد مديد بما يحاوله المتكبرون من نقض القرآن ونقصه أو نقده، ولحد الآن ما استطاعوا على شيء من ذلك ولن، وكذلك يهددون أن يصرفوا عن تفهم القرآن كما يحق نتيجة تكذيبهم به، فهم في ريبهم يترددون.

ذلك وهنا لك صروف أخرى «عن آياتي» أن يصبحوا فاضي الأيدي والأبصار عن آيات الله البيّنات بكل حصائلها ووسائلها، صرفا عن بيناتها، وزياداتها، ونقضها، والنقص فيها، والصد عنها، ثم واجتياحهم واصطلامهم صدا عن كل ما يريدون من دوائر السوء بها، فتصبح الآيات النافعة لمن يبصرون إليها وبها، اليافعة لهما في الأولى والأخرى، تصبح لهم ضارة فيهما.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١٤٧).

أولئك «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» الصالحة عن آثارها الأخروية مهما كانوا موحدين فضلا عن المشركين والملحدّين حيث الحبط في مقام العقوبة ليس إلّا في حقل الحسنات، فتتمحض الأعمال في السيئات، وأصل الحبط من قولهم: حبطت الناقة إذا رعت نباتا سائما فانتفخ بطنها ثم نفقت، فهؤلاء الأنكاد يتنفخون ويتنفجون بمظاهر من زخرفات الحياة، فيحسبهم الجاهل على شيء من القوة والمكانة، ثم ينفقون كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام، فالتكذيب بآيات الله يعم مثلث التخلف في حقل الإلحاد ١ تكذيبا بالله، ٢ والإشراك تكذيبا بتوحيد الله، ٣ والتوحيد تكذيبا بشرعة الله المحكّمة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٢

ثم «وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ» تكذيبا لأصل لقاءها، أم حق لقاءها إلى باطله كمن يخيل إليهم أن الله لا يحاسب عباده يوم لقاءها أم يعفو عنهم جميعا، أما إذا من الضلال تصورا خاطئا عن لقاء الآخرة.

«هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فإن حبط أعمالهم في الأخرى هو نفسه حبطها في الأولى، لخبطها بفراغها عن الإيمان الصالح، إذا فالجزء هو نفس العمل دون مغايرة بينهما أو زيادة، وهذه الضابطة برهان لا مردّ له على أن لا جزاء بمجرد النية في حقل العقوبة، مهما كان الجزاء بصالح النية، فإنه قضية فضله تعالى، وذاك قضية عدله، فلا جزاء في قسطاس العدل لمجرد النية الطالحة إلّا بمجرد النية الطالحة دون أية عملية عقوبية، فالقصد من العمل هو الحالة الفعلية من قالة أو عقيدة أو عملية، وليست النية بالنسبة لها إلّا حالة شأنية، إذا فقضية العدل هي فعلية بفعلية وشأنية بشأنية، اللهم إلا في نية الخير فإن فعلية الثواب لها هي من قضايا فضله تعالى.

أجل، قد يصح القول إن نية السوء محرمة فيما إذا أدت إلى فعل السوء لأنّها - إذا - من الإثم - وهو كل ما يبطل عن الثواب -، ولكن الجزاء هنا يختص بواقع السوء.

فحتى لو شملت «ما كانوا يَعْمَلُونَ» النية الطالحة ف «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» تقرر الجزاء بظهور نفس النية مظهر العذاب النفسي دون وقع له آخر خارج عن نفس النية.

فذلك الاستنكار يستنكر القول: إن المخلدين في النار مؤبدون فيها لغير نهاية مهما كانت أعمالهم محدودة، إذ كان من نيتهم السوء أن لو ظلوا أحياء لغير النهاية لاستمروا في سوء أعمالهم؟ حيث تدلنا هذه الآية وأضرابها أن لا دور للنية الطالحة في حقل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٣

العقوبة العملية قضية العدالة مهما كان للنية الصالحة دور في حقل المثوبة بفضل من الله ورحمة!.

و هنا احتمال آخر في «ما كانوا يَعْمَلُونَ» هو أن الجزاء حسنا وسيئا ليس إلّا بالعمل، فلما حبطت حسناتهم فلم تبق لهم إلا السيئات فهم - إذا - مجزيون - فقط - بسيئات حيث «قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» (٢٥ : ٢٣).

و ترى أن حصر الجزاء فيما كانوا يعملون كما ينفي العقاب عن نية السوء، كذلك ينفيه عن ترك الواجب لأنه ليس عملا، فيختص بفعل الواجب والحرام دون تركهما؟.

كلاً حيث العمل يشمل الإيجاب والسلب، فكما أن فعل الواجب عمل كذلك تركه لأنه باختيار، وهكذا فعل الحرام وتركه، فالمعنى من العمل في موقف الثواب والعقاب هو الفعل والترك، اللذان هما بالفعل فعل إذ لا يتحققان إلا باختيار الواقع فعلا وتركاً. و لو أن العمل يختص بالموجب دون المنفي فقد تكفي الآيات المهذدة لترك الواجبات والمرغبة إلى ترك المحرمات، تكفي توسعة في حقل الجزاء من العمل إلى تركه.

و بوجه ثالث قد تعني هنا «بما تعملون» فقط الحسنات بقريئة الإحباط، فالذين تحبب حسناتهم فيماذا يثابون وليست لهم حسنات، فإنما يعاقبون عقابا خالصا بعد فالس الحسنات وكالسها، بما فعلوا من عصيانات وتركوا من وجبات. وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ أَمْ يَرَوْنَهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٤

قصة العجل الجسد الذي له حوار مفصلة بخذافيرها في «طه» «١» فلا نعيدها، ولا نعيد هنا لإقصة الحلي المذكور هناك بصيغة «زينة القوم» أمّا كانت من حليهم دون حلي آل فرعون، لمكان «حليهم».

و هنا «جسدا» وفا متميزا ل «عجلا» تخرجه عن كونه حيا، فإن «عجلا» تكفي لكونه حيا، فلا دور إذا ل «جسدا» إلا تجسيد العجل الذهبي ذهبيا كما «أخرج لهم السامري» ولأن السامري لم يكن ليخرج لهم إلا ما أخرج، دون معجزة تحويله إلى عظام ولحم، فضلا عن إحياءه كسائر العجل التي يخلقها الله، فقد نتأكد بهذا أو ذاك أن العجل لم يتحول عن البنية الذهبية إلى غيرها بحياة وغير حياة، وأما «له حوار» فلأن «حوار» هو صوت العجل الحقيقي فليكن حوار الحقيقي، إلا أن «جسدا» يفصل عن ذلك.

و لأن «له حوار» دون «للسامري فيه حوار» أم يجري الريح من دبره إلى فمه حوار، لذلك فليس - إذا - حوار إلا بما أثار الله من صوت العجل الحلي في العجل الجسد، وهذه هي أقل فتنة شر لهؤلاء الأنكاد البعاد، وليعلموا من هم أولاء في حقل المعرفة الربانية، بعد تواتر الآيات البيّنات التي رأوها منذ الرسالة الموسوية.

أجل «له حوار» بما الله أثار «٢» فتنة لهم وابتلاء بما يستحقون وكما قاله موسى

(١). الفرقان ١٦: ١٦٧- / ١٨٥، فيه تفصيل مشبع عن تمام القصة بتمامها

(٢). نور الثقلين ٢: ٧٠ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال موسى: يارب و من أثار الصنم؟ فقال الله: يا موسى أنا أثارته فقال موسى: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ..» و فيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: إن فيما ناجى الله موسى (عليه السلام) ان قال: يا رب هذا السامري صنع العجل فالحوار من صنعه؟ قال: فأوحى الله إليه يا موسى ان تلك فتنة فلا تفحص عنها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٥

عليه السلام:

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ (٧: ١٥٥).

فهي - إذا - فتنة شر للشريين وكما افتتنوا بها وتبلبوا، وفتنة خير للخيرين كما نجحوا فيها حيث تبلور الإيمان ولم يتبلب، كما «و نُتْرِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَرِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً».

«أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ» ولو كان إلهاً لكلمهم ليهديهم سبيلاً «وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» فهل هو بعد إله يعبد على كونه ميتاً ليس له صوت حتى صوته، فضلاً عن صوت يهدي سبيلاً «اتخذوه» إلهاً «وَوَ كَانُوا ظَالِمِينَ» أنفسهم إذ ضلوا دونما حجة، وإنما لجأوا أوقعهم في لجة، فكانوا صراحاً، إذ لا يقبل الإشراف بالله إلا أنه ظلم غير قاصر ولا معذور، فحتى الحشرة تميز بين الفاضل والمفضول في حقل معرفتها، وهذا الإنسان الذي جعل نفسه في أسفل سافلين انقلب إلى أدنى من الحشرة حيث يترك خالق الكون أجمع ويعبد عجلاً جسداً له خواراً!.

و إنما ذكر هنا من شؤون الألوهية التكليم والهداية، دون شؤون أخرى لها كالتجرد واللامحدودية والحياة وما أشبه؟ لأن حصيلة الألوهية الصالحة للمألوهين هي التكليم بما يسعدهم، والهدى بما يتبعونه، فحتى إذا ود كائن له كافة مميزات الألوهية دون هداية فهي - إذا - ألوهية خاوية غاوية!.

لست أقول: إن كل من كلم وهدى هو إله، إنما أقول: من لا يكلم ولا يهدي ليس

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٦

إلهاً، فللألوهية مميزات أبرزها في حقل الربوبية التكليم بما يرشد ويهدي المألوهية، فالربوبية لزامها التكليم بالهدى وليس هو لزامه الربوبية لأن لها مميزات أخرى معها، كان تلون هدى طليقة لا يخلطها خطأ فضلاً عن أن تخلص في خطأ، وترى «قَوْمٌ مُوسَى» هم كلهم في اتخاذ العجل إلهاً؟ عله نعم لإطلاق القوم عليهم كلهم، وأن دعاءه اختصه وأخاه: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي!» و لكنه لا، حيث القوم لا يدل على الاستغراق، و موقف الدعاء هنا خاص بمنزلة الرسول وخليفته، ثم «مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» (٧: ١٥٩) تبعض قومه إلى صالحين مصلحين وإلى طالحين مفسدين.

وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩).

هنا لا نعرف من آية الأعراف كيف «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ» إنما هي آية طه: «وَ انظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» (٢٠: ٩٧) فقد سقط محروقا أمامهم ثم نسف في أليم نسفا، إحراقاً ونسفاً له ولضلالهم المبين ف «رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا» بأمر أعينهم حسياً، بعد ما كانوا يرونهم ضلالاً فطرياً وعقلياً وشرعياً، ولكنهم ما أمروا بضلالهم إلا على ضوء الحس وكما عبدوا العجل الجسد قضية أصالة الحس.

ذلك، وعند ضلالهم بحاضر الإحساس «قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا» فغضب علينا بما ضللنا «و» لم «يعفر لنا» خطايانا «لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» الذين خسروا أنفسهم إذ ماتوا عطاشاً يَمِّ اليم الزاخر من دلالات آيات ربنا البيئات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٧

ذلك، فقد سقط كثير من الوجوه المذكورة في المفصلات ل «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ» في أيديهم، حيث الساقط البين هنا هو العجل الذهبي الإله بزعمهم، إذ أحرق ونسف في أليم نسفاً.

و قد يعنى معه «سقط» ذلك الاتخاذ في أيديهم المحاولة لأخذه إلهاً بما بينه موسى بلسان الوحي، وبما أحرق ونسف في أليم نسفاً.

و ثالثة لما ندموا بأشده وأشده حيث يقال لمن ندم «سقط في يده» إذ نفص يده عما كان يرجوه، ففند ونفد ما كان يرجوه.

و رابعة بمعنى وقع في يده السقيط كالسقاطة والنفاية، فقد كانت ألوهة العجل سقاطة مقيّنة ونفاية منفية في كافة الموازين المعنية و لكنها لما سقطت في أيديهم بحقل الإحساس حين أحرق ونسف رأوا أنهم قد ضلوا. وعلى أية حال «سقط» العجل «في أيديهم» حرقاً ونسفاً أمامهم، فسقط ما بأيديهم من زعم ألوهته ورأوا أنهم قد ضلوا.

أجل، هذا العجل الذهبي الذي عبده لأنه له خوار ومن الذهب الذي هو معبود إسرائيل على طول الخط، هذا العجل سقط في أيديهم فسقط ما اتخذوه إلها عن ألوهته أمامهم.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَزْعِفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠).

«.. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٨

غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَمْ يُعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» (٢٠: ١٨٦).

«رجع غضبان» على ما حصل «أسفا» لماذا حصل؟ أم وأسفا مما عنهم أعجل «قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» من الخلف دون الخلف حيث الخلف هو الخلف المخالفة أن يجعل خلفه أمامه: وخلفتهم إياي إذ أخلفتهم موعدي فما تبعتموني إلى الطور، ثم لما ظلمتكم في خلفكم ضللتكم بخلفي في شرعة التوحيد، خلفا في تخلفين إثنيين ثانيهما أخلف، ولماذا أخلفتكموني هكذا؟.

«أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» من وده الذي. ودكم من إنزال التوراة بمواعدة الثلاثين المتممة بعشرة، ومن ويده «أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»؟ وهما ينتظمان هكذا في «أَمْرَ رَبِّكُمْ».

«وَ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ» بما ألغوها فيما خلفوا من بعده وخالفوه، وقضية الغضب والأسف على ما حصل، حيث القصد منها هداهم وهم قد عبدوا العجل الجسد!

«وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» غضبان أسفا من خلفية هذه الخلافة «مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» «قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» (٢٠: ٩٤).

«قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَزْعِفُونِي» بكثرهم وقتلي «وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي» لما ذا أمنعهم ولا أتبعهم فيما ضلوا وظلوا عليه عاكفين «فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ» الذين «اسْتَزْعِفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي» أن يروني مذلا بين يديك «وَ لَا تَجْعَلَنِي» في ذلك التأنيب الشديد «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٩٩

هنا «ابن أم» وقد كانت «أماه» لمكان الفتح، وليستجيش في نفس موسى الغضبان الأسف عاطفة الأخوة الرحيمة من ناحية الأم الخنونة- مهما كان هناك ولد «١» وحد أم اثنان «٢» فهذا النداء الرقيق الرفيق، وتلك الوشيجة الرحيمة الحميمة يريد التخفيف عن هياجه واندفاعه أمام ذلك الواقع الجلل المرير.

فلقد تحدرت أعصاب موسى عليه السلام بهذه الجيفة الفجيعة إذ رأى تحدرت كل دعواته الرسالية في قومه، فلم يتمالك نفسه، إلا أن يفعل ما فعل، وهو قضية الموقف المختار، وعله هكذا فعل بأخيه المختار من باب إياك أعني واسمعي يا جاري، أنه إذا كان دوره مع خليفته المعصوم العزيز الحفيظ هكذا، فما هو دوره- إذا- مع هؤلاء الذين ضلوا واستضعفوه وكادوا يقتلونه، تعبيدا لجو التأنيب الشديد بهم وأمرهم بالإمر أن «اقتلوا أنفسكم..».

ذلك، وليعلموا أن شرعة العدل لا تعرف قرابة وآصرة لإقراة الإيمان وآصرته،

(١). في خطبة الوسيلة لعلّي (عليه السلام): كان هارون أخاه لأبيه و أمه
 (٢). نور الثقلين ٢: ٧٢ في العلل باسناده إلى علي بن سالم أخبرني عن هارون لم قال لموسى: يا ابن أم..؟ و لم يقل: يا ابن أبي؟
 فقال (عليه السلام): ان العداوات بين الأخوة أكثرها يكون إذا كانوا بني علات و متى كانوا بني أم قلت العداوة بينهم إلا أن ينزغ
 الشيطان بينهم فيطيعوه فقال هارون لأخيه موسى (عليهما السلام) يا أخي الذي ولدته أُمّي و لم تلدني غير أمه لا تأخذ بلحيتي و لا
 برأسي و لم يقل يا ابن أبي لأن بني الأب إذا كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلا من عصمة الله منهم و إنما تستبعد العداوة
 بين بني أم واحدة، قال قلت له: فلم أخذ برأس أخيه يجره إليه و بلحيتته و لم يكن في اتخاذهم العجل و عبادته له ذنب؟ فقال: إنما
 فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك و لم يلحق بموسى و كان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب ألا ترى أنه قال لهارون: «ما مَنَعَكَ إِذْ
 رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقوا بي حشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم ترفب
 قولي»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٠

و حين يؤتب أخاه البريء هكذا فما ذا هو فاعل بهم وهم خونة مجرمون؟.

ذلك وقد يعني من أخذه رأس أخيه يجره إليه مع ذلك التخفيف عن غضب أخيه والتحبب إليه، ولذا «بِحُرَّةِ إِلَيْهِ» دون أن «يبعده عنه»
 فلذلك الجر معنيان اثنان، تأنيب من باب «إياك أعني واسمعي يا جاره» وتجبب أنه- فقط- «إليه» في هذه المعركة الصاخبة، فقد
 هدّموا بعبادتهم العجل الثقلين، وعلّ من غايات ذلك الإلقاء والأخذ هو بيان ذلك التهدير الحذير.

و قد يضرب الإنسان على و هو نفسه ورأسه و بعض على يديه عند الغضب والأسف وليس له ذنب فيما حصل، وهكذا فعل موسى
 بأخيه اعتبارا له أنه نفسه تحسرا و غضبا على ما حصل، ولكنه على أية حال لا يخلو من تأنيب بهارون كما يعرف من جوابه.
 ذلك وقد يوجه ما فعل موسى عليه السلام بالثقلين: الألواح وأخيه، بأنه رأى أنهما ألغيا في رأس الزاوية لهما وهو التوحيد، فألقاهما
 تأشيراً أنهما ألغوهما، ثم أخذ الألواح واستغفر لنفسه ولأخيه إعادة لكيانهما استمرارا للدعوة التوحيدية في قومه «١» ذلك، وهذه
 المواجهة المرة في ظاهر الحال مع هارون

عليه السلام) كانت: ١ أن ملكه الغضب إذ رأى أن رسالته كلّها تهدرت في تلك الفترة الفتيرة القصيرة وفيهم هارون أخوه و خليفته! ٢
 وأن هذه بعناية قاصدة بإياك أعني واسمعي يا جاره لكي يعلم بنو إسرائيل ماذا عليهم من عقوبات بفعلتهم القاصدة

(١). تجمّد التفصيل على ضوء الآيات في طه من الفرقان ١٦: ١٧٣- / ١٧٨

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠١

الحمقاء العاندة، حين يواجه هارون بتلك المواجهة المرة وكما يخاطب الله محمدا صلى الله عليه و آله بخطابات قاسية تعني ما تعنيه ك:
 «لئن أشركت ليحبطن عملك»- «يا أيها النبي اتق الله و لا تطع الكافرين» «و لو لا أن تبنتناك لقد كدت تركزن إليهم شيئا قليلا» و
 ما أشبهه، و المقصود غيره، و الزاوية الثانية- وهي غير معنية- أنه هنك أخاه كأنه قصر فيما حمل من خلافته الرسالية، فأعذر نفسه من
 هذه الزاوية، لكي يعلموا أنه ليس هو المقصود بالمهانة.

ذلك، وعلى أية حال، كما ملكت النبوة موسى عليه السلام بكل كيانه وشرائحه كونه، كذلك يملكه الغضب حين يرى نبوته ودعوته الطائفة ساقطة بين يديه من هؤلاء الذين عبدوا العجل، إذا فحق له أن يلقي الألواح - دون إلغاء - وإنما إلقاء لقاء ما رأى نبهة لهم أنكم القيتموها إلقاء، وحق له أن يأخذ برأس أخيه يجره إليه - دون أن يبعده عنه - حين لا يرى حاصلًا صالحًا لكونه فيهم حيث استضعفوه وكادوا يقتلونه.

و حق لهارون أيضا أن يدافع عن نفسه تبيننا لموقفه المرير أمام ذلك الواقع الشرير.
و لما أعدر هارون نفسه من هذه المرزئة المضللة: «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي» فلم يكن لي عليهم من سلطان حتى أمنعهم عما ضلوا، بل قد أبلغت خلافتي الرسالية لمتهاها، وحتى «وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي»، عذره موسى ودعا له ولنفسه «١».
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١).

(١). نور الثقلين ٢: ٧١ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان الله تبارك و تعالى لما أخبر موسى (عليه السلام)

أن قومه اتخذوا عجلا له خوار فلم يقع منه موقع العيان فلما رأهم اشتد غضبه فألقى الألواح من يده و للرؤية فضل على الخير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٢

«اغفر لي» ما عجلت عن قومي وما صاحبتههم إلى الميعاد فحصل ما حصل، و «اغفر لي» ما فعلت بأخي حيث لم يستحق ذلك التأنيب الشديد، و اغفر «لأخي» إذ لم يستطع أن يخلني كما يجب قصورا ولا تقصيرا إذ قدم ما قدم بطوعه وقوته على ضعفه: «وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى» (٢٠: ٩٠ - ٩١) مما يلمح إلى مدى عذره بدوره خليفة الرسول بغيايه، «وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ» الخاصة بعد ما خرجنا منها فترة الابتلاء «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

فقد نرى أن هارون لم يقصر في خلافته، اللهم إلا قصورا باستضعافه وخوف قتله، إلا أن وقع الحال يتطلب تلك الظاهرة الغضبانة الأسفة من موسى عليه السلام بهارون، ورغم أنهم استضعفوه وعظهم وندد بهم: «إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ..» حتى كادوا ليقتلوه، وقتل الداعية قد يسمح له في سبيل الدعوة إن أثر في تحقيقها أم في مزيد الحجّة وإثارة الحجّة، ولكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوة لهم في خطوتهم الخاطئة هذه، إزالة لمن يصددهم عنها، وتقليلًا لساعد الداعية ومساعدته، فتعريض هارون نفسه للقتل - إذا - لم يكن إلا تعريضا للرسالة التوراتية إلى الخمول بفقد ويراها الحزير الحريز العزيز ودونما فائدة وعائدة إلا لعمق الضلال وحمقه هؤلاء الأنكاد الأوغاد.

ترى ولماذا لم يلق الألواح في الطور إذ قال له ربه «وَ أَصَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» ولم يغضب غضبه إلا هناك بعد ما رجع إلى قومه؟ لأنه لم يقع هناك موقع العيان والرؤية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٣

فضل على الخير «١» ثم وإلقاء الألواح وأخذه برأس أخيه هما ظاهرتان دعائيتان أمام القوم فلم يكن لهما موقع في الطور إلا باطن الغضب.

و فيما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «رحم الله أخي موسى عليه السلام ليس المخبر كالمعائن، لقد أخبره الله بفتنة قومه وقد علم أن ما أخبره ربه حق وأنه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه ورأهم فغضب وألقى الألواح «٢».

(١). المصدر عن المجمع روي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: .. وفي الدر المنثور ٣: ١٢٧ عن ابن عباس قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يرحم الله موسى ليس المعادين كالمخبر أخبره ربه تبارك و تعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم و عاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر، أقول: مثل هذا الإلقاء إلغاء لكتاب الله فلا يصدق على رسول الله، وإنما ألقى الألواح بكل حرمة و رعاية تدليلاً على أهم ألغوها في غيابه برأس الزاوية التوحيدية فيها.

وفي المصدر في بصائر الدرجات عن رجل عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: دخل رجل من أهل بلخ عليه فقال له: يا خوزستاني تعرف وادي كذا و كذا؟ قال: نعم قال: من ذلك الصدع يخرج الدجال قال ثم دخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: يا يمانى تعرف شعب كذا و كذا؟ قال: نعم. قال له: تعرف شجرة في الشعب من صفتها كذا و كذا؟ قال: نعم قال له تعرف صخرة تحت الشجرة؟ قال: نعم قال: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي آخر عنه (عليه السلام) قال لي أبو جعفر يا أبا الفضل تلك الصخرة التي حين غضب موسى (عليه السلام) فألقى الألواح فما ذهب من التورية التقمته الصخرة فلما بعث الله رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أدته إليه و هي عندنا.

أقول: ألم تكن تلك التي التقمته تحمل شرعة تورانية، فكيف ظلت في الصخرة فما أدته إلى موسى و لا المسيح (عليهما السلام) و هي تحمل شرعتهما، ثم أدتها إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و لا تحمل شرعته؟!!

(٢). نور الثقلين ٢: ٧٤ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه لعلي (عليه السلام): ... وفيه عن روضة الكافي خطبة لعلي (عليه السلام) و هي الخطبة الطالوتية و في آخرها: ثم خرج من المسجد فمر بصبرة فيها نحو من ثلاثين شاة فقال: و الله لو أن رجلاً ينصحون لله عزّ و جلّ و لرسوله بعدد هذه الأشياء لأزلت ابن آكلة الذباب- / جمع ذباب- / عن ملكه فلما أمسى بايعه ثلاثمائة و ستون رجلاً على الموت فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): أغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلقين و حلق أمير المؤمنين (عليه السلام) فما وافى القوم محلقاً إلا أبو ذر و المقداد و حذيفة بن اليمان و عمار بن ياسر و جاء سلمان في آخر القوم فرفع يده إلى السماء فقال: إن القوم استضعفوني كما استضعفت بنو إسرائيل هارون (عليه السلام)، وفيه عن الإحتجاج في رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي حديث طويل و فيه قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لأبي بكر و أصحابه: «أما و الله لو أن أولئك الأربعين الرجل الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتم في الله حق جهاده، أما و الله لا ينالها أحد من عقبكم إلى يوم القيامة ثم نادى قبل أن يبايع: يا ابن أم إن القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني».

وفيه باسناده إلى محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) قال: لما حج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة و بلغ من حج مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل المدينة و أهل الأطراف و الأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألفاً الذين أخذ عليهم بيعة هارون (عليه السلام) فنكثوا و اتبعوا العجل و السامري، و كذلك أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البيعة لعلي (عليه السلام) بالخلافة على عدد أصحاب موسى (عليه السلام) فنكثوا البيعة و اتبعوا العجل و السامري سنة بسنة و مثلاً يمثل ... وفيه عن العلل باسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما لأمرير المؤمنين (عليه السلام) لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك علياً (عليه السلام) فأمر أن ينادى الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله و اثني عليه ثم قال: معاشر الناس انه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين (عليه السلام) قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

اللَّهِ أَسْوَأَ حَسَنَةً» قالوا: و من هم يا أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ قال: أولهم إبراهيم (عليه السلام) -/ إلى أن قال-: / و لي بأخي هارون (عليه السلام) أسوة إذ قال لأخيه: «ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي» فان قلت: لم يستضعفوه و لم يشرفوا على قتله فقد كفرتم، و ان قلت استضعفوه و أشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي أعذر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٤

أجل فحينما يملك الغضب موسى عليه السلام لحد يلقي ألواح التوراة فهلا يأخذ- إذا- برأس أخيه، حيث يرى سحقا ومحقا للرسالة والرسول في تلك الفترة القصيرة الفتية، فأين الرسالة- إذا- وأين الرسول؟! .
فكما أن إلقاء الألواح لا يعني إهانة لها، كذلك أخذه برأس أخيه لا يعني مهانة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٥

إنما هو هو الغضب الذي لا يتمالك صاحبه نفسه فضلا عن

سواه، ولا سيما الغضب في الله حيث يراه يشرك به!، وإن كان عن غير تقصير من الداعية الرسولية، إنما ذلك لواقع الأمر الإمر. و في نظرة أخرى إلى مسرح الآيات التي تستعرض قصة موسى وهارون هنا وفي طه لا نجد أية لمحة مركزية إلى تقصير لموسى وأخيه عليهما السلام.

ففي طه «قَالَ يَا هَازِرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» (٩٣) لا يعني ذلك السؤال إلا كما يعنيه لإبراهيم: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..» (٢: ٦٠) حيث يعني معرفة الجواب من إبراهيم حتى لا يخيل إلى أحد أنه سأل لكونه لم يؤمن.

فقد يسأل موسى أخاه حتى يبين موقفه المعصوم السليم في خلافته لهؤلاء الأنكاد، ولمن قد يخيل إليه من أتباعه أنه عصى موسى إذ لم يتبعه، فجاء الجواب: بِي حَسْبِيثُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» (٩٤).

فقد تفرقوا في حقل عبادة العجل بين ثلاث، عابدة له و تاركة للنهي عنه، و ناهية عنه، وهو من خلفيات الدعوة الهارونية وكما تخلفه كافة الدعوات الرسالية.

فإذا اختلفوا هكذا بغياب موسى وحضور هارون والذين معه، فقد يتوسع خلافهم بغياب الداعية الرسولية والذين معه، إكبابا أكثر من رؤوس زوايا الضلال والإضلال، والتحاقا بهم للمتتردين بين الأمرين حيث لا يلتحقون بهارون والذين معه، وتوايا قد يحصل للبعض من الذين معه، فيخلو الجو- إذا- لتوسع الضلال من السامري بعجله، والذي عبده أو كاد أم يكاد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٦

و ذلك التفريق بين بني إسرائيل ليس إلا باتباع هارون موسى أن يلتحقه في ذلك الجو المخرج المخرج عن الهدى، وما كانت وصية موسى لهارون إلا «أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» و خروجه عنهم إفساد و اتباع لسبيل المفسدين الذين يجنون تخلية الجو وتصفيته عن الداعية الرسولية والرسالية.

ذلك، ثم وليس في آيات الأعراف آية مزرة بموسى وهارون، إلا بيانا لعصمتها وبراءة هارون عن أي، تخلف فان تلك المواجهة الموسوية لهارون أوجبت بيان البراءة التي لم تكن باهرة للكل انهم «اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي ..»!

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعُجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣).

«الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» عنوان مشير يشير إلى هؤلاء اليهود، ورأس زاوية الضلال فيهم هو العنوان الذي يشير إليهم - اتخذوا العجل - بما لهم من كافة السيئات والنكبات بدء ختم.

إذا ف «سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ليست لتناهي توبتهم عما عبدوا العجل: «وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٢: ٥٤).

إذ إن توبتهم هذه مهما كانت مقبولة فليست لتردد عن حاضر الغضب والذلة في الحياة الدنيا، لعمق الجريمة المحتاجة إلى كفارة كمثل «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» ولسائر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٧

الجرائم المتواصلة منهم من تكذيب آيات الله، وتقتيل أنبياء الله، وقلب وتحريف أحكام الله.

إذا فقد «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بَأُؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ» (٢):

(٦١) و «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثَبُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَ بَأُؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ» (٣: ١١٢). كما «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» (٧: ١٦٧)

ذلك، والعذاب قد يكون مثناه دنيا وعقبى، أم في الأول دون الأخرى أم في الأخرى دون الأولى، أم لا عذاب فيهما، وأقل العذاب للذين اتخذوا العجل هو «غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

أجل «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» هم مغضوب عليهم في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا عن عبادة العجل، أم تابوا ولكنهم استمروا في سائر الضلال والإضلال، ولا أقل من أنهم «سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فإنهم تحتصمهم اللعنة بين سائر الملعونين: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ» (٥: ٦٠) و لقد «بَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ» (٢: ٩٠) أن كذبوا بما كانوا به يستفتحون على الذين كفروا: «وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (٢: ٨٩).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٨

ذلك، وبوجه آخر قد تعني «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا...» حكاية حال الماضي أنه تعالى قرر وقدر عليهم نيل الغضب والذلة، وكما نراها مستمرين عليهم منذ بداية تأريخهم المنحوس المركوس.

فمن نيل الغضب «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ..» إذا فمن: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» عنوانا خاصا لبني إسرائيل، ثم من «لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» (٤: ٦٦)

و من ثم سكوت الآيات بحق المرتدين عن هكذا قتل قضية الارتداد، من هذه الزوايا الثلاث نتأكد أنه ليس إلا حكما تورانيا يختص ببني إسرائيل، فلا يشمل المسيحيين فضلا عن المسلمين.

إذا ف «سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قد تعني مثنى الغضب «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» و سائر الغضب و الذلة السائران عليهم طول حياتهم الدنيا، مستمرا إلى يوم القيامة من المجاهدين الأحرار على هؤلاء الأشرار، لا فقط لأنهم عبدوا العجل، بل

ولاستمرارهم في كل إفساد يشمل العالم مرتين، وفي خلالهما هم أفسد المفسدين في الأرض، فهم بتخلفاتهم وإفساداتهم الدائمة يحتزنون النعمة في قلوب الشعوب، ويهيئون الرصيد الوصيد الذي يدمرهم - أخيراً - عن بكرتهم.

ذلك، وليست سلطاتهم منذ بدأت واستمرت باحتلال القدس وفلسطين لإلغيبوية المسلمين المحليين وسواهم عن السلاح الوحيد الإسلامي والراية الوحيدة الوطيدة، وهي فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بثتها الصهيونية والصليبية العالمية، ولكن سوف تجيء الصحة من هذه الغفلة والغيبوبة وكما ود الله في آيات الأسرى: «فَإِذَا جَاءَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٠٩

وَعُدُّ أَوْلَاهُمَا ... فَإِذَا جَاءَ وَعُدُّ الْأَخْرَةَ» فراجع.

فهؤلاء هم اليهود، المعركة في عقولهم المخبولة المدخولة، وقلوبهم المقلوبة، فكرة التجسد الرباني، فإن لم يستطيعوا أن يرووا الله بأمر أعينهم فليتحولوا إلى «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ حَوَازٌ» وليؤولوا قصة الميعاد عن أصلها إلى معاكس فيه مس من كرامة الله - خلافاً للقرآن: وهكذا نراهم يحرفون التوراة حسب المزاعم المادية، كما في (سفر الخروج ٢٤: ٩ - ١٨): (ثم صعد موسى وهارون وناداب و أيبهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا. وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل، وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشرعية والوصية التي كتبتها. فقام موسى ويشوع خادمه. وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم: اجلسوا هاهنا حتى نرجع إليكم. وهو ذا هارون وحور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليقدم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل. فغطى السحاب الجبل. وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام - وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط الحجاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل. ودخل موسى في وط الحجاب و صعد إلى الجبل. وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة».

ثم في الفصل (٢٥) أن «مما كلم الرب موسى أن كلم بني إسرائيل يصنعوا لي مقدسا من ذهب وفضة وكأس واسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تحس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٠

المسحة والبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة فيصنعون لي مقدسا لأسكن في وطهم، وتصنع غطاء من ذهب .. و أنا أجمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من الكرد بين للذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل!!!».

ذلك، ولئن استضعف بنو إسرائيل خليفة موسى في تعييه، فقد استضعف المسلمون خليفة الرسول صلى الله عليه و آله بعد موته وانطبق عليه كما هو: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ» وكما

يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله لعلي عليه السلام: يا أخي أنت سيفي بعدي وستلقى من قريش ومن تظاهروهم عليك وظلمهم لك، فإن وجدت عليهم أعوانا فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وفقك، وإن لم تجد أعوانا فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة فإنك مني بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام ولك بهارون أسوة إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش وتظاهروهم عليك فإنك بمنزلة هارون ومن تبعه وهم بمنزلة العجل ومن تبعه.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَ فِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤).

هنا «سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ» دون «سَكَتَ مُوسَى عَنِ الْغَضَبِ» شاهد صدق على بالغ ذلك الغضب حيث ملك موسى فلم يملكه موسى حتى ألقى الألواح وأخذ برأس أجنحة يجره إليه، وذلك لأنه ملكه التوحيد بعد أن ملك هو التوحيد، فلم يستطع أن يتمالك نفسه إذ رأى القوم قد ضلوا ضلالا بعيدا، فذلك التعبير العبير يشخص آماذ الغضب وأبعاده لحد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١١

بملك موسى رسول الله في الله.

ثم «أَخَذَ الْأَلْوَحَ» واللام للعهد، تعني نفس الألواح التي ألقاها دون أن تتكسر أو بعضها، ودون أن يرفع بعضها، خلافا لمختلقات الروايات، وعلى أية حال «أَخَذَ الْأَلْوَحَ» التي ألقاها، «وَ فِي نُسْخَتِهَا» وهي زبرها وخطها «هُدًى وَ رَحْمَةً» هما نفس «مَوْعِظَةٌ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» إذ لم يكن الله ليلغي نسخة «هُدًى وَ رَحْمَةً» يليقها موسى غضبا لله و أسفا على الإشارك بالله.

«هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» فهما واقع «هُدًى وَ رَحْمَةً» حيث هما من أصول الحصائل «لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» وأما الذين لربهم لا يرهبون فهما- فقط- دلالة هدى ورحمة دون وقعهما، فهنا وقع بواقع وشأن بشأن، وقع «هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» وشأن الذين لا يرهبون ولهم شأن الاهتداء والاسترحام ولكن لا حياة لمن تنادي.

و هنا «لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» دون «يرهبون ربهم» للتأشير إلى وجب حصر الرهبة لربهم فلا يرهبون سواه إلا فيه، ثم وهم يرهبون لأنه ربهم لا لطوارئ أخرى مصلحية الحفاظ على ما يعنون.

ذلك، وإلى مشهد جديد في تفصيله هو مديد لمشهد سؤال الرؤية حيث هما وحد:

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥).

لقد تطلبوا إليه أن يروا الله جهرة: «وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٢

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢: ٥٦).

و هنا يختار موسى سبعين رجلا لميقات ربه بعد ما سأله الرؤية جهرة ولكن خيرته لم تكن خيرة إذ لم تكن باختيار الله، إذا فكيف يكون أمر خيرة الأمة الإمر في انتخاب صاحب الأمر بعد الرسول صلى الله عليه و آله؟ كما يروى عن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف «١».

و هنا الرجفة ليست إلا لما اختاره هؤلاء المختارون من اقتراح هارف جارف هو سؤال الرؤية كما في آية البقرة، واللائح من آية النساء أنه كان قبل اتخاذهم العجل:

«فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ

(١). نور الثقلين ٢: ٧٦ في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم (عليه السلام)

حديث طويل و فيه: قلت: فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم؟ قال: مصلح أو مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال: فهي العلة و أوردتها لك ببرهان ينقاد لك عقلك، ثم قال: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز و جل و أنزل عليهم الكتب و

أيدهم بالوحي و العصمة و هم أعلام الأمم و أهدى إلى الإختيار منهم مثل موسى و عيسى (عليهما السلام) هل يجوز مع وفور عقلهما و كمال علمهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق و هما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا، قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله و كمال علمه و نزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه و وجوه عسكريه لميقات ربه عزّ و جلّ سبعين رجلا ممن لا يشك في إيمانهم و إخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال الله عزّ و جلّ: «وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا» إلى قوله «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» فلما وجدنا إختيار من قد اصطفاه الله عزّ و جلّ للنبوة واقعا على الأفسد دون الأصلح و هو يظن انه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الإختيار لا يجوز إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور و ما تكن الضمائر و يتصرف عليه السرائر و ان لا خطر لاختيار المهاجرين و الأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا الصلاح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٣

البَيِّنَاتُ» (١٥٣) وهذه المجاهرة في «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» بعد «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» كما في البقرة، كانت قريبة الصلة بأمر الوحي المكاملة، أن لن نؤمن لك، أن الله هو الذي كلمك، إلّا أن نرى الله جهرة.

فقد يكون السبعون المختارون المصعقون من ضمن هؤلاء الذين اتخذوا العجل، وكأنه بديل عن رؤية الله جهرة!.

«فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ» المهلكة إياهم «قال» موسى رب «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ» كيلا يحتج عليّ الباقون أنك أهلكتهم بديلا عن إجابتهم في سؤالهم «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» «١».

و ترى السبعين المصعقين لم يكونوا من السفهاء لئلا يستحقوا الإهلاك؟ وهم السائلون: «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً!» أم تعني السفاهة هنا عبادة العجل؟ وقد تأخرت عنها حسب آية النساء!.

«منا» هنا تعني من السبعين المختارين وسائر السائلين، مع موسى عليه السلام،

(١). بحار الأنوار ١٣: ٢١٧- / ١٠ في أسئلة الزنديق عن الصادق (عليه السلام) قال: إن الله أمات قوما خرجوا مع موسى (عليه السلام) حين توجه إلى الله فقالوا: أرنا الله جهرة فأما تم الله ثم أحياهم.

وفي نور الثقلين ٢: ٧٦ في كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع أصحاب المقالات و الأدبان قال (عليه السلام): .. ثم موسى بن عمران (عليه السلام) و أصحابه السبعون الذين اختارهم و صاروا معه إلى الجبل فقالوا له: إنك قد رأيت الله فأرنا سبحانه كما رأيته فقال لهم: إني لم أراه فقالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» و احترقوا عن آخرهم و بقي موسى وحيدا فقال: يا رب اخترت سبعين رجلا من بني إسرائيل فجئت بهم و أرجع وحدي فكيف يصدقني قومي بما أخبرتهم به؟ فلو شئت أهلكتهم و إياي أهلكتنا بما فعل السفهاء منا؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٤

و «السفهاء» جمعا، تدل أن السفاهة هنا حصلت من جمع من الثلاث لا كلهم، فلم يكن سؤال الرؤية لإلّا من الجبل دون الكل، إذا «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» ورد مورد السائلين منهم الرؤية أن كيف تهلك غير السفهاء معهم بما هم دونهم «من قبل» الميعاد وحاضر السؤال فيه.

و هنا «من قبل» ثم من قبلها «لو» إضافة إلى «منا» هي زوايا ثلاث في هندسة القصة تدل على أن القصد ليس هو الإهلاك الواقع، بل هو

المستدعي أن يكون «من قبل» حضور الميعاد، أو «من قبل» سؤال الرؤية فيه بعد ما سأله مرة أولى، وهنا «لو» تحيل هذه المشية، ثم «أهلكننا» متفرع على تلك المشية المستحيلة، ف «بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ» تعني السفهاء الذين يستحقون الإهلاك وهم الذين سألو الرؤية، دون سائر السفهاء في ذلك الحقل، من الذين سكتوا عن النهي عن المنكر، والذين سألوها نيابة عن الباقين السائلين، «أهلكننا» جميعا الشامل لموسى و «مَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعَدِلُونَ» و الذين سكتوا و الذين سألو نيابة «بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» وهم السائلون الرؤية، أم والقائلون لما نجوا عن البحر «يا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجْهَلُونَ» (٧: ١٣٨).

فلو أن هناك عذابا من ذي قبل لم يكن على سواء بالنسبة للسفهاء، فضلا عن أن يشمل غيرهم بمن فيهم موسى نفسه. و كما في قصة السبت «أُنْحَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ» فلم ينج التاركون للنهي عن السوء كما الفاعلين للسوء مهما تفارقا في نوعية العذاب، حيث اختص «كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» بالذين صادوا يوم السبت باحتيال، وللذين تركوا النهي عنه دون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٥

ذلك.

أجل إن هي: «الرجفة» الواقعة- أم والمتوقعة ب «لو»- الشاملة المرجحة «إِلَّا فِتْنَتُكَ» امتحانا لمن سكت وامتھانا لمن سفه، و عبرة لمن غاب، وتذكرة لأولي الألباب.

فسماحه سبحانه لذلك السؤال، وأخذهم جميعا سائلين وسواهم بالرجفة، هذا وذاك فتنه ربانية «تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ» إضلاله وهو الذي يشاء الضلال «و تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ» هداه وهو الذي يشاء الهدى، وترى كيف حذفت الباء في تهدي؟ علّه لأن الهداية أعم موردا من مثل هذه الفتنه الصعبة وسواها، وأما الإضلال فهي بصعاب الفتن كما يستحقها أهلها.

«أنت وينا» فيما تفتننا «فاغفر لنا» ذنوبنا سؤالا وسكوتا، «و اَرْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ». ذلك، و قد يتبين هنا أن الساكتين هنا- غير السائلين- ما كانوا من الذين عبدوا العجل بعد ذلك، وذلك بأحرى لمن لا يسأل الرؤية الذي هو أخف من عبادة العجل، ألا يعبدوا العجل، فقد كان بين هؤلاء المختارين من سألو الرؤية وعبدوا العجل، وسواهم الذين لم يسألوا ولم يعبدوا ولكنهم سكتوا عما حصل فوصلهم- إذا- ما ول.

و غريب من هؤلاء المجاهيل المغايل أن يتخذوا العجل بعد سؤال الرؤية وأخذة الرجفة بالصاعقة، كيف لم ينتبهوا فدخلوا فيما هو أفضح من سؤال الرؤية وهو عبادة العجل، ثالث تصاعدي سجله عليهم تاريخهم المنحوس، إعلانا بعد التوراة في هذه الإذاعة القرآنية كثالوث النصرى فلقد تشابحت قلوبهم المقلوبة في ذلك الانحراف

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٦

الانحراف السحيق المحيق!

ذلك، وقد أحياهم الله بعد موتهم بدعائه عليه السلام وكما في آية البقرة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٥٦) ولكنهم كفروا أكفر مما كفروا بديل أن يشكروا إذ «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ» (٤: ١٥٣).

و ذلك البعث بعد الموت برهان لا مرد له على البعث يوم القيامة الكبرى، والبعث يوم الرجفة وهي القيامة الصغرى، والحياة البرزخية وهي القيامة الوسطى.

و في رجعة أخرى إلى آية الإختيار أدبيا ومعنويا، ترى كيف اختارت «اختار» مفعولين اثنين وليس لها إلا مفعول واحد؟ والحل أن «سبعين» عطف بيان للمفعول وليس مفعولا ثانيا أو بدلا.

ثم ولا يصح أنه ثاني المفعولين اللهم إلا بدل البعض من الكل، أم بدل فإن قضيته أن قومه كانوا- فقط- سبعين رجلا، وإنما «اختار موسى قومه» والمختارون منهم سبعون كما هو قضية الإختيار.

و لأن عبادة العجل كانت بغياب موسى عليه السلام حين أعجل عن قومه إلى الميقات، وسؤال الرؤية كان قبل اتخاذ العجل، إذا فهما ميقاتان اثنان لأمرين إثنين أولهما هذا الذي أخذتهم فيه الرجفة، والأخرى ما أعجل موسى فيه عن قومه فعبدوا العجل بعد، وهذا مما يرر ذكرى كلّ لحاله وعلى حدة، مهما صح فصل قسم من قصة مناسبة عن قسم آخر تقديمًا للمؤخر أو تأخيرًا للمقدم، كما تقتضيه المصلحة البلاغية قضية الملابس المؤاتية، وهنا تأخر المقدم وتقدم المؤخر في العرض، لأن المؤخر كان أخزى وأمرًا!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٧

ثم ترى «أُتْهِلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» اعتراض على الله أنه أهلك غير المستحقين له؟ كلاً! وإنما هو استعمال يبينه «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» أن ذلك الإهلاك فتنة لكل من هؤلاء الثلاث: السائلين الرؤية، والساكين عن النهي، والغائبين عن المسرح المنتظرين للنتيجة، فلقد أجاب موسى نفسه عن سؤاله بإجمال، إجمالاً عن التفصيل الذي علّه بين له دوننا، والقول أن «فعل» الظاهر في العمل لا يشمل قول السفهاء، إذا فهي سفاهة أخرى غير قوله الرؤية، مردود بأن الفعل أعم من العمل، فهو يشمل مثلث فعل اللسان والقلب والأركان سلباً وإيجاباً، وفعل السفهاء هنا هو قولهم: أرنا الله جهرة، وترك جمع منهم النهي عن المنكر، ونقل ثالث سؤال الرؤية.

ذلك، وقد أضل الله بجزء الرجفة والإحياء بعدها جمعا من هؤلاء وهم الذين أصروا على الضلال بعد سؤال الرؤية «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ» (٤: ١٥٣) وهدى آخرين لم يسألوها أم سألوها وتابوا فلم يتخذوا العجل، أم ونهوا عن ذلك السؤال وما أشبه، والآخرون هم من المعنيين في «مَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» (٧: ١٥٩).

هذا، وفي «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ» من أدب السؤال ما لا قبل له لمكان «لو» المحيلة تلك المشية غير الصالحة، فإن موسى عليه السلام لم يكن يستحق معهم الهلاك، ولكنه قد يترجاه حفاظاً على رسالته من الهلاك بتكذيب رفاق هؤلاء الهلكى، ثم «أ تهلكننا» استبعاد لإهلاكه معهم إذ لم يكن يستحقه أبداً، ثم استعمال لإهلاك غير السائلين، التاركين للنهي عن المنكر، وقد أجاب عنه نفسه «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ».

و أخيراً يستسلم في دعاءه لله قائلاً: «أنت وينا» لا سواك، فأنت تفعل بنا ما تشاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٨

ولا تسأل عما تفعل وهم يسألون، وما ذلك السؤال العضال إلا استعمالاً واسترحاماً، فإذا «أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا» لمن سأل و لمن سكت «و ارحمنا» برحمتك «و أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» عن الذنوب.

و اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة إنا هدنا إليك.

قال عذابي أصيب به من أشاء و رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون و يؤثون الزكاة و الذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦).

«حسنة» فيها تعني حياة حسنة، ولماذا «أكتب لنا»؟ ل «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»، وذلك لموسى عليه السلام وقومه، ثم ونا «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٢: ٢٠١).

و «هدنا» من الهود، وهو الرجوع برفق، والقصد من الجمع في «هدنا» طائفة من السبعين الراجعين إلى الله من سؤالهم أو سكوتهم أما أشبهه من تقصير أو قصور مع موسى نفسه و «أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و «يهود» هي مضارعة «هاد» تعني ترجع برفق، فقد

سميت اليهود هودا ويهود بتلك المناسبة، ثم عمت في أهل التوراة ككل، وما يوجه التعميم أن الراجعين إلى الله هادوا إليه، والراجعين منهم عن الله هادوا عنه، فهم هود ويهود بإحدى الواجهتين.
و لقد أوجب موسى عليه السلام بتفصيل هو «قَالَ عَدَابِي ... وَ رَحْمَتِي ..»: ف «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ» (٤: ١٢٧) - (لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَدَابِي لَشَدِيدٌ» (١٤: ٧).

و رغم أن موسى عليه السلام دعا لخصوص قومه قضية أن المجال نجد الله يجيبه بخاصة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣١٩

العذاب وعامة الرحمة دون اختصاص بقومه، وإنما «من أشاء- و كل شيء- وللذين يتقون و ..». فقد «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» طليقة، ولم يكتب على نفسه العذاب إلا إذا لزم الأمر في ميزان العدل وكما ود، فقد استجاب الله هنا لموساه دعاءه وزيادة كما استجاب لإبراهيمه مقيدة حيث «قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (٣: ١٢٤) و استجاب له أوسع مما طلب «وَ اِزْرُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ» (٢: ١٢٦) و هكذا يؤدب الله أنبياءه من خلال طلباتهم و سواها من حاجيات و دعوات. و إنما حذف هنا «حسنة» لآخرة، و ذكرت هنا في دعاء المؤمنين «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» لأن بني إسرائيل ما كانوا يستحقون تأكيد الحسنة في الآخرة، و المؤمنون بهذه الرسالة يستحقونها، وهذا من أسباب الفرق بين الدعائين، و ما أشبهه. فمن آداب الدعاء تعميمه لمن يحتاجه و يصلح له و هم كافة المكلفين إلا لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، فقد «قام النبي صلى الله عليه و آله في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا، فلما سلم صلى الله عليه و آله قال للأعرابي: لقد تحجرت وسعا، يريد رحمة الله عز وجل» «١».

(١). نور الثقلين ٢: ٧٧ عن المجمع في الحديث أن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ... أورده البخاري في الصحيح، وفي الدر المنثور ٣: ١٢٠- / أخرج أحمد و أبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي قال جاء اعرابي فأناخ راحلته ثم عقلا ثم صلى خلف رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ثم نادى: اللهم ارحمني و محمدا و لا تشرك في رحمتنا أحدا فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): لقد حظرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها و إنسها و بهائمها و عنده تسعة و تسعون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٠

و «أوحى الله إلى داوود عليه السلام يا داوود كما لا يضيق الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها» «١».

و هنا خاصة العذاب وعامة الرحمة مما يدل على سبق رحمته غضبه وأنها هي الأصل، ما كان إليها سبيل، ولم تكن خلاف العدل والحكمة الربانية، ف «عذابي» هنا وفي الآخرة «أصيبُ به مَنْ أَشَاءُ» وهو من يشاء الضلالة ويصر عليها «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» مكتوبة.

و في رجعة أخرى إلى الآية «عَذَابِي أُصِيبُ» يسع النشآت الثلاث رغم اختصاصه «من أشاء» وهو الذي يستحقه ولا سبيل عدلا للعبو عنه.

و اما «رَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» فلا رب أهما الرحمة الرحمانية العامة في كل النشآت، حيث الرحيمية لا تسع كل شيء لا سيما وانها كالصيغة الماضية، وأما «فسأكتبها» فهنا مرجع الضمير المؤنث استخدام يعني سأكتب الرحمة الرحيمية للذين .. فالمكتوبة هنا هي حصيلة رحمة الشرعة المصدقة المطبقة «للذين».

(١). نور الثقلين ٢: ٧٧ في روضة الواعظين قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): .. وفيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: افتخرت الجنة و النار فقالت النار يا رب يدخلني الجبابرة و الملوك و الأشراف و قالت الجنة: يا رب يدخلني الفقراء و الضعفاء و المساكين فقال الله للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء و قال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء و لكل واحدة منكما ملؤها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢١

فالمكلفون بشرعة الله مكلفون برحمة خاصة رحيمية من الله، فإن آمنوا بها في مثلث «يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» «فسأكتبها» تنبينا لخلفية التصديق والتطبيق لهذه الرحمة، وإلا فلا تكتب عليهم إلا العذاب.

و ترى بعد «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ..» نزلت بمعناها على موسى ضمن ما أوحى إليه إجابة عن دعائه «قَالَ عَذَابِي ..»؟ ولما ينزل الإنجيل بعد حتى يجوده فيه!، فقد تكون هذه التتمة زيادة قرآنية على ما أوجب به موسى عليه السلام إعلاما حاضرا لأهل الكتاب أجمع؟ أم وبضمنها إشارة توراتية إلى نزول الإنجيل بعدها، وكما نجد على هامش البشارات القرآنية في التوراة بشارات إنجيلية، فصلناها في «البشارات».

ثم «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» يشمل صالح الإيمان أيا كان ومن أي كان وأيان، ولزامه بعد نزول القرآن هو الإيمان بالشرعة القرآنية. و هنا «يؤمنون» دون «آمنوا» توسيع لدائرة الإيمان لتشمل هؤلاء الذين يفتشون عن آيات الإيمان ولما يصلوا إليها، فإن وصلوا إليها آمنوا، وإلا فهم مؤمنون وان لم يصلوا وماتوا غير حاصلين على آيات الإيمان الملحق بإيمانهم الحالي، أم بأصل إيمانهم بشرعة ربانية، وإنما الأصل حالة «يؤمنون» وإن لم يصلوا إلى هالته، وغير مكتوبة، ومن الثانية ما تشمل المذنبين غير المعاندين أو المصيرين على الضلال، حيث الرحمة العامة الرحمانية تغمرهم، ثم الرحيمية الموجهة إليهم دلالة الطريق تعمرهم وهم رافضوها «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» و من أبرزهم:

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٧ الى ٣٦١]

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٢

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَغْدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّةً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْئُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٣

فذلك الرسول النبي الأمي هو الرحمة الواسعة الربانية حيث «سأكتبها» فطليق الرحمة مكتوبة لكافة المتقين المؤتئين الزكاة، المؤمنين بالآيات، ثم الرحمة الطليقة مكتوبة مستقبلة «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ...».

فهنا عذاب مكتوب للمعاندین علی طول الخط، ورحمة وسعة مكتوبة للمتقين المؤتئين الزكاة المؤمنين بالآيات المتبعين هذا الرسول صلى الله عليه و آله ورحمة غير وسعة لهؤلاء المتقين غير المتبعين له صلى الله عليه و آله قصورا دون عناد وتكذيب، إذ «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (٣: ١١٣ - ١١٥).

فهؤلاء هم من المتقين مهما لم يتبعوا هذا الرسول صلى الله عليه و آله قصورا دون تقصير أم بتقصير يسير مسامح، وتلك الرحمة الواسعة تسع كل شيء وقعا رحمانية، وتسع من لا يرفضها رحيمية، فليس النقص - إذا - في فاعلية الرحمة الرحيمية، إنما هو في القابلية، فمن استقبل لها وقبلها فهي له قدر الاستقبال والقبول، والقصد هنا إلى الرحيمية لمكان «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ...» حيث الرحمانية مكتوبة لكافة الكائنات دون إبقاء واستثناء.

هنا «فَالَّذِينَ آمَنُوا» تعم الإيمان بدرجاته العالية من القمة السامقة العلوية، وهكذا يكون علي عليه السلام رأسا وقائدا وشريفا وأميرا، في خطابات الإيمان بآياتها كما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٤

أصفق عليه الفريقان «١» وترى «يجدون» تعني ودانه بمواصفاته الثمان ثلاث متقدمة وخمس متأخرة عدد أبواب الجنة؟ الظاهر نعم حيث الضمير الغائب في «يجدون» راجع إلى «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» ثم «يأمرهم...» حال للموصوف.

و هنا «الرَّسُولَ النَّبِيَّ» وهناك في مريم لموسى: «وَ ادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (٥١) و لإسماعيل: «وَ ادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (٥٤) و كذلك «مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَّتْ...» (٥٢: ٢٢) إضافة إلى أن عديد الرسول والرسول في القرآن أكثر بكثير من النبي والأنبياء، كل ذلك يدل على أن النبي هو الرسول الرفيع المنزلة بين الرسل، كما النبي هو من النبوة: الرفعة.

. في ملحقات إحقاق الحق (٣: ٤٧٦- / ٤٧٩) عن ابن عباس عن أربعة عشر من فطاحل العامة قوله: «ما في القرآن آية إلا و علي رأسها و قائدها، هو أحدهم: أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (١٨٦) بسند عن ابن عباس يقول: «ليس من آية في القرآن «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا و عليّ رأسها و أميرها و شريفها و لقد عاتب الله أصحاب محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) في القرآن و ما ذكر عليا إلا بخير» و أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (١: ٦٤) بسند عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ما أنزل الله آية فيها «يا أيها الذين آمنوا إلا و عليّ رأسها و أميرها، و هكذا محب الدين الطبري في ذخائر العقبى (٨٩) و الرياض النضرة (٢٠٧) و الكنجي الشافعي في كفاية الطالب (٥٤) و السبط ابن الجوزي في التذكرة (١٩) و الشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) و غياث الدين بن همام خواند مير في جيب السير (٢: ١٣) و صاحب المناقب المرتضوي (٣١) و الهيثمي في الصواعق المحرقة (٣٨) و (١٢٥) و السيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٦) و القندوزي في ينابيع المودة (١٢٥) و القاسم بن حماد في البحار (٩: ٦٧) و أحمد في مسنده كما في مناقب الكاشي- / المخطوط- / و المناوي في الكواكب الدرية (٣٩).

و هكذا ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي (عليه السلام) إلا الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) كما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٧) و الهيثمي في الصواعق (١٢٥) و المناوي في الكواكب الدرية (٣٩) كلهم رووه عن ابن عباس التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٥

فالنبي بمشتقاته يذكر في ثمانين موضعا بميزات فوق الرسالة، حال أن الرسول بمشتقاته يذكر زهاء (٤٠٠) مرة دون هذه الميزات، اللهم إلا لرسول نبي، ففي مثلث النبوة و الرسالة و النبوة، الأولى هي نبوة الوحي وان لم يرسل صاحبها، والثانية هي الرسالة بالوحي كيفما كانت درجته، والثانية هي الرسالة الرفيعة، ولم يأت «النبي» معرفا في القرآن إلا لنبينا صلى الله عليه و آله مما يبرهن على نبوته الرفيعة بين الأنبياء أجمعين.

ذلك، وقد أفردنا مؤلفا حول البشارات الواردة بحق هذا الرسول النبي صلى الله عليه و آله في كتب السماء «١» وإليكم نماذج منها: و من ميزات النبيين اجمع- على درجاتهم- أنهم أصحاب الكتاب، ف «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ..» (٢: ٢١٣) (وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ..» (٣: ٨٢)، فنبينا أفضل أولي العزم، وهم أفضل النبيين، ثم أصحاب الكتاب هم أفضل المرسلين، وفي كل درجات أعلاها لخاتم النبيين صلى الله عليه و آله. ذلك، وأمية الرسول صلى الله عليه و آله هي من ميزات الرسولية و الرسالية، إذ لم يتلون طول حياته قبل الرسالة بألوان الثقافات البشرية المدخولة أو الناقصة، ومنذ رسالته أخذ يدرس في مدرسة الوحي الرباني، فلأنه مدرس العالمين ومربيهم، لا بد له أن يدرس- فقط- عند رب العالمين، حتى يصلح مرييا للعالمين لمن شاء منهم أن يستقيم.

فقد يشير إلى الثلاث الأول قوله تعالى في التوراة حسب النص العبراني صوتيا:

(١). هو «رسول الإسلام في الكتب السماوية» بالعربية و «بشارات عهدين» بالفارسية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٦

يدعو ييسرائل او ايل حنابي مشوكاع إيش هاروح على روب عونخا ورباه مسطماه- «بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن الرسول الأمي المصروع رجل صاحب روح إلهامي وصاحب وحي» وهنا «المصروع» إشارة إلى ما يصفونه به: «وَ يَفْهَمُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (٤٨: ٥١) و في كتاب هوشيع النبي عليه السلام (الفصل ٩ الآية ٦) بعد التصريح باسمه المبارك «محمد لكسفام»:

محمد لفضتهم، إشارة إلى الجزية التي يأخذها منهم، يقول باختلاف يسير في التعبير: «لأن النبي الأمي المصروع وصاحب الروح بسبب كثرة العصيان والبغض أصبح مجنوناً» يعني بحسبانهم هؤلاء العصاة المبغضين، ومن حقهم وبغضهم إياه إن أرادوا أن يسموا بعض أولاهم محمداً ليخيلوا إلى البسطاء أنه هو محمد المبشر به في التوراة فهدهم الله في (هوشيع ٩: ١٦) بقوله: «و همتي محمدي بيطنام»: «أقتل محمداً في البطون» مهما حرفوا «محمداً» هذا إلى «مشتهيات بطونهم» كما حرفوه في «محمد لكسفام» حيث حرفوها إلى مشتهياتهم ومرغوباتهم في «هوشيع ٩: ٥».

و إشارة إلى أميته بمعنى أنه لم يدرس إلا عند الله يقول في كتاب أشعيا عليه السلام (٢٨): «إت مي يوره دعاه وإت مي يا بين شموعاه غگمولي محالاب عتيمي مثاداي»- «لمن ترى يعلم العلم ولمن يفقه في الخطاب للمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي» ثم يستمر في قرآن ذلك المفصول عن الثدي بمواصفات «١»: و إشارة إلى أميته نسبة إلى أم القرى انه نبي من «فاران- حرى»:

(١). راجع الفرقان ١: ٣٦١ و رسول الإسلام في الكتب السماوية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٧

كما في التوراة (تث ٣٣: ١-٢):

و زئت هيراخاه اشر برخ موشه إيش ها الوهيم إت بني إسرائيل لفي موتو ويومر ١ يهواه مسيني باو زارح مسعير لامو هو فيع مهر فاران وآتاه مر بيت قدش مي مينو إش دات لامو ٢)-:

«و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل وت موته وقال ١ الله جاء من سيناء تجلى من ساعير وتلعلع من جبل فاران (حرى) ود مع آلاف المقدسين، ظهرت من يمينه الشريعة النارية».

و هنا مضي التعبير لتجلي الرب بالرسالة المحمدية من فاران اعتباراً بقاطع ووعه مستقبلاً، وكما في كتاب حبشوق النبي عليه السلام (٣: ٣):

«إلوه متيمان بابو وقادوش مهر فاران سلاه شاميم هودد وتلماتو مالفاه ها آرص»-:

«الله يأتي من تيمان- وهو ساعير جنوبي القدس- والقدوس يأتي من فاران (حرى) إلى الأبد، يغطي جلاله السماوات وثناء الأرض».

و لقد يوجد اسمه صلى الله عليه و آله: محمد- أحمد- وميزاته في التوراة والإنجيل وملحقاتهما كما فصلناه في البشارات وبطيات آياتها المناسبة في هذا الفرقان فلا نعيد.

هنا يصرح القرآن أن أهل الكتاب يجدونه صلى الله عليه و آله مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ولو لم يكن له ذكر فيهما عند نزول القرآن- و رغم تحرف الكتابين- لكفى تكذيباً منهم بهذه الرسالة، ولم يؤثر ولا مرة بتيمة من أحد من معاصريه صلى الله عليه و آله أن يكذبه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٢٨

في هذه الدعوى، بل نجد التصديق الرفيق من صالحهم «١».

(١). نور الثقلين ٢: ٧٩ في الخرائج و الجرايح عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل و فيه: فقال الرضا (عليه السلام): أنت يا جاثليق أمن في ذمة الله و ذمة رسوله لا يبدؤك مناشئ تكره مما تخافه و تحذره، فقال: أما إذا أمنتني فإن هذا النبي الذي اسمه محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و هذا الوصي الذي اسمه علي و هذه البنت التي اسمها فاطمة و هذان- / السبطان اللذان اسمهما الحسن و الحسين (عليهما السلام) في التوراة و الإنجيل و الزبور.

و فيه عن كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا (عليه السلام) لرأس الجالوت: تسألني أو أسألك؟ قال: بل أسألك و لست أقبل منك حجة إلا من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم و موسى (عليهما السلام)، قال الرضا (عليه السلام) لا تقبل مني حجة إلا ما نطق به التوراة على لسان موسى بن عمران (عليه السلام) و الإنجيل على لسان عيسى بن مريم (عليهما السلام) و الزبور على لسان داود (عليه السلام) فقال رأس الجالوت: أين ابن ثبت نبوة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ قال الرضا (عليه السلام): شهد نبوته موسى بن عمران و عيسى بن مريم و داود خليفة الله في الأرض (عليهم السلام)، فقال له ثبت قول موسى بن عمران (عليه السلام) قال الرضا (عليه السلام): هل تعلم يا يهودي أن موسى أوصى بني إسرائيل فقال لهم: انه سيأتيكم نبي هو من إخوانكم فيه فصدقوا و منه فاسمعوا فهل تعلم أن نبي إسرائيل إخوة غير ولد إسماعيل إن كنت تعرف قرابة إسرائيل من إسماعيل أو السبب الذي بينهما من قبل إبراهيم (عليه السلام) فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه فقال له الرضا (عليه السلام): هل جاءكم من إخوة نبي إسرائيل نبي غير محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ قال: لا، قال الرضا (عليه السلام): أفليس قد صح هذا عندكم؟ قال: نعم، و لكني أحب أن تصححه لي من التوراة، فقال له الرضا (عليه السلام): هل تنكر أن التوراة يقول: جاءكم النور من جبل طور سيناء و أضاء لنا من جبل ساعير و استعلن علينا من جبل فاران؟ قال رأس الجالوت: أعرف هذه الكلمات و ما أعلم تفسيرها، قال الرضا (عليه السلام): أنا أخبرك به، أما قوله: جاء النور من جبل طور سيناء فذلك وحي الله تبارك و تعالى الذي أنزله على موسى على جبل طور سيناء، و أما قوله: و أضاء لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم (عليهما السلام) و هو عليه، و أما قوله: و استعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكة بينه و بينها يوم، و قال شعيب النبي (عليه السلام): فيما تقول أنت و أصحابك في التوراة: رأيت راكبين أضاء لهما الأرض أحدهما على حمار و الآخر على جمل فمن راكب الحمار و من راكب الجمل؟ قال رأس الجالوت: لا أعرفهما فأخبرني بهما، قال: أما راكب الحمار فعيسى (عليه السلام) و أما راكب الجمل فمحمد (صلى الله عليه و آله و سلم) أتتكر هذا من التوراة؟ قال: لا ما أنكره ثم قال الرضا (عليه السلام): هل تعرف حيقوق النبي (عليه السلام) قال: نعم إني لعارف به قال: فإنه قال- / و كتابكم ينطق به- /: جاء الله بالبينات من جبل فاران و امتلأت السماوات من تسبيح أحمد و أمته- يحمل خيله في البحر كما يحمل في البر يأتيها بكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس يعني بالكتاب القرآن أتعرف هذا و تؤمن به؟ قال رأس الجالوت: قد قال ذلك حيقوق و لا ننكر قوله، قال الرضا (عليه السلام): و قد قال داود في زبوره و أنت تقرأ: اللهم ابعث مقيم السنة بعد الفترة، فهل تعرف نبيا أقام السنة بعد الفترة غير محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ قال رأس الجالوت: هذا قول داود نعرفه و لا ننكره و لكن عنى بذلك عيسى (عليه السلام) و أيامه هي الفترة، قال الرضا (عليه السلام): جهلت، إن عيسى لم يخالف السنة و قد كان موافقا لسنة تورا حتى رفعه الله إليه، و في الإنجيل مكتوب أن ابن البرة ذاهب و الفارقليط جاء من بعده و هو الذي يحقق الأخبار و يفسر لكم كل شيء و يشهد لي كما شهدت له أنا جئتكم بالأمثال و هو يأتيكم بالتأويل، أتؤمن بهذا في الإنجيل؟ قال: نعم لا أنكره!.

وفي الدر المنثور ٣: ١٣١- / أخرج ابن سعد و أحمد عن رجل من الأعراب قال جلبت حلوية إلى المدينة في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل و لأسمعن منه فتلقاني بين أبي بكر و عمر يمضون فتبعتهما حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتیان و أجمله فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و آله و سلم) أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجدي في كتابك ذا صفتي و مخرجي؟ فقال برأسه هكذا- / أي: لا فقال ابنه أي و الذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك و مخرجك و اشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أقيموا اليهودي عن أخيكم ثم ولى كفته و الصلاة عليه.

وفيه عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): صفتي أحمد المتوكل مولده بمكة و مهاجره إلى طيبة ليس بفظ و لا غليظ يجزي بالحسنة الحسنة و لا يكافي بالسيئة أمته الحمادون يأتزون على أنصافهم و يوضون أطرافهم أنا جيلهم في صدورهم يصقون للصلاة كما يصفون للقتال قربانهم الذي يتقربون به إلى دماهم رهبان بالليل ليوث بالنهار. وفيه أخرج الحاكم و البيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب أن يهوديا كان له على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دنانير فتقاضى النبي فقال له: ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني قال: إذن أجلس معك يا محمد فجلس معه فصلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و آله و سلم) الظهر و العصر و المغرب و العشاء و الغداة و كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتهددون اليهودي و يتوعدونه فقالوا: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يهودي يجلسك؟ قال: منعني ربي أن- / أظلم معاهدا و لا غيره فلما ترحل النهار أسلم اليهودي و قال: شطر مالي في سبيل الله، أما و الله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله مولده بمكة و مهاجره بطيبة و ملكه بالشام ليس بفظ و لا غليظ و لا صحاب في الأسواق و لا متزين بالفحشاء و لا قوال للبخنا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٠

ذلك، وقديروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي ولا نبي بعدي أوتيت فواتح الكلم وخواصه وجوامعه وعلمت خزنة النار وحملة العرش فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم كتاب الله أحلوا حلاله وحرّموا حرامه» «١».

ثم «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ» لها صلة ب «هُمْ بآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» أكثر من الصلة بما قبلها، فإن ذلك الإتيان يتبع الإيمان «بآياتنا» التي منها البشارات المدوّعة في التوراة والإنجيل، مهما كان ل «يتقون» أصلا ول «يُؤثُّونَ الرِّكَاءَ» فرعا، صلة تحضيرية للإيمان «بآياتنا» فإن الذي لا يتقي الله ليس ليؤمن بآيات الله.

و ليس «يتبعون» تختص بالعائشين زمن الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله و آله ليحرم عن رحمتها الشاملة هؤلاء الذي ماتوا قبلها، بل هم الذين حضروا أنفسهم لذلك الإتيان- إن عرفوه- عمليا إن أدركوها، وهم متبعوها علميا وعقيدا مهما لم يدركوها، إذا فالإتيان يشمل كلا الفعلية والشأنية علميا وعقيدا وتطبيقيا، فالأولان حاضران على أية حال وبقية الثالث لدوره الواقعي وهو منذ ابتعث هذا الرسول النبي الأمي

(١). الدر المنثور ٣: ١٢١- / أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و آله

و سلم) يوما كالمودع فقال: أنا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣١

صلى الله عليه و آله وهنا بشارة بنزول الإنجيل بعد التوراة في وجب ذلك الإتيان كما ونجدها في التوراة في عدة آيات تبشر بظهور الرب من ساعير وما أشبهه.

ذلك، وترى الخمسة الباقية من الثمانية هي من ميزات هذا الرسول صلى الله عليه و آله؟ وما هي إلا هيه لسائر الرسل عليهم السلام!.

ليست هذه الثمانية إلا «الأمي» وقسم آخر، هي من اختصاصاته صلى الله عليه و آله، فإنما القصد من سردها تبين انه مذكور بها في التوراة و الإنجيل فليتبعوه اتباعا لأمر الله فيهما وانه من نفس النمط الرسالي المعروف عند الرساليين، فليس - إذا - بدعا من الرسل، ثم فيه مزيد من هذه قضية ختم الرسالة والنبوة به كما يعرف تماما من المقارنة بين هذا الرسول ورسالته وبين سائر الرسل برسالاتهم: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمِّثْلِهِ وَ اذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ثم «يَأْتُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» تتبلور في «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» (٣: ١١٠).

و قد نجده في التورات والإنجيل والقرآن أمرا ناهيا، نفخت شرعته في وجب الأمر والنهي كل ما يسعه من الروحية الحيوية الشاملة، وإلى درجات متعاليات لطيق الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وكل النفائس حفاظا على الأدب الإسلامي السامي في المجموعة المسلمة ككل، ونموذجا من التوراة ما في كتاب هوشيع النبي عليه السلام (٩: ١٤) حسب النص العبراني الصوتي:

«سوفه إفريم عم الوهاى نايء فح ياقوش عل كال دراخايو مسطماه بيوت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٢

الوهايو» (٩)-:

«إفرام منتظر عند إلهي. النبي فح صياد على جميع طرقه. حقد في بيت إلهه. وقد توغلوا وأفسدوا كأيام جبعة. سيذكر إثمهم. سيعاقب خطاياهم» (٩).

فالقصد من «النبي» هنا هو «محمد» المذكور في الآية (٦) (... محمد لكسفام ..): محمد لفضتهم، حيث تعني الجزية التي يأخذها منهم، وقد رموه بالجنون والحمق كما في الآية (٧): (.. النبي أحمق.

إنسان الروح مجنون من كثرة إثمك وكثرة الحقد» وكما مضى من ذي قبل.

فقد برز محمد صلى الله عليه و آله المحقود في بيت إسرائيل، المرمي بالحمق والجنون، وهو الموصوف بالنبي الأمي صاحب الروح والوحي، برز أنه «فخ صياد في جميع طرقه» وهي طرق الدعوة الرسالية، برز هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله وسراجا منيرا، فح للشاردين، صياد للواردين، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر «١».

ثم «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» كما أحلت أو حرمت في سائر شرائع الله، و لكنه إحلال و تحريم أبديان لا يتغيران أو يتطوران، وقد كان في الشريعة التوراتية تحريمات ابتلائية أم عقوبية مؤقتة وتحليلات، مما أصبح من ميزات الشريعة الإنجيلية تحليل بعض ما حرم عليهم: «وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ..» (٣: ٥٠) ومن «الطيبات» التي يحلها هي المحرمة على الذين هادوا عقوبة، ومن الخبائث التي يحرمها هي التي حللوها كالخمر وما أشبهه، ثم يقر سائر الخبائث على

(١). راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و «الفرقان ١: ٣٦١ تجد تفصيل هذه البشارة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٣

تحريمها وسائر الطيبات على إحلالها، فليس بدعا من الرسل يخالف خط الرسالة وسنتها الشاملة.

ثم «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» فقد أشير إليهما في (أشعيا ٢٨: ١٢) بخلال التعريف بالقرآن:

«اشر أمر إليهم زنت همنوحا هانيحو لعاييف وزنت همرجعا ولا أبوء شموع» «١»:-

«الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الراح وهذه هي الرفاهية فأبوا أن يسمعوا» (١٢) قال لهم رسول هذا القرآن «هذه» الشرعة القرآنية «هي الراحة فأريحوا الراح» عن أسره وإصره، وحلوه عن غله وغله.

هذا «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و هذه زوايا أربع لقاعدة إتباعه: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ..» إيمانا به كما هو، وتعزيرا له: دفاعا عنه، وهو الحالة السلبية تجاهه ذودا عنه ما يمس كرامته، ونصرة إياه، وهو الحالة الإيجابية تجاهه، تحقيقا حقيقا لكلمة الإخلاص: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» سلبا وإيجابا عمليا، بعد الإيمان به قلبيا، وهذه الثلاثة تكرس في الزاوية الرابعة: «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ» وهو القرآن، اتباعا في كل حقوله في كل الحقول، لا اتباعا في خيال خاو زاو، دون أن يظهر في حال وفعال، أو يخطر خطر له ببال.

(١). للتفصيل راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و وحي الطفل عرض نموذجي عن كيان الرسول (صلى الله عليه و آله و

سلم) و حياته الرسالي و ميزاته نقلناه عن كتاب منقول الرضائي للحبر العظيم اليهودي الذي أسلم و ألف هذا الكتاب ردا على اليهود

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٤

«أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في كل معتركات الحياة، المفلجون كل دوائر السوء المتربصة بهذه الرسالة السامية.

و إنما «أنزل معه» دون «أنزل عليه» لنعرف المعية بين القرآن ورسول القرآن فهما فرفدان لا يتفارقان وكل دليل على صاحبه، فكما إتباع النور الذي أنزل معه مفروض، كذلك إتباعه في سنته الجامعة غير المفرقة، فهما نوران متواتيان متواليان مهما كان نور القرآن أطول أمدا وأبقى أبدا فإنه الثقل الأكبر.

و هنا مثلث «آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَرُوهُ» يتوحد في «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ» فإنه إمامه حيث هو أمامه في كل رسالاته، وهذا النور المتبوع هو الذي يأمرنا باتباعه كما موم أول لذلك الإمام، فلنصطف واء اقتداء بالقرآن الإمام، لكي نفلح كما هو أفلح، ونفلج خصوصنا كما هو أفلح.

تتمه فيها إشارات إلى بشارات كما في تصريحات آيات كهذه وفي روايات الإحتجاجات للرسول صلى الله عليه و آله و عترته المعصومين عليهم السلام، وبعد مضي زمن طويل بيننا وبين هذه التصريحات، نجد في التوراة والإنجيل - على تحرفهما ولا سيما في البشارات - نجد تصريحات لا حول عنها لهذا الرسول النبي الأمي صلى الله عليه و آله وإليكم نماذج أخرى تصديقا لاحتجاجات.

مما أشار إليه الإمام الرضا من البشارات آية «التثنية ١٨: ١٧) ونصها بالعبراني الصوتي:

«نابئ آقيم لاهم مقرب إحيحم وناتني دباري بفيو ودبر إليهم ات كال اشر اصونو» (١٧):-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٥

«بني أقيم لهم من أقرباء أخيههم كموسى وأضع كلامي في فيه لكي يقول لهم كلما أمره» (١٨) فطالما حرفت أقلام الزور والغرور ذلك النبي المبشر عن بيت إسماعيل إلى بيت إسرائيل، ولكنه بعد النص «مقرب إحييم»: من أقرباء أخي بني إسرائيل، لا منهم، و قد تسمى التوراة أبناء الأعمام إخوة، ف «عيص» وهو أخو يعقوب، يصبح بنوه إخوة بني إسرائيل كما في «تث ٢٨: ٨- ١٠» (و مر القوم وقل لهم إنكم على حد إخوانكم بني عيص ..» وعيص هذا هو صهر إسماعيل بن إبراهيم ومن أولاد بنت إسماعيل، إذا فولد إسماعيل هم أحوال بني عيص، فأقرباء بني إسرائيل هنا هم من بني إسماعيل، ولم يظهر نبي من بنيه إلا محمد صلى الله عليه و آله ذلك وقد مضى نص التورات وحقوق النبي بمطلع النور القدسي المحمدي من «پاران»: حرى، فلا نعيد.

و في «نبوءت هيلد»: وحي الطفل: لحمان حظوفاه، بحرف الميم من سلسلة مقالاته حول الرسول صلى الله عليه و آله حسب حروف الحساب:

«محمّد كايا إعا بايا ديطمع هوبا ويهي كليليا»:-

و هي حسب مختلف التراجم اليهودية: «محمد عظيم قدير.

الشجرة الطيبة البارزة. المأمول المغبوط المرتضى. الذي يخدم. ويفني ما مضى.

هو الجمع والكل. هو التاج. وهو الكل» وفي أناشيد سليمان النبي عليه السلام (٥: ١٦):

«حكوا ممتقّيم وكولو محمد يم زه دودي وه رعى بنت يرشالام»:-

«فمه حلو- وكله محمد- هذا محبوبي- وهذا ناصري- يا بنات أورشليم»!.

و ذلك بعد مواصفات عدة محبوب له لا يسميه، فختيل إلى بنات أورشليم أنه يعني وحدة منهن حتى صرح باسمه وسمته أخيرا بما صرح!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٦

و في كتاب أشعيا النبي عليه السلام بشارات عدة أشار إلى بعضها الإمام الرضا عليه السلام في حوارهِ وإليكم بعضاً آخر، ففي (٤١: ١- ٢٥): مواصفات دون تصريح بالموصوف بها، وهي لا تنطبق بالضبط إلا على محمد صلى الله عليه و آله حيث يقول الله فيها: ١ هوذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سرّرت به نفسي.

وضعت روعي عليه فيخرج الحق للأمام ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته. ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ. إلى الأمان يخرج الحق ٤ لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته- ٥ هكذا يقول الله الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض وتناجها، معطي الشعب عليها نسمة والساكين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمام ٧ لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن

الجالسين في الظلمة- ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها. قبل أن تثبت أعلمكم بما ١٠ غتوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها «قيدار» لتترنم سكان سلع من رؤوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر ١٣ الرب كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه- ١٤ قد صحت منذ الدهر سكّت تجلّدت. كالوالدة أصبح. أنفخ وانخر معا ١٥ أخرج الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار يبسا وأنشّف

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٧

الآجام ١٦ وأسير العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشيهم. أجعل الظلمة أمامهم نورا والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعالها ولا أتركهم ١٧ قد ارتدوا إلى الوراء. يجزى خزيا المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن أهنتنا- ١٨ أيها الصمّ اسمعوا. أيها العمي انظروا لتبصروا ١٩ من هو أعمى إلّا عبدي وأصم كرسولي الذي أرسله. من هو أعمى كالكمال وأعمى كعبد الرب ٢٠ ناظر كثيرا ولا تلاحظ. مفتوح الأذنين ولا يسمع ٢١ الرب قد سرّ من أجل برّه. يعظم الشريعة ويكرمها ٢٢ ولكنه شعب منهوب ومسلوب قد اصطيد في الحفر كلّه وفي بيوت الجوس اختبئوا. صاروا نعبا ولا منقذ وسلبا وليس من يقول ردّ- ٢٣ من منكم يسمع هذا. يصغي ويسمع لما بعد ٢٤ من دفع يعقوب إلى السلب وإسرائيل إلى الناهبين.

أليس الرب الذي أخطأنا إليه ولم يشاءوا أن يسلكوا في طريقه ولم يسمعوا لشريعته ٢٥ فسكب عليه حمو غضبه وشدة الحرب فأوقدته من كل ناحية ولم يعرف وأحرقته ولم يضع في قلبه».

هذه الآيات البيّنات تبشر بولي عظيم من أولي العزم من الرسل عليهم السلام ليس ليصدق على المسيح عليه السلام الآتي بعد أشعياؤه اللهم إلّا على محمد صلى الله عليه و آله خاتم الأنبياء.

فالآيات (١-٣-٤-١٠) تبشر بولاية عزمه وانه صاحب شرعة مستقلة جديدة، وشرعة المسيح حسب نصوص من الإنجيل إضافة إلى خلوه عن أحكام، هي شرعة التوراة إلّا في قليل هو تحليل البعض من المحرمات العقوبية.

و الآيات (١-٢-٣-٤-٦) تصرح بأهمية شرعته العالمية وأنه صلى الله عليه و آله هدى ونور لقاطبة الملل، والآيات (٤-١٠) تقول إن كافة الأمم تنتظر مجيئه وهي مأمورة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٨

بالدخول في شرعته، وهو يكسر الأصنام ويزيل عبادة الأصنام (٨-١٧).

و مبدء ظهوره وانتشار شرعته البلاد المسكونة ل «قيدار»- وهو الولد الثاني لإسماعيل (تكوين ١٣: ٢٥) وهو جد محمد صلى الله عليه و آله وأعظم معبد لأتمته في هذه البلاد حيث المستطيعون يقصدونه من مشارق الأرض ومغاربها وترفع البرية ومدنّها وصوتها الديار التي يسكنها قيدار، ترنّمًا بتسبيح الله من على رؤوس الجبال (١١-١٢).

و قد تعني «مختاري» في «١» المصطفى حيث حرّف بالمعنى وكما يؤيده الآية (١٠) كما ترجمها القسيس أو سكان الأرمني «٢»: (يسبحون الرب تسبيحا جديدا وأثر سلطانه يكون بعده واسمه «أحمد».

هذه نماذج من البشائر بحق هذا الرسول النبي الأمي، ولكن ترى ماذا كانت المواجهة اليهودية والنصرانية لهذا الرسول ولرسالته؟ لقد كانوا أنحس وأتعس من المشركين وسائر الملحدّين لحدّ يندد الله بفعلتهم قائلا:

«و لا تُكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ» (٢: ٤١).

ذلك وعلى طول الخط نرى دوائر السوء في كافة الحلقات مستخدمة من

(١). لقد ذكر «قيدار» في (أشعيا ٦٠: ٧) أيضا كما يقول في بشارة أخرى في آيات عدة تعريفًا بصاحب هذه الشرعة المبشر بما:

«كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي و ازين بيت جمالي» و للاطلاع على تفصيل بشارات

أشعياؤه راجع (رسول الإسلام)

(٢). هذه الترجمة كتبها هذا القسيس على كتاب أشعيا في (٧٣٣) ١ و قد طبعت في مطبعة (أنتوني بورتولي)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٣٩

الصهيونية والصليبية ضد الكيان الإسلامي، حيث تعالج- بزعمها- إزالة هذا الدين من الوجود.

فهل يبقى هنا مجال التعاون بيننا وبين اليهود والنصارى في وه التيار المادي وسائر الإلحاد وهؤلاء وهم أهل كتاب أخطر وأضر على الكيان الإسلامي من كافة الكفرة والملحدين!.

ذلك، هو «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ».

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أركان أربعة للإفلاح ابتداء من الإيمان به كما يصح، ثم «و عزروه» توقيرا ثقيلا قدر ما وره الله، فليس الإيمان به كسائر الإيمان بسائر الرسل، إنما هو الإيمان بمن يحمل الرسالات كلها، فليوقر كما توقر الرسل كلهم وزيادة هي رمز الخلود.

ثم وليس الإيمان والتوقير- فقط- في زوايا القلب، بل وهناك ترسيم للإيمان الموقر في صحيفة العمل، فيه نفسه: «و نصروه» في حمل هذه الرسالة تطبيقا إياها ودعاية لها، وفي كتابه «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ» وهو رأس الزاوية من نصرته. فقد تلخصت هذه الزوايا الأربع في الرابعة «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ» وإذا «أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في معارك الحياة وملتوياتها ومنحنياتها.

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٠

اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨).

هنا في هذه الإذاعة القرآنية مجاهرة صارخة بأمية هذه الرسالة السامية حيث تحلق على الناس كل الناس، فكما الله هو «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» كذلك هذه الرسالة الأخيرة تدير أمر الشرعة العالمية في السماوات و الأرض، دون إبقاء لمكلف في الكون إلاوهي تشمله.

«فآمنا» أيها الناس هودا ونصارى وسائر الكتابيين وغيرهم من المكلفين ملحدين ومشركين «فآمنا بالله و رسوله...» كما وهو

«يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، «فآمنا بالله»- «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ...»

«و رسوله» الذي ملك الدعوة الربانية لمن في السماوات والأرض، وكما الله يحيي الأموات ويميت الأحياء، كذلك يسلب الرسالة عن قوم ويرسلها إلى آخرين، وذلك رغم المزعمة الإسرائيلية أن رسالة الله خاصة بهم.

«فامنوا بالله و رسوله النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» المبشّر به في كتاباتكم «الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ» فآمنا أنتم بالله و كلماته، و منها هذا الرسول نفسه بكلماته.

و لأن السورة مكية وهذه الآية دعوة للناس كافة، وقد كان الرسول صلى الله عليه و آله في العهد المكي يعيش تحت كافة الضغوط المشتركة ما يؤيس صاحب الدعوة عن تأثيرها حتى في بلده فضلا عن العالمين، من هنا نعرف أن هذه الرسالة بدأت عالمية، رغم الزعم الفاسد الكاسد أن محمدا صلى الله عليه و آله لم يكن يخلد بخلده أن يمد بصره بهذه الرسالة إلى غير مكة، وإنما بدء يفكر في توسعتها العالمية بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف المدنية.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤١

كلّاً يا هؤلاء الأغبياء! إن هذه الرسالة ختمت بما بدأت وبدأت كما ختمت في صيغة وصياغة وحدة وفي قوة التعبير و التدبير ومسالك الدعوة والدعاية.

فما هؤلاء المجاهيل من المبشرين الإنجيليين المدّعين- لأكثر تقدير- أن الرسالة القرآنية خاصة بالعرب لإشارات آيات يزعمونها، ما هؤلاء بناس، حيث الدعوة القرآنية تحلق على كل الناس، فإن كانوا هم من الناس فلتشملهم هذه الدعوة، وإن كانوا من النسناس فأقن لهم أن يتحدثوا عن شرعة الناس!؟.

ف «ما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ» (٣٤: ٢٨) و «لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا» (٦):

(٩٢) (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٢١: ١٠٧) وما أشبهه، هي القواعد الأصيلة لأهمية هذه الدعوة، مما تفسر الآيات التي تحيّل اختصاص الدعوة بالعرب، واجتثاثها عن غير العرب، تفسر أنهم هم المبدء الأول لهذه الدعوة لكون الداعية منهم وفيهم، وكما في سائر أولي العزم من الرسل سلام الله عليهم أجمعين.

أجل، وهذه الجمعية الرسولية والرسالية العالمية هي حقيقة بهذا الرسول النبي الأمي المعروف الشهير حيث «أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلثات، والناس في فتن انجذم فيها جبل الدين، وترعزعت سوارى اليقين، واختلف النجر، و تشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصي الرحمان، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٢

لواءه، في فتن داستهم بأخفافها، ووطنتهم بأظلافها، وقامت على سناكبها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم» (الخطبة ٢). وفي وف الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه و آله نراه أكرمهم وأعزهم حيث «استودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف- حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد صلى الله عليه و آله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبيائه، وانتخب منها أمناءه- عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمره لا تنال- فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه- سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل- أرسله على فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم إلى دار السلام، وأنتم في دار مستعتب على مهل و فراغ، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والأبدان صحيحة، والألسن مطلقة، والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة» (الخطبة ٩٣).

«مستقرة خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، ومعاهد السلامة، قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثبتت إليه أزمة الأبصار، دفن الله به الضغائن، وأطفأ به النواثر، ألف به إخوانا، وفرق أقرانا، أعز به الذلة، وأذل به العزة، كلامه بيان، وصمته لسان» (الخطبة ٩٥).

«أختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٣

ومصاييح الظلمة، وينابيع الحكمة- طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، وأذان صم، وألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الخيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الناقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية، قد انجابت السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجة الحق لخابطها، وأسفرت الساعة عن وهها، وظهرت العلامة لتوسمها- مالي أراكم أشباحا بلا أرواح، وأرواحا لا أشباح، ونساكا بلا صلاح، وتجارا بلا أرباح، وأيقاظا نوما، وشهودا غيبا، وناظرة عمياء، وسامقة صماء، وناطقة بكماء» (الخطبة ١٠٧).

ذلك! وترى كيف لا يضمن هنا الاهتداء بذلك الإيمان والإلتحاق وقد كتب الله رحمته لهؤلاء المؤمنين المتبعين؟ لأن مجرد بادئ الإيمان والإلتحاق أيًا كان لا يضمن دائب الاهتداء، وإنما هو الاستمرار فيها بشروطهما بعون الله وفضله، فرب مؤمن به متبع له سوف يكفر، ورب كافر به ناكر له سوف يؤمن، فلنسأل الله حسن العقابة والخاتمة كما نسأله حسن البداية.

وَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩).

هنا «مِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ ..» وفي أخرى «مَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» (٧: ١٨١) و في الثالثة «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَحْمَةٍ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» (٦٦). فالأولى خاصة بقوم موسى ومثلها: «وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٤

كأنوا بآياتنا يُوقِنُونَ» (٣٢: ٢٤) و هنا ما تختص بالذكر من هؤلاء الأئمة الهادية كإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: «وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» (٢١: ٧٣).

ثم الثالثة تعممهم إلى قوم عيسى، وآية الأنبياء تعمها إلى قوم محمد صلى الله عليه و آله مما يدل على أن هذه الأمة الهادية بالحق العادلة به هي الأئمة من كل أمة، معصومين كأصول، وعلماء ربانيين كفروع لهم. ف «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» هي الهداية بمصاحبة الحق وبسببه، وهو حق الوحي كتابا وسنة، ثم «وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» هو العدل بالحق والعدل عن الباطل بالحق، فالحق هو الذريعة الوحيدة في العدل والهدى ليس إلا، دون مصليحات هاوية وقياسات خاوية غاوية وما أشبهها من دون الحق الحقيقي بالاتباع.

ذلك، «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (١٠: ٣٥)- (و لم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه، ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأفلون عددا، وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء وجعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله فيمن آمن من قوم موسى: «وَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ».

فأس الزاوية في مثلث الهداية هو رسول كل أمة، ثم الأئمة من قومه، ومن ثم ربانيو الأمة وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «معاشر الناس أنا الصراط المستقيم الذي أمرتم بإتباعه ثم علي من بعدي ثم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٥

ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون» «١».

ذلك، ولأن «يهدون» مضارعة تشمل الحال إلى الاستقبال، فالأصل فيهم بالنسبة لزمن نزول القرآن هؤلاء الذين آمنوا به ودعوا له وهدوا

و قد سبقهم نبين وربانيون ومؤمنون إسرائيليون كانوا ينتظرون تشريف هذه الرسالة السامية.

و على أية حال ف «أمة» هنا تضم من «قَوْمِ مُوسَى» كل من «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَغْدُلُونَ» و قضية احتمال الواو أنها حالية، أن «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى» بيان حال الماضية، كما أن قضية احتمال العطف بيان الحال الحالية، والجمع أجمل وأجمع، لأن أمة الحق بين الأمم الرسالية لا يختصون بزمان دون زمان، والآية طليقة في هؤلاء الأكارم.

و في أحاديثنا أن هذه الأمة من قوم موسى هم ممن يرجعون في دولة المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه.

وَ قَطَعْنَا لَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطاً أُمَّماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ

(١). نور الثقلين ٢: ٨٦ في كتاب الإحتجاج باسناده إلى الإمام محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في خطبة الغدير: .. و فيه في الكافي عن مسعدة بن صدقة سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول يسأل عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أو واجب هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا فليل له: قال: إنما هو على القوى المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أي من أي و الدليل على ذلك كتاب الله تعالى قوله: «وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يُأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فهذا خاص غير عام كما قال الله:

«وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَغْدُلُونَ» و لم يقل على أمة موسى و لا على كل قومه و هم يومئذ أمة مختلفة و الأمة واحدة فصاعداً كما قال الله سبحانه و تعالى: «إِنَّ إِثْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ» يقول: مطيعاً لله تعالى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٦

اضْرَبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَ السَّلْوى كُفُلًا مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠).

آية ويدة في بيان عديد الأسباط، بعد آيات أربع تذكرهم دون عديدهم، وهم هنا «أما» بعد كونهم أمة وحدة في شرعتهم. و ترى كيف هنا «أسباطاً أُمَّماً» و تمييز ما فوق العشرة مفرد؟، إنه قد لا يكون تمييزاً، بل هو بدل يعني قطعناهم أسباطاً أما هم اثني عشرة، أم ان «أسباطاً أُمَّماً» حالان ل «هم» فإن وقع عديد الأسباط لا يقبل التقطيع لأنه تحصيل للحاصل، وإنما «قطعناهم» تفريقاً بينهم حال كونهم أسباطاً أما، أم لأن تمييز ما فوق العشرة لا يختص بالافراد، فقد يجمع كما هنا، وأخرى يفرد ك «عيناً» تمييزاً ل «اثنتا عشرة» والقاعدة الأدبية المخالفة لأدب القرآن هي خارجة عن الأدب البارع.

ذلك، فتقدير تمييز مفرد حفاظاً على الأدب المزعوم تغدير على أدب القرآن، ولا يصلح تمييزاً ل «اثني عشر» إلا «أسباطاً». و ترى هذا التقطيع لهم رحمة؟ وهو زحمة قضية الاختلاف! إنه زحمة كأصل حيث الوحدة هي الرحمة «وَ لَا يَزَالُونَ مُحْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِيَذَلِكَ خَلْقَهُمْ» (١١: ١١٩) ثم هو رحمة في غير أصل حين لا تعايش سلمياً بين مختلف الأسباط، و هكذا كانوا مختلفين لا يتعايشون فقطعهم الله حتى يتخلصوا عن أعباء الخلافات، قطعناهم لحد «أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرَبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ..» وكما «بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٧

عَشَرَ نَقِيباً» (٥: ١٢).

ذلك، وسائر مواضع الآية مفسرة مفصلة على ضوء آيات البقرة اللهم إلا «و ما ظلمونا و لكن كانوا أنفسهم يظلمون» و كما في البقرة «و ظلمنا عليكم العمام و أنزلنا عليكم المن و السلوى كلاً من طيبات ما رزقناكم و ما ظلمونا و لكن كانوا أنفسهم يظلمون» (٥٧).

و هذه حقيقة هي حقيقة بالاتباع أن الله لا يظلم كما لا يظلم حيث الظلم هو الانتقاص ولا ينتقص من ربنا في وقع كيانه بشيء وكل شيء غيره قابل للانتقاص.

و لقد ظلمت هذه الآية فيما ظلمت أى أخرى من القرآن بما اختلقت من رواية تروى لقلة الفهم وسوء التفهم أها نزلت «و ما ظلمناهم..» «١».

و إذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية و كلوا منها حيث شئتم و قولوا حطة و ادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيدهم المحسنين (١٦١).

لقد مضى قول فصل حول مغزى الآية على ضوء نظيرتيها وهما (٢: ٥٨ و ٤: ١٥٤) مهما كان بين هذه الثلاث تقديم وتأخير في التعبير، ومثلت العرض في القرآن لهذه

(١). نور الثقلين (٢: ٨٧) في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام) في الآية قال: ان الله أعز و أمنع من أن يظلم و ان ينسب نفسه إلى الظلم و لكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه و ولايتنا ولايته ثم أنزل بذلك قرآنا على نبيه فقال: «و ما ظلمناهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون» قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، و فيه مثله عن أبي جعفر (عليهما السلام)، و فيه ما يعارضهما عن الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل: و أما قوله «و ما ظلمونا و لكن كانوا أنفسهم يظلمون» فهو تبارك اسمه أجلّ و أعزّ من أن يظلم و لكنه قرن أمناءه على خلقه بنفسه و هو عرف الخليفة جلاله قدرهم عنده و ان ظلمهم ظلمه بقوله: «و ما ظلمونا» ببغضهم أولياءنا و معونة أعدائهم عليهم «و لكن كانوا أنفسهم يظلمون» إذ حرموها الجنة و أوجبوا عليها دخول النار. أقول: و في خلط أولياءه بنفسه خلط لا يناسب شرعة التوحيد!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٨

الذكرى هو قضية مثلت الملابس البيانية في الذكر الحكيم.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢).

و لها ثانية باختلاف يسير في التعبير هي: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٢: ٥٩).

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٤ الى ٣٦١]

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ رِيبٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّاماً مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ لَنَا وَ إِنَّا يَا تَهُم عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَمْ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (١٦٩)

وَ سَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتَيْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٤٩

(١٦٣).

و هنا عرض منقطع النظير عن حيلة شرعية! لهؤلاء المحتالين الأنكاد البعاد تبين مدى غيلتهم على شرعة الله تحويلا لمحرمت إلى محلات وكان شرعة الله مبنية على الحيلة حتى تقبل حيلة تحولها إلى ما يشتهون، وكما تفعله جماعة من المسيحيين والمسلمين المجاهيل مستندين إلى مختلقات زور زعم أنها حيل شرعية! قررها صاحب الشرع للقضاء على شرعته!

و «الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» هي ليست حاضرة الاسم، إذ القصد هنا هو وقع الاحتيال، دون مكانه الخاص وأشخاصه الخصوص، ومهما اختلفت الروايات في أنها: إيلة أو طبرية أو مدين، فنحن نسكت عما سكت الله عنه دون محاولة للحصول على اسم القرية.

و هنا «يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» تعني - فيما تعني - صيد الحيتان يوم السبت بحيلة أم غيلة لمكان «إِذْ تَأْتِيهِمْ...» والسبت هو القطع، حالة اليقظة عن أفعال اختيارية بالإرادة، وحالة النوم، سبتا عنها دون إرادة، ف «جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا» (٧٨: ٩) تعني ثاني القطعين من قطاع السبت، فإنه فيه الراحة والدعة، فقد يمتن الله بالسبت كما في النوم لما فيه لنا من المنفعة والراحة، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئا من الراحة، بل يصبحهما في الأكثر القلق والانزعاج والهموم التي تقلل النوم وتنزره، وفراغ القلب ورخاء البال يكون معهما غزارة النوم وامتداد، وهذا هو النوم السبات، دون سائر النوم غير السبات.

و يقابل سبات النوم سائر النوم، وكذلك السبت الذي يصد عن منافع معينة معينة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٠

في الحياة كما فعل باليهود يوم السبت.

فلقد كان يوم السبت يوم السبت: القطع عن الأعمال غير الضرورية، ومنها صيد الحيتان، ولكنهم عدوا فيه، ولم يكن يقصد من

فقط - عمله يوم السبت حتى يكونوا أحرارا في سائر المحاولات حول صيد السبت.

فكما «حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا» (٥: ٩٦) تحريم كافة المحاولات حول الصيد حالة الإحرام، إشارة وأخذها وبيعا وشراء وأكلا وإيكالا وما أشبه في حقل الإحرام، كذلك السبت كان إحراما على هؤلاء، إذ حرم عليهم فيه - فيما حرم - صيد الحيتان، فكل المحاولات يوم السبت حول الصيد محرمة، أخذها فيه، أو حصرا ليأخذوه بعده، أم أكلا مما أخذ يوم السبت أو سواه من قضايا الصيد من تقدمات ونتائج وأية ونج في حقل صيد السبت.

و قد اختص الصيد هنا بالذكر من بين كل مسبوت فيه يوم السبت، لأنه كان أفيد من كافة الأعمال، ولا سيما أن حيتانهم كانت «تأتيهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يستون لا تأتيهم كذلك» الصعب المتلوي «نبلوهم» مثل هذه البلوى الشديدة «بما كانوا» طول حياتهم النحيسة «يفسقون» عن شرعة الله أصولا وفروعا.

«و سألهم» سؤال تنديد وتبكيث عن ماضي تأريخهم الأسود، المستمر على طول الخط بمختلف ألوان فسوقهم عن شرعة الله ... «إِذْ يُعْدُونَ فِي السَّبْتِ» عدوا معتديا متعديا على شرعة الله «إِذْ تَأْتِيهِمْ...».

فتراهم كيف عدوا فيه؟ هل صادوا فيه الحيتان جهارا ودون ستار؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥١

و العصيان الجاهر هو دأبهم الدائب في المحرمات الأصلية، والسبت عن العمل يوم السبت كان ابتلاء لهم لردح محدد من الزمن! سبتا عن مختلف تخلفاتهم النحيسة عن شرعة الله، وليس مجرد الصيد في أصله مما يستحق به غليظ العذاب: «كُوتُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

أم احتالوا في صيدهم إذ لم يصيدوها يوم السبت، وإنما سدوا عليها منافذ الفرار فصادوها بعد السبت؟ أم تأولوا محرم الصيد يوم سبتهم أن القصد منه حرمة أكل الصيد يوم السبت دون مجرد صيده؟ وهذا أنحس وأنكى لأنه يضم إلى محرم العمل محرم الحيلة الغيلة في حكم الله، تحليلا لما حرمه الله بتلك الحيلة، أم افترقوا في عدوهم إلى هذه الفرق الثلاث؟ قد تحملها كلها «إذ يعدون» فإن مجرد الصيد يوم سبتهم كان محرما عليهم سواء أصادوا ولم يأكلوا، أم وأكلوا، أم لم يصيدوا في نفس اليوم وإنما سدوا عليها طرق الفرار «١».

(١). نور الثقلين ٢: ٨٨ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أن قوما من أهل إيالة- و هي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام- أو آخر الحجاز و أول الشام- من قوم ثمود و أن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم و قدام أبواهم في أنهارهم و سواقيهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاهم عنها الأحبار و لا يمنعهم العلماء من صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت و لم تنهوا عن صيدها فاصطادوها يوم السبت و أكلوها فيما سوى ذلك من الأيام فقالت طائفة منهم: الآن نضطادها فعتت و نحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا: نهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره، و اعتزلت طائفة أخرى منهم ذات اليسار فسكنت فلم تعظهم فقالت للطائفة التي و عظتهم: «لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» فقالت الطائفة التي و عظتهم: «مُعَذَّرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» قال: فقال الله عزّ و جلّ «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ» يعني لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة فقالت الطائفة التي و عظتهم: لا و الله لا نجاكم و لا نأتاكم هذه الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمننا معكم، قال: فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن تصيبهم البلاء فنزلوا قريبا من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبحوا أولياء الله المطيعون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت فدقوه فلم يجابوا و لم يسمعوا منها حس أحد فوضعوا سلما على سور المدينة ثم اصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاونون فقال الرجل لأصحابه: يا قوم أرى و الله عجبا، قالوا: و ما ترى؟ قال: أرى القوم قد صاروا قردة يتعاونون لها أذنان، فكسروا الباب، قال: فعرفت القردة أنسابها من الإنس و لم تعرف الإنس أنسابها من القردة فقال القوم للقردة: ألم نهكم؟

فقال علي (عليه السلام): و الله الذي فلق الحبة و برأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون و لا يغيرون بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا و قد قال الله: «فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و قال الله: «أَتَجِيبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٢

ففي صيد الحيتان وأكلها يوم السبت ثلوث من المحظور فإنه عمل وصيد وأكل منه وكلها ممنوعة فيه، وفي صيدها فيه - فقط - دون أكل محظوران اثنان، ثم في سد طريقها دون صيد يومه ولا أكل محظور وحده، ولكنه مع الثاني قد يكون أشد من ثلوثهم لمكان الحيلة على شرعة الله، فرية وحة على الله كأنه سن في شرعته حيلة وغيلة وهما من قضايا الجهالة والضعف!

و هنا «إذ تأتيتهم ..» دليل أنهم كانوا لا يصيدون يوم السبت لفترة، ثم لما رأوا «تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ» أخذوا يعدون في السبت في حقل هذه الثلاث.

أجل، ولأن الحيتان كانت متعودة على حرقتها يوم السبت، لذلك جعلت تترائي لهم على الساحل، كثيرة الورد، قريية المأخذ، سهلة الصيد، فكانت تفوتهم متنقلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٣

من أيديهم يوم سبتهم وقطعهم الصيد فيه، ثم «يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ» وهو غير السبت من أيام الأسبوع «لا تأتيتهم». و تراها تشاورت في أمرها فعاكست إتيانها في معاكسة السبت مع سائر الأيام، وذلك الترتيب الرتيب هو منقطع النظير في السواحل، فليكن بخارقة ربانية إذ «كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» نبلوهم بسبتهم يوم السبت، وبسبت حيثانهم في غير السبت «إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا» بوفرة وكثرة شارعة هارعة إلى الساحل وكأنها تسخر من هؤلاء المسبوتين، فلم يتحمل فريق منهم هذه السخرية فأخذوا يصطادون جهازا، وراح آخرون يحتالون على السبت، يقيمون الحواجز على الحيتان يَحْوِطُونَ عليها يوم سبتهم حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليها واصطادوها زاعمين أنهم لم يصطادوا في السبت إذ كانت في الماء واء الحواجز غير مصيدة، ود يروى عن رسول الله صلى الله عليه و آله في ذلك المضمار قوله: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل» «١» فليست الحيلة لتغير وقع المحظور حين يكون المحظور وقعا من الأمور.

و راح ثالث يصيدونها في يوم السبت ولا يأكلونها في نفس اليوم تأويلا أن المحرم هو أكلها يوم السبت، رغم أن الأكل لم يكن بنفسه من ضمن السبت: القطع، إنما هو العمل صيدا أم صدا للصيد أما أشبه من أعمال غير ضرورية يومية.

و ترى كيف كانت حالة الباقيين الذين لم يعدوا في السبت تجاه الذين عدوا فيه؟

(١). الدر المنثور ٣: ١٣٩- / أخرج ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه و آله وسلم) قال: .

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٤

إنهم اقتسموا قسمين اثنين، قسم نحو عن السوء، وآخرون سكتوا عنه ونحو هؤلاء عن نهيهم عن السوء، أم وثالث سكتوا عن النهيين، نهي الناهين ونهي العاصين.

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤).

فهنا عظة للذين كانوا يعدون في السبت من أمة منهم «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ»، و أمة أخرى لا تعظ العادين، و إنما تعظ هؤلاء الواعظين:

«لم تعظون ..» تنديدا بهم كأنهم أتوا بمنكر في نهيهم عن المنكر، «قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» و هما دعامتان في حقل الأمر والنهي للحفاظين حدود الله وكما يقول الله: «فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا. عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» (٧٧: ٦).

فعلى الداعية مواصلة الدعوة بإلقاء الذكر، فإن لم يؤثر ف «عذرا» عند الله أني بلغت، ولكيلا يكون في تركه حجة للمتخلفين، وإن أثر ف «ندرا» ف «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ حَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» (١١ : ٣٦) إنذارا مؤثرا. فالإنذار بكل بنوده هو وجب الداعية في كافة الحقول. سواء لهؤلاء الذين «سواءً عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (٣٦ : ١٠) فإنه «سواءً عَلَيْهِمْ» لا عليك «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ» (٣ : ٢٠).

مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ..». إذا فليس احتمال التأثير في باب الأمر والنهي مما يحتمله هذان الفرضان الإلهيان، و إنما «عذرا»: «مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ» أو «ندرا»: «وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» وهنا «ربكم» في موقف التنديد بهؤلاء الذين تركوا وجب التربية بذلك النهي وانحازوا إلى النهي عن ذلك النهي.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٥

ثم من عظيم الفائدة فيمن تعلم أنه لا يتأثر بالفعل، أنه لعلّه يتأثر بتكرار العظة وتواترها، أم- ولأقل تقدير- تكون العظة حجة عليه كيلا يقول الذي لا يتأثر: إن وظت تأثرت، أو إن كررت لاتعظت، فتواتر العظة البالغة- إذا- حجة بالغة على طول الخط، وقد تؤثر في قوم لئد:

«لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ يُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» (١٩ : ٩٧) - (لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» (٣٦ : ٦) - (لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنَا لَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» (٣٢ : ٣) فالنهي فرض رباني نؤديه على أية حال لنبليغ إلى ربنا عذرنا بما أدينا من وجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية القاسية الجاسية فيثير فيها حراس التقوى بعد مراس الطغوى.

ذلك، فكل من «مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ» و «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» موجب بنفسه وجب الأمر والنهي على أية حال، واشترط احتمال التأثير في فرض الأمر والنهي لا يعدو الخيال مهما أفتى به جموع من هؤلاء الذين لا تهمهم النصوص القرآنية، ماشين واء الشهيرات و الإجماعات مهما خالفت نصوص الكتاب!، ولا يفلت عن وجب الأمر والنهي إلا في ظروف الحفاظ على الأهم القاطع الناصح، وما سواها على سواء في فرضهما، سواء أيقن بالتأثير، أم ظن أو شك أو احتمال أو لم يحتمل، فإن الواقع أوسع من احتمالها، وعلى فرض العلم بالواقع فهما حجة على الخاطئين لكيلا يقولوا علنا نتأثر بمرور العظة البالغة.

و القول: إن الجمع بين الأمرين هو الذي يفرض النهي، دون كل واحد منهما، مردود بأن «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»- إذا- كاف، فإن النهي عنده عذر كاف، فليكن كل منهما مستقلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٦

في فرض النهي، والأصل العام هو

«مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ» فيما لا يؤثر أو نعلم ألا تأثير، إذ لا نحيط علما بواقع الأمر. ثم «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» حين نحتمل التأثير أم أثر مهما نعلم ألا تأثير.

و مما يبين استقلال كل واحد من الأمرين «عُدْرًا أَوْ نُذْرًا» ف «عذرا» هو «مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ» و «ندرا» هو «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ». و مما يبين أن ظاهر الحال ما كان يشير إلى احتمال التأثير قول هؤلاء لهم: «لَمْ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» فذلك التعبير القاطع يدل على أنه لم يكن هناك دور حاضر لاحتمال التأثير.

فإجابة عن حال عدم الاحتمال «مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ» وأخرى مشيرة إلى وقع الحال «وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» فلا يطغون، فلا دور هنا لترجي التقى إلا فيما واء الاحتمال الحاضر، رعاية الواقع الذي هو أوسع من ظاهر الحال.

و من عظيم فرض النهي عن السوء فيما لا يحتمل التأثير أن الله لم ينج من عذابه البئيس إلا الذين ينهون عن السوء، حيث شمل هؤلاء الذين لم ينهوا عن السوء هناك بل ونهوا الناهين عن السوء كأنهم أتوا بسوء!.

و هكذا الساكتين عن كلا النهيين حيث يختص الإنجاء بالذين ينهون عن السوء:

فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥).

فلما لم يجد النصيح ولم تنفع العظة وسدر السادرون في غيهم حقت كلمة العذاب عليهم وتحققت نذره، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء ثم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٧

الآخرون أخذهم عذاب بئيس بما كانوا يفسقون، اقترافاً للفسق الأصيل، أم تركا للنهي عنه، فضلا عن نهي الناهين عن السوء «لم تعظون»؟.

ذلك، ومما يلمح له ذلك العذاب البئيس أن الجهل بذلك الحكم غير معذور لأنه جهل مقصر من هؤلاء الذين عاشوا رسالة الله المذكورة إياهم بواجب الأمر والنهي وحدودهما، أم أن العذاب موجه إلى الذين ظلوا على جهلهم جهالة بواجب النهي فلم ينهوا، وهذا أولى وأحرى. فَلَمَّا نَسُوا الَّذِينَ عَدُوا فِي السَّبْتِ «ما دُكِّرُوا بِهِ» من عظة الواعظين، كما «فَلَمَّا نَسُوا» التاركون للنهي عن السوء، الناهين عن ذلك النهي وسواهم «ما دُكِّرُوا بِهِ» من «مَعْدِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»- «أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ» سواء الأولين، أم التاركين للنهي المتعظين بالعظة فأصبحوا معهم من الناهين «وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا» وهم كلا العادين في السبت، والتاركين للنهي عنه نسيانا معمدا لتلك العظة «بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

فيا لذكرى الرب من حامية حائطة على الإنسان النسيان، ولو أننا ذكرنا وعلمنا وقع حالاتنا المزرية المخجلة لما رفعنا رؤوسنا اختجالا، وكما يقول إمام الذاكرين للغافلين: «و لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذا خرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتكم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمت كل امرئ منهم نفسه لا يلتفت إلى غيرها، ولكنكم نسيتم ما ذكرتم، وأمنتم ما حذرتهم، فناه عنكم رأيكم، وتشتت عليكم أمركم ..» (من الخطبة ١١٥).

و لأن العذاب البئيس دركات حسب دركات السوء والفسق، فقد اختص العاتون

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٨

عما نهوا عنه بأبعسه:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦).

فقد نجت فرقه وهي الناهية عن السوء أولا أو أخيرا، ثم الذين ظلموا عاتين أم تاركين لنهيهم عن السوء أخذهم عذاب بئيس، و قد أجمل عن عذاب الآخين تصريحاً بعذاب الأولين أن: «قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

أجل فقد «افترق القوم ثلاث فرق: فرقة نعت واعتزلت، وفرقة أقامت ولم تقارف الذنوب، وفرقة قارفت الذنوب، فلم ينجو من العذاب إلا من نهي ..» «١».

فهم إذا «صنف ائتمروا وأمروا فنجوا، وصنف ائتمروا ولم يأمرؤا فمسخوا ذرا وصنف لم يأتمروا ولم يأمرؤا فهلكوا» «٢» و هؤلاء الآخرون هم الذين «قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» وهذا جزاء واق أنكم كما جعلتم أنفسكم قردا خاسئة فلتكن أبدانكم كأنفسكم، مسخا عن

صورة الإنسانية كما مسختم عن سيرتها، فقد انتكسوا إلى عالم الحيوان حين تخلوا عن خصائص الإنسان، فقبل لهم قبلة التكوين: كونوا حيث صنعتم بأنفسكم، كذلك بأبدانكم انتكاسا إلى هوان الحيوان. كما وأن الساكتين مسخوا ذرا إذ كان موقفهم موقف الذر حيث كانوا سكوتا عن

(١). نور الثقلين ٢: ٩٠ عن تفسير العياشي عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) في الآية قال: افترق ... قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام): ما صنع بالذين أقاموا و لم يقارفوا الذنوب؟ قال: بلغني أنهم صاروا ذرا»
(٢). المصدر عن روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: أقول: الذين ائتمروا أمروا هم الذي لم يعدوا و لم يسكتوا فنجوا، و الذين ائتمروا و لم يأمرؤا هم الذين سكتوا، و الآخرون الذين لم يأتمروا و لم يأمرؤا هم الذين عدوا
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٥٩
النهي في ذلك المسرح الفاحل المتعاضل.

و هنا «خاسئين» و فال «قردة» تميزهم عن سائر القردة، حيث القردة الحيوان ليست خاسئة بعيدة عن رحمة الله لأنها خلقت قردة فما ذنبها إذا حتى تخسأ؟.

و لكن هؤلاء الخاسئين إنما خسفوا بكونهم خاطئين فتحولهم إلى قردة- إذا- عذاب لهم في الأولى فلتكن أرواحهم كما هي، والتحول يخص أبدانهم حتى يدركوا عذاب ذلك التحول، فهم ليس لهم نسل ولا بقاء، ولا يجانسون سائر القردة في سائر الميزات حتى ينسلوا، وكما يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله «إن الله لم يمسخ شيئا فجعل له نسلا وعقبا» «١» ذلك وقد دلت على ما تبينها روايات مضت ومنها ما لم نقلها.

ذلك خزى لهم في الحياة كأشخاص خصوص، ومن ثم خزى لهم يشملهم ما هم متخلفون عن شرعة الله:
وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سَاءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧).
و التأذن هو التكلف بأذان: النداء الإعلان الإعلام، وهو مأول لساحة الربوبية بكترة النداء ومبالغته، وهنا «ريك» لحة إلى مدى ذلك التأذن للحفاظ على هذه الشرعة الربانية الخاصة التي تعاديبها الصهيونية العالمية، وتربص بها كل دوائر السوء.

(١)

. المصدر عن مجمع البيان وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وفي الفقيه قد روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام و أن هذه مثل لها فنهى الله عز و جلّ عن أكلها
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٠
كلام حول الحيلة- الشرعية!.

الحيلة- كيفما كانت- لا دور لها في أحكام الله، وكيف يحتال الله في حكمه أم يسمح بحيلة تحول بين حكمه وتحقيقه، وما هي الحاجة إلى الحيلة في أحكام الله، والله هو الحاكم يحكم كيف يشاء؟! فحين يقول «وَ حَرَّمَ الرَّبَا» لا يعني إلّا وقع الأكل بالباطل لواقع الاختلال المعيشي فيه، حيث الربا هو الزيادة عن المستحق فهو باطل عاطل، فهل الحيل الربوية تحوّل الأكل بالباطل إلى الحق، بحيلة لفظية أو عملية، والمحرم هو وقع الربا دون لفظته وصيغته.

و ترى هنا فارقا في وقع الأكل بالباطل بين من يربي ماله بقدر قدر زمن القرض، بألف، وبين من يبيع عشرة آلاف مع سمّ الخياط بأحد عشر ألفا بنفس القدر؟ وليس يباع عشرة آلاف بأحد عشر ألفا، ولا سمّ الخياط بألف! إلا سفاهة وحمافة هي تبطل المعاملة قبل كونها أكلا بالباطل.

و لو استحلّت الحيلة الشرعية في هذه الأمور التي هي محظورة بواقعها، حلّت كل المحرمات الواقعية بهذه الحيل، وأصبح شارع الشرعة بواقعها، هادما لها بالحيل التي تحول دون تحقيق الحق فيها، ولأمكن تحليل كل ألوان المعاملات الربوية بيعا وقرضا وما أشبه. وهنا الروايات المتعارضة في حيل الربا معروضة على «وَحَرَّمَ الرِّبَا» حيث إن وقع الربا لا يزول بهذه المحاولات المزاولات «١».

(١). للاطلاع الواسع على أحكام الربا و مواضعها و مواضعها راجع هنا الفرقان (٤: ٣٠٧- / ٣٦٠).

و مما يمنع عن أمثال هذه الحيل ما في النهج عن علي (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال له: يا عليّ إن القوم سيفتنون بأموالهم .. و يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة و الأهواء الساهية فيستحلوا الخمر بالنبيذ و السحت بالهدية و الربا بالبيع».

وفي الدر المنثور ١: ٣٦٧- / أخرج أبو داود و ابن ماجة و البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره».

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) في حكمة حرمة الربا: «.. لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهما و ثمن الآخر باطلا، فبيع الربا و شراءه و كس على كل حال على المشتري و على البائع» (الوسائل ١٢: ٤٢٤).

و تقابل هذه النصوص، روايات أخرى تحاول تحليل الحيل في حقل الربا، كما في التهذيب ٢: ١٤٦ صحيح البحلي قال: سألته عن الصرف فقلت له: أشتري ألف درهم و ديناراً بألفي درهم؟ فقال: لا بأس بذلك، إن أبي كان أجراً أهل المدينة مني و كان يقول هذا فيقولون: إنما هذا الفرار، لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم و لو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار، و كان يقول: «نعم الشيء الفرار من الحرام إلى الحلال».

وفي المصدر صحيح آخر عنه قال: كان محمد بن المنكدر يقول لأبي جعفر (عليهما السلام) يا أبا جعفر رحمك الله و الله إنا لنعلم أنك لو أخذت دينارا و الصرف ثمانية عشر فزرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته و ما هذا الفرار؟ و كان أبي يقول: «صدقت و الله لكنه فرار من الباطل إلى الحق».

وفي ثالث عنه: «لا بأس بألف درهم و درهم بألف درهم و دينارين، إذا دخل فيها ديناران أو أقل أو أكثر فلا بأس» (التهذيب ٢: ١٤٥).

فرغم صحة أسناد هذه الثلاثة، هي مضروبة عرض الحائط لأنها تحلل الأكل بالباطل بهذه الحيلة الغيلة، و كلاهما محرمان بآيات تحرم الأكل بالباطل و تحرم الربا و تحرم الحيلة كآية «يَعُدُّونَ فِي السَّبْتِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦١

ذلك، وهنا يجدر ذكرى إمام المتقين علي عليه السلام حيث يحظر عن أحاديث تخالف القرآن يتبعونها ويخالفون كتاب الله بقوله: «اعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاها، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم» «١».

(١). رجال الكشي ص ٢٢ عن جابر بن عبد الله عن عبد الله بن يسار سمعت عليا (عليه السلام) يقول: .. وفيه عن سلمان الفارسي: «هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتابا دقيقا حوسبتم فيه على التقير و القطمير و الفتيل و حبة خردل فضاك بكم و هربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٢

كلام حول حدود الأمر والنهي:

كما أن نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسع بالنسبة للمأمور والمنهي، فلا يشترط حاضر التأثير ولا جوازه، وإنما هما «عُدْرًا أو نُذْرًا».

كذلك الأمر والنهي لا يشترط فيهما الائتثار بكل أمر والانتهاه عن كل نهي، وإلا لم يحصل كفاح وكفاف في حقل الأمر والنهي، فإنما الشرط هنا ائتمار الأمر بما يأمر به و انتهاه النهي عما ينهى عنه، فالناركة للمأمور به والمقترف للمنهي عنه، ولا سيما المتجاهر، ليس له الأمر والنهي كما تدل عليه آيات وروايات مسرودة في بابه بصورة مفصلة «١».

فالأمر والنهي ما لم يحمل ضررا هما أهم من تركهما على الأمر والنهي، أو من فعلهما على المأمور والمنهي، هما مفروضان، فما لم يحمل المأمور بأمره على تصلبيه في ترك الواجب، أو يحمل المنهي بنهيه على تصلبيه في ترك المحرم، فهما وجبان على سائر شروطهما.

إذا، فقد يجب على تارك المعروف وفاعل المنكر خفية أن يأمر وينهي، ويحرم على الجاهر أن يأمر وينهي، قضية الهدف الاسمي من الأمر والنهي، فكل مؤمن له - على أية حال - مسئوليتان اثنتان، تبني شخصه مؤمنا، وتبني الآخرين، بصورة مترتبة أو متوازية، ما لم يضر في تبني الآخرين بأصل الهدف.

(١). هي في تفسير آية البقرة «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٣

و لأن الشريعة القرآنية عالمية أمية أبدية لصالح كل الأمم، فليدربنا عند ما يمسه من كرامتها من قبل الصهيونية العالمية بذلك البعث البعث البحث: «لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» منذ بداية تأريخ الإفساد العالمي منهم «من يسومهم» اضطرارا دون قرار «سوء العذاب» المتواصل ل «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ» وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة «وَ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ» وأرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

لذلك نراهم طول تأريخهم المنحوس شذر مدر، متفرقين أيادي سبا دون آية دولة لهم خاصة، اللهم إلهة العصابات حيث احتلت فلسطين والقدس بمساعدة كل سواعد الكفر والاستكبار شرقا وغربا، وحتى القيادات العربية التي فسحت المجال لذلك التجوال والاعتداء، أم وساعدتها على ذلك، ولكنها ما ظلت آمنة مطمئنة من بأس مبعوثي الله من مؤمنين وكافرين، فالبعثة الإيمانية عليهم هي الخاصة المبشر بما لمرتبها في آيات الأسرى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمْتُمْ» (١٧: ٧).

ثم البعثة الإيمانية المستمرة من قبل الفدائيين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومن ثم البعثة الكافرة كاهتارية وما أشبه، التي دمرتهم، فكما «أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (١٩: ٨٣) (وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيَّنَّ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ»

(٢٥: ٤١) كذلك «ليبعثن ..» قد تعم كلا البعثين حيث الشيطنة الإسرائيلية تعم في إفسادها كل ربوع العالمين مؤمنين وكافرين، فلتستمر- إذا- تلك البعثة المختلطة عليهم إلى يوم القيامة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٤

فذلك التأذن بتواتر سوء العذاب منذ صدوره على ضوء ذلك البعث المستمر، يختص بالصهيونية العالمية في فترات متلاحقة من الزمن إذ يبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا أكثر، جاءتهم الضربة كما هم ضاربون،

ليست دولة العصابات وتغلبها على أراض وبلاد إسلامية إلا في فترات عارضة غير فاضلة، هي من قضايا تهاون المسلمين عن جهادهم وجهودهم المتواصلين.

ثم وهذه البعثة الربانية المنبثة بين بعثي الكفر والإيمان، هي بين تكوينية وتشريعية، وليست السيطرة الصهيونية في فترات كهذه التي طالت سنين، لإلزام واء وجزء فترة المبعوثين المؤمنين توانيا عن تحقيق وجبههم الإيمان في الدفاع عن حوزة الإيمان. و «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١٣: ١١).

ذلك، فهم أولاء الأنكاد يعيشون سوء العذاب بصورتها: المستمرة، والمرتين في إفساد العالمين.

ذلك، وقد تبلغ بهم الحال العضال لحد «تقاتلون اليهود حتى يحتبئ أحدهم واء الحجر» «١».

وَ قَطَعْنَا لَهُم فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَّوْنَا لَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨).

هنا «أما» قد تعني إلى أمم مذهبية تحت قيادات روحية، أما تحت قيادات

(١). الاطلاع الواسع على تفاصيل آيات الأسرى راجع ج ١٥: ٣٧- / ٧٠ من هذا الفرقان

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٥

زمنية أنهم هم مقطعون أما بين هذين وكما نجدهم أما حتى الآن رغم تأسيس دولة العصابات، فمنهم من يرفضها فلا ينحو نحوها، ومنهم من يرفضها فينضم إليها، ومنهم عوان بين ذلك، فالصالحون منهم بين من يؤمن ومن هو قاصر فلا يؤمن، ومنهم دون ذلك بمختلف دركات الدون، وأنحسها الصهيونية التي قد لا تحسب بحساب الأمة الدينية حيث تغلبت عليها السياسة الإبلسية فنسبت أنها أمة دينية كتابية.

ذلك «وَ بَلَّوْنَا لَهُم بِالْحَسَنَاتِ» المرغوبة لديهم في الحياة «و السيئات» غير المرغوبة «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ويهودون إلى الله بعد ما هادوا عن الله، فمن الناس من يرجعه إلى الله الحسنة، ومنهم من ترجعه السيئة، ومنهم

من لا يرجع إلى الله بحسنة ولا سيئة، والمتابعة بالابتلاء رحمة ربانية واية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار والطغيان.

ذلك، ود يصدق المروي عن النبي صلى الله عليه و آله أن «الناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد»

فقد يعنى من الغد آخر الزمن قبل ظهور المهدي (عج) و «بعد الغد» زمنه (عج) راجع تفسير آيات الأسرى.

و كل هذه البلايا المتواصلة ضدهم لأنهم عار وبوار على الإنسانية كلها، لا فقط على المسلمين، أم والمسيحيين فحسب، حيث يرونهم أنفسهم فقط شعب الله المختار وأبناء الله الإخفاء، وهم الإنسان فقط دون سائر الناس، وإنما خلقوا بصورة الإنسان ليصلحوا حذاما لشعب الله.

لذلك فهم يظلمون النسل الإنساني غير الإسرائيلي ويفسدونهم كما يستطيعون،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٦

ومن بالغ تزقتهم وتمسكهم بقوميتهم أن ليست لهم أية دعاية لجذب سائر الناس إلى شرعتهم اختصاصا لهم بذلك الإختيار، واجتثاها له عن سواهم من غير الشعب المختار!.

إذا فليست لهم إيجابيات الدعوة الإسرائيلية لغيرهم، بل هم سلبيات تنحو منحى إفساد كل الشعوب عن بكرتها، عن عقيدتها وفكرتها واقتصادياتها وسياساتها وعن كل الميزات لإنسانيتها، ولكي تصدق تحيلتهم العمياء والحمقاء أنهم إنما خلقوا بصورة الناس، وليسوا من الناس!.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُعَقَّبُنَا ۖ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (١٦٩).

«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أولاء المتخلفين الأنكاد البعاد «وَرَثُوا الْكِتَابَ»

و هم علماءهم العملاء حيث «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ» في متجر الكتاب، فيشترون به ثمنا قليلا بكل غرة، حيث «وَ يَقُولُونَ سَيُعَقَّبُنَا» وكان الله ضمن لهم مغفرة متواصلة متصلة دونما شرط، فأصبحوا إباحيين رغم أنهم «وَرَثُوا الْكِتَابَ» ثم «إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ» حيث الأخذ بهكذا وز أصبح من جبلتهم، فهم تجار فجّار في حقل الكتاب وهم دارسوه، يقولون على الله غير الحق بغية أخذ هذا الأدنى، فليست دراسة في الكتاب ولدها تكفل تطبيقه حيث الإيمان هو الركن الركين المكين، فقد لا يدرس الكتاب لأنه أمة وهو مؤمن، ولكنه يطبقه تقليدا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٧

صالحا من الربانيين الدارسين له، وقد لا يدرس ولا هو مؤمن، فهو فاقد الجناحين، ولكن الذي يدرسه ولا يؤمن هو أخطر في هذا البين، فكم من دارسين الكتاب وهم عنه بعاد، إذ يدرسونه ليتأولوه ويحتالوا فيه ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ناسين حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم.

أجل، يدرسونه ليجدوا المخارج لفتاواهم الحارفة الهارفة الخارفة، ويريدون ليزينوا بالكتاب هذه الفتاوى النكاوى تديجلا على السذج البسطاء، فهم أخطر آفة على الدين والدينين، فإن غير الدارس للكتاب لا يستطيع أن يحرف الكتاب أو يأوله كما يهواه، فذلك الدارس للكتاب هو كارث على الكتاب حيث لا يتقي الله!.

و مخترعوا المذاهب المختلفة المختلفة عن شرائع الله هم كلهم ممن درسوا في الكتاب فحولوه إلى ما يهون، وكان الكتاب خادما لهم غير مخدوم، فلا تجد عندهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أغلى منه إذا حرف عن جهات أشراعه.

ذلك، ولأن كل ما دون الكتاب هو عرض هذا الأدنى، إذا فالأخذ بغير الكتاب برفض الكتاب، إنه من عرض هذا الأدنى، بل و أدنى من كل أدنى.

فرفض الكتاب بأخذ مال أو أي منال رفض، ورفضه بأخذ كتاب آخر تقدما له عليه رفض، وأين رفض من رفض؟! فيا للحوزات الراضة للقرآن من بأس ويؤس، تفسح كافة المجالات لأقلام سامة تمس من كرامته بسند آياته نفسه كما تهوى.

هؤلاء وثوا الكتاب بظلم إذ لم يجرسوا الكتاب، فحرسه الكتاب بحق هم - فقط - وثة الكتاب، كما «ثُمَّ أُورِثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (٣٥: ٣٢).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٨

فهم أولاء الأكارم وثة الكتاب بالحق المطلق وكما يروى عن رسول الكتاب صلى الله عليه وآله قوله: «علي ورثي» «١»

كما هو «وارث علم النبيين» «٢» ومستودع موارث الأنبياء» «٣» وأنت وبي ووارثي» «٤».

«أَفَلَا تَعْقِلُونَ»؟

أ فلا تستعملون عقولكم التي هباكم الله إياها لتعقلوا الحق فتفرضوه، وتعقلوا الباطل فتفرضوه؟ «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرويه»

«ألا ومثل العقل في القلب كممثل السراج في وط البيت» «٥» و قد «خلق الله تعالى العقل من أربعة أشياء: من العلم والقدرة والنور والمشية بالأمر، فجعله قائما بالعلم، دائما في الملكوت» «و للعقل مراتب ودرجات قضية الحكمة الربانية» «٦»

(١). ملحقات احقاق الحق ٤: ٤٩، ٧١- / ٧٥، ٧٩، ٩٩، ١٠٠، ١٦٠، ١٧٢، ١٧٨، ٢٢٧، ٢٧٧، ٣٥٧ و ٥: ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٠، ٢٧٧، ٣٥٧ و ١٥:

١٩١- / ١٩٥ و ٧: ١١٤ و ٢٠: ٢٢٠، ٢٤٥- / ٤٤٦

(٢). المصدر ٤: ١٢٢

(٣). المصدر ٤: ١٧٠

(٤). المصدر ٤: ٨٢، ١٦٠ و ٢٠: ٢٣٠

(٥). العوالم (٢- / ٣) عن العلل عن أمير المؤمنين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «سئل مما فلق الله عزّ وجلّ العقل؟ قال: خلقه ملك له رؤوس بعد الخلاق، من خلق و من خلق إلى يوم القيامة، و لكل رأس وجه، و لكل آدمي رأس من رؤوس العقل، و اسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب، و على كلّ وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولد، و يبلغ حد الرجال أو حدّ- / النساء، فإذا بلغ كشف ذلك الستر، فيقع في قلب هذا الإنسان ثور، فيفهم الفريضة و السنة، و الجيد و الردي، ألا..»

(٦). المصدر ٤٢ عن العلل عن إسحاق بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): الرجل آتبه أكلمه ببعض كلامي فيعرف كلّ، و منهم من آتبه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يرده عليّ كما كلمته، و منهم من آتبه فأكلمه فيقول: أعد عليّ؟ فقال: يا إسحاق! أو ما تدري لم هذا؟ قلت: لا، قال: الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كلّ فذاك من عجنت نطقته بعقله، و أما الذي تكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمه، و أما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ فذاك الذي ركّب عقله فيه بعد ما كبر فهو يقول: أعد عليّ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٦٩

(أَمْ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) وهم وثة الكتاب ودرسته حيث «وَرِثُوا الْكِتَابَ ... وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ؟» تفضيلاً للدنيا على الآخرة «وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ» الدنيا المناحرة لها، المنافية إياها «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟». ذلك «و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين يخرمكم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق» (١) .

و هنا «سَيُعْزَفُ لَنَا» طليقة دون تقيد بتوبة، وتحتيماً دون قرن برجاء، إنه دليل أنهم كانوا يَحْتَمُونَ على الله الغفران رغم مواصلة العصيان، وذلك من أنحس العصيان! فما دائهم؟ وما دواءهم؟ وما بلهم يقولون «سَيُعْزَفُ لَنَا» متهافتين على عرض هذا الأدنى، وكأنه هو الذي يَحْتَمُ الغفر على الله، فهم أولاء يبررون لأنفسهم ذلك بتقول تغول على الله أنه «سيغفر لنا» وهم بدراستهم للكتاب يعلمون أن الله لا يغفر إلا للتائب حقاً توبة نصوحاً، دون هؤلاء المصيرين الذين «إِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» إصراراً وتكراراً للذنب!.

(١). المصدر عن الإختصاص للمفيد عن الصادق (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٠

ذلك وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب في مجالات عدة منها الآتية في «إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١٧١) و لكنهم رغم أنهم ورثوا الكتاب و درسوا ما فيه أخذوا يأخذون بديله عرض هذا الأدنى، وكلما يؤخذ ثمنا عن الكتاب، هو عرض أدنى من كل دان لأنه فان، والآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وكانوا يتقون «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟».

و للعقل - ككل - جنود بمشتقاته هي كلها عقال للنفس بجنودها، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: «إِنَّ الْعَقْلَ عَقَالٌ مِنَ الْجَهْلِ، وَالنَّفْسُ مِثْلُ أَحْبَثِ الدُّوَابِّ فَإِنْ لَمْ تَعْقِلْ جَارَتْ، فَالْعَقْلُ عَقَالٌ مِنَ الْجَهْلِ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبَلْ فَأَقْبَلَ، وَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزِّي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَعْظَمَ مِنْكَ، وَلَا أَطْوَعَ مِنْكَ، بَكَ أبدأ وبك أعيد وعلبك العقاب، فتشعب من العقل ١ الحلم، ومن الحلم ٢ العلم، ومن العلم ٣ الرشد، ومن الرشد ٤ العفاف، ومن العفاف ٥ الصيانة، ومن الصيانة ٦ الحياء، ومن الحياء ٧ الرزانة، ومن الرزانة ٨ المداومة على الخير، ومن المداومة على الخير ٩ كراهية الشر، ومن كراهية الشر ١٠ طاعة الناصح - فهذه عشرة أوصاف من أنواع الخير، ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع - فأما الحلم فمنه ١ ركوب الجميل، ٢ وصحبة الأبرار، ٣ ورفع من الضعة، ورفع من الخساسة، وتشهّي الخير، ويقرب صاحبه من معالي الدرجات، والعفو والمهل، والمعروف والصمت، فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه - وأما العلم فيتشعب منه الغنى وإن كان فقيراً، والجود وإن كان بخيلاً، والمهابة وإن كان هيناً، والسلامة وإن كان سقيماً، والقرب وإن كان قصباً، والحياء وإن كان صلفاً، والرفقة وإن كان وبعاً،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧١

والشرف وإن كان رذلاً، والحكمة، والحظوة، فهذا ما يتشعب للعاقل لعلمه فطوي لمن عقل وعلم - وأما الرشد فيتشعب منه السداد، والهدى، والبر، والتقوى، والمناة، والقصد، والإقتصاد، والثواب، والكرم، والمعرفة بدين الله، فهذا ما أصاب العاقل بالرشد، فطوي لمن أقام به على منهاج الطريق - وأما العفاف فيتشعب منه: الرضا، والاستطانة، والحظ، والراحة، والتفقد، والخشوع، والتذكر، والتفكير،

والجود، والسخاء، فهذا ما يتشعب للعاقل بعفافة رضيّ بالله بقسمه، وأما الصيانة فيتشعب منها: الصلاح، والتواضع، والإنابة، والفهم، والأدب، والإحسان، والتحبب، والخير، واجتناب الشر، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة، فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة- وأما الحياء فيتشعب منه: اللين، والرأفة، والمراقبة لله في السر والعلانية، والسلامة، واجتناب الشر، والبشاشة، والسماحة، والظفر، وحسن الثناء على المرء في الناس، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء، فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته- وأما الرزانة فيتشعب منها: اللطف، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وصدق اللسان، وتحصين الفرج، واستصلاح المال، والاستعداد للعدو، والنهي عن المنكر، وترك السفه، فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة فطوبى لمن توقّر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفا وصفح.

و أما المداومة على الخير فيتشعب منه: ترك الفواحش، والبعد من الطيش، والتحرّج، واليقين، وحب النجاة، وطاعة الرحمن، و تعظيم البرهان، واجتناب الشيطان، والإجابة للعدل، وقول الحق، فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير، فطوبى لمن ذكر أمامه، وذكر قيامه، واعتبر بالفناء- وأما كراهية الشر فيتشعب منه: الوقار، والصبر، والنصر، والاستقامة على المنهاج، والمداومة على الرشاد، والإيمان بالله،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٢

والتوقر، والإخلاص، وترك ما لا يعنيه، والمحافظة على ما ينفعه، فهذا ما أصاب العاقل بالكراهية للشر، فطوبى لمن أقام الحق لله وتمسك بعرى سبيل الله- وأما طاعة الناصح فيتشعب منها: الزيادة في العقل، وكمال اللب، ومهارة العواقب، والنجاة من اللوم، والقبول، والمودة، والإسراج، والإنصاف، والتقدم في الأمور، والقوة على طاعة الله، فطوبى لمن أسلم من مصارع الهوى، فهذه الخصال كلها تتشعب من العقل- قال شمعون: فأخبرني عن أعلام الجاهل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن صحبتك عنّا، وإن اعتزلت شتمك، وإن أعطاك منّ عليك، وإن أعطيتك كفرك، وإن أسررت إليه خانتك، وإن أسرّ إليك اتهمك، وإن استغنى بطر، وكان فضا غليظا، وإن افتقر جحد نعمة الله ولم يتحرّج، وإن فرح أسرف وطغى، وإن حزن آيس، و إن ضحك فهق، وإن بكى خار، يقع في الأبرار، ولا يحب الله، ولا يراقبه، ولا يستحيي من الله، ولا يذكره، إن أرضيته مدحك و قال فيك من الحسن ما ليس فيك، وإن سخط عليك ذهبت مدحته ووقع فيك من السوء ما ليس فيك، فهذا مجرى الجاهل» «١».

وعن الصادق عليه السلام: العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفا بقوله، جموحا عند الباطل، خصيما بقوله، يترك دنياه ولا يترك دينه، ودليل العاقل شيثان: صدق القول، وصواب الفعل، والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، ولا يتعرض للتهمة، ولا يدع مداراة من ابتلي به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله،

(١). المصدر (٥٤) تحف العقول قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب شمعون بن لوي ابن يهودا من حوار عيسى (عليه السلام) حيث قال: أخبرني عن العقل ما هو؟ وكيف هو؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعب؟ و صف لي طوائفه كلها فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إن العقل عقلا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٣

والمعرفة تعينه في مذاهبه، والهوى عدو العقل، ومخالف الحق، وقرين الباطل، وقوة الهوى من الشهوة، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام، والغفلة عن الفرائض، والاستهانة بالسنن، والخوض في الملاهي» «١».

وعنه عليه السلام: «الجاهل صورة ركبت في بني آدم، إقبالها ظلمة، وإدبارها نور، والعبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس، ألا ترى إلى الإنسان تارة تجده جاهلا بخصال نفسه، حامدا لها، عارفا بعيبيها، في غيره ساخطا، وتارة تجده عالما بطباعه، ساخطا لها،

حامدا لها في غيره، فهو متقلب بين العصمة والخذلان، فإن قابلته العصمة أصاب، وإن قابلته الخذلان أخطأ، ومفتاح الجهل الرضا، والإعتقاد به، ومفتاح العلم الاستبدال مع إصابة موافقة التوفيق، وأدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا استحقاق، وأوسطه جهله بالجهل، وأقصاه جحدوده العلم، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه إلا الجهل والدنيا والحرص، فالكل منهم كواحد، والواحد منهم كالكل» «٢».

ومن وية موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم ملتقطات منها تالية: «يا هشام من سلط ثلاثا على ثلاث كأنما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أملة، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، واطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه- يا هشام! كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك- يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل

(١). المصدر (٧٠) عن مصباح الشريعة

(٢). المصدر (٧٢) عن مصباح الشريعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٤

أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه، وكان الله أنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزة في غير عشيرة» «١».

و هناك قصار من الكلمات حول العقل هي طوال في معناه ومغزاه ك:

«العقل مركب العلم»

«الإنسان بعقله»

«الإنسان عقل وصورة، فمن أخطأه العقل ولزمته الصورة لم يكن كاملا، وكان بمنزلة من لا روح فيه»

«العقل رسول الحق»

«العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء»

«العقل أقوى أساس»

«العقل حسام قاطع»

«ثمرة العقل لزوم الحق»

«ثمرة العقل الاستقامة»

«العقل حيث كان آلف مألوف» «٢».

(١). المصدر (٨٤/-/١٠٦)

(٢). و العناوين على الترتيب غرر الحكم ٢٠/-/١٤/-/ البحار ٧٨/٧ / عن كتاب مطالب السؤل-/ غرر الحكم ١٥/-/ مستدرك

النهج-/ الغرر ٣١/-/ الغرر ٣١/-/ الغرر ٢٠/-/ الغرر ١٥٨/-/ الغرر ١٥٨/-/ الغرر ٢٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٥

من نبا موسى

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِيهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥).

و من هنا إلى سبعة عشر آية تالية سرد خاطف لقصة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملئه، منذ البداية إلى غرق فرعون وملئه و تبوء بني إسرائيل

مبواً صدق وهم مختلفون مختلفون رغم ما رزقهم الله من الطيبات التي هم فيها غارقون.

و هنا البعثة الموسوية إلى فرعون وملئه توسع نطاقها من بني إسرائيل إلى غيرهم، فلم تكن شرعته - فقط - شرعة لبني إسرائيل، وإنما هم المحور الأول ومنطلقه إذ كانوا أضعف المستضعفين، ثم فرعون وملأه إذ كانوا أكبر المستكبرين، والشرايع الربانية تتمحورهما كأصل فيها منذ البداية وعلى طول الخط، وتشمل غيرهما من المتوسطين.

و هنا «بآياتنا» لا تعني كل الآيات الرسولية والرسالية، بل هي «تسع آيات» كما في الأعراف، كنموذجة عالية من كل الآيات البصرية لرسول الله، «فاستكبروا» عنها «و كانوا» من قبل ومن بعد «قَوْمًا مُجْرِمِينَ» ثمرات الحياة الإنسانية والرسالية قبل إيناعها.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦).

«الحق» هنا هو الآيات الصدق للرسالة الموسوية و «مِنْ عِنْدِنَا» دون «عندي»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٦

تلميحاً أنها صادرة من على جمعية الصفات الربانية «قَالُوا إِنَّ هَذَا» الحق «إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» كونه سحراً.

قَالَ مُوسَى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أ سِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧).

هنا «إِنَّ هَذَا» سِحْرٌ مُبِينٌ» تبدل بسؤال استعجاب: «أسحر هذا» تبيننا أنهم لا يملكون لدعواهم أية حجة اللهم إلا صورة السؤال، تزييفاً لها إذ «لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» فيما يدعون.

و هذا من الفوارق البينة بين السحر والآية الربانية أن مدعي الرسالة بسحر لا يفلح كمدعي سائر الأمور تحت نقاب السحر، حيث الحكمة الرحيمة الربانية تقتضي إفلاج الساحر المدعي رسالة الله به سدا عن الضلال وصددا للإدغال، ثم وإفلاج الصادق في دعواه وإفلاج من سواه.

فحتى المرسل من عند الله بآيات صدقه «لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»

« (٤٧: ٦٩) فضلاً عن يدعي رسالة الله فرية على الله بسحر حيث يغري ويفري المجاهيل.

أجل «إِنَّ هَذَا» سِحْرٌ مُبِينٌ» فلا بد من فضحهم فلجأ لهم وتبيننا للبسطاء انه باطل فلا يعتقدوا فيه ولا يجرموا حوله، ف «من أكبر الذنوب اشتغال المرء بالسحر» «١» بل و «من سحر فقد أشرك» «٢».

(١). مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ- / ك ٥٥ ب ٢٣، ك ٧٦ ب ٤٧ ك ٨٦ ب ٤٤، بد- / ك ١٧ ب ١٠ مج- / ك ٣١ ب

٤٣ قا حم- / ثالث ص ٨٣ قا رابع ص ٩٩٣

(٢). المصدر نقلاً عن بد- / ك ٢٧ ب ١٧ و ٢٤ نس- / ك ٣٧ ب ١٩ قا حم- / أول ص ٣٨٩ و ٤٣٨ و ٤٤٠، ثان ص

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٧

قَالُوا أَمْ جِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨).
فلقد صدهم عن تصديق الحق أنه يلفتهم عما ودوا عليه آبائهم كأنه هو الحق لا سواه ثم «وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ» سقوطاً لنا عن علواننا ورفعنا لكما عن ذلكم، وذلك خروج عن عبودية الذات بعد عبودية الأصنام.

و هذه هي العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعاة إلى الله، انتحالا لشقى المعاذير ورمي الدعاة بأشنع التهم، أنها هي «الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ» بكل ما فيها من زيف وحيف، حيث التفتيح للتوحيد الحق بشرعته الحققة، والاستنارة بنورها، هو خطر عظيم على هذه القيم الموروثة الزائفة، ثم النتيجة الحتمية الحاضرة الحاسمة: «وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» أن نؤمن أنفسنا لصالحكم فانه لا أمن فيه حيث يخرجنا عن علواننا وكبرياتنا!

قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠).
ساحرٍ عَلِيمٍ» انتخاباً للنخبة العلمية من السحرة، و «قَالَ لَهُمْ مُوسَى» اختصاراً عن حوار بشأن من يلقي قبل: «إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. قَالَ أَلْقُوا...» (٧):
(١١٦).

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٨

الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢).

«مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» جراءة أولى على باطل السحر الذي سحر أعين الناس واسترهبهم، و «إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ» ثانية، و «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» ثالثة كبرهان على الثانية «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» رابعة كنتيجة في صراع المعجزة والآية الربانية. و طالما يتحدث حول مبطل السحر في كل حقوله ولما يجدوا ما يبطله بأسره، فإذا الله يحدثنا هنا عن مبطله وهو الآية المعجزة، فكما أن عصى موسى أبطلت سحرهم بإذن الله، كذلك القرآن- وبأحرى- يبطل كل سحر يقابله، فضلاً عن سائر السحر الذي لا يدعى تحديه للقرآن، وكما يروى أن قراء مائة آية من القرآن يبطل كل سحر وقد جربها المجربون فما أخطأت ولا مرة يتيمة تصبح حجة على بطلانه.

ذلك، ومن ميزات القرآن الآية أمام كل سحر، أنه لا يختص بإبطاله إياها بخصوص النبي صلى الله عليه وآله وأهليه المعصومين عليهم السلام، وسائر الآيات المعجزات هي مختصة بمن تظهر على يديه.

فالقرآن ككل، وقراءة من أيّ كان شرط إسلامه وإيمانه، يبطل كل سحر، كما ويبطل بيناته كل ما يعارضه في أيّ من حقوله، فأدبه يبطل سحر الآداب، وحكمته تبطل سحر الفلسفات، وعرفانه يبطل سحر العرفانات، وفقهه يبطل سحر الفقاهات، وعلومه تبطل سحر العلوم، فهو الآية الوحيدة الربانية في كافة ميادين النضال والصراع، سابقة كل الرفاق في كل ميادين السباق.

صحيح أن الباطل قد يزهو ولكنه لا ينمو، فهو باطل في نفسه بما هو ظاهر من

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٨

الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢).

«ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» جراءة أولى على باطل السحر الذي سحر أعين الناس واسترهبهم، و «إِنَّ اللَّهَ سَبَّطُهُ» ثانية، و «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» ثالثة كبرهان على الثانية «وَأُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» رابعة كنتيجة في صراع المعجزة والآية الربانية. و طالما يتحدث حول مبطل السحر في كل حقوله ولما يجدوا ما يبطله بأسره، فإذا الله يحدثنا هنا عن مبطله وهو الآية المعجزة، فكما أن عصى موسى أبطلت سحرهم بإذن الله، كذلك القرآن- وبأحرى- يبطل كل سحر يقابله، فضلا عن سائر السحر الذي لا يدعى تحديه للقرآن، وكما يروى أن قراء مائة آية من القرآن يبطل كل سحر وقد جربها المجربون فما أخطأت ولا مرة يتيمة تصبح حجة على بطلانه.

ذلك، ومن ميزات القرآن الآية أمام كل سحر، أنه لا يختص بإبطاله إياها بخصوص النبي صلى الله عليه وآله وأهليه المعصومين عليهم السلام، وسائر الآيات المعجزات هي مختصة بمن تظهر على يديه.

فالقرآن ككل، وقراءة من أيّ كان شرط إسلامه وإيمانه، يبطل كل سحر، كما ويبطل بيناته كل ما يعارضه في أيّ من حقوله، فأدبه يبطل سحر الآداب، وحكمته تبطل سحر الفلسفات، وعرفانه يبطل سحر العرفانات، وفقهه يبطل سحر الفقاهات، وعلومه تبطل سحر العلوم، فهو الآية الوحيدة الربانية في كافة ميادين النضال والصراع، سابقة كل الرفاق في كل ميادين السباق.

صحيح أن الباطل قد يزهو ولكنه لا ينمو، فهو باطل في نفسه بما هو ظاهر من

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٧٩

نفسه عند العارفين، والله يبطله ولا سيما في حقل الصراع لآياته البينات، حفاظا عن الإغراء بإطرائه:

وَأُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢).

«بكلماته» الأفاقية والأنفسية، الرسولية والرسالية، التدوينية والتكوينية، وقد حق الحق في الصراع الموسوي الفرعوني بكلمة ثعبان العصى وآيتها «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

و ترى لما ذا «السحر» معرفة وهي خير «ما» الموصولة؟ لأنها تحمل إجابة عن «إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ» ف «ما جِئْتُمْ بِهِ» هو ذلك «السحر» الذي افتريتموه على آيته الربانية!

أم وهو كل «السحر» وكأن السحر كله مجموع فيه، ولكن «اللَّهُ سَبَّطُهُ» على جمعبته للسحر كله، ومن ذا الذي آمن لموسى في تلك المباراة العظيمة الحاشرة؟:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣).

و ترى آمن له- فقط- ذرية من قومه؟ وقد كانوا مؤمنين به من قبل مهما اختلفت درجاته، كما وآمن السحرة له كلهم: «فَأَلْقَى السِّحْرَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» (٢٠: ٧٠).

ذلك هو الإيمان الخالص غير الفالس ولا الكالس من قومه، دون كل من في محشر المباراة، فهنا العناية إلى تصلّب بني إسرائيل بعد ما رأوا الآيات الموسوية «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» وأما السحرة فقد آمنوا له عن بكرتهم إيماننا متينا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٠

مكينا ما كانت تزعزعهم عنه التهديدات الفرعونية، ولا تخوفهم، رغم أن الذرية القلة المؤمنة من قومه كانوا على خوف من فرعون وملاءهم، ف «على حَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْتَهُمْ» تختص ذلك الإيمان الخوفان بهم دون السحرة المؤمنين دون أي خوف من فرعون و ملاءهم.

دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» هم الناشئون الناشطون الذين لا يحسبون بشيء أمام الكبار المصلحين، وهم كانوا خطرا عليهم في إيمانهم لمكان «ملاءهم» بعد «فرعون» فخطر «ملاءهم» كان مزيدا عليهم من خطر فرعون، مما يهدد- حسب الظاهر- الدعوة الموسوية من الداخل والخارج الويل.

فذلك الملاء الإسرائيلي رغم كونهم مع موسى الرسول عليه السلام ظاهرين وتحت قيادته، كانوا هم مع فرعون بقياده سلسين ملسين، لذلك يخاطب قومه ككل تحريضا على إيمان:

وَ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤).

هنا «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» بعد «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» تعني الإسلام بعد الإيمان، «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» لله ووهكم في هذه البيئة الخطرة الفرعونية.

و هنا قد لحق ب «دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» ممن سواهم، أم لم يلحق، يسمع سليم الإجابة ممن آمن:

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦).

فعل «لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ» تخص ملاءهم أم وتعمهم إلى فرعون وملئه، ثم «الْقَوْمِ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨١

الْكَافِرِينَ» هم فرعون وملاءه، ف «لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أن يفتنونا من داخل «وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» أن يفتنونا من خارج، والفتنة الداخلية أفتن من الخارجية.

أجل و «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» لا على ملائنا الخونة، ولا على موسى والمؤمنين به، إنما «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» كما وأمرتنا «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا...».

ذلك، وقد تلمح «إِنْ كُنْتُمْ...» أنهم فقط «دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» لسابق إيمانهم على ذلك الخطاب و «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» ف «يا قَوْمِ» إلا اعتبارا كأنهم فقط هم قومه دون الباقي منهم إذ لم يؤمنوا.

ذلك، وقد يحتمل أن «دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» تعنيهم من قوم فرعون لسابق ذكره، «ملاءهم» هم الفرعونيون «١»، وقد تعني هذه الذرية إلى السحرة الناشئين من الفرعونيين في تلك المباراة الباهرة، مؤيدا بخطابه قومه ككل دون خصوص الذرية «وَ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ...».

و قد يكون المعنيان هما معنيان، ف «دُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» تعني مثلثها:

السحرة، وذرية من قوم فرعون، وذرية من قومه نفسه، وما أجمله جمعا، وأجله قمعا للملا غير المؤمنين.

ف «ذرية» هي المؤمنة- دوما- بين الملا المستكبرين حيث يجدون ملجأ من

(١). الدر المنثور ٣: ٣١٤- / أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم

فرعون منهم امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون و خازن فرعون و امرأة خازنه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٢

الدعاة إلى الله.

ترى وكيف سألو الله أن «لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»؟ وحياة التكليف كلها فتنة! «وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَ الحَيْرِ فِتْنَةً» (٣٥ : ٢١) (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ» (٢٥ : ٢٠).

الفتنة قد تعني مجرد المحنة دون مهنة فهي شاملة للمكلفين أجمعين، وأخرى تعني مهنة في محنة فهي مختصة بالظالمين جزاء واقفا: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ» (٣٧ : ٦٣) في الأخرى نتيجة ظلمهم في الأولى «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا» (٧٤ : ٣١) «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً هُمْ فَارْتَقِبُوهُمْ وَ اصْطَبِرُوا» (٥٤ : ٢٧) و هما محنة في الأولى.

فهذه الفتنة الماكنة الفاتنة التي لا مفلت عنها هي خاصة بالظالمين: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» (٢٤ : ٦٣) وأما الذين آمنوا «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا» (٦٠ : ٥):

ذوننا التي تورطنا موارد الفتنة المضللة، «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» (٥ : ٤١). ففي معنى الفتنة الفاتنة الممتحنة، والفتنة الممتحنة، ليس نصيب المؤمنين إلا الثانية، والأولى هي للذين ظلموا وكفروا. ذلك، والتوكل على الله بعد الإيمان بالله والإسلام لله هو عنصر القوة المتينة المكيئة الذي يضاف إلى رصيد التقوى مع الإيمان و الإسلام، فإذا ذرية قليلة ضعيفة تصبح قوية صارمة أمام جبروت الطاغوت.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٣

فقولهم «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» يعني به ألا يمكن الظالمين منهم إضلالا لهم وإدغالا، أم استئصالا لهم وإخمالا «وَنُحْنًا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» في وطء الفتنة المستمرة منهم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧). ذلك الوحي في الوسط الذي عاشه بنو إسرائيل بين الغلب على فرعون في تلك المباراة وبين ملاحقته موسى وقومه وغرقه مع ملته «أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا» مما يدل على أنهم لم تكن لهم بمصر بيوت إذ كانوا مستخدمين في البيوت الفرعونية دونما استقلال حتى كالخدم المستقلين في بيوتهم، المستغلين عند المستخدمين إياهم.

و أما كيف «وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً»؟ فهل هي قبلة للصلوات؟ وليست بيوتهم قبلة، كعبة أو القدس! أم قبلة قبال الفرعونيين؟ وهذه سياسة الاستهتار الاستهتار أن تجعل بيوتهم قبالهم، فصراع دائم بدل أن يتغربوا عنهم ولا يتقربوا منهم!.

هنا «قبلة» تعني قبال بعضها البعض* تغربا عن القبط الكافرين، وتقربا إلى بعضهم البعض، ليكونوا على خيرة جمعية بينهم لأحوالهم فيما يصلحهم أو يفسدهم، والهجمات المحتملة عليهم من السلطة الكافرة، فإن «قبلة» هي هيئة خاصة في الإقبال، تقابلا في البيوت كما هنا، واستقبالا كما في الصلاة.

و هذه سياسة الحياد والحياط على جمع مشرد مطرود في سبيل الله أن ينضموا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٤

ويتضامنوا مع بعضهم البعض، بعدا عن شنائهم بين الأعداء فيذوبوا، وقربا فيما بينهم فلا يذبلوا، وهذه تعبئة نظامية إلى تعبئة روحية هما ضرورتان للمطاردين في الله، وقد عمت الفتنة وتجر الطاغوت، وفسد الناس وتنت البيئة.

و قد تعني «و اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» أن «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ»* فيها دون تظاهر فيها خارجها قضية التقية، أم تعني «اجعلوا» فقط موسى وهارون أن تكون بيوتهما قبله لبني إسرائيل يتجهون إليها على أية حال، حيث الإمام لا بد له أن يكون بمتناول الأمة على كل حال، دون انعزال وتغرب عنهم، ولقد كان علي عليه السلام لا يسكر باب بيته ليل نهار حتى يفسح المجال للمحاويج، وفي الأثر أنه عليه السلام لما ملك الأمر أمر أن يقلع باب بيته حتى لا يغلق لوقت ما أمام المحاويج.

و قد يكون مثلث المعنى معنيا من ذلك النص لصلوح اللفظ والمعنى، فكما أن قبلة الصلاة مفتوحة مفسوحة لكافة المصلين، فلتكن قبلة الصلوات بالداعية مفتوحة للمدعوين، وهكذا قبلة الصلاة بين بعضهم البعض بتقابل بيوتهم المتواصلة، وقبلة الصلاة تقية في تلك البيوت.

و من جعل بيوتهم قبلة أن يسكنوا بيوت الله المفسوحة لهم أجمع،

فقد سمح لهما أن يبيتا في بيوت الله في كافة الحالات وإن جنبا وعلى غير طهارة، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا وكان أخرى من هارون وموسى عليهما السلام*.

ذلك، وقد تعني «قبلة» فيما عنت قبلة الكعبة المباركة*، فإنها كانت قبلة المصلين على مدار الزمن الرسالي لإلفتة فتيرة قليلة في العهد المدني «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٥

ثم «و أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» في بيوتكم ونحو القبلة، كإقامة الصلوات في بيوتكم القبلة المتقابلة مع بعضكم البعض، وصلوات أخرى مع موسى وهارون حيث بيوتهم قبلة، «و بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بالله وبرسالته أنهم آمنون في رحمة الله.

إذا فلتعيشوا «بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» بكل معانيها الصالحة للعناية للمؤمنين القلة أمام الكافرين الثلة، استبقاء لكوهم وكيانكم عن التهدر والله من واءكم رقيب عتيد.

و قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨).

هذه أقسى وأقصى كلام لموسى عليه السلام مع الله فيما يفسر بغير ما يعنيه، وفي التوراة نص حضيض يعبر عن سوء أدبه عليه السلام مع الله: «فرجع موسى إلى الرب وقال: يا سيد لما ذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لما ذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب، وأنت لم تخلص شعبك. فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه» (سفر الخروج ٥:

٢٢-٢٣)، فهذه وما أشبهت في مزيف التوراة* تمس من كرامة الرسالة الموسوية مسا مصيبا قد تجعله غير مؤمن بربه، ناكر حكمته ورحمته!.

ثم القرآن يذود عن ساحته كل شين ورين، وهنا «ليضلوا» لا يدل على إضلال قاصد دون سبب صالح، بل هو مثل «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (٥: ٤١) إزاعة بزيع جزاء واقا، كما «أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَضُّعُهُمْ أَزًّا» (١٩: ٨٣) (و قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ» (٤١: ٢٥) (و يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٦

(٢٧) (وَ أَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (٧: ١٨٣)، هذه وما أشبه تدلنا على أن الله تعالى يستدرج الظالمين ويمهلهم ليخرج مكيّن كيدهم ومكنون سرهم.

لذلك هنا يطلب موسى بقطع أسباب فرعون عن إضلاله وعن إيمانه: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»، وحقيقة الطمس هي محو الأثر من قولهم:

طمست الكتاب إذا محوت سطوره، وطمست الريح ربع الحي، إذا محت رسومه، فكان موسى دعى الله سبحانه بأن يحو معارف أموالهم بالمسح لها حتى لا يعرفوها ولا يهتدوا إليها، وتكون منقلبة عن حال الانتفاع بها، حيث الطمس هو تغير حال الشيء إلى الدثور والدروس، ثم «وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ» هو الختم عليها والطبع.

و ليس «ليضلوا» غاية مقصودة ل «أتيت» بل هي وقعية معلومة لله وكما في أخرى غير معلومة لفرعون وملاءه معلومة لله: «فَأَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا» (٢٨: ٨).

ذلك، ولا مانع أيضا من كون الإضلال غاية مقصودة جزاء واقفا لفرعون ليزيد ضلالا وامتحانا لمن يضلهم وله امتهانها، حيث الإضلال البدائي هو المستحيل على الله، دون النهائي الذي فيه دور الضلال المعاند، كما وأن «وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا» إضلال كجزء على ضلال.

إذا فلم يكن «ليضلوا» نقدا من موسى على الله وعودا بالله، إذ هو الذي دعى بعد نفسه بشدّ الضلال: «وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٧

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩).

و ترى متى «أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ» هل هي فور الدعوة أم بفواصل المحنة المهنة؟ قد يرى من «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَ عَصَى. ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى» (٧٩: ٢٥) أن لم يكن فصل بين الأمرين.

و لكن «نبوءا لقومكما بيوتا...» قد تصرخ لمهلة ماحلة قاحلة بين الأمرين، وليس «فَأَخَذَهُ اللَّهُ» صراحا في فور الإجابة «١» كما و «فَاسْتَقِيمَا..» لائحة إلى طول لأمد الإجابة، وإلا فما هو دور الاستقامة في فور الإجابة؟ فإيجابية الاستقامة أمام الهجمات الفرعونية وسلبية الإتياع لسبيل الذين لا يعلمون، لهما دور المهلة الماحلة الفرعونية الطاغية، ثم وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» .. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ. وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِثْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ

(١). نور الثقلين ٥: ٥٠٠ عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة

ثم أخذ الله نكال الآخرة و الأولى فكان بين أن قال الله تعالى لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ» و بين أن عرفه الإجابة أربعين سنة، ثم قال قال جبرئيل (عليه السلام): نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت: يا رب تدعه و قد قال: أنا ربكم الأعلى؟ فقال:

إنما يقول هذا عبد مثلك، و في ٢: ٣١٦ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال ما في معناه إلا «نازلت»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٨

فَأَعْرِضْنَا لَهُمُ فِي الْيَمِّ ..» (٧: ١٣٠ -

١٣٦) هذه مما تدل صارحة بفصل فاصل بين ود الإجابة وواقعها لموسى عليه السلام. و لما ذا هنا «دعوتكما» ولم يكن الداعي إلّا موسى؟ لأن هذه الرسالة وحدة دعوة موسى هي بنفسها دعوة هارون كما وتلمح له «ربنا» حيث تعني جمعية رسولية متمثلة فيهما، أم ولأن موسى دعى وهارون آمن دعائه فهما- إذا- داعيان اثنان، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله «١»، أم أهما دعيا مهما لم يذكر منهما إلا دعاء موسى «٢» وَ جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغِيًّا وَ عَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠).

«جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ» إجمال عن تفصيل في آيات أخرى تفصل خارقة هذه المجاوزة «فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ» في البحر لما رأوهم مجاوزين، فخوف البحر لم يكن ليخوفهم تخيلا منهم أنهم على ضعفهم جاوزوه، والطريق بعد بيس، فلما ذا لا نجاوزه نحن على قوتنا، ثم «أنا فعلت هذا فمروا وامضوا» «٣» كيد أخير كاد

(١). نور الثقلين ٢: ٣١٦ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): دعى موسى و آمن هارون (عليهما السلام) و أمنت الملائكة فقال الله تعالى: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» و من غزا في سبيل الله استجيب له كما استجيب لكما يوم القيامة

(٢). المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في طائل القصة: فمضى موسى وأصحابه حتى قطعوا البحر و أدركهم آل فرعون فلما نظروا إلى البحر قالوا لفرعون: ما تعجب مما ترى؟ قال: أنا فعلت هذا فمروا و امضوا فيه، فلما توسط فرعون و من معه أمر الله البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين فلما أدرك فرعون الغرق «قَالَ آمَنْتُ ..»

(٣). نور الثقلين ٢: ٣١٨ في تفسير العياشي عن أبي عمرو عن بعض أصحابنا يرفعه قال: لما صار موسى في البحر اتبعه فرعون و جنوده، قال: فتهيب فرس فرعون أن يدخل البحر فتمثل له جبرئيل (عليه السلام) على رمكة فلما رأى فرس فرعون الرمكة اتبعها فدخل البحر هو و أصحابه فغرقوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٨٩

به نفسه وقومه.

و هنا «بَغِيًّا وَ عَدُوًّا» تقرران مدى الملاحقة الصامدة الباغية العادية، و قد تعني «عدوا» بعد «بغيا» مع العداء، العد و الركض أنهم أسرعوا في ذلك الإلتباع فأسرع في إدراكهم الغرق.

و هنا «أدركهم» دون «أغرقهم» تلمح أن الغرق استقبلهم محيطا بهم بعد ما تقدموا في البحر لحد لم يبق لهم مجال الرجوع، فقد كان اتباعا في الغور، تجاوزا عن الساحل.

أجل «أدركه» إلى درك النار في نفس البحر برزخيا وكما كان لقوم نوح: «مِمَّا حَطَبْتُمْ أَهْمُ عُرْفُوهَا فَادْخُلُوا نَارًا» (٧١: ٢٥) «١».

«أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ» فعين الموت ولم يعد يملك نجاة على قوته! فبرزت فطرته المحجوبة، وظهرت عقلته المدخولة المعقولة ف «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فلقد سقطت عن الباغية الطاغية كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه هائلة مخيفة ساقطا من علوائه، هابطا من غلوائه، فتضاءل وتصاغر واستخذى، فسقط في يديه، وزاد- بادعائه قولاً- على إيمانه إسلامه وهو

(١). الدر المنثور ٣: ٣١٦، أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): .. أقول و رواه عنه مثله ابن عباس و أبو هريرة و ابن عمر باختلاف يسير، و هي مشتركة في ضرب الحماة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٠

بالغ الإيمان لحد التسليم لرب العالمين، ولكن:

الآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١).

«ءالئن» وقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص؟ الآن حيث لا إختيار ولا فرار؟ الآن وقد سبق العصيان والاستكبار، الآن «وَ قَدْ عَصَيْتَ» في مجالتك الفاسحة ما استطعت «وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» طول حياتك؟

و الإيمان عند رؤية البأس قاحل ماحل لا أصل له إلا بغية الخلاص؟:

«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ حُدَّه وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» (٤٠: ٨٥) (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) (٦: ١٥٨) «١».

وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «قال لي جبرئيل ما أبغضت شيئا من خلق الله ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد، وما أبغضت شيئا أشد غضبا من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة

(١). نور الثقلين ٢: ٣١٦ عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام) بإسناده إلى إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام): لأبي علة غرق الله تعالى فرعون و قد آمن به و أقر بتوحيده، قال: لأنه آمن عند رؤية البأس و الإيمان عند رؤية البأس غير مقبول و ذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف و الخلف قال الله تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ..» و قال «يَوْمَ يَأْتِي ..» و هكذا فرعون لما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين فقيل له: الآن و قد عصيت .. و قد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه فلما غرق ألقاه الله تعالى على نجوة من الأرض بيدنه ليكون لمن بعده علامة فيروونه مع تنقله بالحديد على مرتفع من الأرض و سبيل الثقل أن يرسب و لا يرتفع فكان ذلك آية و علامة ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩١

من حماة فضريت بها في فيه فوجدت الله أشد غضبا مني .. «١».

فالأصل في عدم قبول توبته هو طائل العصيان والإفساد حتى رأى البأس، فلم تكن توبته صالحة تعني صالح الإيمان، وحتى لو كان فكيف تقبل مع تحليق حياته على كل إفساد وعصيان، ثم لم يكن ذلك إيمانا حيث «قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ» دون «فتاب» مما يدل، وتراه بعد إنما لم تقبل توبته حيث قصد من «الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» العجل الذي عبده؟

و إنما عبده أم أرادوها بعد ما جاوزوا البحر وغرق فرعون! «وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...» (٧: ١٣٨) فهنا أرادوها ثم عبدها، لما غاب عنهم موسى لميقات ربه:

«وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌّ» (٧: ١٤٧).

أم قصد منه إلهام مجسدا كما تجسده التوراة؟ و «الآن» سؤال تنديد بتأخير الإيمان، ولو لم يكن صالحا في أصله لكان التنديد بغير صالح الإيمان دون تأخيره، وإنما هو الإيمان مخافة البأس، فلو كان قبل الآن لكان صالحا يقبل، وهنا تتبين حال سائر الاحتمال ك: أنه وى في قوله فأراد ب «الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» نفسه، حيث

(١). نور الثقلين ٢: ٣١٨ في تفسير القمي في الآية: فإن موسى أخبر بني إسرائيل أن الله عزّ و جلّ قد أغرق فرعون فلم يصدقوه فأمر الله عزّ و جلّ البحر فلفظ به على ساحل البحر حتى رأوه ميتا.

وفيه عن أبي جعفر (عليه السلام): فلما توسط فرعون و من معه أمر الله البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين ... أن قوم فرعون ذهبوا أجمعين في البحر فلم ير منهم أحد في البحر هووا إلى النار فأما فرعون فنبذه الله عزّ و جلّ وحده فألقاه بالساحل لينظروا إليه و ليعرفوه- / ليكون لمن خلفه آية و لئلا يشك أحد في هلاكه أنهم كانوا اتخذوه ربا فأراهم الله عزّ و جلّ إياه جيفة ملقاة بالساحل ليكون لمن خلفه عبرة و عظة يقول الله: «وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِّ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٢

عندهم لنفسه فترة فتيرة من الزمن الذي استعبدتهم فيه.

كلّا! وإنما قصد به «الله» ولكن «قال آمنت» دون اخبار بات من الله أنه «آمن» وحتى لو آمن ف «ءالئن» وقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص «وَ قَدْ عَصَيْتَ» طول حياتك النكدة «وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» ثالوث منحوس ليس عنه خلوص.

فهنا تأخير التوبة عن الحالة غير المخيفة إلى المخيفة، هو مما يدخلها فيما لا يقبل وإن كانت سالحة،

ف «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (٤: ١٧-١٨).

فتأخير الإيمان إلى رؤية البأس، وهو إيمان للبأس، وقد سبقه كل عصيان وإفساد، ذلك مما يمنع باتا لا حول عنه عن قبول التوبة، فقد يقبل صالح الإيمان عند رؤية البأس: «فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرِينَةً آمَنَتْ فَأَفْعَمَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤَسُّ لِمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْجَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» (١٠: ٩٨) و لكنه إذا كان صادقا و لم يعيش صاحبه كل المظلمات و العصيانات.

فَأَلْيَوْمَ تُنْجِيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِّ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢).

«نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ» دون روحك، ودون كل حياتك خلاصا عن العرق «ننجيك» لا نجاة لك، بل نجاة لمن أهلك عما كانوا يظنون «لتكون» ببدنك «لمن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٣

خلف» حاضرين ومستقبلين «آية» مجسدة ربانية تقضي على «أَنَا رُبُّكُمْ الْأَعْلَى» وتثبت أن الله هو الرب لا سواه «وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِّ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ».

إذا فالمفروض بقاء بدنه آية، وكما نراه في دائرة الآثار العتيقة بالقاهرة، ولقد رأيت جثمان فرعون فيها وكان بجني مستشرق مسيحي من إنجلترا فقلت له هذا ما أخبر عنه القرآن: «فَأَلْيَوْمَ تُنْجِيكَ ..» فقال حائرا قلنا: وكأن القرآن فيه كل غيب، فلان للإيمان!

هنا «لِمَنْ خَلَقَكَ» دون «قومك» وما أشبه، تخلف خلفا وسعا فيه من قوم فرعون ومن بني إسرائيل الحاضرين ومن خلفهم إلى ما شاء

الله، وذلك البدن حتى الآن باق بمعرض الآثار القديمة في القاهرة.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يُفْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

«بوأنا» بواء روحيا وحيويا بما بعثنا فيهم رسلا ولا سيما موسى عليه السلام حيث نجاهم من فرعون، وجعلناهم ملوكا يملكون أنفسهم بعد ما كانوا يملكون، ويفقدون أمورهم بعد ما كانوا يفقدون ويغدرون.

من نبأ موسى (٤)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦).

حلقة مختصرة غير مختصرة من قصة موسى وفرعون وحوار بينهما، بينها وبين قصة الرسول محمد صلى الله عليه وآله متشابهات كأنها نسخة تكرر وأسطوانة تعاد! تدليلا على ودة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٤

الرسالة في جوهرتها وآياتها، ففي عرض له صلى الله عليه وآله تسلييات واستقامات وطمئنيات.

و هنا في إرسال موسى إلى فرعون وملاءة دلالة صريحة على عدم اختصاص رسالته ببني إسرائيل مهما كانوا حجر الأساس في دعوته إذ كانوا مستضعفين أمام الفرعنة الجبارة، و «آياتنا» كجمع مستغرق آيات الله كلها وكما في أخرى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي» (٢٠: ٥٦) هذه لا تعني كل الآيات الإلهية إلا جلها، و «كلها» و «آياتنا» هنا و هناك تعنيان كل الآيات التي كانت تناسب ظرف الزمان وظرف المكان، وما أرسل رسول يمثل هذه المجموعة من الآيات التي تحلق على الأرض والسماء برا وبحرا وإنسانا في مختلف الظروف والظروف! ولأنها كانت من أصعبها وأصلبها أصبحت تترى عليهم يمينا وشمالا، ترغيبا وترهيبا لعلهم يرجعون، وجمعية أخرى لهذه الآيات أنها تجمع بين متصلة كاليد البيضاء ومنفصلة قريبة كالعصا حيث قلت حية تسعى وثعبانا مبينا، وقلبت الحجر اثنتي عشرة عينا، والبحر رهوا، وطريقا يسا، ثم منفصلة بعيدة هي الدم والقمل والطوفان والضفادع بآيات مفصلات تترى. فقد أوتي إذا آيات الله كلها بأنواعها في هذا المثلث - إلى فرعون وملاه!

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧).

متظاهرين أنها ضحك السخرية والاستهانة بها، وهذه من سيرة الفرعنة الثراء، توهينا لرسالات الله بآياتها: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ» (٨٣: ٢٩) يوم الدنيا، وأما الآخرة: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٩: ٨٣).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٥

وَ مَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨).

و هذه ظاهرة مكرورة وقعة في آيات موسى.

وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩). وكان العذاب المدعو كشفة من آل فرعون هو الرجز: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ. وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعَوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ» (٧: ١٣٦).

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (٥٠).

و إلى هنا تتختم الآيات منذ حية العصى حتى غرقهم في اليم، يطويها طيا لعرض حوار في هذا البين، وعجب من هؤلاء النكدين الأشراس، تراهم غرقى في بلاء الآيات، وتم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم رجز البلاء، ويعدون بذلك الاهتداء، وهم على ما هم يتهتكون موقفه الرسالي: «أَيُّهَا السَّاحِرُ؟! وموقف الرب «ربك» كأنه ربه لا سواه و «بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ» كأن عهده لا يتخطاه إلى سواه كشفنا للرجز عن هؤلاء! فلو كان ذلك «الرجز» سحرا فلتدفعوه بسحر مثله وأنتم أهله، وإن كانت معجزة فلما ذا «يا أَيُّهَا السَّاحِرُ؟! ومن ثم «ربك» ثم «عندك»؟

فلو كنتم من أهل الإيمان والاهتداء بالآية الإلهية فتلك هي الآية والأخيرة من الآيات كلها، فهل إن كشف الرجز آية ووقوعه سحر وليست آية؟

و لكنما الله يستجيبهم «إلى أجلٍ هُمْ بِالْعَوْدِ» تأكيدا للحجة وإثارة للمحجة ف «إذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٦

هُمْ يَنْكُتُونَ» ومن قبل كان يعلم نكثهم بأضرابهم الأسلاف السلاف: «و لَوْ رَجَمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِيَمٍ مِنْ ضُرِّ لَلْجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٢٣: ٧٥) (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» (٤٤: ١٥). تلك آيات من الله وما وجهها آل فرعون فما هي الآيات الفرعونية وإجاباتها؟ إنها لا تتخطى خداعات خواء وادعاءات جوفاء وزخرفات تجلب عقول الجماهير الساذجة المخدوعة بالأبهة والبريق وزينة الحياة الدنيا.

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ (٥٢) فَلَوْ لَا أَلْقَيْ عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣).

عرض تافه رخيص يواجه به آيات الله البينات «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ...» و ماذا يثبت له ملك مصر الذي حصل عليه بالسيف والنار، بالزور والغرور؟ وحتى إذا كان له حقا وخيرة من شعبه، أكل ذلك يثبت أنه إله؟ أم عبد يستغني عن الله؟ إذا فكل ملك إله، أو هو مستغن عن الله! وترى من هذا الذي هباه وأعطاه؟ هل هو هو أم الله؟ فليس هو إذا بإله ولا يستغني عن الله!. فرعون بين فضله واستجاش قلوبا مستغفلة مستخفة «أَفَلَآ تُبْصِرُونَ» بأبصاركم، إذ لا حاجة إلى بصيرة لهذا العرض المحسوس؟ .. ومن ثم يبين مهانة موسى عنده «وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» «فَلَوْ لَا أَلْقَيْ عَلَيْهِ...» ومهانته الأخرى عند الله «أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» ويقايس بين نفسه وبين ذلك المهين «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ...».

فرعون الطاغية هنا في تدجيله بين نفي وإثبات، يثبت لنفسه كل أهلية ينفبها عن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٧

موسى، وينفي عن موسى ما يثبته لنفسه:

لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ» و موسى مهين ليس له ملك و لا هو من الطائفة الملوكية، بل من بني إسرائيل المستضعفين المستخدمين! ٢- أنا أبين وهو لا يكاد يبين، حيث العقدة في لسانه ولا عقدة في لساني! ٣- أنا علي أسورة من ذهب، «فَلَوْ لَا أَلْقَيْ عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ»؟

٤- أنا معي جندي مقترنين ولم يجيء مع موسى حتى ملائكة مقترنين.

و لكن ليس ملك مصر ولا أي ملك أوسع منه كرامة، ولا استضعاف موسى مهانة، وأما أنك تبين وتفصح عما تريد، فما ذا تبين إلا خرافات وادعاءات، وموسى الذي لا يكاد يبين على حد زعمك يبين كما يستطيع حقائق بينات.

و ترى ماذا يعني «لا يَكَاذُ يُبِينُ» هل لأنه لم يكن فصيحاً كما يليق «وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي» (٢٨: ٣٤) ينطلق لسانه «وَ يَصْنِقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ» (٢٦: ١٣) أم كانت في لسانه عقدة لا ينطلق كما يحق «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» (٢٠: ٢٨) فقد أرسل أخاه هارون، وأحل عقدة من لسانه «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» (٢٠):

(٣٨) فصاحة متصلة بإزالة العقدة عن لسانه، ومنفصلة بإرسال هارون وهو أفصح منه لساناً، وتعزيزاً بتأزيه بأخيه، وكل ذلك حصل. وأما الملائكة المقترنون، فهم ليسوا معك، اللهم إلاشردمة كافرة من الضالين معك، وآيات موسى التسع المقترنة به تكفيه عن إقران الملائكة، ولو اقترنوا به لكانوا في صور الرجال فما هي إذا فائدة الاقتران؟.

و أما الأسورة من ذهب تصدق رسالته! فهي تصدق فرعنة وترفا وقد تكذب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٨

الرسالة، حيث الرسالة الإلهية تناحر هذه الفخفخات المادية، وتشاجر المترفين ذوي الأثرة والكبرياء!.

(لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين؟ يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما مما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقى عليهما أساور من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه لأنبئائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنبياء، ولما وب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمتم الأسماء معانيها، و لكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعتهم تملأ القلوب والعيون غنى، خصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء عليهم السلام أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمتد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرجال لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار، ولأنمو رهبه قاهرة لهم، ورغبة مائلة بهم، وكانت النبات مشتركة والحسنات متقسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتياع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة ولا يشوبها من غيرها شائبة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٣٩٩

وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل» «١».

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤).

الاستخفاف هو طلب الخفة من ثقل، وثقل الإنسان عقله وهو إمام النواميس الخمسة في كيان الإنسان وهي العقل والدين والنفس والمال والعرض، فإذا خف العقل باستخفاف تغافلا عنه وتنازلا عن حكمه تخلفه الطاعة المطلقة لمن يستخف، وهو الاستحمار الذي يخلفه سائر الأبواب السبع الجهنمية من الاستثمار والاستعمار والاستكبار والاستبداد والاستضعاف، فالاستحمار وليد الاستخفاف ثم هو أم لسائر الأبواب فإذا خف الإنسان عقله أمام الاستخفاف، حرماناً عن التعقل أو ابتعاداً عن حكم العقل أصبح كالريشة في مهب الرياح الاستحمارية، متخلياً عن كيان الإنسانية ككل، إلى أنزل وأنذل دركات البهيمية اللاشعورية، وهنالك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى! وكافة المحاولات الفرعونية في حمل قومه على طاعته تختصر في هذه الصيغة:

«فاستخف ..» فللمستضعفين أمام الطغاة إحدى حالات ثلاث.

المنعة والاستقامة على موازين العقل والحكمة كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، فلا يزيده الاستخفاف إلا قوة وسدادا، وهؤلاء هم المستضعفون المؤمنون الذين ودهم الله خلافة الأرض ووراثتها، حيث لا يحقون مهما يستخفون، بل ويزدادون تقلا في الإيقان وتبلورا في الإيمان.

(١). نور الثقلين ٤: ٦٠٦ ح ٦٦ عن نهج البلاغة عن امير المؤمنين علي (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٠

٢- سفة وقلة عقل دون فسوق ولا تقصير، اللهم إلا في مبادئه، وهنا الطاعة بالاستخفاف وقعة لا محالة، ولا ذم فيها إلا قليلا: «إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَضْعِفُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ .. (٤: ٩٩).

٣- تحاذل دون تناقل على عقل ودراية، بفسق عامد، رغم إمكانية المنعة والاستقامة: وهم: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» (٤: ٩٧).

هؤلاء هم المستخفون فسقا حيث يخفون، يحتنكهم كل شيطان وهم له مطيعون، يحنون ظهورهم فهم عليهم راكبون «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ»! فمادة الفسق: الخروج عن حكم العقل والقطرة وعن حكم الله، تزداد فعالية لما يستخف الإنسان عن أفعال الإنسانية فيخف تنازلا عنها وتحاذلا: فطاعة مطلقة للمستخف المستحمر! فاستخفاف الطغاة لهذه الجماهير استحمار فاستثمار دائب لا حول عنه، حيث يعزلون الجماهير عن أسباب المعرفة فيتناسوئها حتى ينسوها، فلا يعودون ليبحثوا عنها، فلما تحلوا عن المعرفة بأسبابها ألقوا في روعهم ما يشاءون من بواعث الكوارث فيسهل استخفافهم ويلين سلسا قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال حيث يلعبون بهم كالريشة في مهب الريح العاصفة.

و لما انتهت مراحل الابتلاء إلى هذا الحد من الخفة والبلاء، وقع هنالك الانتقام في الأولى قبل الأخرى.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠١

أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦).

و هذه سنة الله بالنسبة للمستخفين الفاسقين العائشين على هوامش الفرععات، يستدرجهم مليا يملئ، ثم يأخذهم بغتة وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) على ضوء هذه الآية: (إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له ثم تلا هذه الآية) «١».

و ترى كيف بإمكان العبد أن يؤسف ربه، وربنا لا بأسف مهما توفرت عوامل الأسف؟ لا يعني «أسفونا» هنا إلا أنهم عملوا الأعمال المؤسفة وهو سبب الانتقام، وأمثلة هذه الأفعال تجرد عما لا يليق بساحة الربوبية كما الغضب وأضرابه من تغير الحال حيث (لا يتغير بانغيار المخلوقين)! فهو تعالى (لا بأسف كأسفنا) (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا) ماضيا فيه عبرة «و مثلا» نموذجاً من عواقب الفسوق «لآخرين» كمن أتوا ويأتون بعدهم من الفاسقين، وهم أمثال في رزاياهم وقضاياهم كما قومك من هؤلاء الآخرين.

من نبي موسى (ع)

وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمٌ فُوعُونَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَدِّبُونِ (١٢) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ لِي

(١). الدر المنثور ٦: ١٩- / اخرج احمد و الطبراني و البيهقي في الشعب و ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٢

هَارُونَ (١٣) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسَلْنَا مَعَنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ (١٨) وَ فَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الصَّالِينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ أَخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩)

لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنْ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا جِبَاهَتَهُمْ وَ عَصِيْبَهُمْ وَ قَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (٤٤)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٣

فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَنَّنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (٥٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عَيْبُونَ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَ أَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

تسعة وخمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية حتى غرق فرعون وقومه، عرضا لطائل الحوار بينهما، ثم مسرح السحرة والآية الرسالية الى «وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ».

و من ثم نرى عرضاً لرسالة ابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام كلا في قصص له بتلحيقة وحدة: «و ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» تسليية لخاطر الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بدع من الرسل في

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٤

مواجهة التكذيب، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة وحدة وصاحبة عرقلة وحدة، فعلى الداعية التصبّر في الدعوة حتى النهاية. ولقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة والمائدة والأعراف ويونس والأسرى والكهف وطه، إضافة إلى إشارات أخرى في سواها، وكل هذه متناسقة مع جو السورة وموضوعها الرئيسي، والحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة، مقسّمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة. و قصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كل مسرح رغم تكرارها موضوعياً، لأنها تناسق كل الأجواء المستعرضة فيها، لولاها لكان الجو ناقصاً، فالى مشاهد سبعة هنا بين موسى وفرعون: وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ (١١).

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعد ما خرج إليها من مصر خائفاً يترقب «ثُمَّ جِئْت عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» (٢٠: ٢٠) ففي ذلك القدر المقدّر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر.

و اذكر «إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى» كما ناداك، وآواه كما آواك «أَنْ اتَّبِعِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم وظلموا الحق، عائشين في ثالث الظلم، المظلم جو الحياة على عائشيتها، ففي الرسالات الإلهية سلبيات وإيجابيات، سلبا لآلهة الأرض ثم إيجاباً لإله السماوات والأرض، وسلبا لأي ظلم من أي ظالم فإيجاباً للعدل: «أَنْ اتَّبِعِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ» فقد اظلمت الجوّ طغواهم، فلتحملهم على تقواهم، ام لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٠٥

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَ هُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤).

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان، أنكوصاً عن تكليف الرسالة بأسره؟ وكيف يرسل الله الناكص المنتكس! أم عرضاً لحاله استنصاراً من ربه على عدوه؟ وعلمه بحاله يكفي عن مقاله!.

في الحق إنه عرض الحال التماساً وهو يعلم الحال، وكما في كل دعاء واستدعاء، و «فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ» برهان لا مرد له على عدم النكوص، وإنما هو استمداد من ربه ان ينصره على عدوه.

و ترى فرق التكذيب والقتل في سبيل الدعوة أهمما مما يتطلب عرض الدعاء، وهما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية؟ ففريق يكذبون

حكما وعلماً فإنهما ليسا هما الرسالة البعيدة عن عمل الشيطان وعن أي ضلال في سبيل الدعوة، وقد قوبل الحكم في مواضيع عدة بالرسالة والنبوة مما يجعله أعم منهما مهما كان منصبا إلهياً كما كان لطالوت، ولكنه ليس لبعصم صاحبه عن كافة الزلات والضلالات، فقد أوتي حكماً مع الرسالة بعد ما رجع من مدين وبينه وبين الحكم الأول عشر سنين، فذلك حكم رسالي ورسالة الحكم، ليس ليضل معه بعد على طول خط الدعوة، والأول حكم الدعوة قبل الرسالة قد يضل معه كما ضل.

ثم ولم يكن ضلالة له عن الايمان ولا عن حكم الشرعة الإلهية إذ كانت الوكزة القاتلة في ذلك الاقتتال مسموحا أو فرضا حسب الشرعة، دافعا عن نفس محرمة موحدة عن ان تهدر، مهما هدرت نفس مشركة غير محترمة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٠٦

و هنا تقتسم الوكزة إلى أصلها المصيب المشروع فليس ضلالا، وإلى قتلها المخلفة عن قوتها وقد خلفت فرار صاحب الحكم عن الجو الرسالي الآتي وأجل رسالته عشر سنين، وذلك مقصود وهذا غير مقصود، وليس عمل الشيطان هنا إلا غير المقصود، والمقصود هو عمل الرحمان، فلم يكن الضلال إلا في البعد الثاني من وزته وهي القتلة الناتجة عنها، غير المقصود فيها، فلم يرتكب - إذا - كمؤمن ذنبا، وإنما ارتكب خطأ رساليا ولما يرسل «١» إذا فهو ضلال عن تلك الرسالة السامية في مرحلة ادنى منها مهما كانت أعلى قمم الايمان، وكما في رسول الهدى «وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» في وجه وجهه من وجوهها.

و قد قال حينئذ لئن تُ نَفْسِي

دون «غيري» إذ كان ظلم الانتقاص لعاجل الرسالة دون تقصد «فَأَغْفِرْ لِي» سترًا عن منعة الرسالة «فَعَفَّرَ لَهُ» حيث وقه للفرار وظل عشر سنين في مدين «ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» (٢٠ : ٤٠) والتفصيل إلى محله.

(١)

. نور الثقلين ٤ : ٤٨ في عيون الأخبار يسأل مأمون الرشيد أبا الحسن الرضا (ع) فيما سئل أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى -/ قال: فما معنى قول موسى لفرعون: فعلتها إذا و أنا من الضالين؟ قال الرضا (ع): إن فرعون قال لموسى لما أتاه: و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين -/ قال موسى: فعلتها إذا و انا من الضالين عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك ففرت منكم لما خفتكم» و قد قال الله لنبيه محمد (ص): الم يجديك تيما فآوى -/ يقول: الم يجديك وحيدا فآوى إليك الناس «وَجَدَكَ ضَالًّا» يعني عند قومك «فهدى» اي فهداهم الى معرفتك.

أقول: يعني ضلالة بعد القتل عن طريقه المقصودة الى غير المقصود «و دخل المدينة خائفا يترقب» و وجه آخر ذكرناه في المتن، فلعل هذا الوجه غير وارد عن الامام (ع) حيث يتبع من الوجوه الدلالية القرآنية احسن الوجوه!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٠٧

«فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»-: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ..» (٢٨ : ٢١) (يترقب» الفرج، وان يعجل في آجل الرسالة «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا» بعد الحكم الأول- وطبعال- فوجه لحد «وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

و أما تربيتي فيكم ويدا ولبثي عندكم من عمري سنين فلم تكن نعمة تمنها علي:

و تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢).

فلو لا تعبيدك بني إسرائيل أسرا وحصرا وقتلا لولائدهم واستحياء لنسائهم لما اضطرت أمني أن تقذفني في التابوت «أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ

فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له. وألقيت عليك محبة مني ولتصنع علي عيني» (٢٠ : ٣٩).

إذا فأنا صنيع الرب وربيه عندك، حفاظا ربانيا عن بأسك وأنتم لا تشعرون، وما كان منكم إلا قصد الانتفاع مني «لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (٢٨ : ٩) و هذا تعبيد لي من وجه آخر غير ما كان لسائر بني إسرائيل.

فأية نعمة تمنها علي وهي في كل زواياها وحواياها تعبيد لبني إسرائيل؟

فالرسم الملكي بتقتيل الأبناء المستثنى فيّ، كان رسما لتعبيدي انا في وه آخر، فحتى لو كانت نعمة منك عليّ، فهي ليست لتتطارد نعمة الرسالة الإلهية وهي أنعم النعم، فليست قضية النعمة من بشر لبشر نكران أو نسيان النعمة الإلهية الكبرى الرسالية، على ان كل نعمة تصل العبد فانما هي بتقدير من الله قدره، ولا سيما نعمة الحفاظ على نفسي عند أعدى أعدائي «يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ ...!»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٠٨

فهناك أهدم صرح الحجاج اللجاج الفرعوني صدا عن بازغ الدعوة الموسوية، فانتقل إلى لجاح آخر في صورة الحجاج: قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣).

في ذلك الاستجواب العارم نرى فرعون في اعماق الحمق وسوء الأدب، ونرى موسى يجيبه كرميا كأن لم يسمع إلى شطحاته القارصة الراقصة فندرس في هذا الحوار كيف يجب علينا ان نحاور خصومنا الظالمين فضلا عن سواهم من المسترشدين.

«ما» هنا توهين لساحة الربوبية العالمية، استنكارا لها زعم انه هو الرب الأعلى فلا أعلى منه، حتى يرسل رسولا إلى الرب الأعلى! إنه لا يعي عن النكاية بموسى كرسول، يحاول القضاء على كيان مرسله رب العالمين، وهل هو- فقط- سؤال عن الماهية؟ والصيغة الصالحة في الماهية الإلهية هي «من» دون «ما» ثم السؤال عن الماهية ليس إلا بعد الاعتراف بصاحبها وهو ناكر رب العالمين، لمكان دعواه «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» و «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...» (٢٨ : ٣٨) فقد كان دهريا لا يؤمن بالله ولا سيما المدعو «رَبُّ الْعَالَمِينَ» فانه ممن يقسم الربوبية بين أرباب عدة ارضية وسماوية، وهو منهم كما الأصنام منهم: «وَ يَدْرِكُ وَ أَهْلُكَ ...» (٧):

(١٢٧). فحتى لو كان معترفا بوجود الله كرب للأرباب، فهو ناكر لكونه رب العالمين، اللهم إلا علما له خاصا كما لسائر الأرباب عوالم خاصة.

و قد يكون الطاغية جامعا في سؤاله عن «ما» بين التوهين والاستفهام عن الماهية والكيفية، فأتى موسى بالجواب الصالح وهو عرض الصفات الفعلية وكما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٠٩

يروى انه لما قال: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا ..» قال فرعون متعجبا لأصحابه: ألا تسمعون أسأله عن الكيفية فيجيبني عن الصفات ... «ا».

إذا فهو سؤال استنكار وتوهين لمكانة من سماه موسى «رَبُّ الْعَالَمِينَ» وهنا موسى يضرب الصفع عن تلك المهانة مجيبا عن مكانة رب العالمين، مبينا سعة العالمين دون اختصاص بعالم دون آخر:

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤).

إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» بأصل الربوبية الأصيلة، فهي- إذا- الربوبية العالمية المحلقة على الكون كله المعبر عنه ب «السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» و ان لم تكونوا موقنين بأصل الربوبية فالسؤال «وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟» ساقط من أصله، إلأهزء كما هو كذلك، إلا أن موسى الرسول مهمته ان يهدي الضالين مهما كان سؤالهم متعتا مستهزء.

و يا له من جواب يكافئ ذلك التجاهل العارم ويغطيه، انه «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» التي أنت جزء منها ضئيل، كالذرة أو الهباءة بين شاسع الكون وهائله.

هنا ينبري الطاغية بقولة لاهية لاغية لمن حوله، يستنصرهم في القضاء على حجة الله البالغة:
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥).

(١). تفسير البرهان ٣: ١٨١ تفسير القمي قال حدثني أبي عن الحسن بن علي الفضال عن ابان بن عثمان عن أبي عبد الله (ع) قال لما بعث الله موسى الى فرعون-/- إلى ان قال-/-: و انما سأله عن كيفية الله فقال موسى رب السماوات ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٠

ألا تستمعون إلى ذلك التقول العجيب، كيف يجراً عبد من عبيدي أن يخلق ربا للكون كله ويجعلني ضمنه و «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى!» وقد يكفي ردا عليه ادعاءه الجوفاء الخواء أمام الرب الأعلى أنه مرسل اليّ من رب العالمين! أتري موسى يجيبه عن لاغيته؟ كلاً! بل يمر عليها مر الكرام مستمرا في تعريفه برب العالمين:

قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦).

إن رب العالمين- رب السماوات والأرض وما بينهما- هو «ربكم»:

فرعون وملؤه، «وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» فان كنت يا فرعون ربا لمن حولك ومن معك كما تزعم، فهو «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ». و هذه أشد مساسا بفرعون ودعواه، وأحد مراسا لاثبات الربوبية العالمية، مما يدفع فرعون إلى قولة جنونية تحنن موسى، وليسقطه عن عقلية

الحوار، ويجتث الحق عن كل دعاويه:

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧).

و ذلك تمكّم في أصل الرسالة، فقضاء- في زعمه- على ما يحمله من مواد الرسالة الإلهية، ضربا عميقا عميما على موسى في الصميم، كفاحا عن ضربته السياسية والدينية على فرعون في الصميم.

أتري موسى يقابل الطاغية بالمثل قائلاً: ان ربكم الأعلى مجنون؟

كلاً! بل هو يمضي في طريقه قدما كأن لم يسمع قولته الباغية:

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨).

فإن كنت أنا الرسول المجنون بسند التعريف بالربوبية العالمية، فمن رب المشرق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١١

والمغرب وما بينهما ايها العقلاء إن كنتم تعقلون؟.

أمن العقل نكران خالق العقل والعقلاء، ونكران الربوبية الوحيدة لهذا النظام المنسق بنسق وحد، والمنظم بنظام فارد، أم الجنون بعينه هو النظام من نتائج فوضى الربوبيات المتشاكسة، والوثام التام دون تفاوت في الخلق من آثار مختلف الربوبيات الشاسعة!

إن المشرق والمغرب مشهدان معروضان لكل ذي بصر ونظر، فهل ان الشروق والغروب هما من تصريفات فرعون وأهنته؟ إنه توجيهه ويه

يهز القلوب البليدة المقلوبه هذا، إثارة لمشاعرهم، وايقاظا لعقولهم «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

و لا يخشى الطغيان ما يخشاه من يقظة الشعوب النائمة، كالبهيم الهائمة، المحرّضة إلى العقل عن الحقائق في كل حقل، دون تبعية بغبائية قاحلة، وتقليدية جاهلة، ويا له من ترتيب رتيب عجيب في تعريفه برب العالمين، ابتداء من الأثر العام: «السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» الظاهر حدوثها و مربوبيتها، فان ادعي قدمها فالى ما لا ينكر في حدوثه «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» حيث الإنسان مخلوق على أية حال، ثم استدلالا لوحدة الربوبية بنظام الشروق والغروب، كالحجة الابراهيمية مع نمرود، وهذه الثلاث تشترك في التعريف بالآثار حيث الذات الألوهية وصفات الذات لا تعريف لها ذاتيا إلا بالآثار والأفعال وهي صفات الفعل.

و لما ينتهي امر الحوار إلى إيقاظ الشعب، يترك فرعون حوار العار إلى التهديد:

قَالَ لِمَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩).

و هذه نهاية الحوار من كل جبار لا يملك برهنة على جبروته، قتلا أو نفيا أو سجنا،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٢

ولكيلا يوقظ الجماهير فتتخلف عن ملكته الجابرة وسلطته العاهرة، ولأنه يزعمه الرب الأعلى، لذلك يتناسى الآلهة الأخرى، ف «إِلَهًا غَيْرِي» يعني الرب الأعلى، دون الأرباب الأذنين الأخرى، فانه كانت له آلهة تعبد.

و «مِنَ الْمَسْجُونِينَ» قد توحي أنه كان في ملكه من يعبد إلها غيره كأصل الألوهة، الله أم سواه، ام كانوا في التخلف عن السلطة الفرعونية كمثل موسى.

أ تراه يجيبه بما أجاب خوفا من السجن؟ وهو استمرار سلفه الصالح يوسف القائل «رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ!» انه يحاول إبانة الحق المرام كما يرام، فلا يشير إلى سجن وسواه حتى يهديه هداه، ثم وفي نهاية المطاف يستسلم لما يجري في سبيل الدعوة والله هو المستعان على ما يصفون.

و ترى موسى بماذا يجيب الطاغية عن تهديده العارم، انه يوجهه إلى وجهة اخرى خارقة: قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠). و «لو» هنا احتياطة عاقلة مع الطاغية، حيث يحيل ان يكون موسى على حق مبین، ولكن على فرض المحال «أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ» يبين حق دعواي اكثر مما بان، ويبين حق الربوبية العالمية أوضح مما كان، أفهناك - أيضا - تهددني بالسجن وترميني بالجنون؟ طبعاً لا! وكل ذي حجي مهما تنازل عن حجاه يقول: لا، فلنجرّب الداعية هل يأتي بشيء مبین، وهنا الطاغية يتطلب اليه ان يأتي بشيئه، وثقا انه لن يأتي بأيّ من شيئه:

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ (٣١).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٣

«إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ» في دعواك الرسالة، و «مِنَ الصّٰدِقِیْنَ» ان تجيئي بشيء مبین «فَأْتِ بِهِ» تعجيزا لموسى عليه السلام كأنه من الكاذبين.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ (٣٣).

آيتان باهترتان قاهرتان تحوّلان جوّ البلاط الفرعوني المتبلّج إلى جو متلجلج، مما يحمل فرعون إلى خريطة القول ف: قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤).

لقد شعر فرعون- وهو لا يشعر- انه خارقة منقطعة النظير في كل ما رآه من سحرته، فأحس بضخامتها فوخامتها في وهه أمام حاشيته، إذ كادوا يتملقون من حوله، فحاول التغطية بهذه التغطية: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ!» «عليم» مكن في علمه، ليس كالذين نعرفهم عندنا، بل «إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ..» (٥٠)

فموسى هنالك في حواره مجنون» هناك وهنا في شيبه المبين «ساحر» وقد أتم وأطم آية الثعبان واليد البيضاء، محسوسة ملموسة، إلى الآيات الفطرية والعقلية، فالطاغي الذي يتنازل عن عقله وفطرته فلا تفيده البراهين، ينقل إلى آيات محسوسة يصدقها حتى المجانين، ولكن هذه الطاغية ليس ليسكت عن غوغائيات التهم الجارفة، الهارفة الخارفة:

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥).

فلأنه يرى تناقلهم إلى أرضهم، وان هذه السلطة هي بغيتهم الأصلية، يهددهم بإخراجهم من أرضهم لو اتبعوا هذا الساحر العليم، وفي ذلك استلاب السلطة الروحية: «وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى» (٢٠: ٦٣) والزمنية المزيجة بها، وهذه غاية الشيطنة في الفرعة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٤

و قد يبدو من هذه القولة عظمة الآية مهما سماها سحرا حيث يصف صاحبها بانه عليم، ليس كسائر السحرة، ويبدو خوفه من تأثر من حوله فيهددهم بإخراجهم من أرضهم، ويبدو تضعضه وتهاويه أمام هذا الساحر العليم! فيستمد من حوله متواضعا متسكعا- وقد ادعى انه ربح الأعلى- فيطلب أمرهم ورأيهم في ذلك المأزق الخطير «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ!» ومتى تراه كان يطلب أمرهم وهم له يسجدون؟. انما شنشنة الطاعة بعد طنطنتهم حين تزل اقدمهم وتضل أحلامهم وتكل افهامهم، فيلينون في القول بعد الخشونة، ويتواضعون لأمرهم ورأيهم بكل مرونة بعد العرونة، ويا له كيدا ما أشطنه في ثالوثه المنحوس: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ» حيث استفاد هذه التهمة من السحر، فقد يجوز ان ينتهي بسحره إلى ذلك الحد القمة «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ» وارض الوطن بهذه السلطة القوية المرموقة محبوبة لأهلها كأنفسهم «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ» كلام من يترك العواطف الدفينة ويغطي على الضغائن الكامنة، ويستحث الحاشية الملكية على إمعان التفكير لتخليص الملك وإياهم عن ذلك المأزق العميق، فكانت النتيجة ان: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧).

هنا يشير عليه ملاءه أمرين كما تطلب منهم، وهم شركائه في فرعنته وصرح سلطته، وأصحاب المصلحة في بقاء كيانه «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ» إمهالا إلى أجل دون عجل، فإن هامة أمره الأمر تقتضي ترويا و محاولة جماعية:

«وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ» المصرية أم وسواها «حاشرين»: جامعين «يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ» دون سقاطهم، بل اصطفاء للرعيلى الأعلى منهم لإقامة تلك المباراة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٥

الساحرة القاضية على هذا السحر العظيم.

لقد كان يعلم فرعون أن له ساحرين، ولكنه اختلط عقله، مغلوبا عليه من دهشة الموقف القاهر، ام لم يكن يرى فائدة وعائدة من جمع السحرة لمعالجة الموقف فاستأمر حاشيته فأروا رأيهم هذا تأجيلا للفضيحة، وتغطية عاجلة على الموقف الحاسم.

فَجَمِعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨).

و هو «يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» (٥٩: ٢٠) كما قرره موسى بما تطلب منه فرعون: «فَاَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى» (٥٨).

وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠).

هنا استعطاف ماكر للناس حيث لا يؤمرون، وانما يستأمرمون: «هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ»

و طبعا «لمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» تلحيفا بما فيه هياج الجماهير، وتحميسهم «لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ» وهي الغاية المقصودة من ذلك الاجتماع الحاشر «إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ» و «هم» هنا تؤكد جانب الإثبات في هذه الشرطية المشككة، وهكذا تستحث الجماهير المستخفة المطاوعة المحببة لكل ناعق دون تفتن للغاية الماكرة، وان الطغاة يعبثون بها ويلهون، ويشغلونها بهذه المباريات ليلهوها عما تعنيها وتعانيها من كبت دائب، واحتناك لهم خائب، دونما حنكة وتعقل، سيقّة لكل سائق، سامعة لكل ناعق.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنْ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٦

إِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقْرَبِينَ (٤٢).

هذه قولتهم لأنهم - بالفعل - عملاء قضية ضغط الموقف، يستزيدون أجرا على رواتبهم «إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ» والجواب بطبيعة الحال «نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقْرَبِينَ» من الحاشية الملكية المتفوقة على سائر الموظفين، وهذه هي البغية الفرعونية الباغية الغادرة، فلذلك لا يخل عن سؤال السحرة، بل ويزيدهم اجرا معنويا على مادية المسؤول، وإلى مشهد المباراة المعاكسة للمرام، المضادة للمرام!:

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَ عَصِيَّهُمْ وَ قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤).

تقدم الاقتراح من موسى عليه السلام تهدد لهم هارح وتحد بارع، و «أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ» يستحث كامل قوّاتهم، ويستحصل كل قدراتهم في هذه المباراة الحاسمة الجماهيرية، مستصغرا جموعهم المحتشدة ومعهم القوات الهائلة الفرعونية وأمل الأجل والزلفى، ومعه ربه سبحانه وتعالى واجره والزلفى وهكذا يجب على كل داعية حق ان يستقدم ما عند داعية الباطل ليقضي عليها من فورها، ولو أن موسى ألقى قبلهم كان قد ألقى الموقف الجامع حيث يفر الجماهير من ثعبانه فلا يبقى مجال للمباراة، وقد يؤول ما ألقاه انه سحر أعظم، فلما ألقوا ألقى ما ألقوه بما ألقى من فورهم فغلب الحق وبطل ما كانوا يأفكون.

و ليس في تطلبه سحرهم طلب الباطل، إذ كان يقصد إبطاله بآيته الإلهية، وتطلب ظهور الباطل لإبطاله حق يساند الحق.

«فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَ عَصِيَّهُمْ» فلما رأوها تتحرك بكيدهم، محلقة الموقف بكل رعب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٧

و إعجاب، مما لم يسبق لهم مثيله بهذه الصورة الجماعية الهائلة، اشتبه عليهم أمرهم واطمأنوا إلى غابتهم المنشودة كأنما هي الآن حاصلة «وَ قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» فان جمع العصي والحبال لا بد وأن تتغلب في سحرها على سحر اليد والعصى الواحدة، تقديرا ظاهرا وهم عن الحق هم غافلون.

فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥).

فاللقف هو الأكل السريع، الحاذق الخارق، فقد أكلت الثعبان المبين كل ما يأفكون دونما رجوع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية إلهية بعيدة عن السحر، حيث السحر تحيّل وذلك وقع لا مردّ له، وغلب سحر على سحر ليس إلا غلب خيال على خيال دونما وقعية مشهودة! ومهما تشكك في وقعه مرتابون، فليس ليتشكك فيه مهرة الفن:

السحرة، فموقفهم سلبيا أو ايجابيا موقف حاسم لا ينكر له إلا لمن ينكر عقله وحسّه. و إنما مفاجئة مذهلة غير متوقعة للسحرة، عصى تنقلب حية تسعى وثعبانا مبينا، هي لوحدها تلقف ما يأفكون، دون ان تبقي لها على أثر.

لُقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (٤٨).

و ترى من ألقاهم ساجدين سواهم أنفسهم؟ إنه هيبه الموقف، فخلافا لما كانوا يأملون أدهشتهم الآية البارة فلم يتمالكوا أنفسهم إلتساقطا على الأرض سجّدا، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالته عنهم ركامات الضلالة في لحظات قصار وهم كانوا قبلها هارعين إلى البغية الملكية الطاغية، فتحولوا- إذا- بكامل كيانهم الى «ساجدين» ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٨

لها ناكرين «قالوا» قالا وحالا وفعالا «آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» لا فحسب الايمان بالله الواحد، بل وبرسالته ايضا المتمثلة في موسى وهارون «رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ» تاركين أية ربوبية سواها.

هنا الأتمر الحاشد من الحاشية، الناتج عن تلك المباراة الحاشدة، مع كافة الصعوبات التي كلّفتها حتى ألفتها، أصبح ذلك الأتمر هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا، فتلجج فرعون وملأه وتبلج موسى وملأه، وآمن السحرة، لحد أصبح بطن الأرض اريح لفرعون من ظهرها، حيث استأصلت كل محاولاته ومكيداته، فلم تبق له باقية إلا باغية أخيرة هي شيمة كل باغية:

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُجْلِبُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ بَنَاتِكُمْ

أَجْمَعِينَ (٤٩).

ويكأنّ الايمان- أيضا- كسائر الأمور المسيرة بالاذن- بحاجة إلى اذن، خلطا لعمل القلب بعمل القلب، ولأن ذلك البليد الطاعي يدعي السلطة المطلقة على شعبه، فلنكن قلوبهم- أيضا- بيده.

هنا «آمَنْتُمْ لَهُ» دون «به» نكاية بايمانهم انه ليس إسلاما عن قلب، بل هو استسلام لسحر أعلى أمام ساحر عليم ايمانا لصالحه، تحويلا لآلية إلى سحر ما ود اليه سيلا.

إنه لا يشعر قلبه ما استشعره هؤلاء من الحق، وهم أخرى ممن سواهم في تمييز الآية من السحر، ومتى كانت للطغات قلوب يفقهون بما حتى يلمسوا هذه اللمسات الحية الوضائة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤١٩

هنا الطاغية يثني همة الاستسلام بأخرى يتهدم بها- في زعمه- صرح السحر من هؤلاء السحرة، وأنه تآمر على السلطة الفرعونية: «إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» ومتى كان بينهم حتى يعلمهم، ومتى سبق له سحر حتى يعلمه فيعلمه، ومهما يكن من أمر يكون له مأخذا في هذه التهمة، فهو ان بعض هؤلاء- وهم من الكهنة- كانوا يتولون تربية موسى حين كان ويدا في قصره، و لكنه يعاكس تهمته الى ضدها، إنه عليه السلام تعلم من هؤلاء، فبدلا من قوله «انه لتلميذكم ..» قال «إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ ..» ليزيد الأمر ضخامة في أعين الجماهير ووخامة في قلوبهم.

و لكن هذه الثانية كما الأولى لا تجد مجالا من القبول، فالسحرة فالتة، والحشد متنزل أو متحول، فالى ثالث ثلاثة هي التهديد بالصلب القاسي الذي كان يجري بحق أعصى العصاة وابعى البغاة:

«فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ماذا أفعل بكم ايها الخونة المتمردون! «لَأَقَطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْبِلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» و السلطة قاهرة و الطاغية قادرة، فلو كان إسلامهم استسلاما لكانوا يستسلمون للسلطة الفرعونية، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية، اللهم إلا آية إلهية، ولكنهم أثبتوا دون أية ريبة أن إيمانهم وقع دون ممارسة، لا مرد له ولا تحويل. قالوا لا ضير إننا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١).

«قالوا» بأجمعهم «لا ضير» لنا فيما تهددنا إذ «إننا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ» انقلابا تاما لنا، طاما لكياننا، فلا مجال لك فينا، ولا رجعة لنا إلى ما كنا:

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٠

تُضْطَرُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَتَقَى. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَخْرُجُ فِيهَا وَ لَا يَجِي (٢٠: ٧٢-٧٤) وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ (٧: ١٢٦).

اجل «لا ضير» في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ولا في تصلبنا أجمعين «إننا إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ» عن حماة هذه الأدي، فلا مطمع لنا إذا ولا مطمح إلا «أن يغفر لنا ربنا خطايانا» طول حياة التكليف حتى الآن، «يغفر لنا» ل «أن كنا أول المؤمنين» حيث سبقنا في هذه المباراة غيرنا في الإيمان، بل وسبقنا المؤمنين في صمود الإيمان.

فيا لله، يا لروعة الإيمان وضوعته إذ تشرق في الضمائر الحية، وتفيض على القلوب المستعدة فتسكب الطمأنينة في نفوس نفيسة في أعماقها، مهما كانت بحيسة خسيصة في أوحاقتها لفترة- مهما كانت طويلة- من أوقاتها، فترتفع بسلالة من طين إلى أعلى عليين.

فلما تصل النفوس إلى هذه القمة المرموقة يوحى إلى الرسول «أن أسر بعبادي ..».

و هنا يسدل الستار على موقف السحرة المهذدون به إلى فرار موسى ومن معه إلى جانب البحر: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢).

أ ترى فرعون طبّق على السحرة المؤمنين ما أوعدهم؟ لا إشارة له! ولو كان لبان كحدث هائل في تاريخ الرسالات، قتلا وصلبا جماهيريا لحشد كبير من السحرة! والجو آنذاك ما كان يسمح أو يفسح مجالا لهذه القتلّة الهائلة، فإن غلب الحق في تلك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢١

المباراة أوقع على فرعون وملئه أثقل الوقعات، فكيف يجراً على هذه العملية الفاتكة بحق الكبراء من قومه الخصوص، وقبل أن يلاحق موسى ومن معه؟! وطبيعة النقم على الفرعونية الجبارة تقتضي التصريح بهذه القتلّة لو حصلت، تأكيدا لإيمان من آمن من قومه، وتبيدا للفعلة الفرعونية الطاغية!.

قد تلمح «أن أسر بعبادي» انهم هم السحرة المؤمنون حيث حققوا حق العبودية لله، ام- ولا قل تقدير- انهم منهم، ف «عبادي» هم بنوا إسرائيل والسحرة المؤمنون، بل وجموع آخرون ممن دخلوا في زمرة في الردح الفاصل من الزمن بين المباراة و الإسراء إلى جانب اليم، فلم يكن موسى الرسول وأخوه بمن معهما من المؤمنين سكوتا لا ينطقون فلا يدعون إلى الله طول هذه المدة وهم على بينة قاضية شاهرة بين الجماهير!.

فقد كان الايمان لموسى مثلثة الزوايا، السحرة بطبيعة الحال، وجماعة آخرون من القبط، وجماعة من بني إسرائيل، قد يشملهم كلهم آية يونس التالية للمبارات «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يُفْتِنْتَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَكَايِدٌ لِمُؤْمِنِي» «١».

أ ترى «من قومه» تعني- فقط- قوم موسى الإسرائيليين؟ وقد آمن له السحرة أفضل ايمان في هذه المباراة، وهم أفضل ممن سواهم ايمانا لإلا قليلا من بني إسرائيل

(١). نور الثقلين ٤: ٥٣ فحبس فرعون من آمن بموسى (ع) في السجن حتى أنزل الله عز و جل عليهم الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم فأطلق عنهم فأوحى الله عز و جل إلى موسى «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٢٢

المخلصين! أم هم قوم فرعون من السحرة ومن تابعهم؟ وبعد الضمير يبعده! وقد آمن مع موسى جم غفير من قومه مهما آمن له معهم آخرون! أم هم القومان وضمير الغائب هنا له مرجعان، فقد آمن لموسى ذرية من قوم فرعون هم السحرة ومن تابعهم، وذرية من قومه نفسه «على خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ» كأصل المخافة و «ملاهم» القبط المترفين، والاسرائيليين العملاء لهم حفاظا على مكانتهم في عمالتهم الخاوية، وهكذا يكون دوما فرقة الايمان، انهم هم المستضعفون الذين لا يحسبون بشيء أمام الطغاة والكبراء، المتردلون في حسابهم «أُتُومُنْ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» (٢٤: ١١١)! و من هنا يعبر عن المؤمنين له بقومه مهما كانوا قبطا، حيث الايمان الموحد يزيل الفوارق القومية: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً...» (٨٧).

و قد تعم بنو إسرائيل في هذا المجال غيرهم من المؤمنين، ام انه تعبير عن الكل باسم الجل تغليبا «وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...» (٩٠).

و على اية حال يؤمر موسى بعد نجاحه في المباراة ان يفر بقومه سرىا «إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» أترام لم يكونوا متبعين طول هذه المدة إلا لما أوحى إلى موسى؟ اجل ولكنه اين إتباع من إتباع، فهم كانوا متبعين ملاحقين وهم يتحملونه إذ كان محمولا، ولكنهم الآن متبعون استئصالا لهم عن بكرتهم.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِطُونَ (٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦). لقد أسرى موسى بعباد الله ليلاً نحو اليمّ بسرعة خارقة بارقة، وسمع فرعون بهذه المكيدة النابغة «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٢٣

المدائن» المصرية ككل «حاشرين» يجمعون الناس ليسمعوهم تالية الدعايات ضد الرسالة الموسوية وأتباعها:

«إن هؤلاء» الشاردون «لشردمة»: جماعة منقطعة عما يصلحها، مطرودة عن مجتمعنا، بقية بالية باقية من بني إسرائيل «قليلون» عدة وعدة.

«و انهم» على قتلهم وعلتهم «لنا لعائطون» من سوء صنيعهم بين شعبنا ودعاياتهم المضللة فيهم.

«وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ» مجتمعون، في سلطتنا زمنيا وروحيا «حاذرون» عما يصطدمها روحيا وزمنيا «شاكون في السلاح» «١»، لذلك فانا نتبعهم فنتبعهم فنقضي عليهم إزالة للفساد وإصلاحا للبلاد.

ذلك كيد فرعون وملاه ليقضي قضاء حاسما على شردمة قليلة معيضة له، ولكن الله يعكس امره ضده:

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْثَرْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩).
 كيف وهم خرجوا متبعين، ينسب الله خروجهم إليه؟ حيث قدر في خروجهم إخراجهم، وفي اتباعهم موسى ومن معه إخراجهم،
 «كذلك» فعلنا بهم «وَ أَوْثَرْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ». فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠).
 اتبع الجمع الحاذر الغادر شزيمة قليلة «مشرقين» حالة الإشراق، وطبعا بسرعة

(١). تفسير البرهان ٣: ١٨٣ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله «لَسِرْدِمَةً قَلِيلُونَ ... وَ إِنَّا جَمِيعٌ حَازِرُونَ» يقول: مؤداة في الأداة و هو الشاكي في السلاح

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٤

أكثر منهم حتى يلحقوهم لحد التزائي، والمعركة المصرية بالغة الذروة والضرارة، والمشهد قريب إلى النهاية، فموسى ومن معه أمام اليم ليست معهم سفن وزوارق يجتازون بها، وقد قاربهم فرعون بجيشه الجبار شاكو السلاح، مستعدين بكل قواتهم للقضاء عليهم ولم يبق هنا أمل للضفة المؤمنة إلا المعية الربانية وقد أدركتهم كما وأهلكت الآخرين.

فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١).

إن هي لإدقائق ونحن مدركون، فقد بلغ الكرب مداه، هجمة الموت الهمجية الهائجة ولات حين مناص، وات يوم خلاص، فإما خوضا في اليم فغرقا، أم نظل هنا كما نحن فحرقا! والتزائي هو التقارب والتداني لحدّ يصبح كل بمرأى الآخر، وإن لم ير بعضهم بعضا بموانع كمنار العجاج، وهرج الطراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا- فقط- تلاحظ الأهداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢).

كلا! لا إدراك لو كان لكم إدراك، ولا هلاك إلا لعدونا إن كنتم مؤمنين «كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي» معية العلم والنصرة، لا يفارقي عند المهالك، ولا يتخلى عني في المعارك، فلا يدلني أو يضلني، بل «سيهدين» بخارقة ربانية كما هداني في المباراة، وفي كل ما هو آت، إن ربي دعاني لهذه المسيرة فهو الذي يكلاؤني ويرعاني «١»، وان لم ير بعضهم

(١). نور الثقلين ٤: ٥٥ في مناقب ابن شهر آشوب إبراهيم بن أدهم و فتح الموصلية قال كل واحد منهما كنت أسبغ في البادية مع القافلة فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة و إذا أنا بصبي يمشي فدنوت منه و سلمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له: إلى أين؟ قال: أريد بيت ربي، فقلت: حبيبي انك صغير ليس عليك فرض و لا سنة، فقال: يا شيخ ما رأيت من هو أصغر مني سنا مات، فقلت: أين الزاد و الراحلة؟ فقال: زادي تقواي و راحلتي رجلاي و قصدي مولاي، فقلت: ما أدري معك شيئا من الطعام؟ فقال: يا شيخ هل تستحسن ان يدعوك انسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟ قلت: لا- / قال: الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني و يسقين» أقول و الصبي كان علي بن الحسين (عليهما السلام) كما ذكر في أواسط هذا الكلام على طوله و اختصر منه ما ذكر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٥

بعضا بموانع كمنار العجاج، وهرج الطراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا- فقط- تلاحظ الأهداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣).

لقد هداه ربه بما أوحاه «أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ» ويا لها من عصى تحمل آيات عظيمة ما أعظمها في مباريات بين موسى وفرعون «فانفلق» البحر فلفتين وفرقتين «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» وانشق بين فرقي الماء طريق ييس: «لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى» (٢٠: ٧٧) (وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ..) (١٠: ٩٠) فالفرق هو الجزء المنفرد منه، والطود هو الجبل الشاهق في السماء، فقد أصبح البحر خندقا فيه طريق ييس مستو وطرفاه جبلان شاهقان من الماء، ويا لها من آية باهرة قاهرة، فانفلاق ماء البحر ككل آية، والطودان بطرفي الطريق الممر آية، وبقاء البحر كحالته هذه حتى دخل فرعون بجنوده آية ف «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (٦٧)!

إذا فما هي حيلة فرعون، هل يقف باهتا ساخطا يعرض عليه الأنامل من الغيظ؟

وهو يراه أقدر من موسى ومن معه وهم يعبرون الخضم الملتطم!:

وَ أَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ (٦٤) وَ أَمْجَيْنَا مُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٢٦

الْأَخْرِينَ ٦٤.

«و جاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى كأنها جادة جادة لهم إلى المقصود، طريق مكشوف يعبرونها،

وها هم وصلون إلى جانب البحر، فليغمر الغيظ بغمر الغيظ ليفعل فعلته التي يروم، ولكن:

«إِذَا أَدْرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ الْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» (١٠: ٩٢).

الإزلاف هو التقريب، والآخرين هم فرعون ومن معه أجمعين، فقد قرب الله فرعون والذين معه إلى بحر الهلاك، وأنجى موسى و من معه من البحر الهلاك والبحر هو البحر والماء هو الماء! «ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ» لما دخلوا البحر، عن آخرهم، وبطبيعة الحال لم يغرقوا إلا حين طم البحر أولهم وآخرهم، وقد تعني «أزلنا» إزلاف بعضهم إلى بعض ككومة وحدة، وإزلافهم إلى موسى ومن معه، إلى إزلافهم إلى البحر فإزلافهم في خضمه هالكين. «١»

و قد ينسب الله إزلافهم إلى نفسه المقدسة لأنه هو الذي كادهم بما جعل في البحر طريقا ييسا فطمع فرعون وجنوده لاجتيازه، ثم رجّعه إلى حالته الأولى فغرقوا أجمعين، فهم لم يكونوا يقدمون على غرقهم بذات أيديهم دون ريب، لو لا هذه

(١). نور الثقلين ٤: ٥٣ في الجرائح و الجرائح ان عليا (ع) قال: لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بواد ملآن ماء فقدرناه فإذا هو اربعة

عشر قامة فقال الناس يا رسول الله (ص) العدو من ورائنا و الوادي أمامنا فكان كما «قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّآ لَمُدْرَكُونَ» فنزل (ص) ثم قال: اللهم إنك جعلت لكل مرسل علامة فأرنا قدرتك ثم ركب و عبرت الخيل و الإبل لا تندى حوافرها و لا أخفافها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٢٧

المكيدة الربانية.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨).

«إِنَّ فِي ذَلِكَ» الذي حصل في تلکم المباريات من آيات «لآية» وعلامة قاطعة قاصعة لمن يحنّ إلى ايمان «و» لكن «ما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» و «هم» هنا قدر اليقين هم فرعون وملؤه، ومعهم بنو إسرائيل، فقد آمن من الأولين السحرة وقليل سواهم، كما آمن من الآخرين قليل، وقد يبرهن هذه القلة الزهيدة الثانية «وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (١٠: ١٣٨).

ثم وفي وجهة عامة عدم الايمان من الأكثرية الساحقة أو المطلقة كان ضابطة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، اللهم إلآ زمن الدولة الحقّة العالمية للقائم المظفر المهدي عليه السلام، «وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ» لا يغلب مهما تغلب الكافرون وتقلبوا في البلاد «الرحيم» بعباده المؤمنين كواقع، وبكل عباده في حقل الدعوة الجماهيرية «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ».

من نبا موسى (ع)

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يَذَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٨

هذه الآيات تحمل من ذكرى موسى بأيام الله طرفا نموذجيا هاما من أفراح وأتراح، ففي إنجائهم من آل فرعون مجمع اليومين، يوم نعمة بارزة لقوم موسى ونقمة لآل فرعون، يوما حاضرا لهم يحملهما في عملية وحدة خارقة من الله، ثم تذكيرا بأيام غابرة عابرة مرّ التاريخ، ومن ثم أيام القيامة «مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ وَ يَشْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» ثم جمعا للذين كفروا عبر التاريخ في مثلث الزمان «أَعْمَاهُمْ كَرَمًا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ»!

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يَذَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤).

«إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» تعطف إلى غرقهم دوغم وهو من ذكرى أيام الله في نعمة الله عليكم ونقمته على آل فرعون و «آل فرعون» هم الفرعونيون، نفسه كأصل وأتباعه كهوامشه، والجمل الثلاث «يَسُومُونَكُمْ ... يَذَّبِحُونَ ... يَسْتَحْيُونَ» أحوال ثلاث لآل فرعون في فعلتهم بهم طوال عشرتهم في سلطتهم الجبارة.

و السوم في الأصل ذهاب في ابتغاء شيء، وآل فرعون كانوا يذهبون مذاهبهم في ابتغاء بني إسرائيل بغيا بكل صنوفه ومن أهمه تذييح الأبناء واستحياء النساء لحد كأنهما هما سوء العذاب دون غيرهما من عذاب وكما في البقرة والأعراف:

«يسومونكم سوء العذاب يذبحون- يقتلون- أبناءكم ويستحيون نساءكم» (٤٩ و ١٤١) حيث يذكر ان ردفا بسوم العذاب دون عطف.

ثم وليس البلاء العظيم هنا- فقط- سوم العذاب وهو بلاء الشر، بل والإنجاء من آل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٢٩

فرعون وهو بلاء الخير وهما في نجدي الخير والشر بلاء عظيم: «وَ نَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَ الْحَيْرِ فِتْنَةً».

و ترى ذلك بلاء الخير «من ربكم» حيث أغرق آل فرعون، فأين بلاءهم الشر:

«سوء العذاب» من ساحة الرب؟ نقول: كل بلاء خيرا أو شرا هو من الله، فلو أن الله سد آل فرعون عن سوم العذاب فصد عن بني إسرائيل سوم العذاب كما أغرق آل فرعون، لم يكن عليهم بلاء الشر والدنيا دار بلاء وابتلاء بخيرها وشرها ونفعها وضرها! . فهنالك بلاء لامتحان الصبر دون امتهان الذل والتخاذل، او احتمال العذاب بتضعف وهزيمة روحية، وانما استعدادا للوقوف في وه الظلم والطغيان، وتصبرا في الحفاظ على الإيمان والصمود في وه الطغيان دون تلكع وتخضع.

و من ثم بلاء بالنعمة والرخاء لامتحان الشكر بعد ما مستهم الضراء، وما بلاء النعمة بأهون من بلاء النعمة، بل وذلك أقوى، فإنه أزل وأهوى، حيث الرهوة والرعونة تأخذان من اهل النعماء مأخذهما الجبار: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّمَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» (١١ : ١١).

ف «تدبروا احوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء؟! لم يكونوا أثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق اهل الدنيا حالا؟

اتخذتم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب وجرعوههم المرار فلم تريح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلا الى دفاع حتى إذا رأى

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٠

الله جد الصبر منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضائق البلاء فرجا فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكا حكاما وأئمة اعلاما وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال اليه بهم ..» «١» .

ثم وتذبيح الأبناء وتقتيلهم هو من أسوم سوء العذاب وأسأمه، فما هو دور استحياء النساء من سوم العذاب! وهنالك استحياء الرجال كما النساء حيث التذبيح يخص الأبناء، وليس الإبقاء على حياة عذبا فضلا عن سوم العذاب؟.

إن استحياء النساء لا يعني- فقط- استبقاءهن أحياء، بل واستخدامهن في محنة المهنة ومهانتها اثقالا عليهن بكل أثقال الأعمال بيتية وخارج البيتية، ثم وإزالة حياتهن بممارسة الجنس، حيث الاستحياء تشمل إيجاب: الإبقاء على حياة، وسلب الإزالة للحياة، ثم وفي استحياء الحياة لمن يقتل ابنها دون إبقاء حياة مزعجة مفلجة، فأحلى للحامل أن تقتل مع حملها ولا تقبل حملها بعد حملها، أفلا يستوجب ذلك البلاء الحسن بعد سيئه شكرا منهم متواصلا؟: لذلك ففي استحياء النساء بمعناه الشامل بلاء دون الرجال إذ لم تكن فيهم ازالة الحياء بلواط وسواه! وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) آية التأذن هذه هي منقطة النظر في القرآن كله، فليست لتختص بذكريات موسى لقومه مهما شملتهم كأمة من الأمم المبشرة المنذرة، ثم «وَ قَالَ مُوسَى ..» قرينة لاحقة سابعة صابغة لها بصيغة العموم، فلو كانت هي كسابقتها من تذكيرات موسى فلا موقع ل «وَ قَالَ مُوسَى ..» مهما

(١). قسم من الخطبة القاصعة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣١

قالها موسى لقومه نقلا عما قال الله: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ..» وهو رب العالمين أجمعين طول الزمان وعرض المكان. و لأن الأذان إعلام بإعلان، فالتأذن تأكيد عام من الإعلام بالإعلان، فلا يخص أمة دون أخرى. فذلك- إذا- تأذن عام في إذاعة قرآنية دائبة تضرب إلى أعمام الزمان كسنة جارية سارية المفعول للإنس والجان.

و من لطيف التعبير هنا من اللطيف الخبير نسبة الزيادة للشاكر إلى نفسه تعالى تصريحاً: «لأزيدنكم» ونسبتها للكافر إلى نفسه تلويحاً: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» وما الكفر هنا بردف الشكر إلّا ترك الشكران جهلاً بالمنعم فكفراً، أم تجاهلاً فكفران، والعذاب الشديد يعم الكافرين مهما اختلفت دركاته بدركاهما، عذاباً في الروح وعذاباً في الجسم، عذاباً في الأولى وآخر في الأخرى، كل حسب الحكمة العالية من العدل الحكيم، وكما الزيادة في الشكر يعم كل هذه وتلك في درجات حسب الدرجات وبركات فوق بركات، كل حسب الرحمة المتعالية من الرؤوف الرحيم.

و هنا نقف أمام هذه الحقيقة بين الخوف والرجاء، اطمئناناً بالوعد من اصدق الصادقين، وشكر النعمة من اي منعم هو ردة فعل فطري لكل منعم عليه فضلاً عن ارحم الراحمين، واقله إظهارها في مقال، وأدله هو في حال وفعال، ان يرى المنعم استعمال نعمته فيما يرضاه، علماً واعترافاً انه منه فلتستعمل له واليه، فما الشكر - فقط - قاله: شكراً لله، والحمد لله، وأنت تستعمل نعمة الله في سخطه، ام تهدرها فلا الى سخطه ولا رضاه، فشكرها الأقرب هو المراقبة بها، دون بطر ولا استعلاء على

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٢

أحد، ولا توسل بها الى سوء او ظلم وطغيان، وانما استعمالها في خير لأنها خير من معطي الخير، تجنيداً لكل الطاقات والإمكانات في صرفها إلى خير، والتصرف فيها إلى خير، دون تبديل للنعمة نقمة ونعمة: «أَمْ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ يَكْفُرُونَ» (١٤ : ٢٩).

و الكفر بنعمة الله يشمل الجهل او التجاهل بدرجاتها ام على البذل، في قال او حال ام فعال، فمن شاكر بلسانه كافر بسواه، ام كافر بلسانه شاكر بسواه، ومن شاكر بثلث الشكر فأشكره، او كافر بثلث الكفر فأكفره، ولكلّ درجات بما شكروا، ام دركات بما كفروا وما ربك بظلام للعبيد.

و العذاب الشديد ليس إلّا على غرار الكفر بالنعمة، فقد يكون بذهابها - فقط - ام بتبديلها نقمة ووبالاً رغم كونها نعمة، في الدنيا ام في الآخرة، ام فيهما وهو أشد وأنكى، وإن كل ذلك لإجزاء واقا.

و هذه الآية تطمئننا بأن «ما اعطي أحد الشكر فمنع الزيادة» «١»

ف أيما عبد أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه وحمد الله عليها بلسانه لم تنفذ حتى

(١). الدر المنثور ٤ : ٧١ قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ما اعطى احد اربعة فمنع اربعة ما اعطى .. لان الله يقول لَعْنُ شِكْرِكُمْ .. و ما اعطى احد الدعاء فمنع الاجابة لان الله يقول: ادعوني استجب لكم و ما اعطى احد الاستغفار فمنع المغفرة لان الله يقول: «استغفروا ربكم انه كان تواباً». و ما اعطى احد التوبة فمنع التقبل لان الله يقول: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». وفيه عن انس قال أتى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) سائل فامر له بتمر فلم يأخذها و أتاه آخر فامر له بتمر فقبلها و قال تمر من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال للجارية اذهبي إلى ام سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٣

يأمر الله له بالزيادة .. «١» بل «ان من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله عز وجل قبل ان يظهر شكرها على لس «٢» انه».

و لكنه ليس فقط ذكرا باللسان ومعرفة بالجنان، بل وعملا بالأركان وكما قال الله «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» (٩٣: ١١)، تحدينا عن وقع النعمة وعن معرفتها بقال وفعال، ففي ترك الجمع نفاق، وفي ترك الجميع كفر، وجمع الجمع إيمان، فمن عرف وعمل بلا قول فنفاق إيمان، ام عرف بقول دون عمل فدونه في الايمان، ام ترك المعرفة والعمل الى قول فادنى الايمان، ومن جمع بينهما فذروة الايمان، والمزيد في النعمة ليس إلا على غرار المزيد من الشكر «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى!» وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنِيَّ حَمِيدٌ (٨).

فانما الشكر مصلحة لحياة الشاكر دون المشكور له، كما الكفر مفسدة.

موسى مع تسع آيات

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسْتَلْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١).
ان فرعون النكران لآيات الله لا تميز بين آية حسية يعرفها كل من له إحساس،

(١). نور الثقلين ٢: ٥٢٦ عن تفسير القمي قال ابو عبد الله (عليه السلام) أيما عبد ... و هو قوله «لَيْسَ شَكْرُكُمْ..»

(٢). المصدر عن روضة الكافي بسنده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال: ان من عرق ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٤

وبين آية معرفة يعرفها كل من له ادنى معرفة «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا».

ترى وكيف تكون الآيات المرسل بها موسى تسعا وهي حسب القرآن خمسة عشر «١» فهل تعني الآيات هنا آيات سوى المعجزات كما يسند الى الرسو «٢» ل صلى الله عليه و آله؟.

و الآيات المذكورة في؟؟ شتات الآيات هي المعجزات الى فرعون وملئه أما ذا، دون آيات؟؟ التوراة احكامية؟؟ أماهيمه! والحل ان التسع لا تستغرق كل ما أرسل به موسى من آيات، وانما «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» (٢٧: ١٤) و هي التسع المذكورة في آيات «٣» ثم اربعة اخرى هي خاصة ببني إسرائيل «٤».

(١). و هي اليد البيضاء ٢- / عصاه صارت حية تسعى ٣- / عصاه حيث صارت ثعبانا مبينا تلتفت ما يا فكون ٤- / عصاه حيث شق بها البحر ٥- / عصاه حيث ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتي عشرة عينا- / و من ثم ٦- / الطوفان ٧- / و الجراد ٨- / و القمل ٩- / و الضفادع ١٠- / و الدم ١١- / و إظلال الجبل فوقهم كأنه ظلّة كأنه واقع بهم ١٢- / أخذهم بالسنين ١٣- / أخذهم بنقص من الأموال ١٤- / الطمس على أموالهم ١٥- / المن و السلوى

(٢). الدر المنثور ٤: ٣٠٤- / اخرج الطيالسي و سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و احمد و الترمذي و صححه و النسائي و ابن ماجه و ابو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن قانع و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابو نعيم و البيهقي معا في الدلائل عن صفوان بن عسال ان يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبي نسأله فأتيه فسألاه عن قول الله «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فقال رسول الله (ص): ١- / لا تشركوا بالله شيئا ٢- / و لا تنزوا ٣- / و لا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ٤- / و لا تسرقوا ٥- / و لا؟؟ تسحروا ٦- / و لا تمشوا ببرئى الى سلطان فيقتله ٧- / و لا تأكلوا الربا ٨- / و لا تقذفوا محصنه ٩- / و قال و لا تفروا من الزحف شك شعبة و عليكم يا يهود خاصة الا تعتدوا في السبت، فقبلا يديه و رجله و

قالا نشهد انك نبي قال: فما يمنعكما ان تسلما؟ قالوا: ان داود دعا الله ان لا يزال في ذريته نبي و انا نخاف؟؟ ان اسلمنا ان تقتلنا اليهود

(٣). و هي اليد البيضاء ٢- / عصاه حية تسعى ٣- / عصاه ثعبان مابين ٤- / الطوفان ٥- / الجراد ٦- / القمل ٧- / الضفادع ٨- / الدم ٩- / ضرب الأموال بنقص و طمس و أخذهم بالسنين

(٤). ١- / من نتق الجبل ٢- / و المن و السلوى و هما واحدة ٣- / و انفجار العيون من الحجر ٤- / و فلق البحر، و هذه الرابعة لا تمت بصلة الى فرعون و ملته حيث أغرقهم و الآية تقول «و ما تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» و العذاب هنا تخويفية الآيات و لا رجوع في آية الغرق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٥

و هنا لك روايات في تعديد التسع الآيات تتعارض بعضها البعض والكل تعارض القرآن «١»!.

هذه الآيات من صغرها وكبرها الى فرعون وملته كلها بينات، ولكننا الفرعنة الحمقاء لا تبقى ولا تذر: «... في تسع آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتُوًّا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» (٢٧: ١٤).

و من ظلم فرعون وعلوه قولته الفاتكة «إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا» ومجنونا «إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ» (٢٦: ٢٧) (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (٥١: ٣٩) ف «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» يفسر المسحور انه المجنون، تعبيران عن حالة واحدة ثانيتهما انه ساحر حيث الساحر ليس ليعني المسحور! فكلمة الحق وبصائه لا تصدر في عرف الطاغية إلا عن ساحر او مسحور: مجنون: لا يدري ما

(١). نور الثقلين ٣: ٢٢٩ ح ٤٥٧ في تفسير العياشي عن سلام عن أبي جعفر (ع) قال: سألتني نفر من اليهود عن الآيات التسع التي أوتيتها موسى بن عمران (ع) فقلت: العصا و إخراج يده من جيبه بيضاء و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و رفع الطور و المن و السلوى آية واحد و فلق البحر قالوا صدقت و ٤٥٨ في قرب الاسناد للحميري باسناده الى موسى بن جعفر (ع) في الآية قال: الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و الحجر و البحر و العصا و يده و رواه مثله في الخصال عن هارون بن حمزة الغنوي الصيرفي عن أبي عبد الله (ع).

و بينهما اختلاف في رفع الطور و المن و السلوى المذكورة في الأولى دون الثانية و في الحجر و الطوفان المذكورين في الثانية دون الأولى، ثم التوافق في سبعة اخرى. و من ثم بعض الآيات الخاصة ببني إسرائيل ليست الى فرعون و ملته

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٦

يقول او يسحر فيما يفعل او يقول! قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢).

انظر الى رب موسى في مناظرته مع اطغى الطغاة وأحمقهم، يستند لإبطال كونه مسحورا الى علم فرعون ان هؤلاء نازلة من رب السماوات والأرض بصائر «١» واذ لا تبصر أنت بهذه البصائر فلا بصر لك إذا ولا بصيرة «و إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا» هالكا في بعدين من الأبصار، حيوانا في بصرك، وإنسانا في بصيرتك!.

يقول: «لأظنك» حال انه متيقن معلوم، رعاية لأدب المناظرة ألا يتجاوز الكلمة الفرعونية: «إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى» ظنا بظن، ولا يملك ظن فرعون حجة، ولموسى الحجة البالغة في يقينه ولكنه يعبر عنه بالظن معارضة بالمثل!.
و المثبور هو الهالك المدمر بجهله وجهالته تقصيرا، حيث غربت بصيرته وعزب عنه عقله، بما أهلكه طغيانه، وأنساه إنسانه.
و ترى لماذا «هؤلاء» وهي لمن يعقل؟ علّه لأنّها بصائر للعقول، صادرة عن خالق العقول لمن يعقل.

(١)

. نور الثقلين ٣: ٢٣٠ ح ٤٦٢ مجمع البيان و روي ان عليا (ع) قال في «علمت» و الله ما علم عدو الله و لكن موسى هو الذي علم فقال: لقد علمت أقول: هل كذب موسى او استند الى علم نفسه ف «علمت» بضم التاء، و استناد المناظر على المناظر بعلمه نفسه جهل، فهذه الرواية مختلفة مخالفة للقرآن كما و تعارضها اخرى في نفس المصدر ح ٤٦٣ في تفسير علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في قوله «فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ» أراد ان يخرجهم من الأرض و قد علم فرعون و قومه ما انزل تلك الآيات الا الله عز و جل، و تؤيده الآية: و جحدوا بها و استيقنوا أنفسهم ... بعد الآية:

فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٧

ثم وسناد هؤلاء الى رب السماوات والأرض تنبيه انها ليست لتصدر عن غيره، فأنت أنت يا فرعون تدعى «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» ولا تقدر على أصغر آية منها او تدفع عنها، فكيف تعطف بها الى سحر ام جنون، في حين ان العقلاء بأجمعهم لا يستطيعونها ولا أصغر آية منها، وحتى الأرضية فيها فضلا عن السماء! فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣).

إرادة استفزازية فرعونية، فرارا عن الحجج الموسوية بالبصائر الإلهية، ولجوء إلى طغوى مادية هي سنة للطغات، حيث يواجهون الحجة العقلية بالقوة المادية الالعقلية ... فلانه ما استطاع استفزازا لحجته وصددا عاقلا لمعجته، أراد أن يستفزه من الأرض استصلا عن الأرض كلها بقتلهم، او إخراجا عن أرض الفرعنة «فَأَعْرَفْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً» دون إبقاء!:

«فَأَنْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَ أَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ. وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢٦: ٤٧).

وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤).

الأرض هذه هي ارض مصر كما استضعفوا فيه: «وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» (٢٨: ٥) فالاستضعفون من بني إسرائيل سكنوا ارض مصر واثمة عن فرعون وملفه، ولو كانت هي الأرض المقدسة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٨

لصرح بها، ثم ولا صلة بما لموقفهم إذ أغرق الله فرعون وجنوده في يم مصر «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ»: (عذابها لمن عصى) «جِئْنَا بِكُمْ»: (أنتم وآل فرعون) «لفيفا»:

خطاء مع بعض دون ميزة قومية إلا بأعمالكم.

و قد يعنى «وَعُدُّ الْأَخْرَةَ» هنا فيما يعنيه المرة الآخرة من مرتبهم كما في مفتتح الأسرى: «... فَإِذَا جَاءَ وَعُدُّ الْأَخْرَةَ لَيْسُوهُوَ وَجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمَا تَتَّبِعُوا» و الجيئة اللفيف- إذا- هي الجيئة السوداء لاسوداد في وجوههم أكثر وتبترهم بأيدي القائم المؤمل (عجل الله فرجه) وأصحابه.
وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا» (١٠٥).

هنا لك إنزال للقرآن وهناك نزول له يختلفان فعلية وفاعلية مهما اتفقا في الحق، ففاعلية الحق هي ان الله أنزله في حالة الحق حيث الحق مادته وكيانه وقوامه، وبسبب الحق وغايته ... فهل نزل كما انزل، دونما اصطدامه حين انزل بصدامات الشياطين آمن ذا، ودونما خطأ في منزله: قلب الرسول صلى الله عليه و آله ولا فيمن انزل به: الروح الأمين، ولا في مقامه في منزله الاوّل وسائر منازل حتى القيامة الكبرى؟

اجل «وَ بِالْحَقِّ نَزَّلَ» وهنا لك فعليته فلا تجد فيه إلا الحق، ولا في غايته إلا الحق: «لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (٤١: ٤٢) (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ «بِهِ» إِلَّا مُبَشِّرًا» ببياراته «و نذيرا» بنذاراته دون ان تزيد فيه ولا ان تنقص عنه! فالحق إنزالا ونزولا سداه ولحمته، مادته وغايته، صورته وسيرته، قوامه واهتمامه، و مكانه ومكانته بأحق ما يكون من معنى للحق، دون شوب للباطل فيه او نقص ونسخ يعتريه! وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٣٩

عَلَى مُكْتَبٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦).

هنا لك قرآن غير مفروق هو النازل عليه ليلة القدر، وقرآن آخر مفروق هو النازل عليه طوال البعثة: «كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ».

فهذا الرسول صلى الله عليه و آله يعيه محكما دونما فرق ولا مكث، ولكن الناس ليسوا ليعوه ويفهموه إلا على مكث، بل وليثبت قلب الرسول صلى الله عليه و آله على آياته البينات تطورا وتنورا: «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَبَّانَاهُ تَنْزِيلًا» (٣٥: ٣٢).

من نبأ موسى (ع) تقبأ من بني اسرائيل

وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٩ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠.
هنا تقابل بين أصحاب النعيم وأصحاب الجحيم، هناك بنعيم الإيمان وعمل الصالحات ف «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» عن الخطيئات «وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» على الصالحات، وهنا جحيم ببحيم الطالحات وكفرا و تكذيبا بآيات الله وأعمالا طالحة دون ذلك هي قضية الكفر والتكذيب. ذلك، ومن لطيف الوفاق بين الجحيم والعقاب أن كلاً منهما يذكر (٣٦) مرة بمختلف صيغهما في الذكر الحكيم، لمحة أن الجحيم هي العقاب وما سواها كأنه لا عقاب!.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْتُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١١.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٠

فأهم النعم الغالية الربانية هي كف أيدي أئيمة متطاوله قصدت قتل الرسول صلى الله عليه و آله إذ كان في قتله قتلهم ولما تكمل هذه الرسالة السامية «١»، وكما منها الذود عنهم أنفسهم في معارك المهالك كبدر وما أشبه.

و هنا «قوم» لا تعني شخصا أو أشخاصا خصوصا، بل تعني كافة المحاولات من

(١). الدر المنثور ٢: ٣٦٥ عن جابر بن عبد الله أن النبي (ص) نزل منزلا فتنفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها فعلق النبي (ص) سلاحه بشجرة فجاء إعرابي إلى سيفه فأخذه فسله ثم أقبل على النبي (ص) فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا: من يمنعك مني و النبي (ص) يقول: الله، فشال الأعرابي السيف فدعا النبي (ص) أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي و هو جالس إلى جنبه لم يعاقبه، قال معمر و كان قتادة يذكر نحو هذا و يذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي (ص) فأرسلوا هذا الأعرابي و يتأول «ادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ».

و فيه أخرج الحاكم و صححه عن جابر قال قاتل رسول الله (ص) محارب خصفة بنخل فأرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث قام على رأس رسول الله (ص) و قال من يمنعك؟ قال: الله فوقك السيف من يده فأخذه النبي (ص) و قال: من يمنعك؟ قال: كن خير أخذ، قال (ص) تشهد أن لا إله إلا الله و إني رسول الله؟ قال: «أعاهدك أن لا أقاتلك و لا أكون مع قوم يقاتلونك فخلي سبيله فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله (ص) صلاة الخوف فكان الناس طائفتين طائفة بإزاء العدو و طائفة تصلي مع رسول الله (ص) فانصرفوا فكانوا موضع أولئك الذين بإزاء عدوهم و جاء أولئك فصلى بهم رسول الله (ص) ركعتين فكان للناس ركعتين و كان للنبي (ص) أربع ركعات».

وفيه أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء و الضحاك عن ابن عباس قال: إن عمرو بن أمية الضمري حين انصرف من بئر معونة لقي رجلين كلابيين معهما أمان من رسول الله (ص) فقتلتهما و لم يعلم أن معهما أمانا من رسول الله (ص) فذهب رسول الله (ص) إلى بني النضير و معه أبو بكر و عمر و علي فتلقاه بنو النضير فقالوا مرحبا يا أبا القاسم لماذا جئت؟ قال: «رجل من أصحابي قتل رجلين من بني كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما فأريد أن تعينوني قالوا نعم أقعد حتى نجمع لك فقعدت تحت الحصن و أبو بكر و عمر و علي و قد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه حجرا فجاء جبرئيل فأخبره بما هموا به فقام بمن معه و أنزل الله هذه الآية» و فيه عن ابن عباس قال: «إن قوما من اليهود صنعوا لرسول الله (ص) و لأصحابه طعاما ليقتلوه فأوحى الله إليهم بشأنهم فلم يأت الطعام و أمر أصحابه فلم يأتوه»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤١

أي كانت لقتله قبل أن يأتي أجله المحتوم، ف «قوم» تعم المشركين واليهود في قتال أو اغتيال دون قتال، وكما تعني الذين بسطوا أيديهم إلى المؤمنين.

فقد تعني الآية من «نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» كل كف للأيدي المتطاولة على المؤمنين وعلى الرسول صلى الله عليه و آله بوجه خاص، فإن بسط الأيدي إلى الرسول بسط إليهم، كما أن بسطها إليهم بسط إلى الرسول صلى الله عليه و آله فإنهما كتلة وحدة لا تنقسم ولا تنفصم.

«وَ اتَّقُوا اللَّهَ» كما واكم حيث كف أيديهم عنكم «وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» فقد تآمروا على الرسول صلى الله عليه و آله ليلة المبيت فكف أيديهم عنه، وكانوا متآمرين على المؤمنين طيلة العهد المكّي فكف أيديهم عنهم، ومن ثم في العهد المدني في مواجهات شخصية، أو جماعية في حروب، فالكف الرحماني كفّ عنه صلى الله عليه و آله وعنهم بفضله ورحمته.

و من أهم البسط والكف شخصيا هو ليلة المبيت، ومن أهمها جماعيا يوم الحديبية إذ هو أن يغدروا بالرسول والمؤمنين فيأخذوهم على غرة، فأوقعهم الله أسرى في أيدي المؤمنين، كذلك يوم بدر وما أشبهه، وليس بطاقتهم ومحاولاتهم فحسب حيث لا تكف عنهم كافة أية كافية إلا بما يكف الله.

و ترى بسط الأيدي يختص ببسطها لقتلهم؟ ولا تختص الأيدي- فقط- ببسطها في قتل، بل ويعم كل بسط إلى بساط المؤمنين و إيمانهم، فتكا بهم في

قضايا الإيمان نفسا وعرضا وحالا ومالا وأي منال ينال من ساحة الإيمان وسماحته.

فقد نرى أن دوائر السوء المحلقة منهم على المؤمنين كانت ذابلة زائلة ما داموا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٢

على شرائط الإيمان وقضاياه.

و لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّزْتُمْهُمْ وَ أَفْرَضْتُمْ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لِأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢ .

«و لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» على كامل الإيمان تحقيقا لقضاياه وصبرا على رزاياه، وصمودا على بلاياه: «و إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ

بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ..» (٢: ٨٣) (أَمْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) (٧):

(١٦٩) (و إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ) (٣):

(١٨٧).

ذلك «و بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» و «نقيبا» هي منقطعة النظير في القرآن كله، فمن هم النقباء في بني إسرائيل ثم سواهم؟.

النقيب من النقب: الثقب، ف «نقيبا» هنا بمناسبة الرسالة هو الذي ينقب بوحى الرسول وينقب المرسل إليهم ويرقبهم باحثا عنهم وفاحصا عن أحوالهم وأعمالهم كوسيط بينهم وبين الرسول كما الرسول ويط بينهم وبين الله، ولأن بني إسرائيل كانوا اثني عشر أسباطا أمما ف «اثني عشر نقيبا» يناسب أن كلاً كلف بنقابة جمعه الذي هو منهم، نقباء رقباء، حقاظا على من تحت نقابتهم، و إخبارا للرسول عنهم ما يجب على الرسول أن يطلع عليه منهم، ولا تعني تلك النقابة استمرارية حياة النقباء حياتهم أولاء الأسباب الإثني عشر، بل هي ما داموا فيهم كما الرسل، ثم تبقى آثار الدعوات

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٣

الرسالية وعلى ضوءها النقابية بين الأمة، وكما في الأمة الأخيرة الإسلامية حيث أدى الرسول صلى الله عليه و آله رسالته وأدى النقباء نقاباتهم، ثم بقيت السنة الرسالية والنقابية- على ضوء القرآن- محورا لها في الرد والقبول قضية اختلافها واختلاطها فيما بينهم.

ذلك ود يروى عن رسولنا الأعظم صلى الله عليه و آله أن خلفاءه اثني عشر كعدة بني إسرائيل يعني نقبائهم «١» و قد تعنيهم «و كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (٢: ١٤٣) (و جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» (٢٢: ٧٨).

و لأن النقيب فعيل يتحمل الفاعل والمفعول فقد تعني «نقيباً» هنا كلا الناقب والمنقوب، فما لم ينقب الإنسان بصالح الحال والقال والأعمال لا يصلح أن يبعث ناقبا عن هذه في الأمة، فقد اختارهم موسى على علم بأحوالهم المرضية فارتضاهم لنقب أحوال أمتهم، وهكذا الأمر في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ لا يحق القيام بهما إلا لمن هو مؤتمر بما يأمر ومنته عما ينهى.

(١)

. الدر المنثور ٢: ٢٤٧- / أخرج أحمد و الحاكم عن ابن مسعود أنه سئل كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: سألتنا عنها رسول الله (ص) فقال: إنا عشر كعدة بني إسرائيل، وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص): لو صدقني و آمن بي و اتبعني عشرة من اليهود لأسلم كل يهودي كان، قال كعب اثني عشر و تصديق ذلك في المائة «و بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» وفيه اخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أن موسى (ع) قال للنقباء الاثني عشر سيروا اليوم فحدثوني حديثهم و ما أمرهم و لا تخافوا أن الله معكم منا أقمتم الصلاة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٤

و لأن الفعل مبالغ في فعله فلا بد للنقباء أن يكونوا منقوبين بمهامة ودقة بالغة حتى يصلحوا أن يكونوا ناقبين بمهامة ودقة. فلا تعني النقابة هنا- فقط- التجسس عن أحوالهم، بل هي الرقابة والتحسس عنهم إصلاحاً لهم عما يفسدون بنفسه كوكيل عن الرسول، أم بما يخبر به الرسول ليكون هو الكفيل في ذلك الإصلاح.

و من الفوارق بين نقباء بني إسرائيل ونقباء الأمة الإسلامية أن هؤلاء الأكارم نقباء الأمة في غياب الرسول صلى الله عليه و آله اللهم لإعلي عليه السلام في شطر من النقابة الوزارية في حياة الرسول صلى الله عليه و آله.

و ترى الخطابات التالية: «إِنِّي مَعَكُمْ .. أَفْتُمُّكُمْ ..» تخص هؤلاء النقباء؟ ولا شاهد على الإختصاص، ثم وليست «إني معكم» على ضوء تحقيق هذه الفرائض لتختص بجماعة خصوص أيا كانوا!.

أم تخص بني إسرائيل؟ وهذه التكاليف عامة، ثم النقباء أحوج منهم في: «إني معكم»!.

فهم إذا جمع النقباء مع بني إسرائيل، وإنما الفارق في تحقيق الميثاق ونقضه، حيث حققه النقباء ونقضه الأكثرية الساحقة من بني إسرائيل، فليس من الممكن أن يصبح بعث الله للنقابة على أمة تعيسا في بعثه، نحيسا في إمرته وفحصه!.

«و قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» معية خاصة رحيمية إضافة إلى المعية الرحمانية الشاملة لكل خلق: «.. وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ..» (٥٧): (٤).

فهنا المعية المشروطة بالشروط التالية للتالين، الحاضرة للنقباء هي معية التوفيق

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٥

الرباني في خوض المعارك الرسالية ضد الأعداء، والتصرّ على جهالات الأمة، والصمود في الدعوة، والنجاح فيها بعون الله وإنه ود عظيم، فمن الله معه فلا شيء ضده أم هو هباء منثور لا وود له أمامه ولا أثر، إذا فلن يضل عن سواء السبيل، فإن هذه المعية الربانية تهديه كما هي تكفيه، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده، مضمونة له الحياة السعيدة.

«إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ» دون «فُتِمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» فإقام الصلاة تعني معنى زائدا على القيام إليها، أن تقام في كل متطلباتها ظاهريا وباطنيا، فرديا وجماعيا، كما هي مسرودة في الكتاب والسنة، أن تصبح الصلاة صلات متواصلات بالله ناهية عن الفحشاء والمنكر حيث تقام لذكر الله وهو المنفعة المنبوعة عن كل فحشاء ومنكر.

و قد يعني تقديم إقام الصلاة وإيتاء الزكوة على الإيمان بالرسول وتعزيزهم، أن الأولين كانا لهم أسهل قبولاً مهما لم يؤمنوا تماما، أم إن القصد من «رسلي» هم غير من هم كانوا به مؤمنين كموسى عليه السلام فليؤمنوا بالمسيح ومحمد عليهما السلام، وليؤمنوا بمن قبل هؤلاء الرسل، أم إن القصد كمال الإيمان برسولهم وأصل الإيمان بكمال سائر الرسل.

ثم الوجه في تأخير «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» أنه قضية إقام الصلاة وإيتاء الزكوة والإيمان بالرسول، أن يقطعوا عن أنفسهم الله ما يصح ويمكن قطعه، قطعاً لأنفسهم ونفائسهم في سبيل الله، الشامل لكامل الجهاد بكل أبعاده في هذه السبيل.

فليس إقراض الله قرضاً حسناً ليختص بقرض المال، بل وبأحرى قرض النفس والحال، أن يقطع الإنسان كافة علاقاته في الله، وينقطع كلياً إلى الله، فلا ينحو إلى سواه على أية حال وذلك هو القرض الحسن مهما كان درجات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٦

«وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ» وهي زكاة كل شيء يمكن أن يزكى علماً وفهماً وتعقلاً ومالاً وحالاً على أية حال، وهي من المال هو الزائد عن حاجيات الحياة الضرورية، فلا تختص بالزكوة المخصوصة المعروفة في كمها وعديد الأموال المزكاة.

فحين تؤتى الزكاة إيتاء وفيها كافيًا لحاجيات المحاييج فلا يفضى المجتمع الإسلامي إلى ترف في طرف وإلى شظف في طرف، اختلالاً في التوازن الاقتصادي باختلالاً في الحياة الجماعية بأسرها.

«وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي» في مثلث الزمان، ولا سيما الموعود في كتابات السماء الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله.. فهو إيمان بكل الرسل في مثلث الزمان الرسالي، «وَعَزَّزْتُمُوهُمْ» تعزيز التعزيز، شخصياً في عقيدة الإيمان، وجماعياً في التعريف بهم أمام الجماهير، وفي كل ما يتطلبه التعزيز فإنه لغويًا هو الرد، فله مصداقان متعاكسان مشتركين في الرد، فقد يرد عن المعز ما يضر به ويؤذيه، فهو المراد هنا من تعزيز الرسل، أو يرد المعز عن القبيح وهو التعزيز في التأديب أن يعز المتخلف رداً عن تخلفه.

إذا فليس هو التوقير فإنه ناحية إيجابية والتعزيز تنحو الناحية السلبية ولذلك جمع بينهما في «تُعَزِّزُوهُ وَتُوقِّرُوهُ» (٤٨: ٩).

فقضية الإيمان برسول الله ليست هي مجرد عقيدة باطنية، أم وطقوس عملية، بل وهنا زاوية ثالثة هي تعزيز الرسل دفاعاً عنهم في مضطرب الدعوات والدعابات.

فدين الله منهج مثلثة الجهات في كل الحياة، والزاوية الثالثة هي العماد لبقائها وحماية لعمودها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٤٧

«وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» وهو القرض لله إلى الله وإلى عباد الله ما بالإمكان قرضه من مال أو حال.

لئن طبقت هذه الست من قضايا الإيمان - وهي رؤوس زوايا الإيمان.

محرمات ابتلائية على بني اسرائيل

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦):

أجل، فلم تحرم عليهم ما حرمت ذاتيا، إنما «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصَدَهُم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا» (٤: ١٦٠) حيث «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَنِّي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ..» (٣: ٩٣).
و «الَّذِينَ هَادُوا» هم الذين رجعوا عن الحق بعد اهتدائهم إليه وهم ثلة وفي القرآن شيء كثير من هودهم وتعندهم، ثم وهم الذين رجعوا إلى الحق وهم قلة، والفريقان معنيان هنا ب «الَّذِينَ هَادُوا» فقد حرم الله عليهم ككل- طالحين وصالحين- طيبات أحلت لهم «فَتَنَّةٌ لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» (٨: ٢٥) فعلى الطالحين فتنة شر وابتلاء وعلى الصالحين فتنة خير و اعتلاء، ومما حرمت عليهم هو صيد الحيتان يوم السبت: «وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» (٧: ١٦٣).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٨

«حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ» من حيوان البر والطيور وهي من أعظم النعم و مِنَ الْبَقَرِ وَ الْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا» الشامل للإليات، وقد كانوا يبيعونها ويأكلون أثمانها، حيلة شرعية لا خير في الشرع عنها، وقد لعنهم رسول الله صلى الله عليه و آله بحيلتهم الغيلة قائلا: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها» «١» فإن «حرمانا» الواردة على موضوع لا تختص بوضع خاص له، بل تعم كل المحاولات فيه، وقد نص التورات على حرمة الشحوم «٢».
«إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا» من شحومهما «أَوْ الْحَوَايَا» هي المباعر والمصارين، وحدها الحوية أو الحاوية وهي الدوارة في بطن الشياه والأبقار، فهي - إذا- الشحوم المتصقة بالمباعر والمصارين «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» فهذه الشحوم الثلاثة استثنيت عن «شحومهما» و «ذلك» التحريم في حقل طيبات محللة في أصولها «جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ» المتواصل على عباد الله وشرعة الله «وَأِنَّا لَصَادِقُونَ» في ذلك الجزاء والتحريم بسببه.

ذلك، وقد أحل الله في شرعة المسيح عليه السلام ما حرمه في التوراة على الذين هادوا:

(١). الدر المنشور ٣: ٥٣- / اخرج ابن مردويه عن اسامة بن زيد قال: قال رسول الله (ص): ... ورواه عنه (ص) مثله عمر بن الخطاب و أبو هريرة و ابن عباس و في الأخيرة زيادة: و ان الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه.
(٢). كما في سفر اللاويين ٣: ١٤- / ١٧ (١٤) و يقرب منه قربانه وقودا للرب الشحم الذي يغشي الأحشاء و سائر الشحم الذي على الأحشاء ١٥ و الكليتين و الشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين و زيادة الكبد مع الكليتين ينزعها ١٦ و يوقد الكاهن على المذبح طعام وقود لرائحة سرور كل الشحم للرب ١٧ فريضة دهريه في اجيالكم في جميع مساكنكم لا تأكلوا شيئا من الشحم و لا من الدم» و كذلك في ٧: ٢٤- / ٢٧

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٢٤٩

«وَأَلْجَأَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا» (٣: ٥٠).

فلا يحمل شرعة الإنجيل إلا هكذا تحليل، فليس فيه- إذا- غيره من نسخ لا جليل ولا قليل، اللهم إلا مزيدات من تنظيمات خلقية من توجيهات السيد المسيح عليه السلام، فشرعة الإنجيل هي شرعة التورات في الأصل، كما يكره السيد المسيح عليه السلام في الإنجيل، و يعتبر القرآن نفسه بعد التوراة تأشيراً عشريناً إلى هذه الوحدة: «وَ إِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْحَيِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا

أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» (٤٦: ٣٠).

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رُبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧):

فهو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأعظم المتجبرين في موضع النكال والنقمة، ومن رحمته الواسعة تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، ومن نعمته تحريم طيبات على الذين هادوا ببيعهم، ومن نكاله على الذين يجرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله نكال الآخرة والأولى.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨):

بعد كل هذه التنديدات بالإشراك بالله والحججات على المشركين بالله نسمعهم قد يبررون موقفهم من عقيدتهم وأعمالهم الشركية بأن المشية إنما هي لله، فلو شاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٠

الله ألا نشرك به ما أشركنا ولا حرمننا من شيء إذ لسننا نقدر أن نتغلب على مشيئة الله، فحين أشركنا وحرمننا علمنا أنه ليس خلاف مشيئة الله، بل هو الذي يشاء شركنا وتحريمنا، فشركنا وتوحيده وتحريمنا وتحريمه وتوحيدنا خلاف مشيئته إشراك به.

هنا «سيقول» إخبار بالمستقبل أنهم ما قالوه حتى الآن وسيقولونه بعد الآن كما:

«وَ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (١٤: ٣٥).

و لأن النحل نازلة بعد الأنعام فآية النحل هي مما سيقولون، وهكذا يتبررون في عقيدتهم الجاهلة النكدة متظاهرين بالإخلاص لله والتسليم لمشيئة الله المتأكدة لإشراكهم بالله، فإن «لو» تحيل مشيئته لترك الإشراك وتحتم مشيئة الإشراك، فنحن - إذا - عمال تحميم الإشراك لله من الله.

و هؤلاء الأنكاد بين مجبرة ناكرة للاختيار في كل الأفعال، وغير مجبرة خالطة بين المشيئة التكوينية والتشريعية، وكلاهما كذب من القول وزور وغرور: «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا»: «وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» (٤٣):

(٢٠) - (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) فتقبل فريقتكم علينا «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

ذلك «وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّةٍ جَاهِلَةٍ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» (١١: ١١٩) - (وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ بِيضَلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥١

يَشَاءُ وَ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (١٦: ٩٣) - (وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) (١٠: ٩٩).

و هنا عطف الظاهر «وَ لَا آبَاؤُنَا» على الضمير في «ما أشركنا» دليل على أنه من صالح الأدب، إذا فمن سوء الأدب قول بعض أهل الأدب إن عطف الظاهر على المضمرة قبيح، حيث القائل هو القبيح السفهية* والقرآن هو الوجيه.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩):

إنها ليست حجة الظن كما تزعمون، فإن الظن لا يغني عن الحق شيئا، إنما هي علم أو أثارة من علم آفاقيا وأنفسيا* (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) تبلغ الجاهل كما العالم مهما اختلفت حجة عن حجة* ولكنما «الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» تبلغ إلى كافة المكلفين بالبلغين الرساليين رسلا وأئمة معصومين عليهم السلام* والذين يحملون عنهم.

ذلك، وأبلغ حجج الله الطاهرة الظاهرة هو القرآن العظيم، فإنه الأكبر في الثقلين، وهو الظاهر لا يغيب والباقي مر الدهور مهما غاب الرسول والأئمة من آل الرسول صلى الله عليه و آله أم ماتوا، ولأن الرسول صلى الله عليه و آله وذويه حجة مع القرآن، فالسنة هي حجة هامشية مبينة للقرآن: «رُسُلًا مُبْتَلِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» (٤: ١٦٥).

فالرسول بجانب الكتاب حجة علمية وعملية، فهو أسوة فيهما كيلا يقال لم نفهم الكتاب كله، أم لا نستطيع أن نعمل بالكتاب كله، والرسول أمثلة للكتاب كله، حجة تقطع كل الأعداء.

ذلك- واء التفرع الأول فيه «فلله» تقلب حججهم عليهم إذ لا حجة لهم على

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٢

دعواهم فليس عندهم عليها من علم فيخرجوه، والتفرع الثاني في «فلو شاء» حجة أخرى على غرقهم في لجثهم أنه لا يشاء تسييرا على الهدى بل هو تخير اختيارا للهدى أو للردى «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ» وليس اختيارهم الشرك تحقيق مشيئة تشريعية أم وتكوينية مسيرة لهم على الشرك، ومن الحجج البالغة لله الفطر والعقول الحاكمة بتوحيد الله وهم تاركوها إلى ظنون وتحيلات تجلات تعارض كافة الحجج الآفاقية والأنفسية!

فلأن «الله الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» دوغا تقصير أو قصور، وهو يشاء تشريعا تحقيقها وفعيا، «فلو شاء» ذلك تكويننا تسييرا «لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ» ولكنه على حجته البالغة في كل الحلقات يتتليكم بما تختارون.

فليس عدم صدّه عن الإشارك به لرضاه به أو عجزه عن ذلك الصد، إنما هو حكمة بالغة تكليفا حنيفا عطيفا في دار البلية والاختبار بالاختيار.

و هذه الآية هي من تلك التي تدلنا على وقع الأمر بين أمرين دون جبر ولا تفويض من جهات عدة: فإن «كَذَلِكَ كَذَّبَ» تنديد بالقول «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» في خرافة الجبر، ثم ومديده «حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا» ومن ثم التجهيل بفارغ الحجة «قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا» تدليلا على سلبية العلم فيما هم يدعون بصورة طلبقة، وسحقا لما خيل إليهم من حجة «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ» و الخرص هو أقبح أنواع الكذب، حيث لا يملك حجة و هو فرية و قحة على الله.

ذلك، لأن الجبر يبطل رسالات الله، ويمس من كرامة الربوبية فضلا وعدلا، ويهدم صرح التشريعات عن بكرتها، وهم يدعون الجبر نكرانا للرسالات، وإباحية لكل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٣

الشهوات والشيطانات، وجمعا لله حيث يسير الكل على كل الشرور والخيرات، بين تحقيق المتضادات، وحيث يسير جمعا على التوحيد وآخرين على الإشارك، جمعا بين ودته وتعدده، وجمعا بين إرساله رسل الخير النبيين ورسول الشر الشياطين، وذلك أقبح الافتراءات على رب العالمين و «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الله ورسول الله «حتى ذاقوا وبال أمرهم».

إن الحجج البالغة الإلهية على ما يحمله المرسلون شهادة ربانية على صدقهم، فمن هم شهداءكم على ما تدعون من أصول وفروع؟:

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠):

«قل» لهؤلاء المدعين الزور بكلّ تزوير وغرور لو كان لكم شهداء على ما تدعون «هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا» الذي تحرمون «فَإِنْ شَهِدُوا» فشهادتهم عاطلة باطلة إذ لا ترتكن إلى ركن وبق من علم أو اثاره من علم «فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ» إذ لم يوح إليك ما أوحى إلى شياطينهم «وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» في هذه الشهادة الزور فإنهم في ثالث منحوس: التكذيب بآيات الله قاعدته، ثم «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ- وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ»: تهديما لصرح التوحيد و النبوة و المعاد.

يعدلون بالله من خلقه ما يشتهون وهم بالآخرة هم كافرون وهم بآيات الله هم يكذبون! ذلك! فكيف تقبل شهادة الخائضين في ثالث الكفر، وليست لتقبل شهادة المؤمنين لو شهدوا بما يصاد ما أوحى إليك، فكما هم يتبعون أهواءهم لو شهدوا فأنت

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٤

متبع أهواءهم لو قبلت شهادتهم!

و إنها مواجهة فاصلة مستأصلة لمزاعم المتخلفين عن شرعة الله سواء المشركين الرسميين أو الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس افتراء على الله أم تشريعا مشاقا لتشريع الله بما لم يأذن به الله.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١):

هنا وفيما يتلو سرد مجمل جميل عن كافة المحرمات الأصلية والفرعية: الرئيسية في شرعة القرآن، وهي عشرة كاملة معظمها في صيغة النهي وأخرى في صيغة الأمر المستفاد منها النهي عن هذه، وهذه العشرة تحلّق على كافة المرفوضات والمفروضات في شرعة الله كضوابط رئيسية يستنبط منها كافة الفروع استفسارا لها من سائر القرآن ومن السنة، وقد تلاها الرسول صلى الله عليه و آله على جموع حيث عرض عليهم نفسه رسولا، كنموذج شامل عن رسالته القدسية*.

ف «قل» لهؤلاء وكلّ هؤلاء المكلفين على مدار الزمن الرسالي إلى يوم الدين «تعالوا» إلى كرسول من الله «أتلّ ما حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ»:

١- (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) - كما لم يشرك الله بنفسه شيئا- في أي من شؤون ربكم بواسع ربوبيته المحلّقة على كافة الشؤون الخاصة به، الخالصة له، تكوينا وتشريعا، خالقية ومعبودية أماهيه.

و «شيئا» هنا تستأصل أي شيء من شؤون ربوبيته عن أي شيء من خلقه ف «لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٥

تشركوا شيئا- به شيئا» اجتثا لكلّ بذور الإشراف بالله في كلّ دركاته، وحصيلته خالص التوحيد لله في كلّ درجاته، فعلى كلّ قدر إمكانيته طرد الإشراف بالله، وسرد توحيد الله في قاله وحاله وأفعاله «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى».

ذلك، فهي تبقية لضمير الفطرة على خالص التوحيد، وتنقية له من أو شاب الشرك، وتنقية العقل من أو شاب الخرافات، ومن تقاليد الجاهلية الجهلاء العمياء، وبصورة شاملة تحلية للحياة عن عبودية العباد تحلية لها بعبودية الله وده لا شريك له، فإن الشرك في كلّ صورة هو المحرم الأول حيث يجر إلى كلّ محرم، والمنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار له كله.

و ترى كيف يكون مما حرم عليكم ربكم «أَلَّا تُشْرِكُوا... وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» فهل عدم الإشراف هناك و فعل الإحسان هنا مما حرم عليكم ربكم؟.

و الجواب أولاً أن «حرم» تعني جعل الحريم، ثم بيّن ذلك الحريم بالنهي عن الحرام والأمر بالواجب، فلكلّ حريم بذلك التحريم. و ثانياً: «أتل» قد تعني تلاوة ما يبين المحرمات سواء أكانت بصيغة النهي كما في مناهيها، أم بصيغة الأمر كما في أوامرهما، وهما يجتمعان في بيان أصول المحرمات.

و لأن «الوالدين» هما المكمّن الأوّل للناشئة إيلادا بإذن الله، وتربية وترقية، فلهما الدور الثاني بعد الله: ٢- (وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) إذا فترك الإحسان بهما محرم، وليس فقط الإساءة إليهما، فهنا نعرف- كضابطة- أن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده العام وهو هنا ترك الإحسان، فإن أساء فمحظور مؤكّد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٦

و قد عد الإحسان بالوالدين في عديدة كهذه بعد النهي عن الإشارك والأمر بتوحيد الله ك «وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» (١٧: ٢٣)- (وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) (٣١: ١٤).

ذلك، لأنهما- الشاملين لوالدي الروح كالدعاة إلى الله ووالدي الجسم- هما مجريان لولادة الجسم والروحية الإنسانية السامية، فأفضل الوالدين هما النبي وعلي عليهما السلام* كما يروى عنه «أنا وعلي أبوا هذه الأمة».

٣- (وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ)- «وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانِ خِطَاءً كَبِيرًا» (١٧: ٣١) والإملاق هو الإنفاق أو كثرته لحد الافتقار، وهنا «من إملاق» تعني وقعه، أن تفل الإنفاق لحد الافتقار بحملكم على قتل أولادكم، ولكن المنفق عليهم في الحق هو الله «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ»، و قد يعني «من إملاق» خشيته إلى وقعه، كما و «حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ» قد تعني وقعه إلى خشيته، فلا الإملاق ولا خشيته بالذي يرر قتل الأولاد إذ إن أقصى التكليف هنا أن ينهي الإملاق إلى موت الأولاد جوعاً، فلما ذا تقتلونهم- إذا- أ خوفا من موتهم؟ وقتلهم أسوء حالا! أم خوفا من موتكم؟ فكذلك الأمر!، ثم الولد يأتي برزقه من الله، فتقله على الأرض ورزقه على الله.

و أصل الإملاق هنا وقعه الذي هو لآباء، فذلك يطمئن الآباء هنا قبل الأولاد، وأصله في الأسرى الخشبية التي هي في الأصل للأولاد، ولذلك يطمئن الأولاد هناك

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٧

قبل الآباء، ولأن الإملاق تستعمل لازماً ومتعدياً، فإملاق الأنعام لازم هو الإفلاس، وإملاق الأسرى متعد هو الإنفاق حيث يفلس. ٤- (وَ لَا تَقْرُبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ) و الفواحش هي المتجاوزة حدها أم إلى غير صاحبها، و وا ويلاه إذا اجتمع فيها التجاوزان لا سيما إذا تجاوزت إلى المجتمع تشنيعاً لها بينهم بتشجيع فهو- إذا- ثالث الفاحشة: تجاوزا حدها وإلى الغير ثم إلى المجموعة.

«ما ظَهَرَ مِنْهَا» حيث هو بالمرئي «وَ مَا بَطَّنَ» في الباطن كالفواحش العقيدية* أم «ما ظهر» على رؤوس الأشهاد مهما كانت تحديتنا عما بطن «وَ مَا بَطَّنَ» عن الأشهاد مهما كان ظاهراً في خفاء* وهما على أية حال تشملمان كافة الفواحش لمثلث الأقوال والأحوال والأفعال، باطنة في نفسها أو ظاهرة، متخفية أو متجاهرة، ما هي فواحش.

ثم «و لا تُقْرَبُوا» تأكيد للابتعاد عن الفواحش ألا تقترب إلى مقدماتها التي تجعلك تقتربها، فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى أو شك أن يدخل فيها، ففي مثل فاحشة الزنا يعني من قربها ما يقرب إليها من مقدمات وملابسات كالتيج والتهتك والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات والنبرات والضحكات المثيرة وكل الإغراءات والتزيينات والاستنارات والاستهتارات، فاتمها كلها مما تقرب إلى فاحشة الزنا. و هكذا سائر الفواحش العقيدية والأخلاقية والعملية، فردية وجماعية حيث القرب من مقدماتها يورد المقترَّب في أصولها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٨

٥- (و لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وهنا «إِلَّا بِالْحَقِّ» استثناء منقطع حيث المستثنى منه «النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» أو متصل إذا كان المستثنى منه فقط «النفس» وبالحق إن دور «بالحق» حظر عن قتل النفوس كضابطة، سواء التي تعلم أنها محرمة فقد حرّمها الله أصليا، أو التي لا تعلم أنها محرمة أصليا فإنها محرمة حسب ذلك الأصل: «إِلَّا بِالْحَقِّ» فما لم تحقق هدر دم وأن الحق هدره ليس لك أن تهدره.

و من الملاحظ في السياق القرآني أن هذه المنكرات الثلاث، نجدتها متلاحقة مع بعض، ولأنها متشاركة متشابهة في الأخطار، فالنفس المشتركة ميتة، والمجتمع الذي لا يحترم النفوس ولا يحترز عن الفحشاء ميت. فالأصل في النفوس الإنسانية الحرمة اللهم إلا ما خرج بدليل يحق الحق في هدرها، كالنفس القاتلة عمدا دون حق، أو الساعية في الأرض فسادا أو المرتدة عن الدين، أو المحصنة في زنا، و قد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله أنه «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان ونا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق»*.

ذلك ومن غريب الوفق عدديا في القرآن أن عديد الغضب والفاحشة بمختلف صيغهما مثلان فلكل (٢٤) وهذه لحة لطيفة بأتهما صنوان متماثلان حيث الفاحشة تستجر الغضب!.

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» - «ذَلِكُمْ» من محظور محظور «وَصَّاكُم بِهِ» ريكم توصية خاصة بين سائر التوصيات «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» وتربطون أنفسكم برباط التقوى، ضباطا عن الطغوى، عقلا عن الله ما يقيكم عن أصول المحرمات ومن ثم ما يليها:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٥٩

و لا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بَعْدَ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢): و هذه الأربع المتممة للخمس السابقة بواحدة تالية هي في عشرة كاملة، تكملة لعقبة الايمان أن تذكروها «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فنحافظ عليها.

٦- (و لا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»

و أحسن القرب هنا هو أحسنه نفعاً له وأقربه صالحاً لأجله، فلا يستدين الولي من مال اليتيم دون فائدة محللة، ولا يأخذ أجرة على عمل الولاية إلا إذا كان فقيراً فقدر الضرورة، ولا يبقى ماله دون عائدة «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» حيث يجب رده إليه وهو إنسان رشد منه وهنا يجوز القرب بالتي هي حسن كسائر الأموال لسائر البالغين لخروجه عن يتمه، وليس قرب الظلم فإنه محرم في أموال الناس ككل، و «أشده» جمع الشد هي شد الجسم والعقل والرشد، فلا يكفي بلوغه النكاح كما في آية النساء:

«وَ ابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» فحين يبلغ اليتيم أشده فلا يتم حتى يستمر «لا تَقْرَبُوا...»

فالقرب بالتي هي حسن كما السبي محذور حالة يتمه، ولكنه غير محذور بعد أشده، فبين القرب السبي والحسن والأحسن، يؤمر بالنسبة لمال اليتيم بالقرب بالتي هي أحسن، وينهى عن الحسن كما السبي، ثم إذا بلغ أشده يرفع الفرض عن الأحسن

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٠

إلى الحسن كطبيعة الحال في كل الأموال، ومن الأحسن «وَ مَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» حيث يجمعهما ترك المرسوم في مثله من عمل الولاية.

٧- (وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)

و هو هنا العدل وزيادة، إيفاء لما يكال أو يوزن في التعاملات، والقسط هنا هو معيار الكيل والوزن، حيث الإيفاء بغير معيار قد لا يكون إيفاء.

و ليس هذا الأمر وذلك النهي لإقدر الوسع: «لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»

و كما في سائر التكاليف الشرعية، حيث الضابطة الثابتة فيها هي قدر المستطاع، وهو هنا: «من أوفى على يديه في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيها لم يؤخذ وذلك تأويل وعها»*.

فقد تشمل قاعدة الوسع وسع الظروف في مختلف التكاليف، مهما كان موردها هنا التكليف بالنسبة لمال اليتيم وإيفاء الكيل والميزان بالقسط.

فكما لا يكلف المسلم في إيفاء الكيل والميزان إلا وعه، كذلك لا يكلف في مال اليتيم إلا وعه، فالولي الذي لا يسعه - لمكان فقره - ألا يأخذ من مال اليتيم قوته لا يكلف إلا وعه، وأما الغني فلا «وَ مَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ».

٨- (وَ إِذَا قُضِيَتْ فَاَعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) عدلا في القول أيا كان دون أي إفراط فيه ولا تفريط، وعدلا في المقول والمقول فيه، قولا له أو عليه «فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ»

المقول فيه «ذا قربي» دون إفراط في صالحه تفريطا على غيره، أو تفريطا فيه

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦١

إفراطا على غيره، حيث القرابة ليست بالتي تحوّل القول عن العدل، فالحق لا يعرف قريبا عن غريب، كما الباطل لا يعرف غريبا عن قريب، ففي حقل الشهادة وهي أخطر الحقول نجد الله تعالى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (٤):

(١٣٥).

و في حقل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» (١٦: ١٢٥) و هكذا الأمر في كافة الحقول قولا باللسان أم بالكتابة أم بالأركان، فالميزان الوحيد في الكل هو العدل، دون نقيصة فإنها الظلم، وإن كان مزيد فهو فضل.

٩- (وَ يَعْهَدِ اللَّهُ أَوْفُوا)

عهدا في الفطر والعقود والشرايع الإلهية، فيما عهده لنفسه علينا من توحيد وطاعته وعبادته، وهنا «بِعَهْدِ اللَّهِ» عهد علينا:

«أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (٣٦: ٦٠).

و عهدا منا له علينا وهنا «بِعَهْدِ اللَّهِ» عهدنا له علينا فيما سمح لنا:

«وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» (١٦: ٩١) - (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) (٢٣: ٣٣)، وعهودا فيما بيننا حيث

بمضيها الله وهنا «بِعَهْدِ اللَّهِ»

ما أمضاه بيننا، فيجيب الوفاء بعهد الله هو مثلثة الجهات كما العقود: «يا أَيُّهَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٢

الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» و «العهد»: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» (١٧: ٣٤).

ذلك، وفي تقديم الظرف: «بِعَهْدِ اللَّهِ»

على المظروف: «أوفوا» تقديم للزاوية العليا من مثلث العهود على الآخرين، أن نفي بعهدنا علينا ثم بعهدنا له، ومن ثم بعهدنا فيما بيننا، وقد سبق من عهد الله عهد التوحيد والإحسان بالوالدين وعدم القتل إلا بالحق وعدم قرب الفواحش وعدم قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن والإيفاء بالكيل والميزان.

«ذلكم» الأربع من أحكام الشريعة «وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

ما كتب في كتاب الفطرة والعقلية السليمة من الست الأصلية التي واكم به لعلكم تعقلون.

١٠- وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣):

«هذا» الذي واكم به من الخمس الأولى وهي النواميس الخمس والأربع الأخرى التي تكملها وهذا القرآن الحاوي لمسالك الهدى، «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي» الخاص بي للسالكين إليّ حالكونه «مستقيما» لا عوج له أصليا وفرعيا «فاتبعوه» فإنه السبيل المستقيم بين سائر السبل «وَلَا تَتَّبِعُوا» سائر «السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»:

الصراط المستقيم «ذلكم» الصراط الحق وحق الصراط «وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» سائر السبل، والسبل هي الطرق، ولا تفرق هي بهم، وإنما هم الذين يفارقون نهجها ويتبعون عوجها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٣

فصراط الله وحد والسبل إليه عدة هي درجات، وهذه سبل المؤمنين، ثم تقابلها سبل المغضوب عليهم والضالين، وهما المعنيتان بالسبل المنهي عنها في «لا تتبعوا».

و قد تعني «صراطي» إلى صراط الله صراط رسول الله إلى الله، فإنه من قوله حسب الأمر: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي» مهما كان الصراط هو صراط الله، ولكن الرسول الهادي اليه المهتدي به وهو على صراط مستقيم، له الصراط رسوليا و رساليا، كيف لا وهو من أنعم المنعم عليهم «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (٤: ٦٩).

و قد نستدعي ليل نهار أن يهدينا ربنا إلى صراطهم: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ».

ذلك ولكن نسبة الصراط إلى الله هي نسبة المسلك إليه، ونسبته إلى هؤلاء المنعم عليهم هي نسبته إلى سالكه، فصراط الله لنا هو الذي قرره لنسله إليه، وصراطه هو الذي نسله إلى الله.

إذا ف «صراطي» نسبة إلى الله هو الأول، ونسبة إلى الرسول هو الثاني، ثم ونسبة إلى سائر السالك ليست إلا على ضوء صراط الرسول بما يهدي الله، وصراط الرب في ربوبيته خاص به لا يعدوه إلى سواه «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» والصراط إلى الرب خاص بالمربوبين لا يعدوهم إليه.

في هذه العشر مما «حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» لا نجد صراح النهي التحريم إلا في خمس هي الإشراك بالله وقتل الأولاد من إملاق وقرب الفواحش وقتل النفس

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٤

المحترمة وقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، كأكبر الحرمات في حقل العقيدة والنفس والعرض والمال والعقل، وهي النواميس الأصلية التي يجب الحفاظ عليها في كافة الشرائع الإلهية.

ثم الخمس الأخرى لا تدل على التحريم إلا بصيغة إيجاب أضدادها «و بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا- وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ- وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

- وَ بَعْدِ اللَّهِ أَوْفُوا- وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَأَتَّبِعُوهُ» إذا فالحرم فيها ترك الإحسان بالوالدين، و بخص المكيال و الميزان، و ترك العدل في القول، و نقض عهد الله، و اتباع سائر السبل، مما يدل على أن الأمر بالشيء لزامه النهي عن ضده العام، وأن هذه تكملة للנוاميس الخمس.

و في كل من هذه النواميس الخمس سلب وإيجاب، فالسلب في ناموس العقيدة «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»- «وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» و الإيجاب «وَ بَعْدِ اللَّهِ أَوْفُوا»

- «وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»- «وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي...»

و السلب في ناموس النفس «لا تقتلوا» ومن إيجابه «إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا»

و السلب في ناموس العرض «لا تفرطوا الفواحش» ومن إيجابه «إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا»

و السلب في ناموس المال «لا تفرطوا مال اليتيم»

و إيجابه «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ» ثم الإيجاب في ناموس العقل هو الإيجاب في النواميس الأربعة الأخرى ف «ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٥

ثم «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» بعد أقسام، و «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» بعد العاشرة، تذكرة لإيجاب الواجب وترك المحرم، و اتقاء عن المحذور في ترك الواجب و فعل المحرم.

ذلك، فهذه الآيات الثلاث موقف عظيم في القرآن العظيم يتطلب الرسول صلى الله عليه و آله أن يبايع عليها في قوله: «أباكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث»*.

أجل «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...» «فاعلموا أنما السبيل سبيل وحد جماعه الهدى ومصيره الجنة وأن إبليس اشترع سبلا متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار».

ولقد «خط رسول الله صلى الله عليه وآله خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ الآية*».

و هكذا نختم السياق الطويل من السورة الذي بدء بقوله تعالى «أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتَّبِعِي حَكَمًا...» ضما بين هذا المبدء وذلك الختام بقضية الحاكمية والتشريع، فإن الصراط المستقيم كمادة الدعوة هو القرآن العظيم، وكداعية هو الرسول صلى الله عليه وآله ومن يحذو حذو الرسول كالأئمة من عترة الرسول عليهم السلام، فإنهم السبل إلى رسول الله كما هو السبيل إلى الله، فلمتخلف عنهم متخلف عن سبيل الله قدر تخلفه فإنهم أبواب علم رسول الله صلى الله عليه وآله.

و كما يروى عنه صلى الله عليه وآله قوله: «معاشر الناس أنا صراطه المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم علي من بعدي ومن ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون»*.

ذلك، ولصراط الله منعة تمنع عن التفرق والانزلاق والانحياق، كما ولسائر السبل

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٦

منعة تمنع عن الانسلاخ إلى صراط الله ف «لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» المختلفة عن سبيل الله «فَتَفَرِّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ».

صحيح أن سبيل الله أيضا سبل ولكنها سبل تنتهي بسلاقتها إلى الصراط حيث الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٥: ١٦) - (وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» (٢٩: ٦٩) ثم المسلك النهائي لهذه السبل: «و يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فأين سبل الظلام التي تتفرق بكم عن سبيله من سبل السلام التي توصلكم إلى سبيله؟.

ذلك، وفي نظرة أخرى شاملة إلى هذه الآيات الثلاث نجد أنها تحمل أحكاما تشترك فيها كل شرائع الدين، ومثلت التعبير ب «وصاكم» فيها قد يشير إلى ذلك الاشتراك وكما في آية الشورى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّينا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ موسى وَ عيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...»

(٤٢: ١٣) فإن في هذه الوصايا العشر نجد أصل الدين ككل، ففيها الحفاظ عليه كأصل.

ثم وتذييل الآية الأولى ب «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» علله لأن ما تشمله من حرمانات هي قضية أصيلة للفطرة والعقلية الإنسانية غير المعقولة بعقالات الهوى.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٧

و تذييل الثانية ب «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» يعني تذكّر ما في الفطرة والعقل بتأمل فإن ما تحمله ليست كما الأولى في ظهورها وبهورها، فقد يحتاج في عقلها بتعبئة العقل بتذكر وتعمل وتأمل.

و تذييل الثالثة ب «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» يعني وقع التقوى الحاصلة بذلك التعقل والتذكر، اتقاء عما يخالف الفطرة والعقلية الصالحة، وكل ذلك بذلك الوحي المنيف، اجتماعا لمثلث الوحي فطرة وعقلية وشرعة، والأخيرة هي المكمل لما في الأولين.

فقد يكون الإنسان على صراط التقوى ما دام هو في صراط التعقل والتذكر، تبنياً للفطرة كأصل أول، وللشريعة كأصل آخر، فبينهما التعقل والتذكر، عقلا عن كلا الفطرة والشريعة، وتذكراً لأحكامهما حسب المستطاع والمقدرة، ف «لا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤):

ترى ما هو دور «ثم» هنا و «تعالوا أنزلوا» تلاوة قرآنية ليست إلا بعد «آتينا موسى الكتاب»؟ اللائح من «أنزل ما حرم ربكم عليكم» .. كما سبقناه أن هذه التلاوة تحمل إجمالاً عن كافة شرائع الدين، المتلوة على كافة الأمم الرسالية، وحيث لا يحمل تفصيلها في

هذه الخمس لإشريعة التوراة ومن ثم القرآن، فقد تعني «ثم» تراخي التفصيل في هذين الكتابين عن الإجمال المتلو هذه العشرة الكاملة.

ف «ثم» بعد تقرير هذه العشرة من أصول التشريعات المشتركة بين كل الشرائع «آتينا موسى الكتاب تماماً» دون نقصان كتفصيل أول

للروح الزماني الخاص للشريعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٨

التوراة «تماماً على الذي أحسن» الله من إجمال هذه العشر، تماماً على قراره وقراره لموسى، فهو تفصيل أول تام على ضوء ذلك

الإجمال الهام، و «تماماً على الذي أحسن» محمد صلى الله عليه و آله من تلاوة ما حرم عليكم، و «تماماً على الذي أحسن» موسى

من جهاده في رسالته وجهوده و «تماماً على الذي أحسن» من بني إسرائيل في تطبيق هذه النواميس العشرة، كما «و كتبنا له في

الألواح من كل شيء مؤعظة و تفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة و أمر قومك يأخذوا بأحسنها» (٧: ١٢٥) فإن أحسنها هذه

العشرة.

و «تماماً على الذي أحسن» هنا تطبيق لما ود المحسنين من ذي قبل: «و ادخلوا الباب سجداً و قولوا حطة نغفر لكم خطاياكم و

سنزيد المحسنين» (٢: ٥٨).

و «تماماً على الذي» هو «أحسن» مما سبقه من كتابات الوحي، فإن فيها تماماً للنواميس العشرة حسب الحاجات في أدوارها، ولكن

الشريعة التوراتية هي تمام أحسن من التمام في سائر الكتب السابقة عليه.

ذلك وقد تعني «تماماً على الذي أحسن» خماسية الأحسن قضية حذف الفاعل والمتعلق، فذلك الجمع الخماسي هو تمام على الذي

أحسن في أدب اللفظ وحذب المعنى.

ف «الكتاب» هنا على أية حال يحمل أول تمام لتفصيل النواميس العشرة «تفصيلاً لكل شيء» منها دون إبقاء، «تفصيلاً» أول كما

يناسب الروح الزماني للشريعة التوراتية «و هدى» للعالمين «و رحمة» لهم كما يقتضيه ذلك الدور المحدد «لعلهم بقاء ربهم يؤمنون»:

لقاء معرفياً وعبودياً هنا، فلقاء يوم الحساب للثواب

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٦٩

والعقاب، وفي «لعلهم ..» تعريض بني إسرائيل حيث أنكروا لقاء الله لحدّ حذفوا آيات القيامة عنها اللهم إلا شذرة مشيرة!

ذلك، وكما نرى الشريعة التوراتية ترتكن على النواميس العشرة مهما وحت لها فروعاً هي المعنية ب «و تفصيلاً لكل شيء» و ليس

الإنجيل شرعة جديدة بعد التوراة اللهم إلا في تحليل ما حرم فيها عقوبة كما مضت «و لأجل لكم بعض الذي حرم عليكم».

لذلك لا يذكر الإنجيل هنا بعد التوراة في حقل التفصيل، وكما لم يذكره الجن الذين استمعوا القرآن إذ «قالوا يا قومنا إننا سمعنا كتاباً

أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق و إلى طريق مستقيم» (٤٦: ٣٠) فإنما يذكر القرآن هنا و هناك دون

فصل.

أجل «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا...» إichاء بأن هذا الصراط المستقيم ممتد من ذي قبل في كلِّ رسالات الله، وأتم شرعة من ذلك الصراط قبل شرعة القرآن هي التوراة، ثم القرآن تكملة له وتكملة لسائر الشرائع كما يحق ويمكن، حاملا في صرحه لبنات الخلود دون زوال ولا اضمحلال:

وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥):

أف «هذا» القرآن «كتابٌ أنزلناه مباركٌ» كبركة التوراة دون زيادة عنه؟

إذا فلا جديد فيه حتى يتبع بعد التوراة ما فيه! إنه «مبارك» بصورة طليقة تخلق على أرض التكليف جغرافيا وتاريخيا إلى يوم الدين، فأين مبارك من مبارك، وليس «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» إلآلذلك المبارك لما انقضى دور الأول؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٧٠

و قد «يمثل القرآن» على ما يروى من رسول القرآن حجة للمؤمنين به وحجة على الكافرين به والتاركين «١».

لقد أنزل ذلك الكتاب المبارك قطعا لأية حجة وبيّنة طليقة من الرب حليقة على كلِّ الطلبات، حقيقة بالاتباع إلى يوم الدين:

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦):

و الطائفتان المنزل عليهما الكتاب المفصل بعد إجمال النواميس العشرة هما اليهود والنصارى، وهذه دلالة ثالثة قرآنية على أن التورات كتاب شرعة أحكامية لكلا اليهود والنصارى، كما وهو للعالمين أجمعين حتى زمن نزول القرآن.

فاختصاص نزول الكتاب المفصل بطائفتين دون نزول ثان على الأميين وهم قوم لآ ليسوا ليحتوا إلى كتاب أنزل على غيرهم، ذلك حجة قد تقطع عذرهم عما هم «وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

(١). الدر المنثور ٣: ٥٦- / اخرج ابن أبي شيبة و ابن الضريس عن أبيه عن جده سمعت رسول الله (ص) يقول: يمثل القرآن يوم القيامة رجلا فيؤتى الرجل قد حمله فخالف أمره فينتل له خصما فيقول يا رب حملته إياي فيئس حاملي تعدى حدودي وضيع فرائضي و ركب معصيتي و ترك طاعتي فما يزال يقذف عليه بالحج حتى يقال فشأنك فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار و يؤتى بالرجل الصالح قد كان حمله و حفظ أمره فينتل خصما دونه فيقول يا رب حملته إياي فحفظ حدودي و عمل بفرائضي و اجتنب معصيتي و اتبع طاعتي فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له:

شأنك به فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق و يعقد عليه تاج الملك و يسقيه كأس الخمر».

أقول: هي كما يقول الله «لا غول فيها و لا تأثيم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٧١

هُدًى وَ شِفَاءً» (٤١: ٤٤) (وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) (٢٦: ١٩٨).

و ترى كيف يصدق «أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا» والتوراة شرعة عالمية؟ ذلك تحيل منهم وكثير هؤلاء الذين يعيشون هذا التخيل رغم نصوص القرآن بأهميته التوراة، أو اعتذار أن محور الدعوة التوراتية هم طائفتان من قبلنا، ولغتهم غير لغتنا، ودعوتها- على أية حال- ما ولت إلينا «وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ» كيفما كانت الغفلة، تقصيرا من حملتها حيث لم يبلغوها إلينا أم بلغوها محرفة عن جهات أشرعها.

لا سيما «وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ» لهذا الكتاب «لغافلين» فقد درسوا الكتاب النازل عليهم صالحة أم طالحة ونحن عنها غافلون إذ لم تصل إلينا من دراستهم شيء إلا إنذار رسالة بتحريفات وتجديفات، فكيف نكلف بكتاب ما ولت إلينا دعوته إلا محرفة مزورة لا تكفيها الآن حجة فضلا عن الغافلين، وحتى لو كانت غفلتنا معمدة فنحن الآن حيارى إذ حرفوا الكتاب فلا يفيدنا- إذا- كما لا يفيدهم، فلندكر بكتاب لا يحمل ما حملته التوراة من تحريفات وتجديفات: «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (١٦: ٤٤) (وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١٦: ٤٤).

ذلك، وحتى لو كانت التوراة نازلة علينا كما لهم فواقع التحريف فيه يفرض تجديد الوحي مع جديد استمراره واستقراره واستقطابه كافة المكلفين إلى يوم الدين، فهاتان حجتان اثنتان، ثم ثالثة:

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ١٣، ص: ٤٧٢

عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧):

«وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ» لو لم ينزل عليكم القرآن «لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ»

«وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَعِنَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا» (٣٥: ٤٢).

ذلك، ولا تختص تلك الأعداء بالأميين العرب، المخاطبين الأول بالقرآن، بل هي تحلق على كافة المكلفين، لمكان تحرف التوراة فلا تظل حجة على الأجيال، وأنها تحمل من أحكام مؤقتة لا تتحمل لقضية الخلود، وإنما يذكر هنا أعداء الأميين لأنهم هم المواجهون الأولون لوحي القرآن، فلتقطع أعداء الحملة الأولى لهذه الرسالة القرآنية ومن ثم العالمون أجمعون.

ذلك «فَقَدْ جَاءَكُمْ» عربا وسواهم آية «بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» تحمل كافة البينات: «أَوْ لَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى؟» (٢٠: ١٣٣) بينة ليست فوقها بينة «من ربكم» على مدار الزمن الرسالي ككل «وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ» تحملان كل هدى الله و رحماته، إذا «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ» هذه البينات القاطعات لكل الأعداء «وَ صَدَفَ عَنْهَا» منعا وإعراضا شديدا مديدا وإعراضا لأنفسهم وإعراضا لآخرين، حيث الصدف هو المنع والإعراض، «سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا» أيا كان وأيان في حقل القرآن «سنجزى» «سوء العذاب» هو دقيقه دون رقيقه، فإن دقيقه عدل ورقيقه فضل وهم أولاء الأُنكاد يستحقون فضلا وإن في العذاب «بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ» ويعرضون.